I REMES

إيلكا ريميس

النسر يهبط

PAHAN PERIMÄ

مكتبة الرمحي أحمد ٨٥

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



النسر يهبط

PAHAN PERIMÄ

رواية

I REMES

إيلكا ريميس

ترجمة

عبد الرحمن النجار



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الطبعة الأولى
2015 م - 1436 هـ

ردمك 5-1679-01-614-978

القسم الأول


mohamed khatab

(1)

بـدا المبنـى ذو الطوابـق الثلاثة كما كان رولـف ويليامز يتذكره بالتحديد؛ باستثناء لوحة عليها عبارات ظهرت بجانب المدخل الرئيس.

اسـتضاف هذا المبنى مؤسـسـة القيصر ويليام لعلم الإنسـان وعلم الوراثة وعلم تحسـين النسـل بين عامي 1927 و1945؛ حيث جرى تنفيذ برنامج علم تحسـين النسـل الخاص بالاشـتراكيين القوميين تحت قيادة البروفيسـور يوغن فيشر والبروفيسور أوتمار فون فيرشور...

كان النـص الـذي كتـب على اللوحة واضحـاً، وقد كُتب بحروف برونزية ظلت على حالها.

قـاوم رولـف رجفـة الهلـع التـي سـرت فـي أوصاله، ووقـف يحدق إلى الكلمـات التاليـة: جـرت اختبـارات في هذا المبنى على أعضاء بشـرية أجراها جوزيف منغيل؛ المساعد السـابق في القسـم...

نظـر رولـف إلـى الأسـفل، فالتقت عيناه عيني صبي ظهر بجانب سـيارة الأجـرة التـي كان يسـتقلها. تجنـب نظـرات الصبي إليه بتلقائيـة، وقرأ ما كتب على اللوحة الزرقاء المعلقة على الجانب الآخر من الباب المؤدي إلى داخل المبنى، والتي أشارت إلى شاغل المبنى الحالي.

جامعة برلين الحرة.

أجفـل رولـف مـن نظـرات الفتى ذي الشـعر المجعد الحـادة والصارمة. أشـعره بنطالـه الصوفـي بالـدفء. إذ كان فصـل الخريـف قد حـل عندما غادر سـتوكهولم، لكـن مطـار تيغيـل كان دافئـاً ومعتمـاً ورطبـاً بشـدة. ورغم ذلك، شعر بلسعة برد؛ فوجوده في داهليم أو في أي مكان بالقرب من برلين يجعله مضطرباً أكثر مما توقع.

استقبل هاتف رولف رسالة نصية جديدة، فأخرجه من جيبه بينما كان يهم

بالعودة إلى سيارة الأجرة.

«هل كل شيء على ما يرام؟ اتصل بي».

مسح رولف رسالة ابنه بانزعاج؛ إذ لم يكن يشعر بأنه بحال جيدة تماماً، لكنه أيضاً لم يشعر بأنه بحاجة إلى من يراقبه. فقد كان يقضي نصف العام في السفر عندما كان إيريك رضيعاً، وفي العام الماضي قام برحلتين طويلتين؛ مما يجعل زيارته إلى برلين تبدو وكأنها نزهة قصيرة.

قال رولف للسائق بالألمانية: «تحرك رجاءً». كان لا يزال يشعر بالغرابة عندما يتحدث بالألمانية. لكن الكلمات والجمل كانت تخرج من فمه بسهولة؛ على الرغم من أنه لم يتحدث بهذه اللغة منذ عقود.

كانت نشرة الأخبار تُتلى عبر المذياع: «الرئيس بوش يتهم العراق بدعم تنظيم القاعدة الإرهابي، والمساهمة في هجمات الحادي عشر من سبتمبر في العام الماضي في نيويورك. حيث صرح أن صدام حسين هدف هام في حرب الولايات المتحدة العالمية على الإرهاب، وأن الولايات المتحدة تشتبه بأن العراق يعمل سراً على تطوير أسلحة دمار شامل قد تُستخدم في ارتكاب هجمات تسبب دماراً أكبر في الولايات المتحدة أو أوروبا...»

كان رولف يشعر بعدم الراحة حين تُذكر أسلحة الدمار الشامل.

سلكت سيارة الأجرة الطريق الضيق المار عبر غابة ليتشتنريد المورقة، فيما كانت الأمطار الخفيفة تتساقط من السماء الغائمة والكئيبة. وقد أمسك رولف بقلق بقصاصة ورق دُوِّن عليها عنوان كاثرينا.

ازداد توتره عندما عبرت سيارة الأجرة ساحة عشبية تظللها أشجار الزان العملاقة. كانت دار رعاية المسنين تقع في مبنى متعدد الأجنحة بُني في القرن التاسع عشر من الطوب الأحمر، وكانت التعريشات الذابلة تغطي جدرانه. وقد أُلحِقت بالمبنى غرفة على شكل صندوق مغطاة ببلاطات الأسبستوس معينة الشكل وقد كستها الطحالب.

دفع رولف للسائق أجرته، وتوجه نحو المدخل الرئيس. تحرك ببطء وهو يتصبب عرقاً من شدة التوتر، وصعد السلم الحجري إلى الدور العلوي، وهو

يمشط بيده شعره الخفيف. هل ستصاب كاثرينا بصدمة لدى رؤيته وقد أصبح كهلاً، بينما تحتفظ ذاكرتها بمظهره وهو في ريعان الشباب؟

كانت المرة الأخيرة التي رآها فيها قبل 40 عاماً، ولكنه لم يكن يرغب بالتفكير في ذلك الآن. فكلاهما ارتكبا أخطاءً جسيمة في حياتيهما. ولكن، ألا يمكنهما التصالح؟ ألا يجدر بهما ذلك؟

ضغط رولف على جرس الباب وقلبه يخفق. كانت الأعشاب الضارة قد نمت في صناديق مزخرفة بالورود في أعلى الدرابزين.

لقد فاجأته تماماً رسالة كاثرينا التي استلمها قبل شهر؛ بضعة أسطر تحمل كلاماً جدياً، وتحمل رغبة في اللقاء. في البداية، قرر ألا يرد عليها، لكن حديث النفس كان لا يقاوم؛ إذ لم يستطع ترك الأمور بلا إيضاح، ليس الآن وقد باتت هناك فرصة للحديث عنها.

ضغط رولف على جرس الباب مجدداً، ولمدة أطول هذه المرة، وعدّل جهاز العون السمعي الخاص به، ثم اختلس النظر عبر الزخارف الحديدية التي تغطي النافذة الموجودة بجانب الباب، وبعد ذلك ضغط على الجرس مجدداً.

اقتربت امرأة ترتدي فستاناً أبيض من الباب، وذراعاها متدليتان إلى جانبيها.

تراجع رولف إلى الوراء، وفكر للحظة في ما يتعين عليه فعله، ولكن بعد ذلك طقطق صوت القفل وانفتح الباب. كانت المرأة المسنة ترتدي زي الممرضات الأبيض، وقد أفرطت في وضع مساحيق التجميل، وبدت شديدة السمرة.

«ماذا تريد؟». سألته بشفتين رفيعتين مطليتين بدقة.

«جئت لرؤية كاثرينا جلوغر».

حدقت الممرضة إلى رولف بتمعن، ثم قالت بالألمانية: «السيدة بلوغر!؟».

ثم تنحت جانباً على مضض.

خطا رولف إلى المدخل البارد والمعتم الذي كان يؤدي إلى درج واسع، منحوتة على جانبيه أشكال غريبة.

لاحظ رولف نظرات الممرضة الفضولية، لكنه لم يجب عن أي من استفساراتها التي لم تبح بها.

«من هذا الاتجاه». قالت وهي تتقدمه وتخشخش بكدسة من المفاتيح التي تحملها.

مشيا في رواق ضيّق وباهت الإضاءة، تصطف على جانبيه أبواب أكل عليها الدهر وشرب. وكانت رائحة محلول التنظيف النفّاذة تعبق في الرواق، فيما توتر رولف يزداد مع كل خطوة يخطوها.

رن هاتفه، وبدت الضوضاء التي يصدرها الهاتف وكأنها تزداد بسرعة زيادة توتره نفسها.

إنه إيريك مجدداً بلا شك. ألا يستطيع ترك أبيه بسلام للحظة واحدة؟!

توقفت الممرضة أمام باب رمادي وأخرجت مفاتيحها.

سألها رولف: «لماذا الباب مقفل؟».

فتحت الممرضة الباب، فوقف رولف للحظة مستجمعاً شجاعته، ثم خطا بتردد في الغرفة مرتفعة السقف، بينما غادرت الممرضة.

كان شجر البلوط كثيفاً خارج النافذة؛ مما جعل المكان يبدو خافت الإضاءة. وقد انبعث من مصباح عتيق موضوع على طاولة ضوء أصفر. كان الفراش خالياً، والغطاء الوردي البالي مفروداً وغير مثني.

وفي ركن الغرفة، عند حافة دائرة الضوء المنبعث من المصباح، وُضع كرسي بذراعين. حاول رولف أن يقف منتصباً، وأن يرسم تعبيراً منتعشاً وودوداً على وجهه.

وثبت نظراته على المرأة الجالسة على الكرسي.

سرت موجة من الهلع في جسده. فقد بدا وجه المرأة كجمجمة تغطيها طبقة رقيقة من الجلد، وقد نمت من فروة رأسها بضع خصلات من الشعر. حركت رأسها ببطء ناحيته، فوقع الضوء على وجهها. حدقت عيناها الغارقتان في محجريهما به؛ عينان بنيتان لونهما باهت.

عينا كاثرينا.

حاول رولف جاهداً إخفاء صدمته، وخطا بحذر صوب الكرسي.

نظرت كاثرينا إليه عن قرب، ورفعت يدها اليمنى ببطء. كانت أصابعها نحيلة ومتصلبة.

«رولف... يا إلهي... ماذا جرى لك؟!».

بدا صوتها قوياً على نحو مفاجئ. «هل أمسكوا بك في نهاية المطاف؟». ثم انخفض صوتها وهمست: «ماذا فعلوا بك؟ يبدو مظهرك فظيعاً».

نظرت فجأة نحو الباب قائلة: «هل يلاحقونك؟».

«كلا يا كاثرينا...»

«لقد كنت خائفة طوال الطريق من ميونيخ...». قالت ذلك بصوت مرتجف.

انحنى رولف ببطء ليحضنها عاجزاً عن النطق؛ انحنى رغم معاناته من آلام في الظهر.

بدت المرأة هشة كالعصفور وعنيدة. كانت صدمته قوية؛ فهو بالكاد يتذكر آخر مرة احتضن فيها كاثرينا. كانت حينها امرأة قوية.

جذبت أصابعها النحيلة والباردة رأسه أكثر فأكثر نحو خدها، وقد فاحت منها رائحة الصابون. تلامست بشرتاهما، وضغط كل منهما وجهه على وجه الآخر. ظل رولف منحنياً على الرغم من آلام ظهره.

«ممّ تخشين يا كاثرينا؟».

واصلت الجلوس بصمت وهي تمسك به بإحكام.

«آه يا رولف». قالت ذلك وتنهدت بحسرة.

حاول أن يسحب نفسه من بين يديها، لكنه فوجئ بثباتها.

«آه يا رولف». قالت مجدداً، ولكن بصوت أجشّ أكثر هدوءاً، وقد خفّفت من ضغط قبضتها عنه أخيراً. «لقد مررت بأسابيع صعبة في ميونيخ؛ كمية عمل هائلة. فطلبات الدكتور ستراغهولد والدكتور راف كثيرة».

تحرك رولف ببطء نحو الكرسي المقابل لها. لقد كان يخشى من عدم قدرته على كتمان ما يموج داخله من مشاعر؛ على الرغم من أنه من الصعب أن تلحظ كاثرينا ذلك.

واصلت حديثها: «لقد كانت الحرب الجوية تنقلب ضدنا، وكان غورينغ يستخدم طرائق جديدة للحد من هزيمتنا. وعلى أمل أن يساعدنا العلم، كانوا بحاجة إلينا».

سرت موجة من الشك عند رولف. يستحيل أن تكون كاثرينا قد كتبت إليه من السويد، لا بد أن شخصاً آخر قد أرسل له الرسائل.

كلا، كان من المفزع التفكير في ذلك حتى. ولكن الأيام الماضية التعيسة، تلك الأيام التي لم يرد التفكير فيها لم تكف عن محاولة العودة إلى ذاكرته. كان مضطراً إلى الاحتراس وقتها أيضاً وهو يتفحص كل إشارة، ويحاول معرفة نوايا الناس، وكان خائفاً دائماً...

انحنت كاثرينا مقتربة منه وهمست بصعوبة: «إلى أي ارتفاع يمكن لطياري سلاح الجو الألماني الوصول والنجاة؟ ما الإشارات التحذيرية التي تبيّن أن الهواء قليل جداً، وأن ملاّح الطائرة سيفقد وعيه؟».

لم يقوَ رولف إلا على سماع ما يدور في رأسه من أسئلة: من أرسل الرسائل؟ ولماذا؟

«بتنا نعرف الآن». قالت كاثرينا ذلك وهي تنظر إلى عينيه مباشرة، وقد بدت فجأة أكثر هدوءاً مما كانت عليه. «لقد أنهينا الجدول في الأسبوع الماضي، وأرسلناه إلى الدكتور ستراغهولد. جرى ملء 964 عموداً، ووضعت أرقام دقيقة على بطاقات مؤشرات. لقد توقعوا منا تحليلها كلها وهكذا فعلنا».

هل يحتمل أن تكون كاثرينا قد ضاعت بين ذكرياتها لبعض الوقت؟

هل يمكن أن تكون قد كتبت له في لحظات صفاء ذهني؟

«لقد زودنا سلاح الجو بغرفة منخفضة الضغط صممها راف». قالت كاثرينا بحماسة. «جرى وضعها في مؤخر شاحنة، حيث يمكن تقليل الضغط إلى مستويات تقترب من تلك السائدة على ارتفاع 20 كيلومتراً».

انجذب انتباه رولف رغماً عنه إلى ما تقوله كاثرينا التي كانت تحدق إليه من دون أن تطرف بعينيها.

«لا يفترض بي الحديث عن هذا، لكنني مضطرة إلى ذلك؛ فأنا نادراً ما

ألتقي أي شخص أعرفه... كانت البطاقة الأولى هي الأكثر صعوبة؛ فقد كانت تخص شاباً غجرياً لطيفاً ومسالماً. وكنت أشاهد عبر نافذة المراقبة الصغيرة برفقة الدكتور راف الشاب الذي كان يقف في الغرفة وهو في حالة هلع شديدة، وأدوّن كل ردود أفعاله».

تحدّثت كاثرينا بهدوء، لكن طرف فمها بدأ في الارتعاش. «كلما نقص الهواء في الغرفة، بدا أنه سيفقد صوابه. وقد قام بشد شعره وخدش وجهه، وضرب الجدران بيديه وأخيراً برأسه، وذلك في محاولة للتخفيف من الضغط على طبلتي أذنيه».

أخذ رولف نفساً عميقاً. أراد أن يضع يديه على أذنيه ويصرخ ويضربها ويهرب بعيداً؛ يهرب بعيداً مجدداً. لطالما كان بارعاً في ذلك.

فجأة، أصبحت نبرة كاثرينا جدية: «نظرت إلى مقياس الضغط، ودونت المستوى الذي أدى إلى انفجار طبلتي أذنيه، وفقدانه وعيه، ثم موته. فقد تسبب فراغ حيز الغرفة من الهواء في انهيار رئتيه في نهاية المطاف».

وفجأة، سيطرت عليها صدمة عصبية: «لقد نسيت الأرقام. كل تلك الأرقام ثمينة كالذهب، لقد نسيتها، ولكنها بحوزة الدكتور راف... وسيقوم بإرسالها إلى ستراغهولد. البطاقات والجداول في مأمن، أليست كذلك؟».

ودّ رولف لو كان بإمكانه وضع يده على فمها وهزها بعنف. لمَ لا تصمت هذه المرأة؟

أومأ برأسه بصعوبة: «بالطبع. ستراغهولد يتكفل بكل شيء. لقد رأيت الجداول بنفسي، ولا أحد يتوقع منكِ تذكر كل تلك الأرقام».

«لن أكون قادرة على تدوينها بعد الآن. فأصابعي لن تطيعني، فقد غدت متصلبة للغاية». ضحكت كاثرينا، ونظرت إلى يديها وكأنهما جسمان غريبان. «لا أفهم ذلك. فعلى متن القطار الذي ركبته من ميونيخ، كنت لا أزال قادرة على أن أكتب لأمي...»

قاطعها رولف: «انتظري هنا، عليّ أن أتحدث إلى شخص ما».

وهمّ بالنهوض عن كرسيه، لكنها منعته.

«لا تذهب. فأنا أرغب في التحدث إليك... لا أعلم إن كنتُ قد بذلت قصارى جهدي كباحثة. فقد أردت أن أحوز ثقة الدكتور ستراغهولد، لكنني أجهل إن كنت قد نجحت في ذلك».

«لقد نجحتِ يا كاثرينا». أمسك رولف بيدها وضغط عليها برفق. «لقد نجحتِ بشكل رائع. ألا تذكرين ما حدث لاحقاً؟ أريد منكِ أن تعرفي شيئاً... لا أود أن أحمل معي هذا إلى قبري. ثمة تسجيل يروي كل شيء بلا استثناء. أعرف أنني قد وعدتكِ، ولكن...»

بدت كاثرينا مستيقظة فجأة، وكأن نظرها قد أصبح واضحاً فجأة، وقالت: «اختبارات البرودة... أتذكر تلك الأرقام. ارتدى شاب بذلة طيار، ثم أُنزل في ماء مثلج لمدة 55 دقيقة إلى أن فقد وعيه... واضطرب نبضه وتقطعت أنفاسه... بدأ البياض يغطي جسده من أصابع يده وحتى قدمه مسبباً له الألم...».

ترك رولف يديها بلطف؛ رغم أنه كان يأمل بدفعها بعيداً، وبالهرع نحو الخارج، وبعدم العودة أبداً.

«لا تذهب... إلى أين ستذهب؟». كان صوت كاثرينا متوتراً وأجشّ، ووجهها يعلوه القلق. «إلى إنغريد؟ هل ما زالت...».

«سأعود في الحال». وتوجه رولف صوب باب الغرفة وأدار المقبض، لكنه كان مقفلاً.

رن الهاتف في جيبه مجدداً. وقد أقبلت كاثرينا نحوه بتردد وبخطى متعثرة. طرق الباب بشدة بيديه حتى آلمتاه.

وسألها: «لماذا الباب مقفل؟».

«أخبرتك بأنه مقفل دائماً. إنّهم لا يسمحون لي بالخروج من هنا».

عاد رولف أدراجه إلى وسط الغرفة للضغط على زر الطوارئ الموجود بجانب الفراش. لكن طرقه الشديد كان قد لقي استجابة بالفعل، إذ فتحت الممرضة الباب قائلة: «ما الأمر الطارئ هنا؟».

خرج رولف إلى الممر وهو يشعر بالارتياح، فيما أغلقت الممرضة الباب خلفه.

«هل هي على هذه الحالة دوماً؟». سألها بصوت لاهث ومرتجف. «هل هي عالقة في الماضي على الدوام؟».

«لقد بدأت العمل هنا قبل 12 سنة، وهي على هذه الحالة منذ ذلك الحين. على أية حال، لقد افترضت أنك على علم بحالتها».

هرع رولف نحو البهو. لم يفهم قط كيف تمكنت كاثرينا من ارتكاب مثل هذه الفظائع عندما كانت طبيبة شابة. هل كان مغفلاً عندما وقع في شبابه في حب مخلوقة بلا مشاعر؟ إنه لا يتذكر شيئاً من تلك الأيام يدعم هذه الفكرة. ربما يصدق أن إنغريد قد تفعل ذلك أما كاثرينا فلا.

خلال الحرب، لم يكن رولف على علم بتفاصيل عمل كاثرينا. فقد اتضح له الأمر فقط في الولايات المتحدة. فقد أفلت ستراغهولد من الإدانة في المحاكم – على عكس تلميذه راف – وذلك لأن الجيش الأمريكي وضعه تحت حمايته. وقد التقى رولف ستراغولد مجدداً في الولايات المتحدة بسبب عمله؛ إذ أصبح الرئيس السابق للفريق الطبي الخاص بطياري القوات الجوية التابعة لألمانيا النازية رئيسَ قسم الطب الفضائي في قاعدة راندولف الجوية في تكساس.

تجاوز رولف الممر، وسأل الممرضة: «هل يأتيها أي زائر؟».

«لا؛ باستثناء الفترة الأخيرة».

مشى رولف في الفناء وتنفس الهواء المنعش. إسراعه الخطى جعله يشعر بعدم القدرة على التنفس، ولم يتمكن من إعادة نبضه إلى حالته الطبيعية. وتصبب العرق من جبينه فمسحه بمنديل.

فجأة، شعر بالصدمة بسبب صوت صدر من خلفه: «اصعد إلى السيارة من فضلك يا سيد ويليامز».

شعر رولف بقبضة قوية تجذبه؛ إذ جذبه رجلان إلى داخل سيارة أودي حمراء كانت قد توقفت بجانبه.

(2)

مرتدياً قميصاً قصير الكمين وسروالاً قصيراً، ومنتعلاً حذاءً باليا مصنوعاً من القماش، وقف إيريك ويليامز ذو الأربعة والأربعين عاماً يحدق باندهاش إلى رسالة كتُبت بالألمانية بخط أبيه.

كان مذهولاً لماذا افترضت كاثرينا بلوغر - بصرف النظر عمن تكون - أن رولف يفهم اللغة الألمانية؟

يعود تاريخ رسالة كاثرينا إلى أسابيع مضت. وقد احتفظ رولف بصورة عن الرسالة في رده عليها ووضعهما في المظروف نفسه.

كان إيريك يفهم الألمانية بفضل عيشه مع صديقته الألمانية جوتا حين كان يستفيد من المنحة الأكاديمية التي حصل عليها، وبفضل بعض المهام التي أداها كباحث في هايدلبيرغ.

فجأة، سمع كيت تصرخ من حيث تقف عند الباب الأمامي قائلة: «أين أنت؟ أسرع!».

قال إيريك بصوت أجش غريب: «سآتي في الحال». ثم صرخ بصوت أكثر وضوحاً: «دقيقة واحدة».

كان يقف في حجرة الدراسة الخاصة بوالده في فيلا سولسيدان الواقعة في أرخبيل ستوكهولم. كانت الفيلا نظيفة كعادتها، حيث وضعت سجادات فارسية على الأرضية الخشبية العتيقة، وأثاث عتيق ضخم، وعلقت العديد من الأعمال الفنية السويدية على الجدران. لا شيء منها حديث، ولكنها لم تكن مجرد مناظر طبيعية.

أخبره والده بأن لديهم مطلق الحرية في استخدام المنزل. لكن كيت والطفلان فضلوا الكوخ الذي يقع على الشاطئ. إذ كانت كيت تعتقد أن الفيلا غريبة، ولم يكن إيريك يجدها مثيرة للبهجة هو أيضاً. اهتم والده بوطن زوجته

خلال سنواتهما معاً، ورغم طلاقهما أيضاً؛ فقد انتقل إلى هناك في عام 1983، وهي السنة نفسها التي قدّم فيها إيريك أطروحته في جامعة بيركلي.

«ماذا تنوي أن تفعل؟».

استدار إيريك بسرعة نحو مدخل الباب، حيث كانت كيت تقف هناك وقد لفّت منشفة كبيرة حول جسدها بعد ارتدائها ثياب السباحة.

«لقد قلت لك إنني سأوافيكِ سريعاً». ولم يحاول إيريك إخفاء غضبه.

فناولته كيت هاتفه قائلة: «كانت الشرطة تحاول التواصل معك».

شعر إيريك بوخز داخله، فسألها: «من برلين؟».

«كلا، من لندن. طلبوا مني إبلاغك بضرورة أن تعاود الاتصال بهم بأسرع وقت ممكن. ما سبب ذلك؟».

«لا أدري. ربما كنت أقود بسرعة».

«لم يبدُ الأمر كذلك».

«اهدئي». وضع إيريك يده على كتف كيت وقبلها. «اذهبي، وسأوافيكِ قريباً».

حدقت كيت إلى عينيه للحظة، ثم غادرت.

وقف إيريك ثابتاً للحظة، محاولاً طرد الشعور بعدم الارتياح من داخله. يتعين عليه إخبار كيت بكل شيء.

اتصل بوالدته.

«مرحباً». قالت امرأة بصوت مفعم بالحيوية وبلكنة أميركية.

سأل إيريك والدته عن حالها، فردت أنها بخير كما كانت دوماً. وبصرف النظر عن حقيقة أوضاعها، إلا أن تقييمها بصفة عامة كان دقيقاً.

«تحاول الشرطة التواصل معي».

صمتت والدته للحظة ثم قالت: «بمَ ستخبرهم؟».

«ربما سيكون من الأفضل مناقشة هذا وجهاً لوجه. هل تواصلتِ مع أبي مؤخراً؟».

«كلا. لماذا تسأل؟ هل حدث خطب ما؟».

«أنت تعرفين بشأن رحلته إلى برلين، أليس كذلك؟».
«أي رحلة إلى برلين!؟».
كان غريباً أنها بدت متفاجئة؛ نظراً إلى أن أباه كان يتردد إلى هناك كثيراً.
«لقد سافر إلى برلين بالأمس. ولقد تحدثت إليه قليلاً في المساء، لكنه لم يرد على هاتفه أو رسائله منذ ذلك الحين، وهذه ليست طبيعته».
صمتت إنغريد للحظة ثم قالت: «هل تعرف أي شيء عن سبب سفره إلى هناك؟».
«هل تعرفين أنتِ؟».
«أنا! ولماذا سأعرف؟».
«أنا في منزل أبي. كنت أبحث عن معلومات عن الفندق الذي يقيم فيه، وقد عثرت على رسائل كُتبت بالألمانية. وقد ردّ عليها أبي بالألمانية أيضاً».
سادت لحظة من الصمت ثم سألته: «من الذي أرسل الرسائل؟».
«إنها من كاثرينا بلوغر، من تكون؟».
«ليست لدي أدنى فكرة».
«هل كنتِ على علم بأن أبي يتحدث الألمانية؟».
«كلا...»
«ألم يكن من الطبيعي أن يتحدث بالألمانية مع جوتا إن كان يتقنها؟».
شعر إيريك بالغضب، ولكنه لم يكن يعرف ممن هو غاضب.
«حسبما أعرف، إنه لا يتحدث الألمانية. لكن، ربما يكون قد درسها بعد طلاقنا».
«برأيكِ، لمَ لم يرد على رسائلي طوال اليوم؟».
«أعتقد أنه من الحكمة الانتظار الآن. فربما ترك هاتفه في مكان ما».
هدأ إيريك بعد طمأنة والدته له. إذ يحتمل بالطبع أن يكون رولف قد نسي هاتفه في مكان ما. ولكن، هل هي حقاً لا تعرف شيئاً عن إتقانه الألمانية؟
لقد فعلت إنغريد الكثير من أجل شركته غندو، ولحياته العلمية المهنية بأسرها، لكن تنازلها عن حقوقها كان أمراً مزعجاً للغاية.

لكنه كان يفهم أمه رغم ذلك. فحب العلوم هو القاسم المشترك بينهما، وقد ظهر ذلك منذ أن كان طفلاً. لقد عرفت كيف تشرح له سلوك الكائنات الحية بطريقة سهلة الفهم. وحماستها لعلم الأحياء كانت أحد الأسباب التي جعلت إيريك يختار التخصص في هذا المجال. فهو لم يرَ والدته فخورة به بشدة مثلما فعلت عندما احتضنته بعد أن قدم أطروحته في جامعة بيركلي. حتى إنه أهدى أطروحته لها، ولم يكن ذلك مجرد إفراط في المشاعر، ولكنه كان شكراً من الأعماق. ولحظة الانتصار الأخرى كانت بعد عدة سنوات لاحقة؛ عندما انضم إلى مشروع الجينوم البشري في مؤسسة كولد سبرينغ هاربور للبحوث.

دوّن إيريك عنوان كاثرينا بلوغر، وجال بنظره في الغرفة بامتنان واضح. في إحدى زوايا المكتب وُضع أثمن كنز بالنسبة إلى أبيه؛ منظار بولندي يعود إلى عام 1784. وكان ثمة مخطط للنجوم معلق على الجدران، ومجموعة كبيرة من صور طاقم برنامج أبولو جرى التقاطها في مركز كنيدي للفضاء في فلوريدا. كان العديد من زملاء إيريك في تيتوسفيل يحسدونه على عمل والده، لكن الفيزياء والميكانيكا وعلوم الفضاء لم تلفت انتباه إيريك مطلقاً، فمنذ طفولته كان مهتماً بالبشر. لقد كان عالم أمه هو الذي سحره؛ القلب والدماغ والعينان والخلايا والكروموسومات والجينات والحمض النووي. فليس باستطاعة أي فيزيائي أو مهندس بناء أي شيء بمثل هذا التعقيد.

إذ إن الإنسان أكثر من مجرد مجموعة من المكونات الحية. فكلما درس إيريك الجينات، ازداد افتتانه بالغموض. وبين فينة وأخرى، كان يجد نفسه في إحدى الليالي في لندن محدقاً إلى لوحة الرجل الفيتروفي التي رسمها ليوناردو دافنشي والتي كان يعلقها في حجرة الدراسة الخاصة به. من أين أتت مشاعر الإدراك وإنكار الذات هذه؟

وقف إيريك أمام صورة لها إطار. كان قد تم التقاطها عام 1967 في رحلة من فلوريدا إلى هانتسفيل في ألاباما، وذلك قبل عام من طلاق والديه. كان في الصورة يبلغ من العمر تسع سنوات، وظهر في شكل صبي ضاحك

ومجعد الشعر. وقد وضعت والدته يدها على كتفه، بينما كان والده يميل بجسده مستنداً على سيارة بويك إلكترا ضخمة. كان والداه حينها في مثل عمره الآن... يقتربان من الخمسين. لكن أباه بدا أصغر من سنه الحقيقي، بينما لم يختلف شكل أمه كثيراً. كان شعر إيريك قد بدأ باكتساب بعض الشيب، لكن كيت أخبرته أنه يبدو جذاباً.

لم تستطع كلمات كيت محو القلق المسيطر على ذهنه. إذ إن الوقت ينفد، وعليه أن يعمل بكد أكبر.

كان المكتب مغطى بقماش أخضر اللون، ووضع عليه جهاز كمبيوتر.

نظر إيريك إلى ساعته. يفترض به مساعدة كيت في حزم الأمتعة. لكنه فتح برنامج البريد الإلكتروني وتصفح عناوين الرسائل. لقد نسي رولف تسجيل الخروج من حسابه مجدداً.

تردد إيريك للحظة، لكنه أقنع نفسه بأن الوضع طارئ.

كانت هناك رسائل كثيرة مرسلة منه ومن كيت، وقد أرفقت مع العديد منها صور لأوليفيا وإيميل. وقعت عيناه أخيراً على تأكيد لحجز غرفة في فندق. وبعد أن حاول الاتصال بأبيه مجدداً وترك رسالة صوتية، اتصل برقم هاتف فندق أسكانيتشر هوف، فردت امرأة بنبرة ودودة وبإنجليزية طليقة. قالت إنها تتذكر والده جيداً؛ فهو «رجل مهذب». لقد سجل حضوره في المساء واستمتع بفطوره صباحاً، وبعدها خرج. لقد تشاركت مع إيريك قلقه – ربما بدافع اللباقة – بسبب عدم رد العجوز على اتصالاته.

لم يكن إيريك ينوي قراءة الرسائل، لكن إحداها فاجأته. إذ كانت مرسلة من إنغريد ستورمار.

لماذا أرسلت أمه رسالة إلى أبيه؟! فلم تعد بينهما أية علاقة على الإطلاق!! كانت الرسالة بلا عنوان، ولم يقم إيريك بفتحها. فهذا ليس من شأنه. بعد طلاقهما قسم وقته بينهما. وعندما بلغ سن المراهقة، انتقلت أمه للعيش في إنجلترا. وبعدها بسنتين، انتقل إيريك إلى هناك أيضاً. لم يكن لانتقاله علاقة بأمه، فقد انتقل إلى هناك بهدف العمل على مشروع بحثي حول الجينات في

جامعة كامبردج.

لم يبدُ أن ثمة أي شيء آخر يخص رحلة رولف إلى برلين. وكان على وشك إغلاق البرنامج عندما لفت انتباهه عنوان إحدى الرسائل، فقام بفتحها من دون تردد.

عزيزي السيد ويليامز،

أنا بصدد جمع مواد بشأن التعاون البحثي الألماني الإسكندنافي الذي يرجع إلى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. وطبقاً للسجلات التي عثرت عليها في أرشيف جامعة هلسنكي، لقد درست أنت في برلين في عام 1937. أفهم أنك كنت تعرف باسم نارفا، وهو اسمك الفنلندي الأصلي في ذلك الوقت. هل من الممكن إجراء مقابلات معك حول تجاربك؟

أخلص الأمنيات،

غوران فاغرسترام، الـ فيل

جامعة ستوكهولم

«ما الذي يجري هنا بحق الله؟!». تمتم إيريك مستغرباً.

لم تكن ثمة إجابة. فقد خيم صمت مطبق على فيلا سولسيدان.

(3)

جلس رولف في مؤخر سيارة الأودي وجسده يرتعد. كانت أنفاسه متقطعة، وكان يشعر بالدوار. وبجانبه جلس رجل عرّف عن نفسه باسم هوفمان. كان لون عيني الرجل وحاجبيه داكناً، ولديه شعر بني كثيف ومجعد، وكان يرتدي معطفاً رياضياً ناعماً.

سارت السيارة في طريق ما في الجانب الجنوبي من برلين. وكان يقود السيارة رجل قوي يدعى مانفريد.

جلس رولف على مقعده ساكناً. لم يبدُ له أن خاطفيه يودّان بدء محادثة، فماذا يريدان إذاً؟

لقد مر رولف بالعديد من المواقف التي ربما تكون قد تركت من دون تسوية؛ مواقف صغيرة وكبيرة. وقد كان يخشى قدوم هذا اليوم. ففي نهاية المطاف، سيلاحقه ماضيه الذي يطارده باستمرار، وسوف يدفع ثمن خطاياه.

ثم باغتته خاطرة مفزعة، وعلى الفور أيقن أنها كانت ما يحاول تجنبه.

سيتعين على ابنه وحفيديه دفع ثمن ما ارتكبه من آثام قبل عقود.

جلس رولف مشلولاً، ولم يقوَ على التنفس، وقد شعر بموجة من الغثيان.

توقفت السيارة عند إحدى إشارات المرور، فراقب امرأة شابة تسير على الرصيف بجانب السيارة، وقد ربطت شعرها بتسريحة ذيل حصان ووضعت عليه مشبكاً ملوناً.

«انظر أمامك». قال هوفمان بصوت بارد وخالٍ من التعابير.

عاود رولف النظر أمامه وهو مسرور؛ فعلى الأقل نطق الرجل بكلام ما.

سارت السيارة بسرعة، فيما استدار هوفمان للنظر إليه، ولكن رولف واصل النظر أمامه.

بدأ هوفمان حديثه، وكان ينطق كل كلمة بوضوح: «أريدك أن تعود

بتفكيـرك إلـى الـوراء؛ إلـى يوم في عام 1945، إلى الثلاثين من مارس تحديداً، ومساءً».

باغتت الجملة رولف كالرصاص. فقد عرف في جزء من الثانية ما يتحدث عنه هوفمان.

واصل هوفمان حديثه: «كانت أمسية باردة وممطرة».

تدفقـت الكلمـات مـن فـم هوفمان واحـدة تلو الأخرى فـزادت من فزع رولف؛ لأن هوفمان كان يعرف بالضبط ما يتحدث عنه. كيف يكون هذا ممكناً بحق الله!؟

«آسف؟!». قال رولف مدعياً البراءة.

«لا فائدة من تظاهرك بضعف ذاكرتك. فنحن نعرف كل شيء، أو تقريباً كل شيء. ونرغب بمعرفة ما تبقى».

كان قلب رولف ينبض وبسـرعة وكأنه سـينفجر. لم يكن لديه شـك في أنهم يعرفون. ولكن، كيف عرفوا؟

لم يكن هناك سوى احتمال واحد. هانز بلوغر، زميله القديم وزوج كاثرينا السابق.

حاول رولف أن يبدو هادئاً: «لا أعرف عما تتحدث».

ناوله هوفمان صورة، فقرأ رولف النص الألماني المكتوب بخط اليد.

الثلاثون من مارس. فوضى كاملة منذ الصباح. حُكم علي أنا ورولف...

انتزع هوفمان الورقة من يده قبل أن يتمكن من إكمال قراءتها.

المفكرة.

هل احتفظ هانز بمفكرة؟! كيف يمكن أن يكون هانز بهذا الغباء الشديد؟

أزال رولـف الحشـرجة مـن صوتـه وقـال: «لا يمكنني مسـاعدتكم في ما يتعلق بذلك، فقد كان ذلك قبل 60 عاماً».

«أصدقـك، فذاكرتـك ضعيفـة». وبدا صوت هوفمان كما لو أنه متعاطف، وتابع: «ولهذا سننعشها لك قليلاً».

انعطف السائق بالسيارة في طريق جانبي.

التقطت عدسة الكاميرا صورة لبحر هادئ يعكس صورة سماء ملبدة بالغيوم في أرخبيل ستوكهولم. كانت ثمة بقعة مائلة من ضوء الشمس كسرت انسيابية سطح البحر، فيما كانت فتاة في العاشرة من عمرها تسبح في البحر، وقد علت صرخات سعادتها في الهواء الدافئ.

تحركت الكاميرا فظهرت امرأة في المشهد. كانت تجلس القرفصاء على الرصيف وهي ترتدي لباس البحر بينما نثرت الفتاة بخبث الماء عليها. نهضت المرأة واقفة. كان شعرها الأشقر على هيئة ذيل حصان. إنها امرأة ممشوقة القوام وشديدة البياض، ولا شيء يوحي بأنها فوق الأربعين.

إنها كيت.

تجوّلت عدسة الكاميرا على طول الرصيف وحتى الشاطئ، إلى أن التقطت صورة صبي يجلس على الشاطئ، ويشغل مساحة بين صخرتين وهو يمسك بجهاز تحكم في يده. وقد نهض من مكانه لرفع سيارة لعبة غرزت عجلاتها في الرمال.

إنه إميل.

أنزل الرجل الكاميرا. كان يقف بين أوراق الشجر الكثيفة بطريقة لا تسمح لأحد بأن يشاهده من الرصيف.

كان أولئك أوليفيا وكيت وإميل.

كان رجل أسمر البشرة - إيريك ويليامز - يسير متجهاً نحوهم.

توقف إيريك عن السير عندما سمع شيئاً يطقطق خلفه. بدا له الأمر وكأن أغصان الشجر السفلى قد تمايلت. ربما يكون ذلك سنجاباً أو طائراً، أو ربما كان يتخيل أشياء فحسب؛ فقد كان متوتراً بسبب ما اكتشفه في الفيلا. وكلما فكر في الأمر، أصبح أكثر قلقاً. لقد تعيّن عليه أن يحاول إعادة نفسه إلى الواقع المحيط به.

قالت كيت: «انضم إلينا. غطسة أخيرة ثم سنذهب لإنهاء حزم أمتعتنا».

«أجل».

سألت أوليفيا: «وماذا عن السمك؟».

فأدرك إيريك أنه ترك السمك والسكين على الصخرة قرب البحر. «أجل، لم ننتهِ من تنظيف السمك بعد».

جذب السكين التي كانت ملطخة بالدماء، حتى إن أصابعه تلطخت بالدماء بسبب إدخاله يده في جوف السمك.

درس أبي في برلين عام 1937. كان ذلك إبان الحقبة النازية. وأمي تقول إنها لا تعرف شيئاً عن ذلك... ما كل هذا بحق الله!؟

«أبي». تردد صدى الصوت في أذنيه. «أبي!».

رأى إيريك وجه ابنته أمامه مباشرة.

«أبي، ما الخطب؟».

«ماذا تقصدين؟».

«أنت تجلس عندك وحسب وكأنك تمثال أو ما شابه!».

«حقاً؟».

لاحظ إيريك أن إميل يحدق إليه أيضاً.

جلست أوليفيا القرفصاء، ونظرت إلى السمكة التي أدخل إيريك إبهامه داخلها.

سألته أوليفيا: «لماذا هناك الكثير من الدماء؟».

نظر إيريك إلى السمكة، وتعجب من الشيء نفسه، ثم أدرك أنه جرح إصبعه بالسكين الحاد.

«اللعنة». أخذ منديلاً من جيبه وضغط به على الجرح، فقالت له أوليفيا: «يتعين عليك أن تطهر الجرح وإلا فقد يتلوث بشكل سيئ».

«أجل، بالطبع، الأمر بسيط».

لمح إيريك كيت التي كانت تقف على مسافة أبعد قليلاً وهي تهز رأسها ببطء. لقد كانت غاضبة، فمهاراته اليدوية كانت محط سخرية لدى العائلة. ومجدداً أثبت إيريك صدق اعتقاد كيت. وأسوأ شيء هو أن الولدين قد بدآ ينظران إلى أبيهما على أنه شخص أحمق عندما يتعلق الأمر بالمهام العملية.

جذب السمكة بيده السليمة وأخرج أحشاءها.

سأل: «ما هذه؟».

فأجابت أوليفيا: «أهي أمعاؤها؟».

مشى إميل بجانبها وقال: «كلا، أمعاؤها هناك».

قال إيريك: «هذا صحيح. هذا كيس العوم. إنه يساعد السمكة على التحكم في عمقها في الماء».

سألته أوليفيا: «كيف تتنفس السمكة؟ فليس هناك هواء في الماء».

«ثمة أوكسيجين في الماء مثل الهواء بالضبط، وتتنفسه السمكة بخياشيمها مثلما نفعل نحن بواسطة الرئتين».

مسح إيريك الدماء عن السكين وأعاده إلى غمده. «عندما كنت صغيراً، علمتني جدتكما علم الأحياء عن طريق تشريح فأر ضخم».

عبرت أوليفيا عن اشمئزازها من فكرة تشريح فأر.

«كلا، لم يكن الأمر مثيراً للاشمئزاز مطلقاً، بل كان ساحراً بحق. وقد أصبحت صائد فئران ماهراً، بل والأفضل في حينا». ابتسم إيريك وقذف بالسمكة إلى البحر، ثم ألقى نظرة على ساعته، وتحولت نبرته إلى نبرة جدية. «سنتركها لطائر النورس. هل حزمتما أمتعتكما مسبقاً؟».

فقال إميل بنبرة متوسلة: «أبي، ألا يمكننا البقاء هنا لفترة؟ فقط لبضعة أيام أخرى؟».

عبث إيريك بشعر ابنه المجعد من دون أن يجيب.

توقف الزمن فجأة. إذ نظر إلى أوليفيا وهي تقف على الصخر، فسرت في جسده موجة امتنان دافئة.

لم يتوقع إميل حقاً الاستجابة لطلبه الذي كان يطلبه في نهاية كل رحلة إلى السويد. ولم يكن مفاجئاً استمتاع إميل بجزر البلطيق؛ فقد كان في انتظارهم في لندن رذاذ مطر خفيف.

عاد الطفلان إلى الكوخ ذي الغرف القليلة وحمام الساونا. فيما بقي إيريك في الخارج يراقب البحر. وكان قد اتصل بالمؤرخ السويدي الذي تواصل مع والده، فوافق هذا الأخير على لقائه لمدة ساعة.

«إيريك!».

بدأ في التحرك إثر سماعه نداء كيت العاجل. ومشى بقدميه الحافيتين على الممر المؤدي إلى الكوخ. كان الكوخ عبارة عن بيت خشبي يضم غرفة علوية. وقد بُني عام 1920، وكان في حالة سيئة حين اشتراه والده. وقد قضوا العديد من إجازات الكريسماس هنا أيضاً، وقد بقي البيت دافئاً بفضل ثلاثة مواقد من البلاط.

«يجدر بك الاعتناء بالجرح. توجد قنينة سائل مطهر صغيرة في الحمّام».

«لا يمكنني التواصل مع رولف في برلين، وهو لا يرد على رسائلي».

«ينزعج والدك عندما تعتقد أنه غير قادر على الاعتناء بنفسه. ولكنه اعتاد على ذلك بمرور الوقت».

«ثمة شيء مريب يكتنف الرحلة بأسرها».

«هل أخبرك بأي شيء عن ذلك؟».

«لقد قال إنه أراد رؤية برلين فحسب. فأخبرته أنني ذاهب إلى هناك للعمل، واقترحت عليه أن نسافر معاً، لكنه لم يكن متحمساً للفكرة بشدة، وهو ما كان غريباً بالنسبة إلي».

«أنت تقلق كثيراً. اذهب وكدس الخشب. إذ سوف يستهلك عملك هذا كل الوقت الذي سأستغرقه في حزم الأمتعة والتخلص من النفايات».

مشى إيريك إلى مؤخر الكوخ حيث اجتمعت العائلة لإعداد ما سيصبح حطباً في نهاية المطاف. وكأي فتاة من أكسفورد شاير ونشأت في الريف، كانت كيت تتولى تلك الأمور العملية. وقد جرى تثبيت فرن حراري استخدمه والده. ونظراً إلى كونه رجلاً يملك موهبة يدوية، نادراً ما كان يستخدم الموقد الجميل.

أخرج إيريك هاتفه، وأعاد الاتصال بهاتف أبيه فلم يحصل على رد.

رائع!

كان توقيت اختفاء رولف هو الأسوأ على الإطلاق. ناهيك عن أن الشرطة تلاحقه الآن.

يتعين على إيريك الآن توجيه كل طاقاته وتركيزه للحفاظ على شركته، ومفتاح ذلك هو صفقة الصين.

(4)

حاول رولف إخفاء صدمته، لكن المبنى الذي رآه وهو جالس في السيارة لم يساعده على ذلك.

شعر برجفة عندما رأى الطوابق الثلاثة المألوفة له والتي تقع في نهاية الشارع. غمره المشهد بذكريات كان يحاول نسيانها منذ زمن طويل. والآن، أصبحت تلك الذكريات واضحة كالشمس.

كان قد عبر تلك الأبواب لأول مرة في خريف عام 1937، مفعماً بالحيوية وغرور الشباب؛ فالحياة بأسرها لا تزال أمامه. كان قد ترك وطنه فنلندا المعزول خلفه، ودخل أرض الأحلام؛ قبلة العلوم والتكنولوجيا.

ويلهيلم كونراد رونتغن وماكس بلانك وفرتز هابر وويرنر هايزنبرغ، كل العقول الألمانية العظيمة عملت في مجال الفيزياء وخاصة الفيزياء الحديثة، فيزياء الكم والميكانيكا ودراسات الذرة. حالما وصل إلى برلين، قام بزيارة مرصد زايس الفلكي الذي صممه فيليغر، حيث يمكنك مشاهدة حركات أي منطقة من السماء عند أي إحداثيات تريدها. لقد كان رولف مهتماً بعلم الفلك أكثر من اهتمامه بالفيزياء، رغم أنه أخذ بنصيحة أبيه، وقرر أن العمل في الفيزياء سيوفر له لقمة عيش أفضل من العمل في الفضاء. لقد ظن والده أنه يعلم ما يتحدث عنه؛ بما أنه كان محاضراً للرياضيات في جامعة هلسنكي.

«هل بدأت تتذكر؟». سأله هوفمان بصوت خافت وهو يجلس بجانبه.

فكر رولف في أفضل رد ثم قال: «لقد كان ذلك قبل زمن بعيد بغيض».

وحاول التظاهر بأنه لا يقوى على التذكر، لكن ذلك كان صعباً. حدق إلى المبنى. كانت مؤسسة القيصر ويليام حديثة الإنشاء وقتئذ. والآن، ظهرت علامات تشير إلى قدم المبنى، ووضعت على جدرانه بنية اللون لوحة كُتبت

عليها عبارة مؤسسة ماكس بلانك. وعلى الجدار المقابل للفناء، ظهرت لوحة مكتوب عليها برج البرق أمام ناظريه. هناك حيث شيدوا المولد عالي الجهد لأداء اختبارات على الفيزياء النووية، والذي كان بمثابة تحفة فنية.

باغتت الذكريات عقل رولف. لقد كانت برلين مصدر سحر له حين كان شاباً، وازدهرت العلوم والتكنولوجيا هناك. لقد كانت الطرق السريعة والأنيقة، والخطوط الواضحة لمطار تمبلهوف جزءاً من تلك الروح في ذلك الوقت. لقد كان رولف متحمساً بالتحديد لعلم الصواريخ، والسفر عبر الفضاء؛ مستلهماً من فيلم الخيال العلمي للمخرج فريتز لانغ «امرأة على سطح القمر». لقد أعطى فريتز فون أوبل توضيحاً عاماً لفكرة المركبات المنقولة عبر الصواريخ، بدءاً من الزلاجات وحتى العربات المنقولة على قضبان حديدية. وقد قابل رولف بعضاً من المهووسين بصناعة الصواريخ. كان لديهم مجتمع يخص السفر عبر الفضاء وهو «نادي رحلات الفضاء».

استفاق رولف من تفكيره الطويل على صوت هوفمان وهو يطلب من السائق أن يواصل السير، ولم ينطق بكلمة بعدها.

كان الصمت ينذر بشر قريب. وبينما بدأت السيارة بالتحرك مجدداً، لمحت عينا رولف نافذة في الطابق الثاني في قسم الفيزياء، فتذكر بصعوبة وقوفه في تلك الغرفة برفقة هانز بلوغر في مكتب البروفيسور رويتيغر في يوم خريفي ممطر عام 1938. وقد مثل الاجتماع الاعتيادي العابر نقطة تحول في حياته حتى اليوم. فقد حقق نجاحاً استثنائياً في عامه الدراسي الأول، وقد كان يدرك ذلك. ولكن، لم يتضح له أنه ينتمي إلى تلك المجموعة الصغيرة من نخبة العلماء، وأنه قد اختير من بين بقية الطلاب إلا عندما دُعي إلى مكتب البروفيسور. لقد أصبح من بين أفضل العلماء، وسيتمكنون من استكمال بحثهم الخاص في ظل توجيه أكثر العلماء خبرة.

سواء أكنت كبيراً في السن أم لا، لم تكن لذلك أية أهمية، فكل ما كان يهم هو ما يسري في عقلك. ويرنر هايزنبيرغ، الأب الروحي للفيزياء، كان في الحادية والعشرين من عمره فقط عندما التقاه نيلز بور في غوتنغين في أوائل

العشرينيات من القرن الماضي. كان بور قد دُعي إلى هناك لإلقاء محاضرة قبل بلوغه سن الأربعين، حيث كان معروفاً حينها بسبب بحثه حول البنية الذرية، وقد كان هايزنبيرغ واحداً من تلاميذه الواعدين. لكن الأمر تطور إلى صداقة بينهما، واستشعر بور موهبة هايزنبيرغ. وقد شعر رولف أنه جرى الاعتراف بموهبته بالطريقة نفسها.

ترك شريط الذكريات يعمل في عقله. فتساقط ضوء الشمس على الطاولات الجديدة اللامعة في قسم الفيزياء التي جلس إليها الطلاب ليدرسوا. كان رولف يقرأ مقالاً جرى نشره في السادس من يناير من عام 1939 من مجلة «العلوم الطبيعية» بشأن اكتشاف كل من أوتو هان وفريتز ستراسمان التفاعل الانشطاري في ديسمبر. وقد أثار ذلك الحدث ضجة وحماسةً في دوائر الفيزياء في كل أنحاء العالم.

لكن حماسة رولف لم يكن سببها نجاح الاختبارات فقط، وإنما أيضاً لأنه عرف بتفاصيل التجربة قبيل نشر المقال. فحينها، علم أنه مطلع على آخر ما توصل إليه العلم، وذلك لأن أحد مساعدي هان كان مستشاره.

لقد أدرك العلماء حول العالم أهمية الاكتشاف الذي حققه هان. فبمجرد الحديث عن الانشطار، يصبح الحديث عن القنبلة غير بعيد. إذ يمكن لسلسلة تفاعلات خاضعة للتحكم أن تنتج طاقة، أما سلسلة التفاعلات التي لا تخضع للتحكم فستشكل نوعاً جديداً من التفجير...

غمرت الذكريات عقل رولف وكأن سداً قد تهدم. كان يمسك بطباشير في يده، ويشرح على السبورة الخضراء أمامه في حجرة الاجتماعات حيث كان تلاميذ البروفيسور رويتيغر يرسمون رسوماً بيانية معقدة تخص قنبلة نووية محتملة. قال البعض إن مخزون اليورانيوم الذي جرى جمعه للاستخدام الصناعي يجب أن يتم التخلص منه في البحر، فقال آخر إن هذا لن يفيد. فبإمكانك الحصول على الكمية التي تشاء من اليورانيوم من جواكيمسال، فقد أصبحت المناجم هناك تحت السيطرة الألمانية منذ احتلال تشيكوسلوفاكيا. تذكر رولف صعوده سلالم القسم في نهار صافٍ في أحد أيام الخريف من

عام 1939، وسماعه إشاعة من أحد المساعدين تقول إن الجيش رتب اجتماعاً سرياً لتولي البحوث الخاصة باليورانيوم.

وقد اتضح أن الأمر حقيقي. ففي الخامس من أكتوبر، توقفت سيارات سوداء في فناء قسم الفيزياء. وقد دُشِّن تعاون مع قسم الكيمياء، وذلك لأن اليورانيوم الطبيعي احتوى على نسبة ضئيلة جداً من يورانيوم 235 النظير الذي يستلزم التفاعل الانشطاري، وكانت عملية عزل النظير تمثل تحدياً فنياً كبيراً؛ لكنه يظل تحدياً على المستوى الفني فقط.

تم استدعاء كبار الباحثين الذريين للاجتماع من قبل الجيش، بمن فيهم مستشار أطروحة رولف الحالي الدكتور ليبل. وقد أطلق على المجموعة اسم «نادي اليورانيوم». وقد كان قائدها هو ويرنر هايزنبيرغ الذي حضر رولف محاضرات له في جامعة ليبزيغ عدة مرات.

علم رولف عن أنشطة المجموعة مباشرة من الدكتور ليبل، ولاحظ برضى بالغ أن بحثه قد جذب انتباه نادي اليورانيوم. وقد انطبق الأمر نفسه على هانز وطالبين أكاديميين آخرين. ومن دون أن يدرك ذلك، وجد رولف نفسه يؤدي دور المساعد في المجموعة. لقد كان باحثاً شاباً، وأدرك أنه حصل على فرصة العمر. فكيف يرفضها؟

«سأعيد طرح أسئلتي». قال هوفمان فيما تحركت السيارة ببطء في شارع بولتزمانستراب، بينما بقيت البيوت وساحاتها المليئة بالبشر على حالها. «أريدك أن تخبرني...»

«لقد أخبرتك سلفاً، لقد حصل ذلك قبل زمن طويل للغاية. أتذكر بعض الأشياء، ولكنني لا أتذكر التفاصيل».

«هل أنت متأكد؟».

أومأ رولف برأسه وقد ازداد قلقه بفعل نبرة هوفمان الباردة، وحدق إلى منظر المدينة أمامه. لقد تغيرت المنطقة لكن الأجواء بقيت كما هي. مدينة ديهلم نموذج يحتذى، وهي مهد لأعلى مستويات التعلم، وقبلة للباحثين الموهوبين.

لاحظ رولف أن إنغريد ستورمار، زميلة كاثرينا السويدية، مهتمة به. لم يزد الأمر عن كونه نوعاً من الإثارة. كما أن رولف فكّر في سره بأنهم إذا ارتبطوا هم الأربعة بعلاقة صداقة معاً، فسيكون هو مع كاثرينا، وهانز مع إنغريد. ولم يلاحظ أن هانز مهتم بكاثرينا أيضاً، لكن العلاقة لم تأخذ منحى رومانسياً لفترة طويلة أيضاً. ومع ذلك، كان ثمة افتراض مجهول منع رولف من بدء أي شيء مع كاثرينا.

قضى التلامذة الباحثون الطامحون الأربعة جل وقتهم بين الأقسام والمعامل والمؤسسات، وقد كانت المسؤولية والأعباء تزداد مع تقدّم الحرب، ولم يكن ثمة الكثير من وقت الفراغ. لكنهم كانوا يستخدمون أوقات الفراغ القصيرة المتاحة بأقصى قدر ممكن. فعند اندلاع الحرب، جرى نقل كل الشبان الألمان إلى جبهة القتال، وكان هانز يمزح قائلاً إن الباحثين من الرجال كانوا مثل «الديوك نادرة الوجود في خم دجاج ضخم». لقد كان جلياً أن هانز اجتماعي أكثر، ومحب للمرح أكثر من رولف. ولكن، حتى رولف لم تكن لديه مشكلة في وجود فتيات أثناء وجوده برفقة هانز. وقد زعم هانز أنه انضم إلى الحزب لأن أفضل الحفلات الليلية في برلين كانت مخصصة للأعضاء فقط.

بالطبع، كان ذلك مجرد هراء. فالحقيقة هي أنه ضمن دوائر العلماء الألمان، سيجذب عدم الانضمام إلى الحزب الانتباه، وسيثير شكوكاً لا داعي لها. لم يكن رولف يهتم بالسياسة، فقد كانت كل طاقته منصبة على بحوثه. لم يكن فيزيائياً آرياً أو فيزيائياً يهودياً، بل كان فيزيائياً وحسب...

توقفت السيارة أمام مبنى حديث باهت اللون، بُني في ناحية غاريستراب، وعُلّقت عليه لوحة مكتوب عليها: «مبنى جامعة هنري فورد الحالي».

«لم أرغب بفعل ذلك، لكن عنادك تركني بلا خيارات».

أخرج هوفمان صورة من جيبه أثناء حديثه، وتابع: «ربما يقوي ذاكرتك أن تعلم أن إميل وأوليفيا بصحة جيدة، وأنهما سيبقيان هكذا إذا قررت ذاكرتك التعاون بشكل أكبر».

نظر رولف إلى صورة حفيديه الوحيدين وهما يلعبان عند الشاطئ. كانت

الصورة واضحة وصافية، وقد ظهرت على جانبيها أفرع شجر البتولا. كان جلياً أنه تم التقاطها خلسة، حيث كان ظهر كيت إلى الكاميرا.

تشنجت يدا رولف المرتعشتان حال رؤيته الصورة.

(5)

ترجل إيريك من سيارة الأجرة عند دوبلنسغاتان في ناحية فاساستان. كان قد اتصل بغوران فاغرسترام وقد وافق المؤرخ على مقابلته في منزله.

كان إيريك يود الاتصال بأمه لكنه قرر الانتظار. فسيكون من الأفضل الاستماع أولاً إلى ما سيقوله المؤرخ عن أبيه أيام شبابه. إذ لم يعرف إيريك الكثير بشأن ذلك.

كانت كيت والولدان يتسوقون في قلب المدينة، فهذه آخر فرصة لديهم للتبضع قبل العودة إلى الديار. وكانوا قد أتوا بسيارة الأجرة، وتركوا حقائبهم في محطة القطارات، حيث سيستقلون قطاراً إلى مطار أرلاندا.

تلقى إيريك رسالة نصية على هاتفه، كانت من مانويل، وهو برازيلي عمل طبيباً في عيادة في هليوبوليس؛ أحد أحياء ساو باولو الفقيرة. وقد تطوّع كل من إيريك وكيت في تمويل العيادة.

كانت الرسالة تتحدث عن رضيعة تبلغ من العمر شهراً، وتعاني من متلازمة أيكاردي، وهو مرض وراثي نادر. كتب إيريك رده: «هل يمكنك أن ترسل لي صورة لشبكة العين الخاصة بها؟ ثمة تشوه في العين يعرف باسم «الفجوات»، وهو يصيب شبكة العين ويختص بمتلازمة أيكاردي. سأرسل الصورة إلى أمي، فأمراض العين مألوفة بالنسبة إليها».

زار إيريك ساو باولو للمرة الأولى عندما كان في العاشرة من عمره، وذلك عندما اشترى والد أمه السويدي منزلاً للعطلات في الستينيات. وقد تركه مورفار لإيريك عام 1986.

مشى إيريك عبر المدخل، واجتاز الفناء إلى داخل الجناح ذي الطوابق الأربعة كما وجّهه فاغرسترام.

«لقد كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إليّ حين عرفت أن أبي قد نشأ في فنلندا،

وكان لديه اسم فنلندي». تحدّث إيريك إلى المؤرخ بينما كان هذا الأخير يقوده إلى مكتب ممتلئ بالكتب والأوراق. «أو أنه قد عاش في ألمانيا لهذا الشأن».

لقد كان يأمل بشكل ما أن يكون الأمر برمته سوء فهم كبيراً. فقريباً سيعترف المؤرخ بأنه أخطأ.

«لم أجرِ بحثاً عن والدك تحديداً، لذا ليس لدي الكثير من المعلومات عنه. لكن، هذا سجل طلاب جامعة هلسنكي الذين ذهبوا للدراسة في برلين في عام 1937».

تنهد إيريك وشعر بالارتباك وقال: «لطالما قال أبي إن والديه قد تركا فنلندا وانتقلا إلى ميتشيغان في أوائل القرن العشرين».

«هذا غريب! ماذا كان والدك يعمل ليكسب قوته؟».

«إنه فيزيائي. لقد عمل أولاً في هانتسفيل في مجال اختبار الصواريخ، والتي أصبحت بعد ذلك مركز مارشال للطيران الفضائي، ثم انتقل إلى كيب كنيدي في فلوريدا. وبعد إلغاء برنامج أبولو في السبعينيات ذهب إلى كاليفورنيا للعمل لدى شركة لوكهيد، ثم تقاعد».

«أنا واثق أنك على علم بأن الولايات المتحدة قد جنّدت الكثير من الباحثين الألمان بعد الحرب، وخاصة علماء القذائف والصواريخ. وكانت أكثر المجموعات شهرة مجموعة ويرنر فون براون. وقد كانت هانتسفيل أحد الأماكن التي جرى إرسالهم إليها. لقد جرى نقل الألمان إلى الولايات المتحدة في عملية سرية لم تتوفر أي معلومات مفصلة عنها حتى تم فتح الأرشيف في أوائل التسعينيات. وقد أطلق على العملية اسم قصاصة الورق».

حدق إيريك إلى فاغرسترام وهو في حالة صدمة: «كان أبي يعرف فون براون. لقد التقيته مرات قليلة عندما اصطحبني أبي إلى مناسبات في الناسا. لدي صورة وأنا أصافح فون براون بعد إحدى المحاضرات».

تذكّر إيريك أسماء العديد من الألمان من زملاء أبيه. كان ثمة حديث حول العديد منهم بسبب ماضيهم، لكنه لم يستطع أن يتذكر إن كان والده قد علّق على الأمر بشكل أو بآخر.

«هل يعني اسم كاثرينا بلوغر أي شيء بالنسبة إليك؟». سأله إيريك.
فهز فاغرسترام رأسه نافياً.
«هل يمكنني البحث عن شيء عبر الإنترنت للحظة؟».
«بالطبع».
جلس إيريك أمام الكمبيوتر، ولم يستطع العثور على أي شيء يتعلق بكاثرينا بلوغر.
بدأ شعور بعدم الارتياح يساور إيريك. فآماله بأن يكون الأمر مجرد سوء فهم بدأت تتبدد. إذ فجأة، بدا أن هذا الغريب يعرف عن أبيه أكثر مما عرف هو عنه.
وهل بحث عن إيريك وعثر على خطاباته ومقالاته بشأن العلوم وآداب المهنة؟
شعر إيريك بالانزعاج والخزي. نظر إلى ساعته وقال: «لسوء الحظ، يجب أن أذهب. فسأغادر اليوم إلى برلين».
ولم يكن قد قرر الذهاب إلى هناك إلى أن رأى مستندات فاغرسترام. فسأله إن كان بإمكانه الحصول على نسخ منها.
«وهل يمكنني أن أستعير منك كتاباً حول هجرة النازيين إلى أميركا؟». سأله إيريك.
كان فاغرسترام عارفاً بمكتبته، فمشى من دون تردد نحو رف مليء بالكتب، وعثر على ما يبحث عنه على الفور.
«يمكنك أن تستعير هذا. هل هناك أي شخص يمكنه أن يعرف أكثر عن ماضي والدك؟».
«أمي. لقد التقيا في أوائل الأربعينيات في الولايات المتحدة. هذا ما اعتقدته دوماً على أية حال».
«هل يمكنك أن تخبرني باسمها؟».
«ستورمار. إنغريد ستورمار. لقد حصلت على الطلاق من أبي في عام 1968، واستعادت اسمها الأصلي. وُلدت في السويد، ولكنها تعيش في لندن

الآن؛ مثلي. إليك بيانات تساعدك على التواصل معي؛ إذ يجب عليّ أن أذهب الآن».

أعطى إيريك فاغرستـرام بطاقته وغـادر، وقد أصبح أكثر ارتباكاً مما كان عليه عند وصوله.

لكن، كان هناك أمر واحد مؤكد. سوف يحمل أمه على الكلام.

اتصل بكيت وأخبرها بأن تذهب إلى المطار مع الطفلين، فهو سوف يتأخر بسبب عمله، وسيلتقيهم هناك.

لقد كانت لعبتهم واضحة.

لقد أوضحت الجملة الوحيدة والصورة لرولف أنه ليس هناك بديل أمامه. فما من شيء سيجعله يخاطر بسلامة أوليفيا وإميل. وسيتعين عليه العثور على طريقة لتجنب الكارثة لاحقاً. أما الآن فليس هناك ما يمكنه فعله.

جلس على المقعد الخلفي لسيارة الأودي وبجواره هوفمان. ظنّ لبعض الوقت أن هذين الرجلين ممثلان عن السلطات، أو أنهما من إحدى المنظمات التي تطارد النازيين، لكن كل تلك الآمال انهارت في طرفة عين.

من يكون هذان الرجلان؟

رؤيته الصور كانت تأكيداً على أن أسوأ كابوس لديه قد غدا حقيقة.

سيدفع ابنك وحفيداك ثمن خطاياك...

كان رولف يكافح كي لا يفقد عقله. وقد تعيّن عليه التزام الهدوء.

«خذ وقتك». قال هوفمان.

شـرب رولـف مـن زجاجة ماء بيدين مرتعدتيـن وحاول التركيز. فقد كان يتعين عليه تذكر أشياء أمضى عقوداً طويلة محاولاً نسيانها.

فبنهاية شهر يونيو من عام 1940، تسلموا شحنة من الماء الثقيل، كما أن أحـد المصانـع فـي النرويج كان يعمل على إنتاج المزيد؛ أطنان من اليورانيوم عالي الجودة، وجهاز سايكلوترون للتخلص منه في باريس، فضلاً عن وجود فيزيائيين وكيميائيين ومهندسين وصناعة كيماويات بمواصفات عالمية، واستثمار

حقيقي في الفيزياء الذرية.

اليورانيوم المخصب؛ كم من ساعة تبلورت فيها أفكاره حول تينك الكلمتين الطيبتين والفنيتين. U-235. كتلة صلبة تضم كل السنوات السعيدة التي لا توصف من حياته.

استدار هوفمان نحوه على المقعد الخلفي في السيارة.

«سنذهب إلى ثورينغر فالد. لقد حان وقت كشف أسرار الماضي وإخراجها إلى النور».

نظر رولف مصدوماً إلى الخريطة التي كان هوفمان يمسك بها أمامه. كانت ثمة دائرة حمراء مرسومة عليها. وفي المنتصف، كانت هناك منطقة صغيرة تسمى بروتيرود في ثورينغر فالد بالقرب من غوثا.

أمسك هوفمان بنسخة من صفحة من مذكرات هانز. فشعر رولف بالقلق يتملك جسده؛ وكأن شيئاً ما بدأ يضيّق الخناق على حنجرته، فأغمض عينيه.

كيف استطاع هانز أن يكون بهذا الغباء؟ كيف استطاع أن يدوّن تفاصيل تلك الأيام؟

في الوقت نفسه، كان رولف غاضباً لأن هانز لم يدوّن معلومات أكثر دقة.

لكن، لا بد أن إيريك يشعر بالقلق، وسيبدأ بالبحث عنه في أية لحظة. وعلى الأرجح، سيعثر على معلومات عن الفندق الذي نزل فيه عندما يبحث في المنزل في ستوكهولم.

إن فكرة عبث إيريك بأوراقه وحاسوبه جعلت رولف أكثر قلقاً مما كان عليه. سيحدث الأمر عاجلاً أو آجلاً، ولكنه ليس متأكداً من رغبته بأن يكون حياً حين يحصل ذلك.

لقد فكّر طويلاً في ما إذا كان يتعين عليه حمل أسراره معه إلى قبره أم لا. ولكنّه توصل أخيراً إلى أنه لا حاجة إلى فعل ذلك. فإيريك لديه الحق في أن يعرف، ولكن فقط عندما لا يعود رولف نفسه قادراً على تحمل هذا العار.

كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى إنغريد؛ فقد كانت لديها أسبابها لتصمت إلى الأبد. ويمكن لرولف تفهُّم وجهة نظرها. فمن الأفضل بالنسبة إلى إيريك ألا

يعرف بتفاصيل حياة أمه.

حاول رولف أن يتذكر الأوراق التي يضعها في درج مكتبه. من بين الأوراق، هناك الرسائل التي أرسلتها كاثرينا. ربما سيعرف إيريك أن عليه التوجه إلى الشرطة بها.

كاثرينا...

لقد جذبت أفكاره إليها كالمغناطيس. ليست كاثرينا التي قابلها للتو، وإنما المرأة التي وقع بحبها قديماً.

سائرة على خطى هانز، حصلت كاثرينا أخيراً على عضوية في الحزب. وقد رافقهما كل من رولف وإنغريد إلى إحدى المناسبات التي ينظمها فرع الحزب في برلين، وتحديداً بعد صيف عام 1940. تدفق الشراب على طاولات النبلاء الألمان الجدد، أو كبار قادة الحزب، أو كما أطلق عليهم «الطواويس»، وخاصة من قبل اليساريين. شملت قائمة الطعام الخاصة بهم مأكولات غير متاحة للعامة؛ مثل لبن صغار الأبقار، ولحم الخروف والبط، والكمأ، والمحار، والجبن الطري، والزيتون، وكبد الإوز. «لقد ربحت ألمانيا الحرب! كل واشرب، فسنموت غداً. أليس هذا ما يقوله الكتاب المقدس؟». ثرثر هانز بتأثير الثمالة وهو يدخن سيجارة، وعادة كان يفعل ذلك وكاثرينا بين ذراعيه.

تمّ إجراء البحوث الذرية في ظل رقابة عسكرية صارمة. وفي السابع من أكتوبر من عام 1940، مُنح رولف إذناً بالسفر إلى حيث يشاء، وحصل ذلك حين تسلّم الورقة المختومة بشعار النازية.

لقد أدرك أنه كان يعمل على مشروع تكنولوجي سري تابع للجيش الألماني.

وفي مارس من عام 1941، كانت معظم قارة أوروبا تحت سيطرة النازيين. ومنذ سبتمبر، أصبح الطريق ممهداً أمام القائمين على البرنامج النووي الألماني لبناء قنبلة نووية؛ قنبلة تزن خمسة كيلوغرامات من شأنها إحداث حفرة بعمق كيلومتر وتقضي على كل حياة في شعاع قطره 40 كيلومتراً وتدمّر الأبنية بشعاع قطره 150 كيلومتراً.

إن ذلك النوع من الدمار أجبر الإنسان على طرح أسئلة أخلاقية أيضاً.

كان كلاوس بلومنثال- أحد زملاء رولف وهانز- قلقاً. فبوصفهم علماء، ما إن يتمكّنوا من بناء القنبلة، حتى تستخدمها القيادة النازية على الفور.

ولكن، ماذا لو مثَّل دفن نتائج أبحاثهم حول اليورانيوم تخلياً عن الاستخدام السلمي للطاقة الذرية أيضاً؟ هل ستستخدم حكومة مستبدة البحث العلمي بشكل أخلاقي؟

تلاشى قلق رولف عندما أيقن أن أية محاولة لمنع بناء القنبلة ستنتج عنها وفاته. وفي الواقع، لقد أراد إرضاء طموحه. فقد كانت مجموعة صغيرة من العلماء تعوّل عليه، وقد أراد أن يكسب ثقتها. وبالإضافة إلى كل شيء، ستنقذ القنبلة فنلندا من الروس.

بزواج كل من هانز وكاثرينا في صيف عام 1942، أدرك رولف أن هانز قد سلبه حبه الوحيد. فماذا بوسعه أن يفعل؟ عليه أن يرضى بمن تليها منزلة. وهل كان على يقين من أن إنغريد هي من تليها في المنزلة؟

ليس بالضرورة، ولكن إنغريد كانت ذات عزيمة؛ فقد كانت تعرف ما تريده، وما كانت تريده هو رولف. ففتاة مثل إنغريد، وهي الابنة المدللة لأحد أصحاب المصانع الأثرياء، حصلت على ما تريده دوماً. لقد أسهبت في الحديث عن أبيها بشكل مثير للسخرية؛ لدرجة أن رولف شعر أنها طفلة في الخامسة من عمرها؛ أبي فعل كذا وفعل كذا. وقد أصبحت متحمسة للغاية عندما منح قائد وحدة أس أس هيملر والدها ميدالية؛ اعترافاً بعمله في تنظيم خطة لتجنيد وحدة الفايكنغ السويدية التابعة لفافن أس أس.

كل شيء يخص إنغريد كان مميزاً، وتتصف به الطبقة الراقية. فصوتها البارد الشبيه بصوت غريتا غاربو مع لمسة تعالٍ يؤكده أسلوبها المتأني في الكلام، وبزاتها الرمادية أو السوداء المصممة بشكل مثالي، واللؤلؤ الأبيض الذي تتزين به، وشعرها الأشقر القصير، وأنفها الضيق الأرستقراطي، وفمها الصغير ولكن الجميل؛ كلّ ذلك يظهر بوضوح انتماءها إلى الطبقة الأرستقراطية. وكانت تنتعل حذاء ذا كعب عالٍ يزيد من طولها، فيجعلها أطول من رولف

بحوالي سنتيمتر. ومنحتها المواظبة على ممارسة الرياضة جسداً ممشوقاً وهيئة شبه مثالية.

وقد فسّر رولف نفوره الأولي منها بأنها أبعد ما تكون عن النوع الذي يفضله. إلا أن أي رجل آخر كان سينظر إليها على أنها جذابة للغاية. ربما تكون عيناها الزرقاوان شديدتا الصفاء أكثر ما يميزها. فقد كانتا ساحرتين وغامضتين وصارمتين في آن واحد. وما يثير الاستغراب أنها وجهت دراساتها نحو طب العيون.

أخذت حياة رولف المهنية منحى مفاجئاً في يوم ملبد بالغيوم في يونيو من عام 1942؛ عندما دُعي إلى محاضرة للدكتور ديبنر. لقد بدا أن ديبنر قد لاحظ قدراته في الفيزياء التجريبية. لقد كان كيرت ديبنر غريم ويرنر هايزنبيرغ. فقد كان هايزنبيرغ بحكم منصبه قائداً للجانب النظري من الأبحاث، بينما كان ديبنر مولعاً بالفيزياء العملية، وقد عمل لسنوات في تجارب التفجير الخاصة بالجيش في كامرسدورف جنوب برلين.

أصبح رولف عضواً ضمن فريق ديبنر، وقد تم نقله إلى خندق مفاعل الاختبارات في غوتو. وقد قضى وقت فراغه النادر في برلين برفقة إنغريد ومجموعة ضيقة من الأشخاص تشمل هانز وكاترينا وكلاوس، فضلاً عن بعض الباحثين الشبان.

لقد كانوا جميعاً طموحين. ولكن، كان من المؤسف أنه لم يكن بمقدورهم السماح بنشر أي شيء عن ثمرة جهودهم إلى أن يتمكن زملاؤهم في الخارج من تقييمها.

في أحد أيام الربيع اختفى كلاوس بلومنثال. فهل ترك المجموعة حقاً بعد هذا الاعتبار الأخلاقي؟ وهل هرب إلى الخارج؟ لقد دفع هذا الأمر رولف إلى إعادة التفكير في عمله ووضعه. لكن، لم تكن لديه أفكار واضحة عن العودة إلى فنلندا. فقد أصبح إنقاذ فنلندا من الاتحاد السوفييتي حافزه العاطفي السري الكامن خلف كل أعماله العلمية.

توطدت علاقته بإنغريد. وكان سعيداً لأن مجموعة ديبنر قد تعاونت في

تنفيذ العديد من الدراسات مع علماء الجينات؛ في إجراء فحص عميق للآثار البيولوجية والجينية للنشاط الإشعاعي. لقد كانت إنغريد منخرطة في مشروعين موسعين، لذا كان بإمكان رولف أن يناقش معها أموراً تركها طي الكتمان من قبل.

كان كل منهما يكمل رسالته ويعمل ساعات طويلة في الوقت نفس. وكانت مناقشة رسالة رولف في سبتمبر من عام 1942، بينما كانت مناقشة رسالة إنغريد في أكتوبر. وقد تزوجا في حفل زفاف ألماني بسيط في مايو من عام 1943. وكان على كل منهما التأكيد على أنهما من عرق آري نقي، إلى جانب أزيائهما.

لذا، غدت علاقة رولف بالألمان أقوى من ذي قبل. وعلى الرغم من أنه كان شاباً وما زال أجنبياً، إلّا أنه كان يعامل دوماً باحترام كبير. لقد كانت فنلندا حليفاً قيماً، وقد كان الفنلنديون عرقاً أخوياً حتى خريف عام 1944. لذا فقد كان يعرف بـ«Herr Doktor» عند الجزار والمخبز الذي بالزاوية والحلاق. وأفضل شيء في كل هذا هو حقيقة أن زوجة الدكتور الشاب السويدية الجميلة لم تكن زوجة دكتور فحسب، بل كانت هي نفسها دكتورة.

أدرك رولف أهمية عمله في أحد أيام شهر مايو من عام 1944، عندما تكهربت الأجواء فجأة في مصنع غوتو. فقد حضرت أعداد ضخمة من وحدة أس أس إلى المصنع من مكان ما، أشخاص عمالقة يقترب طول الواحد منهم من مترين وذوو سحنة صارمة. يرتدون بزات سوداء، ويعتمرون خوذات حديدية، ويفتشون كل ركن في المنشأة. إنهم الحرس الشخصي للفوهرر أدولف هتلر.

المرة الأولى التي رأى فيها رولف أدولف هتلر كان حينها يقف عند باب المصنع.

كان قد وصل متأخراً، ولكن لن يلومه أحد على ذلك. اقترب هتلر من مجموعة رولف وبجانبه الوزير سبير. لم يكن الفوهرر عظيم البنية، وكان يتبسم برسمية أو على الأقل بشكل مهذب، مع شاربه المضحك الشبيه بشارب

تشارلي تشابلن ويرتدي سترة عسكرية رمادية. لاحظ رولف الصليب الحديدي الشهير الذي وضعه على صدره من الحرب العالمية الأولى.

كان يراقب المصافحة بالأيدي بحذر بطرف عينه. كانوا يقفون في صف عسكري بينما سار الفوهرر وعدد قليل من مرافقيه مصافحين المتراصين أمامهم. وعندما اقترب من الدكتور دينر، توقف الفوهرر لتبادل بعض الكلمات الودية، ثم تقدمت المجموعة إلى حيث كان رولف يقف. وقد تولى سبير بنفسه عملية تعريفه إلى الحاضرين: «الدكتور هاغن... الدكتور برنكمان...».

وأخيراً، جاء دور رولف. شعر أن قلبه يخفق أسرع، ووقفت كل شعرة في جسده منتصبة. وقد سمع صوت سبير من مكان ما بعيد يقول: «الدكتور نارفا من فنلندا».

مسح رولف مرتبكاً راحة يده المتعرقة على ساق بنطاله ومد يده، وقد حاول أن يبدو هادئاً وواثقاً. فيما رسم هتلر ابتسامة كبيرة على وجهه.

«فنلندا؟ إنه بلد جميل! أتعلم؟ أنتم الآن أهم وأقرب حليف لنا في صراعنا مع البلشفية».

ثم أمسك الفوهرر بيده وتابع: «أنت يافع للغاية! كم عمرك؟».

أزال رولف الحشرجة من صوته بارتباك.

«ستة وعشرون عاماً سيدي الفوهرر!».

بدت الابتسامة للحظات كما لو أنها ستصل إلى عيني هتلر ذواتي اللون الأزرق الداكن. وشدّ على يد رولف مرة أخرى، ثم قال بصوت أبوي مبتهج: «ابنِ لنا قنبلة أيها الشاب... لدي ثقة عظيمة فيكم جميعاً، فلا تخذلوني!».

ابتلع رولف لعابه.

«سنبذل قصارى جهدنا يا سيدي الفوهرر!».

كان هتلر قد انتقل لمصافحة هانز عندما أدرك رولف أنه كان يستنزف كل عضلة من رأسه إلى أخمص قدميه كي لا يبدو مرتبكاً.

قنبلة! أين ينوي إسقاطها؟ وأمل ألا يكون الهدف هو لندن. ربما موسكو أو لننغراد...

اقتيد هتلر إلى مكتب عند المدخل، ووقف هناك بالقرب من منتصف طابور العلماء، وجعل يجول بعينيه على الأطباء والمهندسين والفنيين الذين وقفوا ينتظرون سماع كلامه. كان صوته منخفضاً ولكنه مسموع، وكان يتحدث بمصطلحات تأكيد متأنية.

«لقد خان ثقتي العديد من الجنرالات. فكلما ازدادت صعوبة الوضع، كان لزاماً علينا الاستثمار أكثر في سلاحنا. لكن مشروعكم- سلاحنا السري- قد يكون عنصر الخداع الذي سيدفع بألمانيا نحو النصر! ولحسن الحظ، يبدو من المؤكد أن برامج الأميركيين المشابهة لم تصل إلى ما وصلنا إليه، وذلك على حد علمنا...»

عنصر الخداع، فكر رولف. هل كان من المؤكد أن هتلر محق؟ وأي سبب لدى رولف يجعله يتمنى انتصار ألمانيا؟

لا شيء سوى مصير فنلندا. فإذا سقطت ألمانيا فستسقط معها فنلندا. ولا سبيل لرؤية الأمر من زاوية أخرى.

كانت ذكرى لقائه الفوهرر إحدى أكثر الذكريات ضبابية وأكثرها سرية. وكان يرغب بإطلاع الأجيال القادمة عليها قبل وفاته؛ وهو شيء مخزٍ في حد ذاته، ولكنه رغم ذلك حدث تاريخي. لكن شعوره بالعار أجبره على الصمت. فقد كان يتصرف كالأطفال، ويفتقر إلى الحكمة في تلك الفترة، وقد أعماه طموحه العلمي.

والآن، بدأ مشروع هتلر يلوح في الأفق من العدم؛ من بين سحب التاريخ الداكنة. وقد كان ذلك يهدد رولف نفسه وكل من على صلة به.

(6)

سـارت سـيارة الأجرة في شـارع ضيق تعصف به الريح ويمر عبر الغابة. وجلس إيريك على المقعد الخلفي وهاتفه على أذنه. لقد اتصل بكيت وأخبرها بأنه نسي بعض الأوراق المهمة في سولسيدان. والآن ها هو يتحدث إلى أمه.

قالت إنغريد بهدوء: «لا بد أن هناك سـوء فهم. ولا بد أن اسـم أحدهم قد تشابه مع اسم رولف».

«أمي... يبدو واضحاً للغاية أن أبي قد كذب عليكِ بشأن ماضيه».

«ولماذا سيكذب علي؟».

«لسبب أو لآخر، أو لأنه لم يرغب في أن تعرفي أنه قد عاش في ألمانيا».

ضحكت إنغريد باستغراب وقالت: «ولأي سبب سيرغب في هذا؟».

«لا أدري. كنت آمل أنكِ تعرفين».

وبينمـا كانـت سـيارة الأجـرة تدخـل الفيـلا، تسـاءل إيريـك إن كان عليه تصديق أمه. ففي كل الأحوال، لن تتم تسوية المسألة عبر الهاتف.

«عليّ أن أنهي الاتصال الآن؛ فسأغادر إلى برلين».

«إنك تبالغ في ردة فعلك. ماذا عن كيت والولدين؟».

«سيعودون إلى الديار من دوني، وستأتي كيت لزيارتك غداً».

«جيد». قالت إنغريد ذلك بنبرة متشككة.

طلب إيريك من السائق أن ينتظر، وترجل من السيارة وهرع صوب الفيلا. لقـد فعلـت أمـه الكثيـر من أجل غنـدو، ولحياته العلمية المهنية بأسـرها. لكن تنازلها عن حقوقها كان أمراً مزعجاً للغاية.

لكنه يفهم أمه رغم ذلك؛ فحب العلوم هو القاسم المشترك بينهما، وقد ظهر ذلك منذ أن كان طفلاً. لقد عرفت كيف تشرح له سلوك الكائنات الحية بطريقة حيوية سـهلة الفهم، وحماسـتها لعلم الأحياء كانت أحد الأسـباب التي

جعلت إيريك يختار هذا التخصص كمهنة. وهو لم يرَ والدته فخورة به بشدة مثلما فعلت عندما احتضنته بعد أن قدّم أطروحته في جامعة بيركلي. حتى إنه أهداها أطروحته، ولم يكن ذلك مجرد إفراط في المشاعر، وإنما كان شكراً من الأعماق. ولحظة الانتصار الأخرى كانت بعد عدة سنوات لاحقة، عندما انضم إلى مشروع الجينوم البشري في مؤسسة كولد سبرينغ هاربور للبحوث.

دلف إيريك إلى داخل المنزل. أراد أن يتفحص المكان بتأنٍ، وخاصة ألبوم الصور.

غير أنه عندما اقترب من باب المكتب تجمد في مكانه، وشعر كما لو أن سيارة قد صدمته.

فكل محتويات الخزائن والأدراج قد تم رميها على الأرض، كما أن بعض الكتب التي كانت على الرفوف قد جرى قذفها في أنحاء الغرفة. كان الدمار شاملاً.

لم يكن قد غاب عن المكان سوى ساعة واحدة لمقابلة المؤرخ في شقته. هل ترك الباب من دون أن يقفله؟ كلا، إن كان شديد الحذر في شيء ما فهو في مثل هذه الأمور. على الأقل، بقي الكمبيوتر والتلفاز في مكانيهما.

تحرك راغباً في الذهاب والتحقق من بقية الغرف، غير أنه فجأة سمع صوت انغلاق خزانة في المطبخ.

لا يزال هناك أحد هنا، وقد أمسك بالدخيل متلبساً.

وقف إيريك ساكناً وأصغى السمع. كان صوت ضربات قلبه العنيفة والمؤلمة هو الصوت الوحيد الذي بلغ أذنيه في هذا الهدوء المفزع.

ما الذي كان يبحث عنه ذلك الدخيل؟ لا بد أنهم يعرفون أنه كان في المنزل.

خطرت في باله سلسلة من الاحتمالات؛ قد يهاجمه الدخلاء أو قد يفرون، أو يمكنه مهاجمة الدخلاء أو الفرار.

اقترب من باب المنزل بحذر ومن دون أن يصدر صوتاً. إذ لم يرغب في خوض أية مغامرة، لذا قرر أن يهرع مباشرة نحو الباب، ومنه إلى سيارة

الأجرة التي تنتظره.

مشى خطوتين أخريين، ثم حول بصره نحو باب الردهة. استجمع قواه، وكان يهم بالاندفاع عبر الباب عندما ظهر شخص ما عند باب المطبخ.

تسمر في مكانه من المنظر؛ فقد ظهر رجل شعره أسود، ويقترب منه في العمر، موجهاً إليه سلاحاً، وهو يسير ببطء صوب الباب، وفي يده الأخرى كان يمسك بصورة صغيرة ذات إطار.

جعل الرجل ظهره إلى الباب كي يضمن أن إيريك لن يقوم بأي فعل غير متوقع.

وأغلق الباب.

حدق إيريك إلى الردهة الفارغة للحظة وهو لا يقوى على الحراك، ثم هرع صوب النافذة، لكنه تعثر في الأغراض المبعثرة على الأرض. غير أنه نهض بصعوبة ووقف على قدميه، ونظر إلى الفناء وأنفاسه تتسارع، وكان كل ما رآه هو سيارة الأجرة من طراز مرسيدس.

بحث في جيبه عن هاتفه وطلب خدمات الطوارئ؛ وقد وعدوا بإرسال دورية للشرطة. وإن لم يصلوا باكراً، فسيتصل بكيت ويخبرها بأنه سيلحق بهم في رحلة لاحقة.

ذهب إيريك إلى السائق، وأخبره أن عليه الانتظار لفترة أطول. ثم عاد إلى داخل البيت وهو متوتر. هل أصبح اللصوص السويديون مسلحين هذه الأيام؟

كانت كل الغرف في حالة فوضى كاملة، حتى إن خزائن المطبخ قد جرى نهبها. وقد نُزعت إحدى صور والده عن الحائط، صورة له وهو يقف أمام معزز صاروخ ساترن فايف العملاق. لماذا سُرقت هذه الصورة بحق الله؟

كان إيريك يأمل أن يغادر باكراً، لكنه أجبر نفسه على التزام الهدوء. التقط ألبوم الصور المغلف بالجلد الذي أتى إلى الشقة لأخذه، فأعادته الصور فيه للحظة إلى يوم مشمس في فلوريدا في الستينيات. حيث كان هو وأمه جاثمين وينظران إلى بعض عجائب الطبيعة في مخيم الحياة البرية في جزيرة ميريت، وقد أقيم حفل شواء في الباحة الخلفية لمنزلهم الأبيض في تيتوسفيل، وقد

كان والده واثنان من زملائه يقفون أمام مجسّم للقمر.

بعض الصفحات الرمادية المقواة كانت هناك صور داخلها، فيما كان البعض الآخر فارغاً؛ حيث أزيلت منه الصور. كانت تلك الصور بلا شك في ألبوم الصور الخاص بأمه. لقد كان طلاقهما مريراً، وذلك لسبب لم يكن إيريك واثقاً منه. حاول مراراً إثارة الموضوع، لكنه لم يمتلك الشجاعة للقيام بذلك. فعلى ما يبدو، يشكل هذا الموضوع مصدر ألم كبيراً لأبيه وأمه حتى الآن.

التقط ألبوم صور أكثر قدماً عن الأرض. وكان الألبوم يحتوي على صور لغرفة كبيرة مع صور لعشرات التصاميم الموضوعة على طاولات رسم مائلة. نظر إليها باهتمام غير معتاد؛ إذ بدت الصور الأكثر قدماً ملتقطة في أوائل الخمسينيات. ولم يرَ أي ألبوم آخر.

بمَ أخبره والده حقاً عن سنوات دراسته في متشيغان؟ القليل جداً، بل لا شيء تقريباً.

نظر إيريك إلى الساعة. مرت دقيقتان فقط منذ اتصاله بخدمة الطوارئ، لكنه شعر أن المدة التي مرت أطول من ذلك. بدأ بالبحث بين الكتب، وتفحص عناوينها، وكما كان متوقعاً كانت كلها بالإنجليزية وليست بالألمانية.

كان ظهر أحد الكتب مغطى بشريط لاصق حيث لا يمكنك قراءة عنوانه، «هروب العالم» لـH.G. Wells. توقف إيريك قليلاً عندما رأى كلمة مكتوبة بخط اليد في الركن الأيمن العلوي من صفحة العنوان ذي اللون الأصفر، هانز بـ...كان من الصعب قراءة الاسم الأخير، بلوغر أو ما شابه.

في كل الأحوال، بدا الاسم ألمانياً؛ مما دفع إيريك إلى تصفح الكتب باهتمام أكثر مما فعل قبل ذلك. معظمها كانت مؤلفات بالإنجليزية عن الفيزياء وعلوم الفضاء، بما في ذلك العديد من الكتب التوضيحية لبرنامج أبولو.

كان من بين الكتب ملف يحتوي مطبوعات. لقد كانت مسودة لكتاب ما، العودة إلى القمر: استكشاف ومغامرة وطاقة في استيطان البشر للفضاء.

العودة إلى القمر... لطالما كان لدى أبيه حنين إلى الماضي. ولكن، لا

عجب في أن سنوات برنامج أبولو لا تزال ذكراها حية بشدة في ذاكرته. كان المؤلف هو هاريسون اتش. كان جاك شميت آخر رائد فضاء يذهب إلى القمر، استناداً إلى ملخص في صفحة العنوان.

وفي الأسفل، كانت هناك ملحوظة كتبت بخط يد شميت: إلى رولف، لن تعود الأيام الخوالي أبداً، لكن ثمة أيام جيدة لا تزال أمامنا. جاك.

ذهب إيريك للنظر إلى الكتب التي لا تزال على رفوف المكتبة. كان هناك القليل جداً من الأعمال عن الحرب العالمية الثانية، ولكن معظمها بدا أنه يتعلق بالحقبة التي تلت الحرب.

كانت هناك كتب عن ستالين؛ وهو موضوع سحر والده. كما كان هناك كتاب أرسله إيريك نفسه إلى والده هدية بمناسبة الكريسماس. كان بوسعه أن يتذكر قصص الرعب التي كان والده يحكيها له عن وحشية ستالين منذ أن كان طفلاً. فبالمقارنة معها تأتي «وحشية هتلر في المركز الثاني». لم يكلّ والده مطلقاً من التحدث عن ذلك عاماً بعد عام، وكيف أن ما شاع هو أن هتلر أكثر فظاعة من ستالين.

توجّه إيريك إلى المطبخ حيث تركت الخزائن والأدراج مفتوحة. وقد لاحظ أن أرضية الخزائن كانت مغطاة بالألواح، بينما كان يجري استخدام المشمع في باقي الغرفة. وقد تمت إزاحة أحد الألواح جانباً.

جثا إيريك على ركبتيه، وأدخل يديه في فتحة في الأرض ليستكشفها. وعندما كان يهم بسحب يده لمست أصابعه جسماً مغطى بورقة.

استخرج الصندوق الصغير. كان لونه البني القاتم والشريط الهش المغلف به يشيران إلى أن الحزمة تعود إلى عقود خلت.

تردد إيريك في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما بدأ بنزع جزء من ورق التغليف. وقد كشف ذلك عن صحيفة باللغة الإنجليزية اتضح أنها ذي هانتسفيل تايمز ويعود تاريخها إلى عام 1955.

التقط سكين المطبخ ليفتح الصندوق محكم الإغلاق. وقام بثقب الجسم المبطن بالقطن الصوفي.

لقد كانت كاميرا مصغرة، وربما يكون قد تم إخفاء عدستها داخل الإطار. وبالنظر إلى حجمها، لن يلائمها سوى فيلم مصغر.

كان ثمة نقر سريع على الباب الأمامي.

وقال شاب: «الشرطة».

فأعاد إيريك الكاميرا إلى مكانها.

(7)

أزالت يد امرأة نحيفة شاحن البطارية من مقبس الكهرباء. استخرجت المرأة بطاريات بحجم علبة ثقاب من الشاحن ووضعتها في حقيبة ظهرها، ونحّت شعرها القصير والمجعد جانباً. كانت في السابعة والعشرين من عمرها، وسمراء البشرة، بوجه يعلوه النمش، وتعابير صارمة وجادة. كانت ترتدي بنطلون جينز وقميصاً قطنياً ناعماً، وتنتعل حذاءً جلدياً مسطحاً.

«هل أنت واثقة من أن البطاريات مكتملة الشحن؟». سألها شاب نحيف يرتدي سترة.

«الضوء الأخضر يعمل». أجابته كارلا بلوغر وهي تسير نحو باب الغرفة عالية السقف في شقة بمبنى يعود تاريخ تشييده إلى نهاية القرن التاسع عشر في ناحية برنزلوربيرغ في برلين. كانت الأرض مغطاة بالفينيل، والجدران مغطاة بثقوب صغيرة بفعل مسامير تثبيت الورق التي استعملها عشرات الأعضاء السابقين في البلدية. لم تقم كارلا بتعليق أي ملصق أو زينة على الإطلاق.

تبعها جوشم إلى الردهة ذات الضوء الخافت، الممتلئة بدراجتين وتشكيلة من الأحذية العادية والأحذية طويلة الساقين. كان أحدهم يهمهم ويحدث جلبة في المطبخ فيما كانا يتوجهان نحو باب الشقة.

بعد أقل من نصف ساعة، كان جوشم وكارلا يسيران أسفل جسر براندت للمشاة، وبمحاذاتهما نهر سبري. جالت كارلا بنظرها على أعمدة السياج التي تعلوها كاميرات مثبتة عليها. كانت قلقة من زياراتهما المتكررة للمنطقة. فقد أصبحت إجراءات المراقبة أكثر صرامة بعد هجمات سبتمبر.

«هناك». قال جوشم وهما يمشيان في الممر المخصّص للمشاة نحو مرأب السيارات الواقع بجانب «بيت الثقافة العالمي».

سارت كارلا من دون أن تبطئ خطواتها، ورأت مبنى المستشارية الجديد.

نظرت إلى شقة المستشارية الواقعة في الطابق الثامن؛ بنوافذها الضخمة التي تعلو خلف مزروعات خضراء مزروعة في أصص معلقة على إحدى الشرفات. هنا حيث عاش غيرهارد شرودر؛ أكثر الرجال تأثيراً في ألمانيا وأوروبا.

وكانت لكارلا علاقة به.

اندفع إيريك إلى داخل مطار أرلاندا نحو بوابة الرحلة المتجهة إلى لندن. كان رجال الشرطة مشغولين للغاية، وبدوا أنهم يعتقدون أن القضية ليست عادية، وستمثل صعوبة في التحقيقات. كانوا قد أعدوا تقريراً، وقد أشار إيريك إلى أن والده ربما يكون مفقوداً في برلين. ولكن هذا كان من اختصاص الشرطة الألمانية بالطبع.

كانت كيت والولدان يقفون قلقين في آخر طابور المسافرين، وشعروا بالارتياح حين رأوا إيريك. كان قد اتصل بكيت في وقت سابق، وأخبرها بشأن الرسائل التي عثر عليها في الفيلا، وعن لقائه المؤرخ، وعن السرقة.

«هل يمكن أن تكون لعملية الاقتحام علاقة باختفاء رولف؟». سألت كيت والقلق بادٍ عليها، بينما كان إميل وأوليفيا يتعاركان على الحلي البلاستيكية التي وجداها داخل بيضتي كندر اللتين اشترياهما.

«يبدو هذا مستحيلاً. لننسَ الأمر فحسب، ولنترك الأمر للشرطة لتفعل ما باستطاعتها». وصمت إيريك هنيهة ثم أكمل: «سأذهب إلى لندن لاحقاً. أما الآن فيجب عليّ أن أتوجه إلى برلين. ستغادر طائرتي قريباً».

«عمّ تتحدث بحق الله؟ هل ثمة شيء آخر لم تخبرني به؟».

«كلا، أنا قلق على أبي فحسب. لا تخبري إنغريد بأي مما جرى».

«ولمَ لا؟ فهي من بين القليلين الذين ربما يعرفون شيئاً».

كان إيريك يود التحدث إلى أمه وجهاً لوجه، ولكن لم يكن ثمة متسع من الوقت للقيام بذلك. وقد كانت كيت بارعة في قراءة الناس وتمتلك بصيرة أعمق منه.

قال إيريك: «حسناً، اسأليها عمّا تعرفه عن السنوات التي عاشها في ألمانيا».

«لِمَ كل ذلك؟ هل لدى المؤرخ الذي التقيه أي تخمينات؟».

«لقد تحدث عن برنامج لجلب الألمان إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وقد شمل ذلك الكثير من خبراء الطيران والصواريخ».

لم تنبس كيت بكلمة، لكن تعابير وجهها كشفت ما كانت تفكر فيه. فرجل عمل سابقاً لصالح الجيش ووكالة ناسا وشركة لوكهيد تنطبق عليه المواصفات بشدة.

واصل إيريك حديثه بشكل أوضح مما قصده: «ولكن، لا فائدة من التخمين. فكل ما يمكن الاعتماد عليه هو الحقائق».

لماذا شعر بالغضب من النظرة التي بدت على وجه كيت؟ فعلى كل حال، لقد كان يفكر في الأمر نفسه بالضبط.

نظر إلى ساعته وابتسم بتكلف أثناء معانقته ولديه.

«متى ستعود إلى الديار؟». سألته أوليفيا.

«قريباً جداً. لا تنسي ري الشجرة ببعض الماء».

كانت أوليفيا قد جلبت معها من الكوخ بذور شجر البتولا ووضعتها في كيس. وكانت تخطط لزراعتها في فناء بيتهم في لندن، حيث كان شجر البتولا نادراً.

«لن تنمو». قال إميل بدافع الغيرة من فكرة شقيقته.

«ستنمو». ردت أوليفيا.

«تصرّفا بأدب الآن. فأمكما لا تود سماع جدال». وقال إيريك وهو يحتضن كيت: «أراكِ عما قريب».

(8)

كان رولف يجلس على المقعد الخلفي لسيارة الأودي وهو يتناول شطيرة اشتراها له مرافق هوفمان من مقهى الجامعة. أما هوفمان نفسه فلم يغادر السيارة، وكان ينتظر بصبر ليبوح له رولف بالمعلومات التي نسيها منذ زمن طويل.

قال هوفمان: «فكر في الأمر قليلاً، فنحن سنغادر إلى هناك عما قريب».

شعر رولف بالبرودة. فأياً كان هوفمان هذا، فقد كان يعرف ما يريده، ومن الواضح أنه كان مستعداً للحصول عليه بأي وسيلة ضرورية.

لقد واجه رولف رجالاً مثله من قبل. بل وربما كان هو مثله في فترة ما من حياته المهنية...

وقعت اللحظة الخادعة في يوم ممطر وضبابي في شهر ديسمبر عام 1944. ففي الصباح، غادرت مجموعتهم ستادتلم حيث يقع مختبر البحوث الذرية الخاص بالجيش، وذلك بعد إخلائه من غوتو خلال عمليات القصف. وبعد اجتيازهم مسافة مئة كيلومتر في نورهاوسن جنوب جبال هارز، وصلوا إلى منطقة قريبة تحرسها وحدة أس أس.

اقتربوا من بوابة حديدية ذات سياج شائك يمتد على جانبيها بطول أربعة أمتار. دلفت سيارتهم في مدخل كهف محفور في جانب الجبل ومموه بالأقمشة. وبجانبه، كانت ثمة أبنية حديدية ورافعتان ثقيلتان وممرات ضيقة تقود مباشرة إلى داخل الجبل.

لم يكن رولف مستعداً لما رآه. لقد كان الأمر برمته مفاجأة مذهلة بالنسبة إليه.

ظهر شخص شاحب الوجه في الستين من عمره تقريباً؛ وكأنه ظهر من العدم وأتى للقائهم.

«أنا كيلر، مانفريد كيلر، كبير المهندسين. أهلاً وسهلاً! تفضلوا!».

رافقهم حراس وحدة أس أس إلى داخل النفق الذي انفتح على كهف عملاق محفور في الجبل. تقدموا في عمق النفق حتى أحاط بهم دخان وشرر يتطايران في الهواء. وقد استقبلت آذانهم صوت صرير الآلات المزعج وصوت التكسير والطرق. كانت ثمة مخرطة طويلة مع ومضات أضواء، وتحت كل مصباح كان هناك رجل نحيف وغير حليق يرتدي زياً مقلماً يعمل. وكان الحرس المسلحون يصرخون موجهين الأوامر إليهم. لم يستطع رولف أن يشيح بنظره بعيداً.

«نطلق على هذا المصنع اسم ميتلويركي 1». صاح كيلر بنبرة افتخار وتابع: «ما ترونه أمامكم ربما يكون أهم تقدم تكنولوجي في الإنتاج الضخم لهذا القرن. وما نحن بصدده هنا هو أول صاروخ باليستي موجَّه يعمل بالوقود السائل فقط».

تحركت عربات على طول الممر الضيق في كلا الاتجاهين، فشكلت خط تجميع إلى جانب الممر الرئيس الذي كان بطول ثمانية أمتار وبعرض اثني عشر متراً. بعض السجناء قاموا بثني الأحزمة التي ثبتت القطع المعدنية الكبيرة، بينما جلس آخرون إلى طاولات لتثبيت المكونات الصغيرة معاً بالمسامير. وكان بعضهم يضع ضمادات قذرة عليها آثار دماء بسبب إصابتهم أثناء العمل. والأسوأ من كل هذا هو منظر أجسادهم النحيلة.

شعر رولف بالرعب في داخله، ولكنه كان حذراً، وحاول عدم إظهار أي رد فعل. الآن فهم للمرة الأولى وبما لا يدع مجالاً للشك لدى أي نوع من الدول كان يعمل طوال تلك السنوات. فحتى تلك اللحظة، كان يحظى بحياة نقية ومتحضرة لا يرى فيها سوى مختبرات أورانفيرين. أما الجانب الدموي للدكتاتورية العسكرية فلم يكن ظاهراً بالنسبة إليه.

«هذه خطوط تجميع صواريخ أيه-4 الباليستية الموجهة. حيث تتحمل شركة ميتلويركي غامب الخاصة مسؤولية الإنتاج. ويشمل عقدهم إنتاج 12000 صاروخ في المرحلة الأولى».

توقفوا عند محطة رئيس العمال المرتبة بشكل دقيق، حيث كانت الأجواء أهدأ بقليل. كان بإمكان رولف رؤية نظرات الصدمة ذاتها بادية على وجوه زملائه.

«كم عدد الصواريخ الموجهة التي تم تصنيعها لغاية الآن؟». سأل الدكتور هاغن بصوت صارم كرجال الأعمال.

«حوالى 3000 سقط أولها على لندن في الثامن من سبتمبر هذا العام».

«ألديكم ما يكفي من العمال؟». سأل الدكتور برنكمان بصوت خالٍ من التعابير.

كان رولف يعرف الدكتور برنكمان، وقد علم بما تخفيه نبرة صوته الخالية من التعابير.

«لقد كنا محظوظين منذ البداية بأن حصلنا على ما نحتاج إليه من الأيدي العاملة من المعسكر المجاور. في البداية، كنا معسكراً فرعياً، ولكننا نعمل الآن بشكل مستقل، شركة ميتلويركي ومعسكر ميتلويركي. والمدير هو قائد لواء في وحدة أس أس، هانز كاملر، وهو رجل كفؤ للغاية. وقد كان مسؤولاً من قبل عن أعمال البناء في بيركينو، وماجدان، وبيرغن بلسن».

«هل استخدام السجناء في كل الصناعات الألمانية شائع هذه الأيام؟». سأل الدكتور برنكمان من دون ارتباك.

«أجل، إنه كذلك. فعلى سبيل المثال، لدينا في أكثر من أربعين من معسكراتنا الفرعية ورش عمل خاصة في المنطقة؛ حيث نصنع كلاً من محركات الطائرات ومحتويات الصاروخ، وتتم الاستفادة من السجناء لتنفيذ العمل. كما أن لدينا أكثر من عشرين شركة خاصة، ومتعاقدين فرعيين مثل سيمنز وايه اي جي وتيليفونكن وبي أم دبليو وجانكرز على سبيل المثال لا الحصر. وحتى هم من النادر أن يكون باستطاعتهم العمل بعمالة مدفوعة الأجر فقط».

«كم عدد كل العاملين لديكم؟».

بدأت ملامح الاشمئزاز تظهر على وجه برنكمان. ولكن، لحسن الحظ، تحمّس كيلر للموضوع منعه من ملاحظة ذلك.

قال كيلر بنبرة اعتزاز: «حوالى 17000 عامل في الوقت الراهن. نحن نعمل على مدار الساعة، ونقسّم العمل إلى مناوبتين. ويحاول مدير الإنتاج، آرثر رودلف، مراقبة المعتقلين قدر استطاعته من أجل الحصول على أفضل أداء من كل منهم. وبالمنطق نفسه يعمل كل العمال الألمان، بمن فيهم رئيس العمال والمهندسون، طبقاً لجدول العمل نفسه. لكن التيفوئيد والسل يشكلان مشكلة باستمرار. وكانت أسوأ مرحلة هي بناء الكهوف؛ فقد كنا بحاجة إلى تدفق مستمر لليد العاملة في كل مرحلة من مراحل المشروع».

استكملوا جولتهم في حفرة جهنم. انفتح على يسارهم ممر جانبي بدا واضحاً أنه أكبر من الممرات الأخرى. وقفز رولف من مكانه عندما رأى ثلاثة صواريخ مكتملة الإنتاج، طولها 15 متراً، وقد تمّ تثبيتها بشكل عمودي. لقد كانت الصواريخ دوماً ما يجذبه، والآن كانت ثلاثة منها أمامه، وهي الأكبر حجماً والأحدث على مستوى العالم.

لكن عينيه انجذبتا صوب شيء معلق خلفه.

أعلن كبير مهندسي كيلر بنبرة احتفالية: «أيها السادة، الغرفة 41. نصبت هذه الصواريخ في وضع عمودي لاختبارات التوازن والوقود النهائية. وسيتم إرسالها من هنا مباشرة إلى مواقع إطلاقها في هولندا وشمال ألمانيا».

كان بوسع رولف سماع صوت كيلر، لكنه حدق بحيرة وهلع إلى الصواريخ الضخمة والأجسام الداكنة المعلقة بحبال خلفها.

كانت أجسام أشخاص.

لاحظ الآخرون في المجموعة أيضاً الرجال المشنوقين، لكن كيلر واصل حديثه بعدم مبالاة.

«لا يجري تثبيت الرؤوس الحربية الرئيسة إلى أن يتم نقل الصواريخ إلى الميدان. ويبلغ مدى الصاروخ الواحد 12900 كم، وهو ينطلق بسرعة قصوى تبلغ 6400 كم/ الساعة».

توقف كيلر عن الكلام، وشعر رولف بمرارة في حلقه. كان يودّ التركيز على المواصفات الفنية المذهلة للصاروخ، لكنه في الوقت نفسه كان يكابد

كثيراً كي لا يشعر بالإعياء.

ومن دون أن يخطف نظرة واحدة إلى الرجال المعلقين، قال كيلر: «يمكنني ملاحظة حيرتكم. تظهر الأعمال التخريبية بين فينة وأخرى. ولكن، نظراً إلى أن كل وحدة عمل يعمل فيها عدد محدد من العمال، فدوماً يجري اكتشافهم. وعادة، يكون العقاب على هذه الأعمال هو الإعدام. وهذا بالطبع يحد من انقطاع الإنتاج. أين كنا... صحيح. سرعة قصوى تبلغ 6400 كم/ الساعة، وتبلغ مدة تحليقه خمسة دقائق كحد أقصى، مع رأس حربي يزن 980 كلغ. بكلمات أخرى، إنه يشبه القنبلة الضخمة. سيكون من الأفضل وجود متفجرات ذات حجم أكبر، ولكن هذا غير ممكن حالياً».

«أو متفجرات أكثر فعالية». قال الدكتور هاغن بهدوء.

«وهي المشكلة ذاتها». قال كيلر بانفعال، وأضاف: «لقد طُلب مني أن أريكم المنشأة. والآن، أنا مهتم بالسماع عن عملكم».

تخلص الدكتور هاغن من الحشرجة في صوته، وكان بإمكان رولف استشعار خوفه.

تمتم هاغن بدون حماسة: «يُعنى عملنا بفعالية الرؤوس الحربية. فنحن نجري تحقيقاً أولياً حول إمكانية إنشاء نوع جديد تماماً من المتفجرات. يمكننا القول إن قدرتها التدميرية تفوق قدرة الصواريخ الضخمة بآلاف المرات».

لمعت عينا كيلر.

«أتقصد السلاح السري؟ كم سيبلغ حجم المتفجرات؟».

«لم نقترب بعد من مرحلة إنتاج المتفجرات، ولكننا نودّ أن نبدأ بشكل نظام الإطلاق الذي سنستخدمه. ووفقاً لحساباتنا، قد يبلغ حجم الرأس المتفجر نفسه حجم حبة الأناناس».

ارتسمت ابتسامة مفعمة بالحماسة على شفتي كيلر.

«أنتجوا لنا حبة أناناس منها بأسرع وقت ممكن. يمكننا إرسالها أينما يشاء الفوهرر– ضمن النطاق المتاح لنا– بدقة وبسرعة كبيرة. بل إن حمولة أكثر خفة ستزيد من مدى الصاروخ نوعاً ما... سيعمل الدكتور براون ومجموعته

على ذلك بأسرع وقت ممكن. كلا، دعني أصحّح ذلك، اصنع لنا مئة منها! أو ربما أكثر، ألف حبة!».

لم تظهر نبرة تحمل رغبة في القتل في صوت كيلر، وإنما حماسة طفولية وشعور بالوطنية. شعر رولف بالدوار. ألف قنبلة ذرية في يد هذه الحكومة! تمنى لو تمكن من الهرب عائداً إلى فنلندا ونسيان أنه أتى إلى هذا البلد أصلاً.

لكنه لا يزال يقف في هذا المكان، وشعور بعدم الارتياح والقلق يتملكه هو وزملاؤه بسبب فظاظة كيلر. وعلى الرغم من ذلك، عاود النظر إلى الصواريخ بفضول، وخاصة إلى رؤوسها الحربية. كان ذلك ما يحتمل أن يعمل عليه.

أنهى كيلر الجولة بزيارة إلى المكتب، وبتقديم مجموعة البحوث الذرية إلى آرثر رودلف، مدير الإنتاج لخط الإنتاج ميتلويركي 2، وبقية المديرين الفنيين. التقى رولف أشخاصاً كان قد قرأ عن اكتشافاتهم في علم الصواريخ منذ سنوات، وأدرك أنه قد يتمكن لاحقاً من الحديث مع محبوبه، أب برنامج الصواريخ برمته، فيرنهر فون براون.

أثناء خروجه من الكهف، أدرك رولف أنه أصبح شخصاً مختلفاً عما كان عليه قبل أن يدخل. فقد شاهد بأم عينيه إلى أين انحدرت هذه القوة التكنولوجية والعلمية العظمى، وفهم في الوقت نفسه أنه ليس أفضل منهم. أليست لديه شجاعة؟ ألا يرغب في محاولة الابتعاد والهرب؟

كلا، لقد قاوم هذه الفكرة، وخدع نفسه بفكرة أنه لا خيار آخر أمامه.

لقد بدأ التعاون مع ميتلويركي، وقد التقى رولف عدة مرات العبقريَّ العظيم، والمندفع الفوضوي فون براون. لقد كان فون فيزيائياً بحكم دراسته، وكان مهتماً جداً بالبحوث الذرية التي قدّمت فرصاً جديدة تماماً في السفر إلى الفضاء. هذا كان ما يهتم به حقاً. وكان الجيش وسيلة فقط لتمويل أبحاثه حول الصواريخ؛ وهدفه إرسال شخص إلى الفضاء أو إلى القمر أو ربما أبعد.

كانت مجموعة فون براون قد صممت صواريخ A9 وA10 التي تطلق

على مرحلتين، والتي يبلغ مداها 4100 كم، وبالتالي يمكنها بلوغ الفضاء الخارجي أو الساحل الشرقي للولايات المتحدة. ولقد تم وضع خطة تفصيلية لقصف نيويورك. والهدف أن تكون صواريخ A9 وA10 - أول صواريخ عابرة للقارات - جاهزة بحلول ربيع عام 1946.

أصبح رولف صديقاً لأحد زملائه في قوة العمل؛ وهو مهندس بولندي يدعى ماتويز. كان ماتويز كفؤاً ومتفانياً في عمله، لذا شعر رولف بالصدمة عندما علم بأنه مفقود، وقيل له إنه قد تم شنقه. فقد كان يعبث بأداة تحديد الاتجاه الخاصة بالصواريخ ويقوم بإعطابها. حينها، أدرك رولف أنه كان عليه السير على خطى كلاوس بلومنثال والاختفاء.

أدرك رولف سريعاً أن الوقت ينفد أمام مجموعة ديبنر. ورغم ذلك، عملت أجهزة الطرد المركزي ليلاً ونهاراً على فصل نظائر اليورانيوم. وقاموا بتخصيص الاختبارات، ولكن أقرب مرحلة بلغوها في صناعة قنبلة كانت إنشاء مفاعل للاختبار وتشغيلها. وكان الروس يتقدمون من ناحية الشرق، والحلفاء الغربيون من ناحية الغرب.

كانت ثمة إشاعات تقول إن مجموعة أس أس العاملة في بيلزن قد حققت تقدماً أكبر في صناعة قنبلة، وكانت تخصب اليورانيوم على نطاق أوسع.

في 28 مارس عام 1945، أخبر ديبنر رولف وزملاءه أنه تم تعليق العمل في ستاتلم. فكان من الضروري نقل اليورانيوم المخصب وإخفاؤه في مكان ما. وقد صدرت أوامر لرولف وهانز للاهتمام بالأمر.

الآن، بقي رولف وحيداً وهو يحاول تذكر ذلك اليوم.

ولكنه بدلاً من ذلك استمر في تذكر مصير المهندس البولندي. فقد حاول ماتويز إعاقة أعمال النازيين ووضع حياته على المحك.

أجبر رولف نفسه على العودة بأفكاره إلى اليوم الحاسم، وتذكّر بالتفاصيل المملة ما رآه وما سمعه يومها. ولكن ليس بالدقة الكافية.

وحتى لو تمّ العثور على المكان الذي تم إخفاؤه فيه، فهل سيكون اليورانيوم في مكانه؟

فكّر رولف عدة مرات في حياته ولساعات طويلة أثناء الليل في ما يجعل بعض الأحداث تبقى في الذاكرة بشكل أوضح وأكثر دقة من باقي الذكريات. إذ تتأثر دقة الذكريات بمدى تعلق الذكريات التي تليها بها. وفي حالة ميتلويركي، ثمة الكثير من الذكريات التي تساعد على تذكرها.

بعد الحرب مباشرة، علِم رولف أن ميتلويركي–دورا قد أصبح في الواقع معسكراً للموت. ولكن وسيلة القتل لم تكن غرفة الغاز، وإنما كثرة العمل. ففي السنتين اللتين عمل فيهما المصنع، تم جلب 60000 سجين إلى هناك، توفّي من بينهم 20000؛ معظمهم ماتوا بسبب الإجهاد. كان متوسط دورة الحياة في ميتلويركي–دورا ستة أشهر.

لذا، كانت صدمة كبرى لرولف عندما عُين آرثر رودلف – مدير الإنتاج في مصنع ميتلويركي 2 – مديراً عليه عام 1950 في الولايات المتحدة. لقد سُمّي رودلف المدير الفني للنسخة التالية من مشروع صاروخ ريدستون في هانتسفيل.

لم تأتِ مجموعة فون براون المشتركة لمشروع اليورانيوم للاستمتاع في ألمانيا، لكنها نجحت في الولايات المتحدة. ففي عام 1958، صعد صاروخ ريدستون إلى الجو، وأحدث انفجاراً ذرياً بقوة 3.75 ميغاطن، وبعدها جرت عدة اختبارات للتفجير. بل لقد عادت ثمانية صواريخ من النسخة المحسنة من النسخة الثانية إلى ألمانيا الغربية.

وقد بُني صاروخ ساتورن 5 الخاص ببرنامج أبولو على أساس صواريخ A9 وA10 متعددة المرحلة.

ومن دون مساعدة مجموعة فون براون الألمانية، ما كان رواد الفضاء الأمريكيون ليتمكنوا من الهبوط على سطح القمر عام 1969.

قال هوفمان بصوت جاف: «لا أريد أن أعيد تذكيرك بحفيديك».

رد رولف بصوت متعب: «إنهم لا يتذكرونني». وحاول أن يركز متابعاً كلامه: «أتذكر المنجم والمقبرة اللذين ذكرهما هانز هنا، ولكنني لا أتذكر مكانهما بالضبط».

بدأ صوت رولف يعلو؛ فقد مرّ بمواقف صعبة في حياته من قبل، وخرج منها من دون الخلط بينها وبين العائلة.

ولكن، حصل ذلك عندما كان أصغر سناً وأكثر قوة. أما الآن، فقد غدا سهل الانقياد، ويخشى بشدة من عجزه عن إنقاذ حياتَي حفيديه.

(9)

كانـت الطائـرة المتجهـة مـن سـتوكهولم نحـو برليـن قد اجتـازت نصف المسـافة. وكان إيريك يجلس في مؤخرها، وقد سـيطرت على أفكاره صورة الرجـل الـذي كان يتجـول فـي الفيلا بهدوء وهو يحمل سـلاحاً بإحدى يديه، وصورة أبيه باليد الأخرى.

حاول طرد صورة الدخيل من رأسـه، فرفع حقيبة جلدية شـبه بالية على المقعد المجاور له، وأخرج الكتاب الذي أعطاه المؤرخ إياه: «عملية قصاصة الورق: حكومة الولايات المتحدة والعلماء النازيون».

نظـر إلـى الغـلاف الذي رُسـم عليه شـعار النازية. وبقليـل من القلق، قام بتقليـب صفحـات فهـرس الأسـماء في آخر الكتاب وأدخل إصبعه إلى القسـم «و»، غير أنه لم يكن ثمة اسم ويليامز أو نارفا.

لم يتفاجأ لعدم وجود اسم أبيه، ولكنه شعر بالارتياح.

لكـن الشـيء الـذي أثقل كاهله هو سـبب إخبار والده لـه عن انتقاله إلى الولايات المتحدة، في حين أنه لم يأتِ مطلقاً على ذكر سني شبابه في فنلندا وألمانيا.

طبقاً لما ورد على غلاف الكتاب، إن عملية قصاصة الورق كانت مشروعاً مـن تنظيـم الجيـش الأميركي بعد الحرب؛ للتواصل مع الباحثين الذين صنعوا التكنولوجيا لألمانيا النازية، ولتجنيدهم للعمل لصالح الولايات المتحدة. وقد أكـدت المقدمـة علـى أنه تم التعامل فقط مع قسـم صغير يقدر بمئات العلماء الذين تم جلبهم إلى الولايات المتحدة في ظل عملية قصاصة الورق.

عاود إيريك التفكير في الشـقة المسـروقة. لو أن والده لم يكن قد تقاعد قبل عشرين عاماً، لتفهم إيريك عملية الاقتحام.

فحسـبما يذكـر، كان مـكان عمـل أبيه محاطاً بالسـرية. لقد كانت شـركة

لوكهيد – أحد موردي المعدات لمشروع أبولو – شركة سرية عملت على تطوير الطائرات الحربية والتكنولوجيا العسكرية بالتعاون مع البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية. وكانت طائرات يو-2 وأس آر 71 بلاكبيرد من بين أدوات التجسس التي جرى تصنيعها على طاولات الرسم ومنشآت الاختبار التابعة للوكهيد.

لكن إيريك لم يتصور قط أن والده قد شارك في أي نشاط خفي أو غير قانوني.

لقد ندم على عدم أخذه الكاميرا الصغيرة التي عثر عليها تحت الألواح الأرضية معه. فماذا لو أنها لا تزال تحتوي على فيلم غير مكتمل يمكن أن يكشف شيئاً عن حياة أبيه؟

عاود إيريك التركيز على الكتاب مجدداً. كان الحافز لدى الأميركيين لتجنيد الباحثين الألمان مضاعفاً. فمن ناحية، أرادوا الحيلولة بينهم وبين الاتحاد السوفييتي. ومن ناحية أخرى، أرادوا استخدام مهاراتهم لصالح الولايات المتحدة. لقد كانوا مهتمين على وجه الخصوص بالجيل الثاني من تكنولوجيا الصواريخ والطيران؛ فقد كان الألمان قد بنوا أول طائرة حربية في ذلك الوقت. وقد انخرط الباحثون في المجال الذري في جزء لا يزال سرياً من البرنامج وهو العملية ألسوس.

أفرد الكتاب الجزء الأكبر منه لعبقري عالم صناعة الصواريخ فون براون، فضلاً عن بعض تلاميذه، وخاصة آرثر رودلف الذي قاد عملية إنتاج صاروخ في 2 (V2) في منشأة تصنيع تحت الأرض. وقد استخدموا السجناء كعمال. وقد مُنح رودلف لاحقاً الجنسية الأميركية.

بدأت السلطات الأميركية عام 1982 بسؤال رودلف، أحد أوائل العاملين على برامج ريدستون وأبولو وبيرشنغ لتصنيع الصواريخ بشأن سنوات الحرب. وكان قد تقاعد حينها في كاليفورنيا، وتنازل عن جنسيته الأميركية، وانتقل إلى هامبورغ حيث توفي فيها عام 1996.

وضع إيريك الكتاب على حجره، ومال برأسه إلى الخلف على الكرسي.

لـم يكـن أسـوأ مـا في الأمر أن والده قد عمل لصالـح ألمانيا النازية قبل انتقاله إلى الولايات المتحدة. بل كان أسوأ ما في الأمر هو أن والده قد كذب عليه طوال حياته. ولم يكن ليفعل ذلك لو لم يكن لديه شيء قبيح يود إخفائه. هل كان نازياً؟ أكان مسؤولاً عن بعض الأفعال المريعة؟

لقد خانه والده. وقد ازداد غضبه وخيبة أمله أكثر كلما فكر بشأن تشجيع والده ودعمه له في مقالاته وخطاباته العامة حول العلم وأخلاقياته. إنه يتذكر بوضوح الرأي الحماسـي الذي تلقاه على خطابه في مؤتمر عقد في مؤسسـة جونز هوبكنز قبل بضعة أشـهر، ووجه الباحث الهندي البارز في علم الوراثة الذي أتى لتحيته بعد خطابه... لو عرف فقط مع من يتحدث...

يا له من كاذب!

حـاول إيريـك أن يهـدئ نفسـه؛ إذ كان لا يـزال يأمـل أن لا يكـون هـذا صحيحاً، وعليه أن يثبت ذلك.

لقـد أصبـح جليـاً لإيريك أثنـاء قراءته الكتاب أن الباحثيـن الذين خدموا ضمن عملية قصاصة الورق كانت لديهم سجلات شخصية خلت من أي ذكر أو توثيق لصلاتهم بالنازيين؛ وذلك لأن الرئيس ترومان «منع أي عضو أو داعم نشط للحزب النازي» من دخول الولايات المتحدة.

لكـن مؤهـلات العلمـاء وعلمهـم كانت تعني أكثر مـن مجرد عضوية في حزب الاشتراكيين القوميين. فهل كانت حالة أبيه شيئاً كهذا؟

بعد وصوله إلى تيغيل، استقل إيريك سيارة أجرة إلى كوفورستندام؛ قاصداً فندق أسكانتشر هوف.

نظر إلى السيدة الجالسة خلف مكتب الاستقبال بينما كانت تلتقط المفتاح من مكانه بابتسامة ودودة.

قالت: «الغرفة 21، إنها شاغرة. إليك المفتاح. لقد كان شقيقك هنا باكراً للتحقق منها».

«شقيقي؟! ليس لدي أشقاء... هل دخل أحدهم غرفة أبي؟».

فجأة، ارتسمت على وجه موظفة الاستقبال علامات الارتباك.

«كان ثمة رجل هنا قبل عدة ساعات، وقال إنه نجل السيد ويليامز. فحسبت أنه الشخص الذي اتصل في وقت سابق اليوم...».

«كلا. أنا من اتصل بكم». وأخرج إيريك جواز سفره وأراها إياه والغضب يتملكه. «أنا ابن رولف ويليامز. ابنه الوحيد. والآن أود رؤية غرفة أبي».

استدارت المرأة الجالسة خلف الطاولة والمفتاح في يدها، ومشت على السجاد الفارسي وعبرت الرواق. كان قلق شديد يتملك إيريك الآن. قد يكون اقتحام منزل أبيه مجرد صدفة، لكن أن يحوم شخص ما حول الفندق فهذا له معنى آخر.

كان التلفاز الموضوع في البهو يعرض قناة بي بي سي الإخبارية العالمية.

«وفقاً لتقرير صادر عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، ربما يكون صدام حسين قد امتلك عوامل الحرب البيولوجية والكيميائية. ووفقاً للتقرير، من غير المحتمل أن تكون لدى العراق المواد الانشطارية اللازمة لتطوير الأسلحة النووية. ومع ذلك، إن الخبراء العراقيين ربما يكونون قادرين على تجميع الأسلحة في غضون أشهر في حال تمكنوا من الحصول على اليورانيوم المخصب. ويتفق التقرير ضمناً مع موقف رئيس الوزراء بلير على أن التهديد بات وشيكاً...»

توقف إيريك أمام باب الغرفة 21 والذي فتحته موظفة الاستقبال بخفة.

كانت الغرفة مليئة بالفرش الداكن القديم. نظر إيريك داخل الحمام أثناء اتجاهه مباشرة نحو حقيبة السفر السوداء الموضوعة على رف الأمتعة. ومن دون أن يلتفت إلى موظفة الاستقبال، فتح الحقيبة التي كانت فارغة إلا من ملابس داخلية وكتاب ورقي الغلاف. وكان هناك تأكيد إلكتروني للرحلة في الجيب الأمامي للحقيبة.

ولم تكن هناك إشارة إلى مكان وجود والده؛ ليس بعد الآن. هل عثر الشخص الذي أتى قبله على ما كان يبحث عنه؟

كان إيريك يود مهاجمة موظفة الاستقبال لأنها سمحت لأحدهم بدخول

غرفة أبيه والعبث بأغراضه الشخصية. ولكن، لم يكن ذلك ليحسن من الأمر شيئاً. فمن الأفضل الحفاظ على علاقات طيبة مع موظفي الفندق.

عندما خرج إلى الشارع، نظر إيريك حوله بشكل تلقائي. كان من الواضح أنه يتوجب عليه التوجه إلى الشرطة الألمانية.

كان الموظف في قسم شرطة بيسماركستريب عملياً ولكنه حذر. هل من الممكن أن يكون والده قد أراد قضاء بعض الوقت بمفرده فقط؟ هل سبق له أن تناول الشراب بكثرة؟ هل انقطع التواصل بينهما في الماضي؟

حتى إنه لم يأتِ على ذكر الرجل المسلح في ستوكهولم، أو الغريب الذي دخل غرفة الفندق في برلين؛ وهو ما كان أمراً مزعجاً للغاية.

«هل أنت واثق من رغبتك في الإبلاغ عن شخص مفقود بهذه السرعة؟ إنها عملية شاقة».

حاول أن يبدو متعاطفاً، ولكنه في الوقت نفسه سيوضح أنه فعل كل ما يستطيع فعله حتى اللحظة.

قرر إيريك تحديد ميعاد نهائي؛ فإذا لم يتمكن من التواصل مع والده بحلول العاشرة مساءً، فسيقدم بلاغاً عن شخص مفقود.

ولكنه سيحاول أولاً العثور على كاثرينا بلوغر. عثر الموظف في قسم الشرطة على عنوان المرأة في حاسوبه خلال ثوانٍ. كانت تقيم في دار للمسنين تقع على مشارف برلين.

قرر إيريك التوجه إلى مكان ما لتناول الطعام، ثم التوجه بعد ذلك إلى دار المسنين.

(10)

بدأ التوتر يزيد من ضغطه على صدر رولف.

ما الذي كان هوفمان ينوي فعله باليورانيوم؟

لا شك في أن ما بقي منه مخبأ له قيمة مادية، إلا أنه من الصعب إنتاج قنبلة ذرية من كمية صغيرة تزن 168 غراماً، ولكن يمكن استخدامها في إنتاج قنبلة قذرة...

تذكر رولف أن ألمانيا خططت في العام 1943 لصنع سلاح إشعاعي؛ وهو النوع الذي يُعرف حالياً «بالقنبلة القذرة». تتكون القنبلة من رأس متفجر تقليدي تحيط به مادة مشعة. لكن أسوأ خصائصها لم تكن قدرتها التدميرية بقدر ما كانت قدرتها على إحداث تلوث إشعاعي.

وقرر أنه يستحيل تحت أي ظرف أن يخبر هذا الرجل بالحقيقة. أولاً، لأن اليورانيوم كان لا يزال على ما يبدو مخبأ، ولا يزال مميتاً إذا وقع في الأيدي الخاطئة. وثانياً، لأنه لم يعد يستطيع أن يتذكر أين كان مخبأ بالضبط.

أخذ نفساً عميقاً، وحاول أن يستجمع قواه وهو يجلس على المقعد الخلفي للسيارة. لقد بدأت الرحلة؛ رحلته الأخيرة، وكان يقينه من ذلك يزداد أكثر وأكثر.

بعد كل تلك السنين، يجري تحميله أخيراً مسؤولية القرارات السيئة التي اتخذها. والآن، إنه بحاجة إلى استرجاع ذكرياته مجدداً. إذ يتعين عليه أن يستعيد تلك الذكريات التي نسيها من الثاني وحتى آخر يوم من مارس في العام 1945.

تذكَّر أمسية ممطرة وملبدة بالغيوم، حين توقفت دراجتان ناريتان تجران عربتين جانبيتين وسيارة جيب وشاحنة صغيرة في الفناء المتواضع لمنشأة ستادتلم ومصابيحها مطفأة، وكانت في انتظارهم سيارة مرسيدس تابعة لقوات

الأمن. طقطق رجال شرطة بكعوبهم وهم يرتدون معاطف سوداء طويلة، ورفعوا أذرعهم مؤدين التحية النازية حالما رأوا شارة ضباط وحدة أس أس يجلسون في مؤخر سيارة الجيب. فرد الضباط التحية بعدم مبالاة، ثم توجهوا مباشرة نحو باب المصنع.

خرج رولف وهانز ومساعدان آخران في صمت، وكانوا يحملون بحذر حاوية كبيرة الحجم. كانت الحاوية تحتوي على معظم ما تمتلكه ألمانيا النازية من اليورانيوم المخصب، وقد جعلتها بطانة الرصاص ثقيلة جداً. وكان قد تم نقل أكسيد اليورانيوم بالفعل إلى كيل قبل عدة أيام، حيث تم تحميله في غواصة U-234 من أجل نقله إلى اليابان.

قاد ضابطان الرجالَ الذين يحملون الحاوية نحو الشاحنة، وأمرا الجنود بالترجل من الشاحنة وإدخال الحاوية. نظر رولف إلى الضابطين خلسة، وهما برتبة عقيد ورائد. كان العقيد ذا وجه مشوه بندبة قبيحة المنظر وتبدو حديثة؛ على الأرجح نتج هذا الجرح عن شظية مقذوف، وقد امتدت الندبة على شكل هلال من صدغه الأيمن مروراً بخده ووصولاً إلى أعلى ذقنه. أما الرائد فكانت يده اليسرى مبتورة من أعلى الكوع، وكان كل منهما يحمل وسام الفارس الحديدي. وبوجود هذين الرجلين معهم سيتمكنون من عبور حواجز الطرقات التي كانوا على يقين من أنهم سيمرون بها.

«إنها تذكار من جبهة القتال في فيكسيل». قال ذلك العقيد ذو الوجه المشوه بنبرة خشنة.

لا بد أن رولف قد أطال النظر إليه بشكل غير لائق وينم عن عدم احترام.

«عفواً سيدي العقيد، لم أقصد...»

في تلك اللحظة، قرر رولف ألا يلفت الانتباه قدر المستطاع في ما تبقى من الرحلة.

كان العقيد يشير إلى جنود وحدة أس أس الستة عشر بالعودة إلى الشاحنة ومرافقة الحاوية عندما ظهر الدكتور ماير وهو يهرول للقائهم، وقد سلم أربعة مظاريف إلى العقيد والرائد وهانز ورولف. نظر رولف إلى الختم، وقد كُتب

عليه «مكتب الأمن الرئيس التابع للرايخ»، ووضع عليه رمز النسر وشارة النازيين.

لاحظ الدكتور ماير ملامح التفاجؤ التي بدت على وجه رولف فقال له: «افتح المظروف يا بُني».

قرأ رولف النص سريعاً: «تصريح من قوات الأمن للقافلة المتجهة من ستادتلم إلى تراتيرود عبر تابارز ذهاباً وعودة. لا يُسمح بأن يتم تأخير القافلة أو التسبب بالإزعاج لها لأي سبب. ورغم حمله جنسية أجنبية، إلا أن الدكتور نارفا تحت حماية وحدة أس أس».

التوقيع: إرنست كلتنبرونر، مكتب الأمن الرئيس التابع للرايخ.

كان الاسم مطبوعاً في الأسفل وبجانبه ختم رسمي.

إنها ورقة شديدة الأهمية.

قال ماير من دون توقف: «أنت وهانز يمكنكما إخفاء المظروفين في معطفيكما. لذا، احملاهما معكما طوال الوقت تحسباً لأي طارئ. وسيكون من الحكمة أيضاً حمل جوازَي السفر الخاصين بكما وأوراق اعتمادكما لدى المعهد. ولكن، لا تظهراهما إلا عندما يصادف مروركما قرب أميركيين».

سكت لحظة لالتقاط أنفاسه قبل أن يواصل كلامه: «قبل أن تقابلا أي أميركي، يتعين عليكما حرق رسالتَي تصريح التنقل الخاصتين بكما فضلاً عن تصاريح العمل، واحتفظا فقط بجوازَي السفر. وخاصة أنت يا رولف، فربما تكون قادراً على العودة إلى ديارك سريعاً، فجواز السفر الفنلندي ربما يكون ذا فائدة، أخبرهم فقط أنك أُجبرت عن العمل. وأنت يا هانز، هذه شهادة تقول إنك تعمل في المرافق الكهربائية. وتذكر، لا تذهب إلى برلين تحت أي ظرف، وابحث فقط عن بيت في الريف، واسأل إن كان بإمكانك الاختباء هناك. وحالما تنتهي مهمتك، انتظر الأميركيين...»

فقال العقيد ذو الوجه المشوّه بصوت بارد للغاية وهو ينظر إليهم بريبة: «كُفَّ عن هذا الهمس! أم إن لدى الدكتور الصالح شيئاً ما يود إخفاءه؟!». وأكمل: «الأميركيون بعيدون جداً عن هنا، وسيجري إبعادهم أكثر كما حدث

مع الروس بالضبط. نحن لم نخسر الحرب بعد، هل تعرف السبب يا دكتور؟».

ابتلع ماير لعابه ووقف منتصباً وقال بوضوح: «لأننا لو منينا بالهزيمة، فستفنى ألمانيا يا حضرة العقيد».

فكر رولف في أن هذا هو الرد الصحيح الوحيد.

لحسن حظهم جميعاً، لم يكن أمام العقيد الوقت الكافي لاستكمال هذه المحادثة عن نتيجة الحرب أو تبعاتها، فقد حان الوقت ليبدأ الموكب الليلي تحركه.

جلس رولف وهانز على الفراش المغطى في الشاحنة بين جنود وحدة أس أس، ورائحة العرق التي تفوح منهم. دارت محركات السيارات والدراجات النارية، وتحرك صف المركبات من دون إشعال الأنوار الأمامية نحو طريق أتستادت الصحراوي.

اختفت ستادتلم سريعاً في ضباب الليل. ففكر رولف في سرّه: لو أمكنني فحسب الخروج من هذا البلد فلن أعود إليه أبداً. يا إلهي، أنقذ إنغريد، ولا تعدني إلى هذا البلد أبداً.

كان ذلك أكبر خطأ ارتكبه من بين العديد من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها في حياته.

شعر رولف بضغط متزايد مع مرور كل ثانية، فيما بشرت السحب المنخفضة بهطول الأمطار. مرت بجانبهم سيارة بورش تعود للستينيات فلفتت انتباه رولف، وقد حرر منظرها عقله من التفكير في الثواني المتعاقبة. كان قد مر عليه وقت في الولايات المتحدة أراد فيه شراء سيارة ألمانية، لكنه استقر على شراء سيارة كورفيت. وقد كان ثرياً في ذلك الوقت، ويبلغ من العمر خمسين عاماً، وكان في قمة نجاحه الوظيفي في ناسا. لم تتسع سيارة الكورفيت لأسرته بأكملها، ولكن بعد طلاقه قادها لسنوات عديدة هو وإيريك فقط. وعندما أخذ إيريك من تيتسفيل الواقعة على ساحل كيب كانافارال إلى منزل إنغريد الكائن في أورلاندو، كان يقود بأقصى سرعة في شوارع فلوريدا الخالية والواسعة، فاستغرقت الرحلة خمساً وأربعين دقيقة فقط.

عاود رولف التفكير في الرحلة التي قام بها في العام 1945 إلى هذه الوجهة ذاتها. لم يكن ضوء النهار قد أشرق بعد عندما استيقظ، ولم يكن في كامل وعيه، وكان رأسه يستند إلى كتف هانز الذي كان يغفو بجانبه.

قال هانز: «هل لاحظت ذلك، نحن نصعد تلة شديدة الانحدار، لا بد أننا وصلنا إلى ثورينغر فالد».

مد رولف عنقه حتى ينظر إلى الخارج من أسفل حافة القماش. كان من المدهش حقاً أنه استطاع النوم بينما كان يجلس داخل هذه الشاحنة المهتزة ويستمع إلى هدير محركها الذي يصم الآذان. وقد كان الليل لا يزال شديد البرودة، حيث تقل درجة الحرارة عن الصفر، لكن هطول الأمطار أذاب الجليد من كل الأرجاء باستثناء أعلى القمم.

خفّفت القافلة من سرعتها. وعلى جانب إحدى الأراضي المارة في الغابات والمغطاة جزئياً بالأغصان، كانت هناك هياكل تعدين قائمة فوق سطح الأرض ومهجورة، وبرج من نوع ما، وحزام نقل متهدم. وبالكاد كان من الممكن رؤية انحراف الجبل نحو اليمين. فيما امتدّ منجم على نطاق واسع من الناحية اليسرى.

استمرت القافلة في التحرك عبر مجمع المنجم، وبدأ الطريق بالانحدار، وظهرت غابة كثيفة على جانب الجبل. مضت السيارات عبر الطريق الضيق الفاصل بين الأشجار، وتقدمت نحو بوابة لديها جدار حجري ومغطاة بالطحالب، وعبرتها.

توقفت المركبات في هيئة نصف دائرة وأطفأت محركاتها. وأمر ضابط برتبة ملازم ثانٍ– يبلغ من العمر عشرين عاماً، ويحمل شارة تفيد بأنه القائد– جميع الجنود بالترجل من المركبات وتغطيتها بأقمشة التمويه. فيما قام رولف وهانز والعديد من الرجال بإخراج الحاوية من الشاحنة.

ظهر منزل كبير قابع في سكون خلف الأشجار والأغصان. كان من المحتمل أن يكون مدير المنجم قد أقام فيه، أو ربما يقوم هذا المنزل مقام مكتب الإدارة.

شعر رولف بالبرودة بشكل مفاجئ، ولم يكن ذلك بسبب الصقيع القارس فقط. هل ستتق وحدة أس أس بأن مدنيين مثله ومثل هانز سيبقيان فميهما مغلقين؟ بالطبع لا. فمن المرجح للغاية أن يكون العقيد ذو الوجه المشوه قد تلقى أوامر من كلتنبرونر بإسكاتهما. ولم يكن هناك سواهما، بل إن رولف لم يكن ألمانياً. وللمرة الأولى في حياته، سيطر على رولف خوف حقيقي من الموت.

أمر الرائد الجنود بالانتشار في أربع مجموعات من أجل المراقبة؛ فبعضهم سيراقب السيارات، والآخرون سيرافقون المجموعة التي تحمل الحاوية، والتي ضمت كلاً من رولف وهانز.

لاحظ رولف وجود بلاطة على مسافة بعيدة قليلاً. وكانت هناك مقبرة صغيرة خاصة تقع في عمق الغابات، ونما زرع طويل وجاف هنا وهناك. وفي أماكن أخرى، كانت هناك مقابر وطرق من الحصى ينمو عليها عشب رطب شبيه بالطحلب. وفي أبعد ركن في المقبرة، كانت هناك دار عبادة متهدمة ومطلية بلون أصفر شاحب، ونوافذها الصفراء العالية محطمة، وجرسها محطم أيضاً.

كان التاريخ المدون على بعض شواهد القبور يعود إلى القرن السابع عشر، وتحمل جميعها اسم العائلة النبيلة نفسه. طلب كلٌ من العقيد والرائد من رولف وهانز وجنود وحدة أس أس الأربعة حمل الحاوية وبعض المعاول إلى الجانب الحديث من المقبرة بالقرب من دار العبادة.

أشار الرائد نحو قبر صغير متهدم، فأومأ العقيد بالموافقة. ثم قذف الجندي ذو الشارة معولين إلى رولف وهانز قائلاً:

«هيا، احفرا!».

«كان ينبغي أن يخطر ببالنا ذلك». همس هانز وهو يغرز المعول في طبقة الطحالب السميكة، وأضاف: «إنهم يتركون المهمة الأكثر صعوبة للمدنيين».

قام كل منهما بحفر حفرة يزيد عمقها على متر، ويبلغ عرضها متراً، وذلك أمام القبر بالضبط. أدخل الجنود الصندوق المعدني الذي أحضروه أولاً

ووضعوه في أسفل الحفرة، وبعد ذلك أنزلوا الحاوية إلى داخل الصندوق باستعمال أحزمة من الجلد. وأخيراً، قام الجندي ذو الشارة بشد الغطاء بإحكام، ووضع عليه قفلين ثقيلين.

على الأقل، لم تصدر لهما أوامر بحفر حفرة أخرى لنفسيهما...

«أنا آسف، ولكنكما ستضطران إلى الذهاب خلف دار العبادة الآن». انهمرت كلمات العقيد ببرودة شديدة، وكأنه كان يتحدث عن أكثر شيء روتيني في العالم.

التقط الجندي الإشارة، فسحب مسدسه من القراب، ولوّح بفوهته نحو دار العبادة.

نظر رولف إلى هانز بفزع؛ فجنود وحدة أس أس هؤلاء هم فرقة إعدامهما. لقد كان حدسه صحيحاً.

لم تكن بيدهما حيلة، فقد قام رجال وحدة أس أس بدفعهما نحو جدار دار العبادة، وذهبوا للوقوف على بعد خطوات قليلة منهما. أغمض رولف عينيه، فحقيقة الموت المؤكدة أفرغت عقله من كل الأفكار، والحقيقة الوحيدة الباقية هي الثواني المتبقية لدقات قلبه المكبوتة؛ دقاته الأخيرة...

حينها فقط سمعوا هدير طائرة قادماً من ناحية المنزل الكبير إلى الشمال منهم. كانت الطائرة أو الطائرات تحلق على ارتفاع منخفض جداً.

فتح رولف عينيه، ونظر رجال وحدة أس أس إلى السماء أيضاً.

ظهرت المقاتلة الأولى، ثم ظهرت مقاتلة أخرى خلفها، وكانتا تطيران فوق المقبرة، وعلى ارتفاع يصل إلى أعلى الأشجار تقريباً. إنهما طائرتا ثاندربولت الأميركيتان، فقد كانت شارة النجمة الحمراء والبيضاء والزرقاء المطبوعة على جانبي كل منهما وأسفل الأجنحة واضحة للعيان في شمس الصباح.

رحلت الطائرتان في اللحظة التالية، واختفتا خلف الجهة المقابلة للغابات. ولكن، يبدو أن أعين طياري الاستطلاع الثاقبة قد لمحت الجنود الألمان بزيهم.

«اتخذوا ملجأ!». صرخ العقيد في رجاله.

استدارت الطائرتان، وتوجّهتا نحوهم مجدداً، وكان صوت هدير محركاتهما

يقترب بسرعة مرعبة. كان من الواضح أن لديهم أوامر بالهجوم حتى على أصغر تجمعات للجنود. انبطح رولف على بطنه بجانب جدار دار العبادة، وكان هانز بجانبه. فيما حاول رجال وحدة أس أس العثور على ملجأ خلف المقابر، لكن كان ذلك بلا فائدة.

ظهرت مقاتلة ثاندربولت الأولى عند طرف الغابة وتوجهت نحوهم مباشرة. بعد ذلك، انهمرت طلقات مدفع رشاش على الأرض الرطبة، فنثرت الطحالب مسافة متر في الهواء. وضربت الطلقات شواهد القبور فصرعت العقيد وجنديين من وحدة أس أس على الفور. وعندما ارتفعت الطائرة الأولى وحلقت بعيداً، كانت الطائرة الثانية في موقعها بالفعل. وقد كانت الجولة الثانية من طلقات المدفع الرشاش مميتة بدقة كسابقتها.

أما الجنود، وبغريزة حماية النفس والخوف من الموت، فقد حاولوا الهرب على الأقل. لكن القائد؛ الجندي حامل الشارة ذا الوجه الطفولي، والجنديين الأخيرين المتبقيين على قيد الحياة فتحوا النيران على الطائرة الأمريكية المقتربة منهم من مدافعهم الرشاشة. إلا أن الطلقات المنهمرة من السماء قطعت الجندي ذا الشارة إلى نصفين تقريباً، بينما أصيب أحد الجنديين وسقط على الأرض متلوياً.

زحف رولف بهلع شديد وهو يحاول الاختباء أسفل المستنقع والعشب قبل أن تعود المقاتلتان. كان وابل الرصاص المنهمر من مدافعها الرشاشة الستة يصيب المقبرة ودار العبادة مجدداً. وكل ما كان بوسع رولف التفكير فيه هو: «الطائرتان قادمتان نحونا مباشرة».

انهمر سيل من الطلقات على هانز بينما كان منبطحاً عند جدار دار العبادة، فصرخ من شدة الألم، ووضع يده على ظهره، فيما ارتطمت الطلقات بالأرض على بعد عشرات السنتيمترات من رولف. ولكن، بعد ذلك حلقت الطائرات فجأة إلى الأعلى واتجهت غرباً.

نهض رولف وزحف إلى حيث يستلقي هانز، حيث كانت إحدى الطلقات قد اخترقت معطفه وقميصه، وحزامه المصنوع من الجلد، وسببت له جرحاً

غائراً في ظهره.

كان يتمتم باللعنات وهو في حالة صدمة.

سأله رولف وهو ينظر حوله بهلع: «هل يمكنك المشي؟ سيأتي رجال الأمن في أية لحظة ليروا ما حدث. أم هل تعتقد أنهم ربما قتلوا هم أيضاً؟».

كان آخر جندي من وحدة أس أس على ما يبدو مصاباً هو أيضاً، وكل ما كان بمقدورهما سماعه من ناحية العقيد هو التأوهات. وكان بوسع رولف رؤية ثلاث فتحات في بطن العقيد تنضح بالدماء. وقد قُذف سلاحه على مسافة بضعة أمتار.

ساعد رولف هانز الذي كان يتأوه متألماً على النهوض على قدميه، لكن هانز دفعه جانباً، ومشى بصعوبة وهو يمسك بظهره الذي ينزف.

توسّل إليهما العقيد وهو يتألم: «اقتلاني... أتوسل إليكما!».

نظر رولف وهانز إلى بعضهما بعضاً، فهما ليسا سوى رجلين يتوليان الأعمال المكتبية.

انحنى رولف ببطء كي يلتقط السلاح؛ على الرغم من أنه كان متيقناً من عجزه عن إطلاق النار.

وقبل أن يمسك به، ركله هانز إلى حيث يستطيع العقيد الوصول إليه.

ثم قال: «هيا بنا».

ثم ما لبثا أن سمعا صوت طلق ناري واحد يصدر من خلفهما.

كلما استرجع رولف تلك اللحظة في ذاكرته، وسمع صوت الرصاصة التي أطلقها العقيد على نفسه، انتفض رعباً.

انتبه في جلسته على المقعد الخلفي في السيارة المسرعة. إنه بالكاد يتذكر المنطقة، فقد تذكر المنجم والبيت الكبير، ولكن ربما يكون هناك الكثير من المناجم القديمة في ثورينغر فالد، ولم يكن بوسعه فحسب توجيه خاطفيه إلى مكان عشوائي.

في كل الأحوال، حتى إذا عثروا على المقبرة الصغيرة، فما الذي سيكون مكتوباً على شاهدة القبر؟ ليس بمقدورهم التحقق من كل القبور.

بدأ الهلع يسيطر على رولف، وما لبث فكرة جديدة أن خطرت بباله: هل تحدث هانز يوماً إلى كاثرينا بشأن كل هذا؟ إن هذا محتمل تماماً. فإذا كان هانز أحمق بما يكفي ليدوّن كل ذلك، فربما هو أحمق بما يكفي للتحدث عن الأمر. وفي حالتها الراهنة، يبدو أن كاثرينا تتذكر الماضي البعيد بشكل ممتاز.

كان عليه أن يفكر في ذلك سابقاً.

«انعطف».

فقال هوفمان مستغرباً: «ماذا؟».

أخبره رولف بما كان يفكر فيه، فلم يقل هوفمان أي شيء للحظة، واستمرت الرحلة.

بعد ذلك، أمر مانفريد بأن يغير مسارهم ويتّجه نحو ليشتنفيلد.

(11)

كانـت أمـام إيريـك خريطة لبرليـن وبراندبيرغ، وقد وُضعـت علامة على موقـع دار المسـنين التـي تقطـن فيها كاثرينا بلوغـر. كان يجلس في مطعم في سافيينبلاتز، ويحاول بعصبية جذب انتباه النادلة كي تحضر له الفاتورة.

رن جرس هاتفه. كان ذلك مدير شركة غندو للتمويل، وقد كان متحمساً جداً لأن مستثمراً أمريكياً بارزاً أراد أن يرتب لعقد اجتماع معه الأسبوع المقبل. فأخبره إيريك إنه سيعاود الاتصال به بشأن ذلك؛ إذ لم تكن لديه الطاقة الكافية لمناقشة هذا الأمر الآن.

ومع ذلك، ارتسـمت ابتسامة على وجهه، فقد اشترت له أمه مجموعة من مضـارب الغولـف بالإضافـة إلـى حقيبة وأحذية وقفازات قبل سـنوات، وذلك حين قالت له: «يمكنك بناء علاقات طيبة على ملعب الغولف». لقد كان إيريك توافاً بشدة لتطوير شركته في الوقت الذي خرج فيه إلى ميدان الغولف وجعل مـن نفسـه أضحوكـة. كان بالكاد قادراً على التأهـل إلى مرحلة المبتدئين على ملعب الغولف. وبعد خمس سنوات على ممارسته اللعبة، بلغ متوسط النقاط التي يحصل عليها سـتاً وثلاثين. لقد كانت لديه أمور أكثر أهمية ليقضي وقته منشـغلاً بها، وقد تذمرت كيت وولداه بسـبب كل السـاعات التي كان يقضيها في التمرين. لذا، عندما تخلى عن ممارسة الغولف، كان في ذلك مصدر راحة لهم جميعاً.

ما إن سدّد إيريك ثمن وجبته حتّى توجّه إلى الشارع وأوقف سيارة أجرة. كان متحمسـاً جـداً للتحـدث إلـى كاثرينـا بلوغـر، إذ لم يكن من السـهل عليه العثور على أي شخص آخر قد يعرف شيئاً عن تلك السنوات في ألمانيا، بما أن أمه تتظاهر الآن بأنها لا تعرف شيئاً عن ذلك.

قال رولف بحذر: «كاثرينا».

كانت تجلس في غرفتها في دار المسنين على الكرسي نفسه، فيما جلس رولف أمامها وكذلك فعل هوفمان.

أثار رولف الحديث عن هانز على الفور، وقد تحدثت كاثرينا عنه بانفتاح بل وحتى بفخر. وبدا أن طلاقهما لاحقاً لم يشعرها بالانزعاج.

«كما تعلمين، لقد تورطت أنا وهانز في بعض الأنشطة السرية». قال رولف ذلك وهو ينظر مباشرة إلى عينيها. «وأفترض أنه حدثكِ عن ذلك؟».

سألته كاثرينا فجأة وهي تومئ نحو هوفمان: «من يكون؟».

«إنه أحد أصدقائي، وهو جدير بالثقة تماماً. هل أخبركِ هانز يوماً عن الفترة التي أخفينا فيها بقايا مشروع أورانرفين في نهاية شهر مارس من العام 1945؟».

نظرت كاثرينا إلى رولف بريبة وقالت: «لم يكن لديه أي شيء ليخبرني به حيال ذلك».

منح كلامها رولف بعض الأمل. حاول أن يبقي صوته منخفضاً لكنه فشل. وقال بتوتر: «لقد ذهبنا إلى منطقة للتعدين بالقرب من تروسيتال، وكان ثمة بيت كبير هناك، وقد ألحقت به مقبرة قديمة جداً. فهل ذكر لك هانز أي تفاصيل عن تلك الرحلة؟».

ضيقت كاثرينا عينيها بشكل غير ودي، وسألته:

«أتحسب أنني سأحدثك عن ذلك؟ أنت من بين كل الناس؟!».

شعر رولف بأن الأرض تتمايل من تحته. لم تكن كاثرينا عالقة في الماضي بشكل كامل؛ لم يعد متأكداً من ذلك بعد الآن. فقد بدت حالة التوتر بينهما فجأة واضحة.

لقد أراد الرحيل من الغرفة فوراً، لذا قال لهوفمان: «هذا يصل بنا إلى طريق مسدودة».

«إنها تعرف شيئاً...».

«كلا، إنها لا تعرف أي شي، وإنما تمارس إحدى ألاعيبها التي لا تنتهي. إنها إحدى ألاعيبها الغريبة، هيا بنا».

«على الأقل حاول أن...»

«ألم تستمع إلى ما قلته؟ لن تخبرني بأي شيء؛ حتى إذا كانت تتذكر».

غادر رولف الغرفة من دون أن ينظر خلفه، وسار مسرعاً عبر الرواق وقلبه يخفق بعنف، فاندفع هوفمان وراءه. كان رولف يخشى أن يعيده مجدداً إلى غرفة كاثرينا، لكنه لم يفعل ذلك. فقد مشى إلى جانبه متجهين إلى الباب من دون أن ينطق بكلمة.

فجأة، انفتح الباب على مصراعيه أمامهما، فوقف رولف في مكانه فزعاً. كان رجل مجهول يبلغ من العمر حوالى خمسين عاماً يقف عند مدخل الباب ويحمل بيده مسدساً.

«سيد ويليامز، سوف ترافقني».

ظن رولف أنه سمع لكنة روسية خفيفة في نبرة صوته.

حاول هوفمان وضع يده في جيبه، لكن الرجل استولى على مسدسه ببراعه، وأمره قائلاً: «انبطح أرضاً، ويداك فوق رأسك».

انصاع هوفمان للأمر، فيما جذب الرجل رولف من ذراعه وقاده بحزم نحو الباب.

وفي اللحظة نفسها، سُمع صوت ارتطام بعد أن تلقى الغريب ضربة على ذقنه من الخلف، تبعت ذلك ضربة أخرى على المنطقة الواقعة أسفل الصدر، وكانت قوية جداً لدرجة أن المسدس سقط من يده على الأرض المغطاة بالحصى، وسقط الرجل على ركبتيه بجانب المسدس.

تراجع رولف مبتعداً، أما مانفريد الذي كان ينتظرهما في السيارة فقد دفع بالغريب إلى الأرض ببراعة. ولم يكن أي من طاقم دار المسنين قد ظهر بعد.

جذب هوفمان رولف سريعاً من مرفقه، وقاده إلى السيارة. فلدى وصولهم إلى دار المسنين، ظهرت سيارة فولفو رمادية صغيرة في الفناء الخارجي.

اندفع مانفريد خلفهما وجلس خلف مقود السيارة وانطلق مسرعاً، مصطحباً معه هوفمان ورولف.

سأل هوفمان وهو يلهث: «من يكون هذا؟».

أدهش السؤال الذي طُرح بنبرة بريئة تماماً رولف.
«أخبرني أنت! فأنت من لديه فكرة عما يجري هنا».
جلس هوفمان شاحب الوجه، بينما نظر إليه مانفريد في مرآة الرؤية الخلفية.
قال هوفمان: «ركّز على مهمتك أيها العجوز، فأنت لم تلح عليها في السؤال؛ حتى عندما واتتك الفرصة. الآن ستتدبر أمورك بنفسك».
التزم رولف الصمت، فيما سارت السيارة عبر الغابات المظلمة، وكان الطريق الضيق الشبيه بالنفق محاذياً لأشجار الزيزفون.
سأله هوفمان بصوت شبه طبيعي: «ما الذي جرى للتو هناك مع بلوغر؟».
«سأصطحبك إلى المخبأ. أليس هذا كافياً بالنسبة إليك؟».
فضحك هوفمان بصوت عالٍ وقال: «أجل، إنه كذلك. يكفينا هذا».

شعر إيريك بالخوف، وصب لعناته على سائق سيارة الأجرة عندما ظهرت سيارة أودي حمراء عند منعطف واتجهت مباشرة نحوهم؛ تقريباً عند منتصف الطريق.
لمحت عينا إيريك رجلاً يجلس على المقعد الخلفي للسيارة، وبجانبه راكب آخر لمحه إيريك لجزء من الثانية. وقد حجب توهج زجاج السيارة الرؤية عنه، لكنه كان واثقاً مما رآه.
إنه والده.
«أوقف السيارة!».
نظر إليه السائق مندهشاً، وبدأ بالإبطاء من سرعته.
«استدر، واتبع سيارة الأودي تلك التي تجاوزتنا للتو».
ركن السائق السيارة وقال: «هذه منطقة خطرة، وتصعب الاستدارة فيها. فالطريق ضيق، ولو أتى أحد مسرعاً...»
«يمكنك المحاولة على الأقل!».
نظر السائق إليه بحيرة، وأدار عجلة القيادة بسرعة. فضغط إيريك بشكل

غير إرادي بقدمه على الأرض، وذلك في محاولة منه لزيادة سرعة السيارة. لم تكن هناك مساحة كافية للانعطاف، لذا اضطر السائق إلى السير بعكس الاتجاه. كانت حافة الطريق مغطاة، بنبات السرخس فاضطر السائق إلى الضغط على المكابح بعنف.

أدرك إيريك أنه ما من سبيل أمامهما للحاق بسيارة الأودي الآن، فقال بغضب: «لا فائدة من ذلك، واصل السير».

نظر السائق إليه عبر مرآة الرؤية الخلفية، وعاد إلى الاتجاه الذي كانا يسيران فيه سابقاً، فيما حاول إيريك التحلي بالهدوء.

لقد كان والده قادماً من عند كاثرينا بلوغر، ولا شك في أنه سيتصل به قريباً ويوضّح له ما كان يفعله. ولكن، إلى من تعود تلك السيارة التي كان يستقلها؟

بعد المنعطف الطويل، انتهى الطريق في منطقة مخصصة لركن السيارات ومحاطة بأشجار كثيفة، فتوقفت سيارة الأجرة. بدا مبنى دار المسنين متهدماً ومهجوراً تقريباً.

طلب إيريك من السائق الانتظار، ثم ترجل من السيارة، وتوجّه مهرولاً نحو الباب الذي فتحته امرأة مسنة وباردة الملامح، وقد بدا عليها الغضب والتوتر.

قال لها إيريك بسرعة: «لقد رحل رجل عجوز من هنا للتو مستقلاً سيارة أودي حمراء».

لم تبدِ الممرضة أي رد فعل.

«إنه والدي رولف ويليامز، وقد أتى لرؤية كاثرينا بلوغر، أليس كذلك؟».

ارتسمت تعابير غامضة على وجهها، وظهر بوضوح أن الشك يتملكها وقالت: «لا يمكنني الكشف عن هذا النوع من المعلومات إلى الغرباء».

«أنا هنا لرؤية السيدة بلوغر أيضاً».

بدت الممرضة غاضبة، وقالت: «حقاً! تعددت الزيارات إليها مؤخراً. على كل حال، اتبعني».

سار إيريك خلفها في الرواق الذي تردد فيه وقع صدى أقدامهما. ووصل أخيراً إلى الغرفة المظلمة التي كانت سيدة نحيفة بشكل مخيف تجلس داخلها.

«سيدة بلوغر، لديكِ زائر آخر». قالت الممرضة ذلك بصوت عالٍ، وغادرت الغرفة على الفور.

نظرت المرأة العجوز إلى إيريك بترقب وحذر.

«أنا إيريك ويليامز، ابن رولف ويليامز».

ظهرت على وجه كاثرينا بلوغر ملامح المفاجأة.

«ويليامز... هل تقصد نارفا؟! أنت ابن رولف؟! لم يذكر أي شيء عن... لقد كانا هنا...».

«من كان برفقته؟».

«لا أذكر اسمه. كان شاباً يتحكم في تحركاته، وقد بدا شبيهاً بالغروبنفوهرر زويك قليلاً. هل تعرف الغروبنفوهرر زويك؟».

اقترب إيريك منها وقال: «زويك؟».

«كان رجلاً بارداً. هكذا كنا نحدث أنفسنا عنه».

نظر إيريك إلى عينيها وقال: «أخبريني بشأن رولف. ما الذي يسعى وراءه؟».

ضحكت بلوغر وقالت: «وما الذي سعى رولف خلفه يوماً؟ لا يمكنك أبداً معرفة ذلك، فقد خانه هانز، ولكن ذلك لا يقارن بما اقترفه رولف. ولم أعد أصدق وجود قنبلتهم المعجزة بعد الآن. فلا شيء يمكنه إنقاذنا، لا العلم ولا حتى التكنولوجيا. وكما كنت أخبر إنغريد بالأمس، اقتربت النهاية. لقد دخل الروس بالفعل إلى دانزيغ وكونيغزبيرغ...».

لم يستطع إيريك تصديق أذنيه، وأخذ خطوة إلى الأمام.

«إنغريد؟ إنغريد ستورمار!؟».

«إنغريد لا تصدقني، فهي تواصل فحسب عملها في المؤسسة، وكأن كل شيء طبيعي. فهي دوماً تريد تهوين الأمور».

أمي!

شعر إيريك بصعوبة في التنفس، وسألها: «أي مؤسسة؟».

«قسم علم تحسين النسل».

لهنيهة، شعر إيريك أنه سيفقد وعيه.

قسم علم تحسين النسل! علم الوراثة الانتقائي!

قال بصوت أجش: «سأعود عما قريب».

«لماذا يغادر الجميع سريعاً؟».

سار إيريك متردداً صوب الباب وأدار المقبض، ولكن شيئاً لم يحدث. طرق على الباب، فانفتح بعد ذلك بلحظة.

«هل ستغادر بهذه السرعة؟». تمتمت الممرضة وتركته يعبر الرواق.

«بمَ أخبركِ والدي؟».

«لا شيء. لقد تولى الرجل الآخر الحديث. في الواقع، لم يكن لديه الكثير ليقوله هو أيضاً. وقد أتى والدك إلى هنا في وقت سابق أيضاً».

حاول إيريك أن يستجمع الأفكار التي دارت في رأسه بشكل فوضوي.

قسم علم تحسين النسل...

(12)

لم يتمكن رولف من معرفة هوية ذلك الغريب الذي رآه في دار المسنين، وأغرب ما في الأمر هو أن هوفمان أيضاً بدا أنه لا يعرفه.

لقد تعرف الرجل على رولف وناداه باسمه. وعلى ما يبدو، لم يكن مدركاً أنه سجين لدى هوفمان. وأكثر ما يخيف في الأمر هو أن الرجل كان يعرف مكانه. فما علاقة كاثرينا بكل هذا؟

واصل مانفريد النظر إلى مرآة الرؤية الخلفية وكأنه يتأكد من أن أحداً لا يتبعه. كانوا يسلكون الطريق السريع إي–40 المؤدي إلى إرفورت.

ترددت كلمات كاثرينا في عقله.

«أتحسب أنني سأخبرك عن ذلك؟ أنت من بين كل الناس؟!».

توقف رولف عن التفكير في كاثرينا، وركز على الشيء الوحيد الهام الآن. طبقاً للخريطة، لا بد أن يقع تقاطع الطرق على يمين تقاطع غوثا. ولا بد أن يُكتب على اللافتة فالترهاوزن وفريدريتشرودا وتابراز أو ربما بروتيرود أو ربما حتى باد ليبنشتاين.

لقد بدا الوضع ميؤوساً منه. كانت آخر مرة أتى فيها إلى هنا قبل 60 عاماً. وربما يكون ترتيب الطرق قد تغير عدة مرات منذ ذلك الحين. على الجانب الآخر، كانت ثمة مناطق في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة قد تجمدت مع مرور الزمن خلال حقبة ألمانيا الشرقية.

أغمض رولف عينيه، فقد أعاد قربه المادي من المكان ذكرياته إلى الوراء، فبات الآن راغباً في التذكر.

في أعقاب الهجوم الأمريكي، فر هو وهانز من المقبرة، وسلكا طريقاً خلفياً من غروسر إنسلبيرغ إلى بروتيرود بأقصى سرعة سمحت بها جراح هانز. توقف هانز فجأة، لدرجة أن رولف اندفع نحوه.

همس هانز: «تمهّل، وامشِ بهدوء للغاية. ببطء تماماً».

لم يفهم رولف ما كان هانز يقصده في البداية، لكن نبرة صوته جعلت قلبه يخفق أسرع من ذي قبل. ظهر خيال شاحنة على جانب الطريق، وكان فيها على الأقل ثلاثة أو أربعة من الحراس، لكن أصواتهم خفت بفعل قرقرة جدول الماء الواقع على يسارهم.

«إنها نقطة تفتيش. ولحسن الحظ، نحن نحمل جوازَي السفر والوثيقتين». حاول هانز أن يرفع من نبرة صوته اللاهث، وأكمل: «تذكّر، دعني أتولى الحديث».

تمتم رولف قائلاً: «لن يكون الأمر أسوأ من دخولنا ميدان معركة، أو أن يحكم علينا بالموت على يد فرقة للإعدام».

«إنهم على الأرجح يبحثون عن فارين، وسيبدو منظر رجلين جريحين ويرتديان زياً مدنياً مثيراً للشبهات. تصرف بثقة، فنحن في مهمة رسمية».

عدّ رولف على الأقل ثمانية من أفراد الشرطة العسكرية التابعين لوحدة أس أس الذين يحملون مدافع رشاشة. وكان برفقتهم ضابط واحد صغير، لكن رولف لم يتبين رتبته على الفور.

أومأ هانز ولوح لهم.

«توقفا! وأبرزا هويتيكما!».

«طاب مساؤك، سيدي الرقيب».

أخرج هانز جواز سفره من جيب سترته ويده مغطاة بالدماء، وتبعه رولف في ذلك. وقد شاهد من طرف عينه كيف تحلق حولهما رجال الشرطة وهم يشهرون أسلحتهم.

أعاد الرقيب جواز سفر هانز إليه، وقال:

«أنت مصاب. أكنتما ضمن المجموعة التي هاجمتها طائرتا الثاندربولت؟ لمَ فعلتا ذلك بحق الله؟».

«لقد خرجنا إلى العراء، ولا بد أنّهم ظنوا أننا جنود».

انشغل الرقيب في فحص جواز السفر الفنلندي، وما لبث أن رفع حاجبيه.

«ما الذي تفعله هنا؟».

سلّمه هانز الرسالة التي أخذها من قوات الأمن، ففكر رولف أنه من الأفضل أن يفعل مثله.

«أوراقنا الثبوتية سارية، أليس كذلك؟». سأل هانز بصوت جاد ورسمي.

«ثمة شيء غريب. يذكر هنا شيء عن موكب، ولكنكما تسيران على أقدامكما، فبمن يمكننا الاتصال كي نتأكد من أنكما تتواجدان حيث يجب أن تكونا؟».

«الدكتور ديبنر». أجاب هانز بثقة.

فقال الرقيب بشكل فظ: «قصدت في وحدة أس أس».

لم يتردد هانز للحظة واحدة للتفكير، وأجاب:

«يمكنك الاتصال بالأوبرغروبنفوهرر كلتنبرونر مباشرة إذا كنت تظن أنه من الضروري أن تزعجه. ليس هناك أحد أدنى رتبة منه يعرف بشأن مهمتنا. ولسنا مخولين بالتحدث عنها مع أي شخص آخر».

ما إن ذُكر اسم اللواء حتى سيطرت على الرقيب حالة من الشك والحيرة، فهو يمسك بين يديه بالفعل بوثائق تبدو حقيقية بشكل كافٍ، وتحمل ختماً بالترخيص وتوقيع كلتنبرونر. وقد بدا من المستبعد جداً أن يلجأ أي شخص إلى مثل هذه الخدعة الخطرة. بعد ذلك، أعاد الوثائق إليهما سريعاً.

«من فضلكما، يمكنكما المرور. يحيا هتلر!».

فرد كل من هانز ورولف بالتحية النازية، واستعدا لمواصلة طريقهما.

صاح الرقيب من خلفهما: «لا توجد فنادق في بروتيرود، فهل يتعين علينا المجيء لاصطحابكما؟».

«أجل، في وقت لاحق». رد هانز صارخاً من دون أن يستدير بشكل كامل. إذ لم يكن ثمة سبب لتمضية دقيقة واحدة أخرى في تبادل الحديث مع جنود وحدة أس أس.

سأل هوفمان بصوت عالٍ: «هل علينا أن ننعطف من هنا؟».

نظر رولف إلى الخريطة وهو على المقعد الخلفي، وأجاب: «أجل، انعطف من هنا».

كان الظلام قد بدأ يخيم على الحقول المفتوحة المحيطة بالطريق، وكان سفح الغابات قد بدأ يظهر من بعد.

بدأت تعابير القلق تظهر على رولف؛ فقد كان متأكداً من أن إيريك لا بد أنه قلق للغاية بشأن عدم سماعه أي شيء منه. أم هو مشغول للغاية بفعل ضغوطات العمل؟!

كلا، لن يكون إيريك قلقاً فحسب، بل سيفعل شيئاً حيال ذلك. ولم يكن ذلك بالضرورة شيئاً جيداً، إذ يستحيل أن يكون إيريك على علم بأن أوليفيا وإميل في خطر.

لم يكن هوفمان يمزح، ولم يكن ذلك الغريب يمزح أيضاً.

أخذ رولف نفساً عميقاً ونظر إلى خارج النافذة. كانوا قد تجاوزوا تاباراتز ويقتربون من غروسر إنسلبيرغ بقممها المستوية المغطاة بالغابات الخضراء.

قال هوفمان: «هناك طريق ضيقة. فهل علينا أن نحاول المرور من ذلك الاتجاه؟».

تمتم رولف موافقاً؛ فقد اقتربت لحظة الحقيقة.

(13)

جلس إيريك وهو يضع هاتفه على أذنه في مؤخر سيارة الأجرة، بينما كان في طريقه صوب تشارلوتنبورغ في برلين.

«لقد لمحت أبي في إحدى السيارات». قال لكيت التي كانت قد وصلت للتو برفقة الولدين إلى المنزل.

«رأيته للتو! هل سنحت لك فرصة التحدث إليه؟».

قال إيريك متهرباً: «كان في طريق عودته من إحدى دور المسنين التي تعيش فيها امرأة عجوز. توجهي إلى بيت إنغريد...».

«لماذا؟ ماذا جرى؟».

«لا تسألي، فالوقت الآن ليس مناسباً. توجهي مباشرة إلى بيت إنغريد، واسأليها عن الحرب، وعما كانت تفعله حينها وأين كانت. فقد قالت إن أبي لا يتحدث الألمانية، ولكن الأمر برمته كان كذبة. فعلى ما يبدو، لقد تواجدت في ألمانيا أثناء الحرب أيضاً». وارتعش صوت إيريك قليلاً.

سادت لحظة من الصمت في الجانب الآخر.

«كيف لك أن تعرف...»

فقاطعها إيريك قائلاً: «سأوضح لكِ لاحقاً، فلست مستعداً لذلك الآن». وأنهى الاتصال.

سارت سيارة الأجرة ببطء في الزحام. طبقاً للمؤرخ فاغرسترام، تسلم والده راتباً من قسم الفيزياء التابع لمؤسسة القيصر ويليام. والآن، طبقاً لتقرير محيّر من امرأة عجوز، كانت لأمه علاقة بقسم علم تحسين النسل.

هل من الممكن أن يكون هذا حقيقياً؟ هل درست أمه علم الأحياء في ألمانيا؟

لقد بدا الأمر غير منطقي مطلقاً. علم الوراثة الانتقائي، علم تحسين

النسل؛ لطالما كره ذاك الاسم.

لكنه يتناسب بشكل مثالي مع شغف أمه بعلم الوراثة. وقد ورث هذا الشغف منها.

حاول أن يتذكر ما كان قد قرأه عن الدراسات التي أجراها النازيون على علم الوراثة الانتقائي. لم يكن علم تحسين النسل في حد ذاته اختراعاً نازياً، لكنهم استخدموه كأساس لأعمالهم الشنيعة في التناسل الانتقائي.

حسب إيريك سريعاً عمر والدته في فترة الرايخ الثالث. لقد كانت بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين من العمر إبان الحرب. وبشكلٍ ما، لن يكون عجيباً بالنسبة إليها التزام الصمت بشأن شيء قد يصمها بالعار مدى الحياة، ولن تكون قادرة على دخول الولايات المتحدة من دون إخفاء ماضيها. يا له من عار قد شعرت به... لو أن أياً من هذا كان حقيقياً بالأساس. ففي نهاية المطاف، لقد سمع بالأمر من امرأة تعاني من عته حاد، ويجهل خلفيتها التاريخية بشكل كامل.

لكن ما قالته عن إنغريد بدا شبيهاً بخصال أمه التي يعرفها. فقد تذكر أشياء من طفولته تخص ردود أفعالها على مواقف مختلفة، مثل مواقفها المسبقة المؤلمة، وآرائها الحادة في بعض الأحيان والتي يمكن بشكل ما تفسيرها الآن، ناهيك عن ولعها بعلم الأحياء الاجتماعي وعلم النفس التطوري، أو ملاحظاتها العنصرية المقنعة التي ألبستها دوماً لباس العلم، والتي جعلته يشعر بالغضب والعار. هل من الممكن أن يكون كل ذلك قد صدر من شابة عاشت في ألمانيا؟

بالمقابل، لم تبدُ طبيعة والده مشابهة لما يكتشفه عنه في أي شيء. لكن المعلومات التي ساقها فاغرسترام كانت غير قابلة للجدال.

فكّر إيريك في ما يتعين عليه فعله تالياً، وقرّر التوجه إلى قسم الشرطة إذا لم يسمع من أبيه بحلول العاشرة، وكانت الساعة الآن تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة.

لكن أباه لا يزال حياً. لذا، لا حاجة إلى الإفراط في القلق بشأنه. ومع

ذلك، لقد ظهر بشكل وامض وسريع على الطريق المظلم والمار في الغابة... ولم تتح له فرصة الرد على اتصالات إيريك، ليس حتى عندما طلب منه معاودة الاتصال به. يبدو أنه جاء إلى برلين ليهتم ببعض المهام الخاصة به؛ والتي بناء على المعلومات التي جمعها عنه في يوم واحد فقط، كانت ذات أهمية بالغة.

ولكن، ما طبيعة تلك المهمات؟ وهل تمثل أهمية بالنسبة إليه؟

وهل كانت ذات صلة بحقيقة أن شخصاً آخر يبحث عنه أيضاً؟! فقد اقتحم رجل مسلح المنزل في ستوكهولم، فيما اقتحم آخر الفندق في برلين. وقد قالت المرأة العجوز إن الشاب كان يقتاد والده في الأنحاء.

من يكون؟ ولماذا؟

حينها فقط، شعر إيريك بالذنب. فلا بد أن كيت قلقة حقاً. لكنه كان يأمل أن تقدر الموقف ومدى جديته.

أوقفت كيت سيارتها التويوتا أمام فناء بيت حماتها الكائن في ضاحية كوبام ميزن كلوز الواقعة جنوب شرق لندن، وترجلت منها. كان جسدها أكثر استقامة من المعتاد لأنها كانت مترددة؛ فمكالمة إيريك بدت غير منطقية تماماً. والآن، إنها في طريقها لكي تسأل حماتها بشأن مسائل لا تعرف شيئاً عنها. ربما تكون قد اعتادت على الإفراط في الثقة في إيريك.

كانت البوابة الرئيسة مغلقة، لكن البوابة الصغرى الواقعة قرب الممشى مفتوحة. وعندما كانت تسير متجهة نحو الباب الخارجي، جالت عيناها في الفناء الذي كانت أعشابه مقلمة بدقة للغاية؛ تماماً كما تحبه.

بعد مكالمة إيريك لها، تصفّحت الإنترنت بحثاً عن معلومات حول القسم الذي أتى على ذكره. كان قسم علم الإنسان وعلم الوراثة وعلم تحسين النسل في مؤسسة القيصر ويليام الواقع في ناحية دالم في برلين، مركزاً لعلوم التناسل الانتقائي في ألمانيا الاشتراكية القومية. وعندما كانت طالبة، خضعت كيت ذات مرة لاختبار في كتاب علم الوراثة بحث في دراسات التناسل النازية، وقد باغتتها صورة من الكتاب: رجل يرتدي معطفاً أبيض ويقيس وزن فتاتين توأم.

أفلتت كيت قارع الباب الحديدي المصبوب على شكل رأس أسد،

فاصطدم باللوح المعلق على الباب. مرّ بعض الوقت من دون أن تجيب إنغريد، فقرعت الباب مجدداً.

لم تشعر كيت بالارتياح مطلقاً حيال حماتها؛ فقد كان إيريك وإنغريد مقربين جداً من بعضهما. في الواقع، لقد كانت كيت تعتقد أن إنغريد تشعر بالغيرة منها بشكل ما، وربما كانت هي أيضاً تشعر بالغيرة من حماتها.

لكن أعمق صدع في علاقتهما حدث عندما أصبحت حاملاً بإميل. فقد اشتبه الأطباء في أن الجنين مصاب بمتلازمة داون، وكان ثمة اختبار يعرف باسم غندو فوتورا، وهو اختبار يجري على الحمض النووي للأبوين لتوقع صفات الجنين وحالته الصحية، وكان في مراحل الاختبار وقتها، وقد رفضت كيت الخضوع له، لكن إنغريد حاولت جاهدة أن تقنعها بذلك.

لقد كان إنذاراً كاذباً بالمرض، لكنها لا تزال تذكر رد فعل إنغريد بوضوح تام. لقد تصرفت وكأن ذلك دليل دامغ على أنه يتعين على كيت الإجهاض. وما كانت تصغي إلى أي حل آخر؛ وكأن قراراً كهذا يجب أن تتخذه جدة الطفل! بعد ذلك، لم تزد علاقة إنغريد وكيت على كونها احتراماً رسمياً.

رأت كيت الواقعة بأسرها في ضوء جديد تماماً الآن، أو بالأحرى، في مستوى جديد من الظلام.

انفتح الباب أمامها فجأة لدرجة أنها فزعت. كان شعر إنغريد الفضي متجمعاً في مؤخر رأسها بتسريحة كعكة أنيقة وكبيرة، وكانت عيناها الزرقاوان لامعتين وواسعتين على وجهها المنكمش.

قالت إنغريد بصوت لطيف: «كيت عزيزتي، أهذه أنتِ؟ هل كان كل شيء على ما يرام عندما عدتِ إلى المنزل؟ آمل أنني لم أفرط في السقاية. من المدهش أنه ينمو بهذا الشكل عندما يكون جافاً جداً...»

«كان كل شيء على ما يرام، شكراً لكِ. حتى إنكِ قمتِ بترتيب المطبخ». ردت كيت وهي تتبع إنغريد إلى غرفة الجلوس.

«هل ترغبين بالقليل من عصير التوت؟».

«أجل، شكراً».

ذهبت إنغريد إلى المطبخ، فأتيح لكيت القليل من الوقت للتفكير في كيفية إثارة الموضوع، بينما تسلل القط تشارلي- وهو قطٌ صافي البياض لا ذيل له ومن فصيلة المانكس- إلى غرفة المعيشة قادماً من الردهة، ونظر إليها بعينين واسعتين هائمتين تشبهان عينَي مضيفتها.

نادت إنغريد من المطبخ: «كيف كانت رحلتكِ إلى السويد؟».

«كانت رائعة. كان الولدان سيسرّان لو ظلا هناك إلى الأبد».

تساءلت إن كانت إنغريد ستطرح أي سؤال عن رولف؛ فلطالما تجنبت التحدث عن رولف، وهي لا تزال متمسكة بهذه العادة حتى الآن أيضاً.

اتخذت قرارها وهي تتناول كأس العصير الذي قدمته إنغريد. وكانت التنهيدة العميقة هي خيارها الأفضل؛ إذ إن السؤال سيبدو غريباً مهما فعلت، مما لا يدعو إلى بذل أية محاولة لتلطيفه. وربما ستسقط إنغريد الهادئة والرقيقة شيئاً من يدها إذا أخذت على حين غرة.

رشفت كيت من شرابها وهي تلعن زوجها في عقلها، ثم سألت بنبرة حوارية: «بالمناسبة، ماذا كنتِ تفعلين إبان الحرب؟».

كان أكثر شيء طبيعي ستفعله إنغريد على الأقل هو أن ترتبك، إلا أنها ردت من دون أي تردد:

«كنت طالبة حينها، وبدأت أول عمل لي في بوسطن وقت الحرب. ما الذي جعلكِ تسألينني عن ذلك؟».

بدا أن إنغريد كانت تتوقع السؤال. كانت كيت تود أن تلح عليها في السؤال، لكن إيريك طلب منها ألا تكشف عن أي شيء في الوقت الراهن.

«هل ورطة رولف هي التي جعلتك تسألين عما فعلته إبان الحرب؟».

غاضبة، شربت كيت ما تبقى من العصير، ووضعت الكأس على الطاولة قائلة: «يجب أن أذهب. فإميل يعاني من بعض الحمى، إذ إن تهوية الطائرة كالسم بالنسبة إليه».

الآن فقط أظهر وجه إنغريد القليل من عدم الارتياح.

«هل تحتاجين إلى أية مساعدة؟». سألتها إنغريد في محاولة منها لكي

تبـدو طبيعيـة، وتابعـت: «يمكننـي المرور عليكم غـداً إذا كان لديكِ الكثير من العمل في غندو».

صحيح. تلك هي إنغريد، وكأن الشركة كانت أكثر أهمية بالنسبة إلى كيت من ابنها.

فأجابت وقد بدا في نبرتها السرور: «كلا، سنكون بخير». ثم فاجأت نفسها بالخروج نحو السيارة من دون أن تودعها.

إما أن تكون معلومات إيريك خاطئة وإنغريد تقول الحقيقة، أو إن إنغريد كاذبة بارعة للغاية.

(14)

نظر رولف إلى خارج نافذة سيارة الأودي وهو يتنفس بصعوبة، ثم قال لهوفمان بصوت أجشّ: «توقف، لقد فوتنا المنعطف».

لقد ميز المكان، فسرى وخز في ذراعيه وساقيه. وقع ضوء السيارة الأمامي على حائط حجري رمادي يبرز من أسفل نبات اللبلاب الأخضر.

«هذه هي». قال ذلك بصوت غير مسموع.

عثروا على البوابة بعد بحث قصير، وأوقفوا السيارة، فبدأت إطاراتها تنغرز في المستنقع الرطب على الفور.

تأملت عينا رولف المنظر الذي أظهرته بوضوح المصابيح الأمامية. كان المبنى الرئيس الكبير داخل الملكية لا يزال على حالته السابقة؛ إذ كان متهدماً، وكان بالكاد يستخدم أيام الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وأصبح استخدامه نادراً بعد توحيد شطري ألمانيا.

بدأ يشعر بالعجز؛ إذ لم يكن بوسعه قيادة هذين الرجلين إلى المكان الذي تم إخفاء الحاوية فيه، والذي كان يبدو على حاله. فإن أرشدهما إلى مكانه قد يستخدمانه في أغراض يجهلها. ولكن، ماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك؟ وما الذي سيحدث لو وضعا أيديهما على اليورانيوم؟ سينتهي دوره بالنسبة إليهما، وسيقومان بقتله. لمَ بحق الله لن يقدما على قتله؟ أبدافع العرفان بالفضل المطلق؟ سوف يموت هنا؛ في المكان نفسه الذي فر منه مما بدا موتاً محققاً قبل عقود.

ولكن، لسوء الحظ، إن موت رجل واحد كان مسألة سهلة في ظل الظروف الحالية.

ما الذي كان هوفمان أو من يقفون وراءه ينوون فعله بـU-235؟

ترجّل رولف من السيارة، وكانت الأمسية دافئة. ثم أعطياه كشافاً، فبدأ

بالبحث عن دار العبادة.

وأخيراً، عثر على بقاياها؛ جداران نصف متهدمين وسقف منهار. حدّق رولف إلى المكان الذي كاد يوماً أن يكون مستقره الأخير للحظة.

تجاوزوا بقايا الحطام حتى وصلوا إلى داخل المقبرة.

تمتم رولف: «أتذكر أنه كان قبر طفل؛ صبي صغير حسبما أظن. وكان قريباً جداً من دار العبادة حيث تقع المقابر الجديدة. من القرن التاسع عشر...»

بدأ بالحفر على الفور من جانب دار العبادة.

لم يكن رولف واثقاً مما إذا كان المكان الذي يبحث عنه قبر صبي. فهل من الممكن أن يكون قبر فتاة؟ كانت ثمة فتاتان مدفونتان في مقبرة واحدة؛ أنجيلا وبريدجيت، وهما توأم ولدتا وماتتا في السنة نفسها، في العام 1909.

توقف رولف، وتحسّس الحجر بأصابعه وهو مندهش، إنها الثقوب التي أحدثتها طلقات طائرتي الثاندربولت.

سأله هوفمان: «أهذه هي المقبرة؟».

«كلا». رد رولف وواصل السير.

كانت الألواح الخشبية شبيهة جداً ببعضها، وكان العديد منها متهدماً؛ لدرجة أن هوفمان ومانفريد اضطرا إلى رفعها لقراءة الأسماء المنقوشة عليها. فقد محا تعاقب السنوات النقوش الذهبية، فأصبحت قراءتها بالكاد أمراً ممكناً، وكان ثمة الكثير من الأطفال المدفونين في المقبرة.

قال رولف بتوتر: «أي من هذه يمكنها أن تكون المنشودة. ولا يسعني القول أكثر من ذلك».

نظر هوفمان إليه بغضب وقال: «اللعنة!».

طارت بومة من بين الفروع السفلى لأشجار الصنوبر الألمانية صائحة، وقد زاد ضوء الكشاف من غرابة الأجواء.

عثر مانفريد على لوح حديدي بين بقايا دار العبادة، واستخدمه لاستكشاف الأرض عند نقاط مختلفة كي يتيقن مما إذا كانت مقبرة بعينها هي مكان الإخفاء.

«لستما مضطرين إلى الحفر عميقاً جداً». قال رولف بصوت أجش ومتوتر وبارد: «إلى عمق متر فقط، بالضبط عند أسفل الحجر. أتذكر هذا بوضوح».

كان الظلام المحيط بهم مزعجاً ومريحاً في الوقت نفسه. وللحظة وجيزة، تسلى رولف بفكرة تناوله أحد المعاول، وضربه هوفمان على رأسه ثم ضربه مانفريد. لكن هذا لن يفلح بالطبع. فقد كانا قويين للغاية، وكان هو بطيئاً وضعيفاً وأخرق. كان عليه فقط أن يحاول عدم التفكير في حقيقة أنهما ما إن يعثرا على اليورانيوم هذه الليلة، حتى تكون ليلته الأخيرة لا محالة. وأياً كان هذان الرجلان، فمن غير المرجح أنهما سيتركانه ليتكلم بحرية عما حدث، وصمته الأبدي هو السبيل الوحيد لحماية طفلي إيريك.

التقط هوفمان معولاً وبدأ بحفر مقبرة كونراد فون كلنجنبيرغ؛ فواجه اللوح الحديدي عقبة ما، بينما بدأ مانفريد بحفر المستقر الأخير لفريدريتش فون كلنجنبيرغ. حفرا بسرعة، ولم يجدا شيئاً سوى الأحجار الكبيرة وجذور الشجر.

سأل هوفمان: «ما مدى ثقتك بشأن هذا؟ أعني أنها مخبأة في قبر صبي من القرن التاسع عشر؟ هل تدرك أنه ليس من مصلحتك تعمد إبطائنا؟».

«أنا متيقن تقريباً، فنحن في الجانب الصحيح من المقبرة على أية حال. وقد كنا بالقرب من دار العبادة... دعونا نجرب المقابر الثلاث التي هناك».

حفر هوفمان ومانفريد في المقابر التالية، ماثياس وفيلهلم، وضغط رولف اللوح الحديدي داخل الأرض أمام القبر الثالث. فولفغانغ فون كلنجنبيرغ، 1796–1803.

انتبه فجأة، وعدل موقع ضوء الكشاف على الأرض، ثم قال: «الطحالب مقطوعة هنا، وكأن...»

فاندفع هوفمان نحوه وسأله: «ما الذي تتحدث عنه؟».

«وكأن أحداً ما كان يحفر هنا». تابع رولف كلامه وهو مندهش من نبرة التوتر في صوته: «انظر، ثمة طين في أعلى الطحالب».

قاما بشكل محموم بدفع الطحالب جانباً، وكان من الواضح أنها مقطعة بفعل إلى قطع كبيرة، ولم يبدُ الطين تحتها كثيفاً أيضاً. بدأ كل من هوفمان

ومانفريد الحفر بسرعة على ضوء الكشاف الذي كان رولف يمسكه بإحكام؛ إلى درجة أن يديه بدأتا ترتعشان.

بعد الحفر إلى عمق يزيد على المتر بقليل، اصطدم معول هوفمان بجسم معدني. فقاما بتوسيع الحفرة بحركات متعجلة ونافدة الصبر إلى أن كشف كشط معول مانفريد عن غطاء حاوية معدنية بالية.

شعر رولف بغصّة في حلقه عندما رأى الشكل المألوف مضاءً بضوء الكشاف. كان الصندوق نفسه سليماً، لكن القفلين مكسوران.

قال رولف بصوت أجش: «ما الذي يعنيه هذا؟».

نظر هوفمان إلى داخل الصندوق الفارغ. كانت ثمة قطعة من الورق داخل كيس في قعر الصندوق الفارغ.

قال هوفمان لاهثاً وهو في حالة صدمة: «ثمة رسالة». والتقط الورقة، بينما سلّط مانفريد الضوء عليها.

قرأ رولف الرسالة القصيرة المكتوبة على ورقة مسطرة بقلم حبر من دون أن يفهمها في بادئ الأمر.

مادة لها علاقة بأعظم جريمة اقترفها الإنسان وجرى إخفاؤها هنا في نهاية الحرب، ويجري الآن استخدامها مجدداً لمنع أعظم جرائم الإنسان.

حاول رولف كبح جماح أفكاره المتسارعة، بينما حدق إليه هوفمان غاضباً على ضوء الكشاف.

«هل ستقول لي إنه ليست لديك أدنى فكرة عمن أخذ المحتويات؟».

«كلا، على الإطلاق».

بدأ هوفمان يتحدث إلى رفيقه بنبرة غاضبة مما أدهش رولف. كانا يتحدثان بلغة عربية من نوع ما.

بالطبع. هل تمكّن تنظيم القاعدة بشكل ما من العثور على مخزون اليورانيوم المخصب؟

«من أنتما؟». سألهما، لكنهما واصلا محادثتهما السريعة والمحمومة.

«من أنتما؟!».

استدار هوفمان للنظر إلى رولف وعيناه الداكنتان تلمعان.

«هل أنت واثق من رغبتك بمعرفة ذلك؟ حسناً، اسمي مالك بهرامي، وأنا أعيش في ألمانيا، لكنني ولدت في بغداد. وهذا رفيقي بشير».

وقام بطلب رقم على أحد الهواتف ووضعه على أذنه، وبدأ يتحدث بلغته مجدداً، وبوتيرة أسرع من ذي قبل.

وبينما كان يتحدث عبر الهاتف، قام بدفع رولف نحو السيارة. كانت أفكار رولف تتسارع، كيف عرفوا بشأن المخزون؟ ومن استولى عليه؟

هل كانوا يخططون لشن هجوم آخر مثل ذلك الذي تعرض له مركز التجارة العالمي؟ باستخدام قنبلة قذرة؟

قاد الرجلان رولف نحو السيارة مجدداً. كان مالك بهرامي قد أنهى مكالمته، فصعد إلى السيارة بجانبه وقد بدا عليه الغضب تحت ضوء سقف السيارة الخافت.

«إنك تعلم علم اليقين من قد يكون على علم بشأن المخزون والمذكرات. لقد حان الوقت لكي تقرر ما إذا كنت ترغب بحماية حفيديك أو أحفاد هانز بلوغر».

شعر رولف بالهلع.

قال الرجل: «لقد وضعت كارلا بلوغر يديها على مذكرات جدها في المكان نفسه حيث حصلنا عليها منها».

شعر رولف بالارتباك أكثر الآن.

«ولكن، ما زلت ستجيب طلبنا حول اليورانيوم. ستتصل بكارلا بلوغر وسترتب لقاءً معها، ولا تفعل أي شيء يثير الشبهات لديها بشأننا. اجعلها تعتقد أنك تتعامل مع المسألة بمفردك».

«لم أتحدث معها يوماً!».

«الآن ستفعل».

«ربما كان الوقت متأخراً الآن».

«لا أعذار. اتصل بها».

كان آخر شـيء يرغب به رولف هو أن يقود هوفمان إلى مسـكن حفيدة هانز، ولكن لم يكن لديه بديل.

طلب هوفمان الرقم، ومرر الهاتف إلى رولف قائلاً: «كما أخبرتك، نحن نعـرف أن المذكـرات بحوزتهـا، ولكننـا لم ندرك أنها ستسـير على خطى أبيها وتأتي للبحث عنها».

سـمع رولـف جـرس الهاتف وهو يـرن في الطرف الآخر، وكان مضبوطاً على مكبر الصوت.

«مرحباً؟». قال صوت امرأة شابة بدت متيقظة رغم الساعة المتأخرة.

«مرحباً يا كارلا. معكِ رولف نارفا، أنا صديق قديم لجدكِ».

حاول أن يجعل صوته يبدو مبتهجاً وهادئاً قدر استطاعته، لكنه كان متأكداً من فشله التام في ذلك.

سادت لحظة من الصمت في الجانب الآخر من الخط.

«صديق لجدي؟!».

«آسف لاتصالي بك في وقت متأخر للغاية. وآمل ألا أكون قد أيقظتك».

«كلّا...لا بأس».

تخلص رولف من الحشرجة في صوته وتابع: «أود أن ألتقيك».

«تلتقيني!؟ لماذا؟».

استجمع رولف أفكاره، بينما نكزه خاطفه في ضلوعه.

قـال رولـف بسـرعة: «إنهـا مسـألة هامة، ولهـا علاقة بقبـر فولفغانغ فون كلنجنبيرغ. أترين...أنا هناك الآن».

وساد الصمت.

واصل رولف على نحو حاسم: «أحتاج إلى رؤيتك غداً».

«غداً هو أسوأ يوم يمكن...»

«الأمر هام جداً. سأتصل بكِ صباحاً، ويمكننا مناقشة التفاصيل».

توقف رولف عن الكلام وأغمض عينيه.

القسم الثاني

(15)

تمدد إيريك على فراشه، وحدق إلى سقف حجرته المرتفع في الفندق. كان المصباح الموضوع على الطاولة قربه مضاء، وصدى كلمات كاثرينا بلوغر لا يزال يتردد بقوة في عقله.

كان قد طلب الانتقال من حجرته إلى الحجرة التي كان والده ينزل فيها، وحصل على الإذن للقيام بذلك. كانت هناك طاولة ثقيلة وكرسي بذراعين إلى جانب الفراش، وكانت كل المفروشات في الغرفة تبدو قديمة، بل ربما كانت الحجرة تبدو كما كانت قبل الحرب.

لقد أغضبه سلوك والدته؛ فقد اختفى والده في ظل ظروف غامضة، ولم تحرك أمه ساكناً لمعرفة السبب. حتى إنها لم تعترف لكيت بأنها كانت في ألمانيا وقت الحرب، ناهيك عما فعلته هناك.

حاول إيريك أن يفكر في الماضي بشكل منطقي. ففي حقبة ما في أواخر السبعينيات أو أوائل الثمانينيات، ثارت ضجة حول ماضي كل من النازيين فيرنهر فون براون وآرثر رودلف مع ناسا، ولكنه لم يتذكر تعليق والديه على هذا الأمر بالتحديد؛ رغم أنهما التقيا الرجلين خلال مسيرتهما المهنية.

هل كان السبب وراء هدوء أبيه الشديد هو أنه عمل لحساب هتلر؟ بدت الفكرة مقززة، لكن لم يكن بمقدوره استبعادها لأسباب عاطفية فقط. فبما أنه اختصاصي في علم الوراثة، فقد اعتاد استخدام الأسباب، وبناء الأفكار بعيداً عن التفكير العاطفي.

اتصل بفاغرسترام في ستوكهولم، واعتذر عن اتصاله به في وقت متأخر للغاية، وسأله عن المكان حيث يمكنه العثور على قائمة بأسماء طلاب مؤسسة القيصر ويليام خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. فقد كان بحاجة إلى أن يرى إن كان اسم إنغريد ستورمار مدرجاً في القائمة أيضاً.

إذ سيصعب عليها رفض الحديث بشأن الأمر لو سألها بشكل مباشر.

كانت حقيبة والده على الأرض، وقد فتشها إيريك مراراً وتكراراً. هل أخذ «شقيقه» المزعوم أي شيء منها؟ وهل عثر الرجل المسلح في فيلا سولسيدان على ما كان يبحث عنه؟ اشتبه إيريك في أن الشرطة في ستوكهولم لن يكون بمقدورها القيام بأكثر مما فعلته شرطة برلين.

إن منظر والده وهو يجلس متوتراً في مؤخر تلك السيارة لم يفارق ذهنه، ولم يجعله ينعم بالسلام. ما الذي كان يفعله هناك؟ ومع من؟

تحدث إيريك في وقت متأخر من المساء إلى كيت بعد أن نام الولدان، وأخبرها أخيراً كل شيء؛ بما في ذلك إطلاعها على لقائه كاثرينا بلوغر. كانت كيت تشعر بريبة شديدة حيال الطريقة التي تحدثت بها أمه وتصرفت؛ مما أزعجه. فلهذا السبب تحديداً أراد أن يحتفظ بالأمر لنفسه، فقد خمن كيف سيكون رد فعل كيت. لقد حكمت على أمه قبل أن يتمكنا حتى من معرفة أي شيء.

تنهد إيريك وقد نفد صبره. هل تصرف بشكل غير منطقي مع كيت؟ ففي نهاية المطاف، لقد كان مرتاباً حيال أمه أيضاً. ربما كان على الأقل منزعجاً من نفسه، فقد كان يعرف أن كيت وإنغريد تشعران بالغيرة من بعضهما منذ البداية، ولهذا السبب كانت كل منهما تتصيد أخطاء الأخرى. ولكن، هل فعل شيئاً حيال ذلك؟ كلا.

وخاصة عندما كانت كيت حاملاً بإميل، وكانت نتائج الاختبارات غير أكيدة. حينها، كان يجدر به أن يتصدى لأمه وينحاز إلى جانب كيت، وكانت كيت لا تزال تشعر بالمرارة بسبب عدم قيامه بذلك.

لكن إيريك كان معتاداً للغاية على آراء أمه المثيرة للشكوك، لدرجة أنه عجز عن فهم سبب غضب كيت، والذي تحوّل إلى أبعاد غير مفهومة. ولم تعد العلاقات بين أفراد عائلته كما كانت سابقاً.

تقلّب إيريك على فراشه، وحاول التخطيط لما يجب عليه فعله في اليوم التالي. إذ يتوجب عليه البدء باستكشاف ماضي والديه في ألمانيا بشكل جدي.

فجأة، سمع جلبة في الردهة، فاعتدل جالساً.

سمع صوت هرولة، ثم انغلق باب ما بقوة مصدراً صوتاً عالياً، وصرخت امرأة قائلة شيئاً ما بصوت غاضب.

نهض إيريك من فراشه، وفتح باب حجرته بتردد.

«النجدة!». صرخت امرأة شابة من حيث تقف قرب الباب المفتوح للحجرة المقابلة.

اندفع إيريك إلى داخل الحجرة المظلمة، لكن تم دفعه جانباً بعنف؛ لدرجة أنه وقع على رف الحقائب المعدني وارتطم رأسه بالجدار. كان ثمة صوت وقع خطى رجل يهرع خارج الغرفة ويختفي في الردهة.

«هل تأذيت يا سيدي؟». سألت المرأة التي كانت في الحجرة وهي تساعده على النهوض على قدميه. تعرف عليها إيريك، فقد كانت طالبة تعمل في الاستقبال في المناوبة الليلية.

«لا شيء خطير». قال إيريك وهو يشعر بدوار خفيف، وتحسس بحذر منطقة الألم في رأسه، ولم يبدُ له أن ثمة الكثير من الدماء على أية حال. «ماذا جرى؟».

«كان هناك شخص غريب يحاول الاختباء هنا».

حينها فقط تعرف إيريك على الغرفة. لقد كانت الغرفة رقم 14 التي كان يفترض به أن يشغلها في الأصل. لقد اقتحم الدخيل غرفته.

أدخلت كارلا بلوغر البطارية في جهاز التحكم عن بعد، وأغلقت الغطاء، وناولت الجهاز إلى جوشم، وقد باغتتها فكرة خيالية من العدم؛ وهي أنه قبل ساعة اللقاء، سيقع خطب ما.

كانا بالقرب من جسر فيلي براندت الخاص بالمشاة، وبعيدين عن مصابيح الشارع.

مال جوشم لتشغيل المروحية التي كانت رابضة على الأرض. كان طول الطائرة بدون طيار سبعين سنتيمتراً، وكانت تزن أقل من كيلوغرام واحد، وهي

مجهزة بكاميرا للتصوير، وترسل الصور عن بعد إلى جهاز الاستقبال الصغير المزود بشاشة، والذي كانت كارلا تمسك به الآن.

كانت الأراضي التابعة لمقر المستشارية المبني حديثاً والواقعة بين نهر سبري ورايشستاغ محاطة بالجدران ومحمية بشكل جيد. وكان المبنى الذي بُني عند مركز تلك الأراضي أكبر من قصر الإليزيه أو البيت الأبيض. فقد أرادت ألمانيا الموحدة بناء رمز لا يترك أي شك بشأن ما تمثله ألمانيا الجديدة.

وإذا ظهرت حاجة إلى مساحة إضافية، فبوسع مكتب المستشارية استيعاب أربعمئة وستين موظفاً. وقد راقبت كارلا لأسابيع عديدة سيارات طاقم المستشارية وهي تمر عبر بوابة بول لوبي ألي، وتسير إلى داخل منطقة ركن السيارات الواقعة في الفناء الداخلي.

أدار جوشم ذراع التحكم، فارتفعت المروحية في الهواء، وقد اتسع المنظر على الشاشة بينما الطائرة ترتفع في السماء. ولمعت أنوار مبنى المستشارية أسفل المروحية.

كان الهدف يقترب، فتحركت المروحية بسرعة وثبات. إذ كانت قادرة على حمل معدات تزن مئتي غرام، والتي تشمل عادة كاميرا رقمية مثبتة. لكن نموذج الطائرة الخاص بهما كان يحمل حمولة من نوع مختلف تماماً.

(16)

جلـس رولـف خلف مقود سـيارة الأودي واضعـاً يديه على فخذيه وقلبه يخفق بشدة؛ لدرجة أنه شعر بالألم. كان الصباح قد أشرق رطباً وهادئاً، وكان مالك بهرامي قد أوقف سيارته بالقرب من الغابات في غرونفالد، وانتقل إلى المقعد الخلفي. إذ كانت كارلا بلوغر قد قالت له إنها ستتواجد هناك بحلول الثامنة.

ملأتـه فكـرة رؤيتـه حفيـدة هانز بالرعب. إذ لم يرغب في أن يزج بها في الخطر.

سيطر التعب على كل خلية في جسده، فلم ينم إلا ساعتين فقط. كما أن فكرة مسـاعدته إرهابيين في العثور على اليورانيوم المخصب كانت تعذبه. لم يكن بمقدورهم إنتاج سلاح نووي باستعمال هذه الكمية من اليورانيوم. ولكنّ جمعها مع قنبلة تقليدية سينتج عنه سلاح إشعاعي فعال.

إلـى أي درجـة يعـرف هـذان عـن ماضيه؟ تضرّع رولـف كي لا يكون ما يعرفانه كثيراً.

عاث ذكرى ثورينغر فالد التي كانوا فيها في الليلة السـابقة تسـيطر عليه. فقد غير مرور السنين المكان قليلاً.

بعـد إخفـاء المخـزون، قـام هو وهانـز بتفحص المنطقـة المحيطة بوادي بروتيرود بالقرب من بيت المزرعة. وقد استخدما التصريح الذي حصلا عليه من كلتنبرونر لإخافة امرأة تضع وشـاحاً كي تسـمح لهما بالاختباء في الدور العلوي من الإسـطبل الخاص بها. طهّر رولف جرح هانز وضمده. ولحسـن الحـظ، لـم يكـن الجرح عميقاً. ولكـن، كانت لا تزال هناك حاجة إلى حمايته من التلوث.

فـي الثالـث مـن شـهر أبريـل، أخبرتهما المـرأة أن الأميركييـن يتواجدون

بالفعل في أوزنابروك وكاسل وفولدا، وأن الألمان الذين هُجِّروا ويتقهقرون بثياب ممزقة ورثة قد بدأوا يتوافدون إلى ثورينغر فالد.

وفي ليلة الرابع من أبريل، كان بوسع كل من رولف وهانز أن يسمعا بوضوح صوت طلقات نارية بعيداً من الشمال والجنوب. وقد تضاعف عدد طائرات الاستطلاع والطائرات المقاتلة الأميركية. وفي صبيحة الرابع من أبريل، سمعا لساعات أصوات قتال ضارٍ استعملت فيه الأسلحة الرشاشة من جهة بروتيرود، وما لبث أن توقف ليلاً بعد قصف جوي أميركي.

وقد بدا لهما أن الأرض تهتز لنصف ساعة أخرى، ثم ساد في الأنحاء صمت أشبه بصمت القبور. فما عادا يسمعان تغريد أسراب الطيور المرتعدة على الأشجار. وقد حملت الريح رائحة دخان قوية قادمة من الغرب.

وعلى الرغم من اعتراض هانز، قرر رولف الخروج في وقت لاحق في ذلك المساء، وتقييم الموقف. لم يعثر على سيدة المزرعة؛ وفكّر أنها ربما ذهبت للاختباء في المخزن الأرضي. اتجه رولف نحو غابة صغيرة تقع بجانب الحقول المفتوحة، على بعد مئتي متر غرب المنزل. هل انتهى كل شيء الآن؟ على الأرجح، لن تبقى أي قوات ألمانية في المنطقة على أية حال، ربما فقط القليل من الجنود الفارين أو الضائعين.

فجأة، صارت هناك حركة في الحقل، فهرع رولف صوب الخندق وتمدد. رأى جندياً أو ثلاثة أو خمسة أو أكثر، أو وحدتين أو ربما مفرزة جنود كاملة. لقد حدَّ الظلام الدامس من قدرة رولف على تحديد عددهم، لكنهم بكل تأكيد كانوا يتجهون نحوه. يفترض المنطق أنهم لا بد أن يكونوا أميركيين، أو ربما هم ألمان متقهقرون، ولمَ لا؟ ضغط بجسمه على أسفل الخندق بقوة أكثر.

كان الرجال لا يزالون بعيدين جداً عن رولف كي يتأكد من جنسيتهم بشكل واضح. فجأة، سمع صوت جلبة خلفه؛ على الطريق المؤدي إلى الوادي. وكان الصوت صوت سحق وخشخشة.

إنه صوت جرارات.

زحف رولف إلى الناحية الأخرى من الخندق، وحاول الحصول على

منظر أوضح، فيما علا الصوت القادم من غابات شجر الصنوبر الكثيفة في الوادي، وما لبثت أولى المدرعات أن ظهرت من الغابات. لم يكن قد شاهد من قبل مدرعة ألمانية مثلها، ليس في أية صورة في الصحف أو نشرات الأخبار. لم تكن من طراز بانثر أو تايغر.

ظهر المزيد والمزيد من المدرعات على الطريق، تبعتها الشاحنات ومدافع الهجوم وسيارات الجيب والجنود، كان ما يراه تدفقاً لا ينتهي. وقد كان الجنود يعتمرون خوذات مستديرة! كل ما يتعين عليه فعله هو البقاء مختبئاً لمدة كافية إلى أن تتحرك المدرعات المتقدمة بعيداً صوب الغرب ويهدأ الوضع.

«أيها المجند، ارفع يديك إلى الأعلى».

صاح القائد بلهجة غريبة وحادة. وكان رولف في البداية قد تمكن من رؤية الحذاء الضخم ذي الأشرطة.

«ماذا تفعل عندك في الحقل اللعين؟».

لم يكن رولف قد رأى في حياته من قبل رجلاً أسود البشرة. وكان هذا الرجل يحمل مدفعاً رشاشاً تحت ذراعه، وفوهته موجهة بالضبط إلى ما بين عيني رولف.

«أنا فنلندي! ولست ألمانياً». قال رولف ذلك بصوت عالٍ وواضح، فقد كانت الإنجليزية هي لغته الثانية في المدرسة بعد الألمانية. «أنا فنلندي، أتعلم؟ أنا سجين حرب، كلا، بل أسير حرب».

تمتم الرجل: «فنلندا؟ لم أسمع بها من قبل. انتظر، أجل لدي... حرب الشتاء! أنتم هزمتم من قبل الروس. حسناً، اخرج من عندك، وأبقِ يديك في الهواء، هل تحمل أي أسلحة؟».

«كلا، أنا مدني».

مشى رولف في الاتجاه الذي أشار إليه الأميركي، بينما سار الأميركي خلفه.

«سأصطحبك للتحدث إلى قائدي؛ فهو من بيده اتخاذ القرار بشأنك». تمتم الجندي وهو يصطحبه نحو ما يبدو أنه مقر قيادة الفوج. «أفترض أنك

تحمل الوثائق الخاصة بك، أليس كذلك؟».

الوثائق! اللعنة! لقد كان جواز سفره مع هانز في الإسطبل، ولم يكن بوسعه العودة إلى هناك من دون الكشف عن مكان اختباء هانز، ولم يرغب بفعل ذلك.

وأسوأ ما في الأمر هو أنه ما زال يحمل تصريح المرور في بطانة معطفه، ولم يكن أمامه سوى التضرع كي لا يقوموا بتفتيشه بدقة. كان ينبغي له التفكير في حرق الرسالة وتصريح العمل.

كان مقر قيادة الفوج يقع في فناء مزرعة مجاورة. وكان القائد رجلاً ضئيل الحجم ويعتمر خوذة، ويحرك بتوتر عقب سيجارة من أحد جانبي فمه إلى الآخر. وكان يبدو جلياً أنه لم يكن متحمساً للتأخر في التحرك أكثر من ذلك. رفع نظره عن الخريطة التي نشرها فوق غطاء سيارة الجيب بانفعال، ورمى رولف بنظرة من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، وتمتم بشيء للجندي أسود البشرة، لكن رولف لم يتبيّن ما هو.

«لكنه كان في الخندق يا سيدي؛ مختبئاً أو ربما كان يتجسس علينا يا سيدي! وهو يزعم أنه ليس ألمانياً، ويقول إنه سويدي».

«كلا، أنا فنلندي». قال رولف بصوت عالٍ بما يكفي لسماعه: «أنا أسير حرب، وكنت أهم بالهرب عندما وصلتم».

«هل يحمل أي وثائق؟ جواز سفر مثلاً؟».

لم يكترث القائد بالتحدث إلى رولف مباشرة.

«لم أتحقق من ذلك بعد يا سيدي».

«حسناً». نظر القائد إلى رولف مباشرة الآن، وقال: «أين جواز سفرك؟».

«لقد أخذه الألمان مني يا سيدي! لكنني لست ألمانياً، أنا فنلندي».

«هل يمكنك إثبات ذلك؟ قم بتفتيشه».

ها قد حانت اللحظة. سيعثرون على الرسالة، اللعنة! اللعنة! سيعثرون على الرسالة...

«إنه لا يحمل جواز سفر يا سيدي!». أبلغه العريف بحماسة، وتابع: «إنه

يحمل فقط تصريح مرور من نوع ما من قبل مؤسسة القيصر ويليام، بالإضافة إلى مظروف يضعه في بطانة معطفه».

«مظروف؟! أعطني إياه».

كاد القائد يقضم سيجارته ويجعلها نصفين.

«لا يمكنني قراءة هذا! لكن التوقيع والختم يدلان على رتبة كبيرة في وحدة أس أس وسواستيكاس وخلافه. يجدر بنا التحقيق في ذلك بشكل أكبر. إن أوامرنا واضحة؛ كل شخص على صلة بوحدة أس أس يجب أن يخضع لتحقيق شامل. لن يبرح هذا الرجل مكانه، اصطحبوه مباشرة إلى قيادة اللواء، فهم يعرفون كيف يتصرفون مع النازيين الحمقى».

جفل رولف عندما سمع ذلك، فما كان يعتبر نفسه من بين أولئك النازيين الحمقى.

صدرت له أوامر بركوب سيارة الجيب مع مبعوثين من جبهة القتال.

«آخر ما سمعته هو أن القائد الألماني كان عند مشارف وادٍ ضيق يقع على بعد ميلين إلى الغرب من هنا». وتابع القائد كلامه: «إذا لم تتمكنوا من العثور عليه، اسألوا في الأنحاء. وإذا كان غبياً بما يكفي وحاول الهرب، اقتلوه وعودوا مباشرة إلى هنا».

فكر رولف في سرّه: ورقة صغيرة واحدة. ليتني فكرت في حرقها وحسب...

عند مقر قيادة اللواء، كان هناك أخيراً أميركي يفهم الألمانية. وكانت النتيجة أنه تمّ تقييد رولف، وإرساله مع وفد الشرطة العسكرية إلى قيادة الوحدة، ومن هناك إلى قيادة الجيش.

في مكان ما غرب فرانكفورت، شهد رولف مشهداً مروعاً. إذ إن حشوداً من عشرات الآلاف من أسرى الحرب الألمان، فيما دُفِعت مئات الشاحنات المدمرة وعربات المدفعية وعربات بانزر إلى جانب الطريق، وسُلّمت جبال عملاقة من الأسلحة اليدوية من قبل القوات المستسلمة، وكان أطفال ألمان من السكان المحليين نحيفون جداً يتوسلون إلى الأميركيين من أجل الحصول

على الطعام.

«أشعر بالجوع، أريد خبزاً. أرجوك، أرجوك».

رأى بنايات مدمرة، وحطاماً، وشباناً بأرجل مبتورة يعرجون على عكازات، وامرأة تنظر إليه بعينين هائمتين، وأناساً خسروا كل شيء...

لقد بدا أن الأميركيين قد ورطوا أنفسهم في كابوس مريع. إذ تنتظرهم مهمة إطعام أسرى الحرب، والملايين من المدنيين الألمان اللاجئين الذين عادوا إلى العصر الحجري. وقد بدأ رولف يزداد قلقاً بشأن إنغريد.

في دارمستادت الواقعة جنوب فرانكفورت، مُنح رولف أخيراً مهمة واضحة في مستشفى للأسنان قديم تم تحويله إلى منشأة احتجاز لضباط وحدة أس أس، وصغار الضباط، وأي شخص آخر مشتبه به بارتكاب جرائم حرب نازية.

جرائم حرب نازية. كانت فجاجة المصطلح أسوأ في الواقع مما نعتوه به من قبل. هل كانوا يعتقدون حقاً أنه ينتمي إلى مجرمي الحرب؟

سأخبرهم بصدق عن أي شيء يريدون معرفته عن عملي في برلين على أمل أن يرضيهم ذلك. فكّر رولف في ذلك وهو يشعر بالإحباط. فعلى الأقل، لا يستطيع أحد أن يزعم أنه قد ارتكب جريمة.

ولكن، كان من الأفضل التزام الصمت حيال تلك المهمة الأخيرة. فقد تظاهر ببساطة بأنه لا يعرف المهمة التي أُرسل من أجل إنجازها. يمكنهم تصديق ذلك أو عدم تصديقه. ربما كان هناك شيء مخبأ، لكنه يجهل ما هو أو أين تم إخفاؤه.

انتبه رولف فجأة في مقعد السائق عندما توقفت شاحنة صغيرة في الميدان، وقال له مالك بهرامي من المقعد الخلفي: «استعد».

رأت كارلا بلوغر سيارة أودي حمراء، ورجلاً عجوزاً يجلس على مقعد السائق.

لمَ أراد رولف نارفا مقابلتها الآن فقط؟

كانت كارلا متحمسة، ولكنها في الوقت نفسه كانت خائفة أيضاً من مقابلة الرجل الذي قرأت عنه في مذكرات جدها. لقد كان جدها هانز بمثابة لغز

بالنسبة إليها لمدة طويلة؛ فقد كان حاد الطباع على غير العادة؛ حتى وهو شاب، وعمل كباحث لدى شركة سيمنز.

وكانت كارلا تذهب إلى برلين برفقة والديها لزيارته كل فينة وأخرى. لكن والدها لم يرغب في البقاء على تواصل مع والده لسبب ما، كما أنه لم يرغب في التحدث عنه كثيراً؛ على الرغم من محاولتها سؤاله عنه.

وحتى عندما توفي جدها، أخذ والدها ألبومات صور قليلة من شقته في برلين، وقام ببيع بقية أغراضه إلى بائع خردة ما. وقد فعل ذلك بكل أغراضه؛ رغم أن كارلا أخبرته أنها تود الاحتفاظ بشيء يعود إلى جدها. على الأقل، الكرسي الجلدي العتيق الذي يعود إلى السبعينيات. لذا، ذهبت إلى متجر الخردة الذي باع والدها الأغراض إليه، وعثرت على شيء مثير للاهتمام أكثر من الكرسي.

ترجلت كارلا من سيارتها، وسارت نحو سيارة الأودي. كانت قد اقترحت أن يجري اللقاء في أحد المقاهي، لكن نارفا أراد مكاناً أكثر هدوءاً ليلتقيا فيه بمفردهما. فقررت أخيراً أنه قد يكون ذلك أكثر حكمة بالنسبة إليها أيضاً.

ما إن فتحت باب سيارة الأودي لتجلس قرب نارفا، حتى لمحت شخصاً أصغر سناً يجلس على المقعد الخلفي. ترددت، لكن نارفا نظر إليها من خلف عجلة القيادة، وأومأ إليها.

«لا تقلقي، واجلسي». قال لها.

«ما الغرض من هذا؟».

قال نارفا: «ربما تكونين قد خمنتِ بالفعل. أريد أن أعرف أين المادة التي أخذتها من مقبرة كلنجنبيرغ».

«لا أعرف ما تتحدث عنه».

«أمامكِ خمس ثوانٍ للنجاة». سمعت صوتاً صادراً من المقعد الخلفي.

نظرت كارلا خلفها، فرأت مسدساً بيد الشاب.

حوّلت نظرها إلى الأمام، وتجمدت على مقعدها.

«يقع صندوق الحمولة في فايرسدورف جنوب برلين».

(17)

ها هي. وقف إيريك في الشارع الهادئ في ضباب الصباح الباكر، وحدق إلى المبنى الرمادي القذر.

كُتبت على لوحة على الحائط عبارة مؤسسة ماكس بلانك. ولكن، وفقاً لما أخبره إياه فاغرسترام، لقد شُيد المبنى في العام 1936 كي يستخدم كقسم للفيزياء في مؤسسة القيصر ويليام.

كان قد ذهب قبل وقت قصير إلى قسم الشرطة، وأضاف معلومات بشأن الحادث الذي وقع في الفندق في الليلة السابقة لإفادته الأولى. وقد دوّن الضابط المعلومات، ولكن كل شيء كان يشير إلى أنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد.

أخذ إيريك الأمر بجدية للغاية. لمَ حاول أحدهم اقتحام الغرفة التي كان يفترض أن ينزل فيها؟ هل كان في خطر؟ أم إن الدخيل أراد ببساطة أن يفتش في أغراضه كما فعل بأغراض والده؟

ما الذي يبحثون عنه؟

تقدم إيريك ببطء. وعلى بعد خطوات قليلة من المبنى الحديث الشبيه بالصندوق، كانت هناك لوحة كُتب عليها مؤسسة ماكس بلانك لتاريخ العلوم. ووفقاً لفاغرسترام، حُفظت الوثائق الخاصة بمؤسسة القيصر ويليام هناك. إلا أن معظم الوثائق لم تنجُ من الحرب، أو لم يسمح لها بالنجاة.

عندما غادر مؤسسة تاريخ العلوم، واصل السير وهو مستغرق في تفكير عميق. وعلى بعد مئات قليلة من الأمتار من أينستريس، وقف أمام المبنى الذي استضاف قسم علوم تحسين النسل الذي أخبرته بشأنه كاثرينا بلوغر. لقد أزعجه ماضي والدته السري أكثر بكثير مما أزعجه ماضي والده.

نظر إيريك إلى الأعلى كي يقرأ النص الذي كُتب على اللوحة وهو يشعر

بتنميل في جلده.

في هذا المبنى، جرت اختبارات على أعضاء بشرية، وقد كان يديرها الطبيب جوزيف مانغيل، وهو مساعد سابق في القسم...

شعر إيريك بإعياء جسدي، فأخذ بضعة أنفاس عميقة، ثم استجمع قواه وصعد الدرجات القليلة، ودخل البهو الذي ردّد صدى خطواته. كان ثمة عدد قليل من الطلاب الذين يتحدثون في الردهة التي امتدت في كلا الاتجاهين. ربما يكونون طلبة يدرسون العلوم السياسية، ولا يدرسون الطب ولا الأحياء.

واصل إيريك تقدمه. كان أمين الأرشيف في مؤسسة ماكس بلانك قد أخبره بكيفية الحصول على المعلومات الخاصة بالطلاب السابقين لدى مؤسسة القيصر ويليام. وقد لاحظ درجات السلم الحجرية البالية، وشبكة تبريد الهواء العتيقة، والجدران البيضاء التي تحتاج إلى إعادة طلائها.

لو لم تكن هناك آلة لتصوير المستندات، ونشرات ملونة على لوحة الإعلانات، لما كان هناك ما يشير إلى ما إذا كان العام هو 2002 أو 1940.

هل هذا هو المبنى الذي شهد بداية مسيرة أمه المهنية؟ هل كانت تصعد تلك الدرجات مع زملائها إلى المختبرات حيث...

واستدار إيريك وهرول إلى خارج المبنى وهو غير واعٍ لنظرات الطلاب الفضولية.

عندما خرج إلى الشارع وهو يلهث، مسح العرق عن جبينه وحاول أن يهدأ.

شعر رولف بالشلل بينما كان ينظر من نافذة سيارة الأودي إلى منظر متسارع لوادٍ ضيق يقع جنوب برلين. لقد كانوا يتّبعون اتجاهات حفيدة هانز إلى الموقع حيث توجد الحاوية. ثم توقف مالك بهرامي، وترك زميله برفقة كارلا بلوغر في مكان ما على الطريق، ولم يرغب رولف بالتفكير في ما حدث لها.

الشيء الوحيد الذي أراح قلبه هو أن حفيديه باتا بأمان الآن. فقد حصل

الخاطفون على مرادهم، إذ باتت الحاوية في صندوق السيارة.

ولكن هذا سيكون عزاءً بسيطاً إذا تمكن الإرهابيون من الحصول على المواد الخام اللازمة لتصنيع قنبلة إشعاعية.

التزم رولف بالصمت، وشعر بأن الحبل المربوط حول يديه قد قطع جلده. كان كالحيوان الذي يساق بالحبل؛ ولا شيء سيغير مصيره.

كان قد مر بموقف مشابه لهذا الموقف مرة واحدة في حياته، وامتدّ ذلك لعدة أسابيع. لذا، إنه يدرك معنى الشعور بالعجز التام.

في الماضي، كان على الأقل يعرف من الذي يبقي عليه سجيناً. وقد كان الأميركيون مهذبين للغاية، لكنه كان لا يزال يشعر بالخوف والتهديد. كانوا قد أروه فيلماً مفزعاً، والذي ظل يطارده في أحلامه لعقود لاحقة. وفي نظر المحققين الأميركيين، كان «نازياً حقيراً».

تذكر رولف العقيد وهو يسند ظهره على الكرسي خلف المكتب.

«أخبرني، هل تفاجأت بالأحداث التي أدت إلى نهاية الحرب في آسيا؟ هل تفاجأت من فكرة أن مشروع القنبلة النووية الأميركي يتقدم كثيراً عن مشروعكم؟».

«لم يكن برنامجي. وأجل، لقد كانوا متفاجئين. فقد اعتقد علماء الذرة الألمان بشدة أن ألمانيا تتقدم أكثر في هذا الصدد».

«العديد من المهندسين وزملائك السابقين، بدءاً من الدكتور هايزنبيرغ والدكتور فون فايزاكر، قالوا الشيء نفسه. هل عرفت أنهم والعشرات غيرهم مدفونون في إنجلترا؟».

«لم أسمع أي شيء عنهم منذ مارس الماضي».

«وهل عرفت أن زملاءك من علماء الصواريخ من ميتلفيرك قد تم إرسالهم إلى جبال الألب البافارية؟ كل طاقم علماء الصواريخ التابع لفيرنهر فون براون».

«لم أعرف بشأن ذلك؛ فما من أحد أخبرني بأي شيء. بل إنني لم أرَ زوجتي منذ خمسة أشهر، ولا أعرف حتى إن كانت حية أم ميتة». وشعر رولف

أن مرونته النفسية باتت على آخرها، رغم أنه عومل باحترافية. «هل ستتركونني أرحل من هنا يوماً؟ أنا حتى لا أعرف ماذا تريدون مني».

«زوجتك بخير. إنها في الجزء البريطاني من برلين، وهي حية وبصحة جيدة».

قفز قلب رولف إلى حنجرته وقال: «هل هي قيد الاحتجاز أيضاً؟ لمَ لم يخبرني أحد بأي شيء عنها؟».

«لقد عملت زوجتك على مشروع شمل تجارب حول تأثير الإشعاع على التناسل البشري. وفي اللحظة الراهنة، تقول الولايات المتحدة إن أشخاصاً هامين، خاصة أولئك الذين عملوا على إنتاج الأسلحة النووية وأبحاث الصواريخ، سيسمح لهم بالانضمام إلى نظام الأجور الخاص بواشنطن. لو كان الأمر بيدي لما حصل أي منكما على عرض كهذا، لكن الأوامر قادمة من أشخاص متنفذين. وإذا وافقتما على العرض، فسيجري نقلكما إلى باريس بحلول نهاية هذا الأسبوع، ومن المحتمل أنه سيتم إرسالكما إلى الولايات المتحدة سريعاً جداً».

لقد كان اتخاذ القرار أمراً سهلاً. فوالدا رولف يكبران في السن في فنلندا، ولكن يمكنه التواصل معهم لاحقاً. بل ربما يتمكنان حتى من زيارته في أميركا. بالإضافة إلى ذلك، أي نوع من الوظائف يمكنه أن يحصل عليه في بلد فقير مثل فنلندا؟! ولكن، يتعين عليه أن يبيّن للأميركيين أنه يريد اصطحاب إنغريد معه، فلن يوافق على العرض من دون اصطحاب زوجته.

في اليوم التالي مباشرة، أخبره العقيد أن إنغريد عبّرت عن رغبتها في الذهاب أيضاً، وأنه تمّ نقلها من برلين إلى باريس.

كانا يعملان لحساب النسر النازي، والآن باتا يعملان لحساب النسر الأميركي الأصلع.

انجذب انتباه رولف مجدداً إلى المنظر الخارجي المفتوح على جانب الطريق. لا بد أن هناك الآلاف من الطرق المشابهة له في ألمانيا. ولكن، لا يزال هناك شيء مألوف قليلاً في هذا المنظر، إنه الأرض.

كان من الممكن رؤية المزارع والقرى الصغيرة هنا وهناك. وفقط عندما مروا بلافتة صفراء تحمل اسم القرية الصغيرة التي وصلوا إليها اقتنع رولف أخيراً بأنهم في غوتو.

ما الغرض من ذلك؟

قاد هوفمان السيارة عبر القرية الهادئة. فلاحظ رولف أنه تمّ بناء منازل جديدة؛ لدرجة أنه ما كان ليتعرف على القرية نفسها. انتهى وجود المنازل، فتحولوا إلى طريق تذكّره رولف بشكل واضح للغاية، فقد سار فيه عدداً لا يحصى من المرات عندما عمل لحساب مجموعة الدكتور كامرسدورف. بعد ذلك بقليل كانوا في الغابات، وكانت هناك أشجار على جانبي الطريق، ثم مروا بمنعطف وسياج على هيئة سلسلة، وبين فينة وأخرى كانت تظهر بوابة.

كانوا في طريقهم إلى وحدة أبحاث هيرسفافينانت القديمة.

ربما كان رولف يود زيارتها بنفسه لو أن رحلته إلى برلين قد سارت وفقاً لما كان مخططاً لها، ولكن ليس الآن، وليس مع هؤلاء الأشخاص.

كان الريف هادئاً ومهجوراً، وقد تواصل ظهور السياج على جانبي الطريق بصورة لا تنتهي. وقد حملت رياح قوية سحباً ممطرة في السماء.

لِمَ أتوا به إلى هنا؟!

أصبح الطريق معبداً، وقد ظهر برج حديدي لا بد أنه قد شُيد عندما كانت المنطقة جزءاً من جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة. وبعده ظهرت بناية من أربعة طوابق على هيئة صندوق ومهجورة أيضاً. اعتدل رولف في جلسته، وقد تنقل بنظره سريعاً على المنظر خارج النافذة اليسرى. كانت لا تزال هناك مجموعة من أشجار الصفصاف التي تنمو هناك، وبقدر ما يتذكر، كانت نوافذ المنازل محطمة، وكانت بعض الأبواب مفقودة. كان كل شيء جديداً ونظيفاً عندما قضى أخيراً ليلته في مكان ما بين تلك البنايات.

انتهى تمدد السياج، وظهرت بعض البنايات المأهولة للعيان. ولكن، حتى تلك البنايات كانت في حالة رديئة. انعطف السائق يساراً إلى طريق من الحصى. كان ذلك المكتب الرئيس، وهناك كان يقع المقهى...

هنا عندما بذل كباحث شاب كل طاقاته وذكائه ومهاراته لإنتاج قنبلة نووية لهتلر. لم يكن أمامه سوى شكر الله لأنه لم ينجح في ذلك. فقد ندم طوال حياته على ذلك، وشعر بالعار منه، وحاول التكفير عن ذنبه قدر استطاعته، لكنه هنا الآن، ويشعر بالذنب مجدداً، فقد أعادت ذكرياته بالإضافة إلى الموقف الحالي ذلك الشعور إليه.

«لمَ نحن هنا؟». سأل بصوت مرتعد وهو يغالب دموعه، وقد بدأ يفقد آخر ما بقي لديه من مقدرة في السيطرة على نفسه.

غير أنه لم يحصل على جواب. كانت أعشاب وأشجار صغيرة قد نمت بين الألواح الحديدية الخاصة بالطريق. وكانت هناك لافتة واحدة مغطاة بالطين إلى جانب بوابة حاجز يعلوها الصدأ، وقد كُتب عليها: منطقة خطرة! يحظر الدخول وقيادة السيارات!

لا بد أن التحذير كان يتعلق بتجارب التفجير والمدفعية التي كانت تجري هنا لعقود طويلة، لكن لافتة التحذير من القيادة كانت مكسورة ومعلقة من جانب واحد.

دخلت السيارة عبر البوابة، وتجاوزت الشجيرات إلى أن وصلت إلى فناء يحيط به حائط من الطوب على أحد جانبيه ومحاط بأساسات بناية متهدمة. نظر رولف إلى أجزاء الجدران التي لا تزال قائمة، والتي ظهرت بعدها شجرة بلوط. كان على بعد خطوات قليلة من المكان الذي شيدوا فيه مفاعل الاختبار في الغابات. وكان قد غادر هذا المكان بحلول نهاية صيف العام 1944، وذلك عندما تم إخلاء الوحدة إلى ستادتلم.

توقفت السيارة بين البرك في الفناء فجأة؛ لدرجة أن رولف كاد يصدم رأسه بالمقعد الأمامي، ثم ساد الصمت هنيهة.

أمره السائق: «يمكنك أن تذهب».

نظر إليه رولف بدهشة، لكنه لم ينتظر سماع المزيد من الأوامر، فقد سعى إلى فتح باب السيارة بيدين ترتعشان، وترجل منها بساقين متيبستين، وأقفل الباب خلفه بعنف.

لم تتحرك السيارة، وتردد رولف للحظة. كيف سمحوا له بالذهاب فيما هو يعلم كل شيء. تذكر كلمات العقيد ذي الوجه المشوه من وحدة أس أس عند المقبرة: «آسف، ولكن سيتعين عليكما الذهاب خلف دار العبادة الآن».

بدأ رولف بالسير نحو أقرب حطام والأمل يحدوه، فيما تتموج في رأسه نذر الشرّ الواحدة تلو الأخرى.

زاد من سرعة مشيه ونظر خلفه. كانت السيارة لا تزال مكانها، ولم يكن ثمة أحد يصوب سلاحاً نحوه.

بدأ الأمل يشع في رأسه، وقد أجبر ساقيه المتيبستين على السير بشكل أسرع. لم يستطع أن ينسى كيف كانت خطواته رشيقة ذات يوم عندما كان يخرج ألواح أكسيد اليورانيوم من الشاحنة، ويحملها عبر هذا الفناء نفسه. وللحظة، تمكّن من رؤية المكان وعيناه تذرفان الدموع؛ كان المكان لا يزال على حاله، فتذكّر جدران الطوب القوية، والأبواب المزدوجة حديثة الطلاء، والهمهمة، والأنشطة الحماسية التي انتشرت بينما كان الدكتور ديبنر يعلن عن اكتشافات هامة وجديدة تخص عملهم...

بعد ذلك، سمع رولف السيارة خلفه وقد بدأت تتحرك، فمسح دموعه بكمه، وحاول أن يسرع في خطواته أكثر وقد انحبست أنفاسه، ولكنه كاد أن يتعثر على الأرض غير المستوية.

قرر أن ينتظر للحظة بالقرب من الجدار المتهدم إلى أن تختفي السيارة والرجل من المكان، ثم سيسلك الطريق الواسع. وبالتأكيد، سيقبل أحد ما بأن يقل رجلاً عجوزاً مثله.

فجأة، بدا صوت السيارة قريباً بشكل غريب، فنظر رولف خلفه بهلع، ورأى السيارة تتجه مباشرة نحوه. سرّع من خطواته قدر استطاعته، لكن مانفريد زاد من سرعته أكثر فأكثر بالطبع.

توقف رولف، واستدار لمواجهة السيارة المقتربة منه وهو يلهث مذعوراً. ولكن، كلما أسرعت السيارة نحوه أكثر، انحسر الذعر من عقله. أصبح الحطام حوله مجدداً جدراناً راسخة من الطوب الأحمر تلمع تحت ضوء الشمس.

ورجع رولف في الزمن إلى الوراء، حين وقف بلا قميص وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يحمل في يده زجاجة ماء ثقيلة، وعضلات ذراعيه تلمع بفعل العرق، وقلبه يخفق، وأفكاره مشغولة بأطروحته وبإنغريد.

ركزت عيناه على ممتص الصدمات الخاص بالسيارة، ويداه إلى جانبيه، وكان هادئاً، ووقف من دون خوف. باتت السيارة على مسافة أقل من مترين، فوقف منتصباً. وفي لحظة عابرة، رأى نمط التشابك العظيم لحياته؛ رأى تاريخاً من الانتصارات والانكسارات وتقلب أحوال أمة بأسرها، ذاك التاريخ الذي سمح له بمشاهدته.

على مسافة أقل من متر، كان عقله ممتلئاً بفكرة واحدة؛ ألا وهي إمكانية تكفير الذنوب ونيل المغفرة. أخذ نفساً واحداً عميقاً فامتلأت رئتاه بالأوكسيجين لآخر مرة، وما لبث الكون أن اكتسى بالسواد بعد أن اصطدم بمقدمة السيارة.

وقفت السيارة إلى جانب رولف ويليامز حيث كان ممدداً على الأرض، وترجل السائق منها، ومال عليه، ثم نهض وعاد إلى داخل السيارة.

وبسرعة كبيرة، سلكت السيارة منعطفاً عند الركن واختفت.

ساد الصمت أنحاء الفناء. ومن بين السحب المتسارعة التي يحملها الهواء، تلألأ طيف من أشعة الشمس على سطح البركة المجاورة للجثة الهامدة الممددة، مما أضفى لمعاناً على مياهها العكرة.

وعلى أحد فروع الشجرة التي نمت خلف حطام جدار الطوب، جلس سنجاب ونظر إلى الفناء. وعندما بدا له أن كل شيء ساكن هناك، قفز إلى الفرع التالي في قفزة واحدة وطويلة.

(18)

أغلق يواكيم الباب خلفه. كان شاحباً وحركاته مضطربة وسريعة وعنيفة.

وقف عند باب المطبخ، وقال للأشخاص الثلاثة الذين كانوا داخله: «لقد ماتت كارلا».

خرجت الكلمات من بين شفتيه الجافتين والشاحبتين خالية من التعابير أو المشاعر. وقد بدا فاقداً للحس بشكل كامل.

نظروا إليه جميعاً بذهول.

«لقد أُطلق عليها الرصاص. وتعتقد الشرطة أن الأمر حادث قتل عرضي، فلم أعارضهم في ذلك».

«ماذا تقصد؟». سألته إحدى الزميلات بوجه شاحب.

نظر يواكيم أمامه مباشرة للحظة، ثم قال بهدوء: «لقد قُتلت كارلا وأُخذ الصندوق. انتهى كل شيء».

استدار يواكيم وذهب إلى غرفة كارلا، ورمى بنفسه على كرسي جلدي قديم كانت قد استعادته من مسكن جدها. من الذي قتل كارلا وأخذ الصندوق؟!

عبث بالحاسوب الذي وضعه على حجره، وفتح الرسالة التي كانوا قد خططوا لإرسالها إلى مكتب المستشارة الألمانية. حوت الرسالة طلباً إلى الحكومة المركزية بتخصيص تمويل لترميم موقع كهف آسي للنفايات النووية، والذي لم تملك ساكسونيا الصغرى المال الكافي لاستكماله. كانت الكهوف القديمة التي تحتوي على الحجر الجيري قد تم استغلالها في تخزين النفايات النووية التي لا تزال نشطة، والتي كانت تلوّث المياه الجوفية في المنطقة، وقد زعموا أنه لا يوجد تمويل كافٍ لمنع كارثة بيئية.

إن لم يتم اتخاذ قرار بتمويل عملية لتطهير المكان، فستطلق المجموعة اليورانيوم المخصب في برلين. كانوا قد سلموا بالفعل عينة من اليورانيوم

بواسطة مروحية يتم التحكم بها لا سلكياً حطت على سطح مكاتب مبنى المستشارية، وذلك كي يؤخذ التهديد على محمل الجد.

شعر يواكيم بضغط في صدغيه بينما كان يحدق إلى الشاشة؛ إذ لم يكن ينوي مواصلة هذا المسعى من دون كارلا.

لم يستطع ذلك، ولم يكن يدري كيف يواصل ذلك، بل لم يكن يرغب في المواصلة.

كان الأمر برمته من بنات أفكارها. إذ كان جد كارلا، هانز بلوغر، قد توفي في برلين، فقام والد كارلا ببيع أغراضه إلى متجر للخردة، وهو ما لم تفهمه كارلا على الإطلاق. ذهبت إلى ذلك المتجر، ورأت كل الأغراض وقد وُضعت على الأرض في صناديق من الورق المقوى، بما فيها مستندات جدها الشخصية، وكانت المذكرات إحداها. وما يثير الانتباه في هذا الأمر هو أنه طبقاً للمذكرات، كان هانز عضواً ذا ضمير يقظ في برنامج الأبحاث النووية الخاص بهتلر.

لم يتمكن الباحثون الألمان من إنجاز القنبلة الذرية في الوقت المحدد، لكنهم حققوا تقدماً ملحوظاً في مجال تطويرها. وكانت هناك معلومات متضاربة بشأن طبيعة ذلك التقدم. فعلى سبيل المثال، لم تكن كمية اليورانيوم المخصب الذي تمتلكه ألمانيا أمراً واضحاً. وعلى أية حال، عند نهاية الحرب، كان جد كارلا حاضراً عندما جرى إخفاء شحنة من اليورانيوم في مكان ما. على الأقل، هذا ما زعمه في مذكراته، وقد وصف الموقع أيضاً. لذا، ومن دون سبب بعينه، ذهبت كارلا إلى ذلك الموقع لترى إن كان الأمر حقيقياً.

كان اليورانيوم موجوداً هناك، ومخبأ في صندوق من الرصاص. وقد أخذت كارلا القليل من الغرامات منه كي تكون بمثابة العينة التي سيرسلونها. قالت إن ذلك كان بمثابة نفوذ، أو شيئاً لكشف الأسرار أو لإنجاز الأمور.

فكر يواكيم لبضع ثوانٍ، ثم قام بمسح الرسالة.

وقف إيريك داخل متجر هاغندوبل للكتب الموجود في تاونتزيانستراب.

كان قسم كتب التاريخ شاملاً، وقد أعاد نسخة من كتاب «المعجم الشخصي للرايخ الثالث: من حكم قبل وبعد العام 1945».

كان ذلك هو الكتاب السادس الذي يتفحص فهرسه. ولحسن الحظ، لم يُشر أي من تلك الكتب إلى أي من إنغريد ستورمار أو رولف نارفا. قرر أن يشتري بعض الأعمال العامة التي تتحدث عن برامج الفيزياء وعلوم تحسين النسل النازية، وسدد ثمنها عند موظف البيع، ثم سار نحو مقهى الإنترنت الكبير الكائن في كورفورستندام.

رن هاتفه، فظن أن فاغرسترام يتصل به من ستوكهولم. هل عثر على بعض المعلومات بشأن والدة إيريك؟ أجاب إيريك على الهاتف، ولكن كان ثمة صمت في الناحية الأخرى.

قال: «مرحباً؟».

غير أن أحدهم طرح عليه سؤالاً بصوت منخفض: «من أنت؟».

دُهش إيريك من السؤال. كان الصوت أشبه بصوت قادمٍ من مكان ما من الماضي. من كان حقاً إن لم يكن والداه كما كان يعتقد طوال حياته؟

ازدادت حدة هطول الأمطار، واندفع الناس في الشارع يبحثون عن ملجأ منها. حدق إيريك إلى شاشة هاتفه. لقد ظهرت عليها كلمة «أبي»، فوضع الهاتف سريعاً على أذنه مجدداً.

قال: «أبي...».

سادتَ لحظة من الصمت في الجانب الآخر، ثم سمع صوتاً يتحدث الإنجليزية بلكنة ألمانية:

«هل يمكنك أن تخبرني باسمك الكامل من فضلك؟».

«أنا إيريك ويليامز. من أنت؟». وجاهد كي يجعل صوته يبدو أكثر قوة وليخفي فزعه. «لمَ تتصل بي من هاتف والدي؟».

كان هناك تنهد مكتوم في الجانب الآخر، ثم قيل له: «أنا الرئيس كونستابل فيغر من لوكنفالد. لقد رأينا أن رقم هاتفك كان آخر رقم تم الاتصال به من هذا الهاتف، وقررنا أن نحاول أن...» وسادت لحظة صمت أخرى.

أغمض إيريك عينيه، وارتطم به أحد المارة خطأً.

«أنا آسف جداً. لكن رولف ويليامز كان ضحية لحادث مروري مروع».

كاد الهاتف يسقط من يده، ونظر حوله وكأنه يبحث عن طريق للهرب. لم يكن يرغب في سماع الكلمات؛ ليس هذه الكلمات. لقد أبى أن يصدق ما يسمعه؛ على الرغم من أنه كان يتوقع الأسوأ طوال الوقت.

«لقد كان يحمل جواز سفره ومحفظته إلى جانب هاتفه. وجميعها تتطابق مع مواصفاته. أنا آسف للغاية».

«أين...؟».

«في غوتو، جنوب برلين».

سار إيريك خطوات قليلة، وسقط على حافة صندوق زهور يقع أمام متجر. كان لا يزال بإمكانه سماع صدى كلمات السؤال الألمانية: «من أنت؟». الآن، وقد مات والده، هل سيعرف الإجابة يوماً؟

(19)

تنقلت كيت عبر المنزل وهي تحمل كوباً من الشاي في يدها. كانت الألواح الأرضية التي وُضعت أسفل السجادة البالية التي تغطي الأرضية من الجدار إلى الجدار تصدر صريراً. وكانت الحديقة المكسوة بالأعشاب ساكنة خارج النافذة، وتحت الضوء الخافت للصباح الهادئ. كانت قرية ريبلي الواقعة في سوري، التي تقع على حدود لندن، مكاناً مسالماً.

اختلست كيت نظرة إلى غرفة الولدين الضيقة، حيث كان كل من إميل وأوليفيا نائمين. وكانت مجسّمات برنامج أبولو للفضاء ومختبر الفضاء ومكوك الفضاء تتدلى من السقف عبر أسلاك، كما وضعت كامل سلسلة ساترن بأجزائها الخمسة على أحد الرفوف. في الصيف السابق، كان رولف قد أخذهم في جولة في أنحاء مركز كنيدي للفضاء، بما في ذلك مناطق لا يسمح للعامة برؤيتها. كان قد استقل طائرة إلى هناك قبل ذلك بأسبوعين، وقد فوجئت كيت لدى رؤيتها كيف تعامل طاقم مركز الفضاء برود وحميمية مع موظف قديم لدى ناسا.

كان السبب وراء ذلك عملياً جداً؛ فقد كانت ناسا تخطط منذ مدة طويلة لإرسال رحلة مأهولة إلى القمر. ولأسباب مالية، سيتم الاعتماد في ذلك على العناصر التي لا تزال قادرة على العطاء من برنامج أبولو قدر الإمكان. وعلى الرغم من امتلاكهم الوثائق القديمة كافة، إلّا أنهم لا يزالون يستشيرون الموظفين القدامى الذين عملوا على الرحلات المسيرة بين الأرض والقمر. فعلى سبيل المثال، كان جلياً أن حساب المسارات صعب للغاية حتى بالنسبة إلى حواسيب اليوم.

لقد جعل رولف إميل شغوفاً جداً بالفضاء. بيد أن أوليفيا، من جهة أخرى، تشاركت مع والدها وجدتها اهتمامهما بعلم الأحياء. لكن الصورة ذات الإطار

المعلقة على الحائط والتي منحهما إياها رولف كانت هدية مشتركة لهما معاً، وهي صورة لنيل أرمسترونغ وموقعة بخط يده قبل ست سنوات مضت.

واصلت كيت نزول سلالم البيت الذي بُني في فترة الثلاثينيات، والذي كان في حاجة ماسة إلى عمليات ترميم. كانا ينويان إعادة ترميمه بعد أن اشترياه قبل أربع سنوات، لكنهما انشغلا جداً لدرجة أنهما لم يتمكنا سوى من تثبيت بعض الخلايا الشمسية. إذ كانت شركة غندو تمر بمرحلة نمو حاسمة في ذلك الوقت، ولم تكن كيت معنية بالجماليات بأي شكل أكثر من إيريك. وكان أهم شيء هو أن الأمور الأساسية للحياة في المنزل تعمل بانتظام؛ فالماء الدافئ الذي يمكن تحمله ينهمر من الدش طالما أنها تعرف كيف تضبط الصنابير بشكل صحيح، وحجبت الألواح تيار الهواء البارد عن المنزل.

وضعت كيت كوب الشاي على المكتب، ودخلت إلى بريدها الإلكتروني الخاص بغندو لتصفحه. لقد كانت الشركة محور حياتها هي وإيريك، لدرجة أنها شعرت أحياناً أنهما قد أهملا إميل وأوليفيا. فقد تبلورت حياتهما العلمية بأكملها ومهاراتهما المهنية حول الشركة. وأينما كانا، كانت غندو برفقتهما دوماً، فهي العضو الأكثر أهمية في العائلة.

كانت كيت قد درست البيولوجيا الجزيئية في كلية كينج في لندن، وذهبت لاستكمال دراسات التخرج الخاصة بها في الولايات المتحدة في روتشيستر. وقد تم تعيينها بعد تخرجها مباشرة في مشروع الجينوم البشري من قبل باحث يكبرها بثماني سنوات.

رن جرس الهاتف على سطح المكتب، وقد كان بوسع كيت أن تشعر على الفور من صوت إيريك أن خطأً ما قد وقع.

«لقد عثرت الشرطة الألمانية على جثة أبي». لم يستطع إيريك مواصلة الحديث.

«لا!». همست كيت، ونهضت وأغلقت الباب بلا وعي كي لا يستيقظ كل من إميل وأوليفيا ويسمعا المحادثة.

«إيريك، ليتني كنت برفقتك».

«لقد صدمته سيارة في مكان ما قرب برلين».

«صدمته سيارة! لقد كان دوماً حذراً جداً عند عبوره الشارع».

«لا أعرف التفاصيل بعد، وأنا في طريقي إلى قسم الشرطة المحلي».

صمت هنيهة، ولم ترغب كيت بكسر حالة الصمت بحديث لا طائل منه. فلطالما أحبت رولف الذي كان دوماً شخصية ذات جانبين، فهو شخصية ساحرة ولبقاً في حديثه، ولكنه في الوقت نفسه كان شخصاً حزيناً ومتحفظاً نوعاً ما. كما كان شخصاً ذكياً بشكل غير عادي أيضاً، وقد كان إيريك ذكياً مثله، وكذلك إميل وأوليفيا. وكانت ثمة حقيقة مؤكدة، وهي أن رولف أحب حفيديه حباً جماً.

«أريد منكِ الذهاب إلى أمي وإخبارها بشأن وفاته».

«ألن يكون من الأفضل أن تخبرها بنفسك؟».

«لا أريد أن تسمع شيئاً كهذا عبر الهاتف. ولا أعرف ما يجدر بي تصديقه عندما يتعلق الأمر بأمي أو بأبي».

لقد كانت كيت على علم بالفتور الموجود بين رولف وإنغريد منذ طلاقهما. ومع ذلك، فقد دام زواجهما خمسة وعشرين عاماً، وإيريك هو ابنهما الوحيد.

«حتى إنني لا أدري إن كانت ستحضر مراسم الدفن».

سمعت كيت نبرة السخرية والمرارة المألوفة بالنسبة إليها في صوت إيريك، فهو لم يستطع قطّ إدراك ما تسبب في التفريق بينهما.

تنهد.

«لقد كانت رحلة شاقة بالفعل. وإذا كان هناك أي دليل على الإطلاق يدعم ما أشتبه به، فسيتعين علينا أن نتأهب لبعض عمليات الإيضاح المؤلمة».

«ماذا تقصد؟».

«عندما تتحدثين إلى أمي، اسأليها إن كانت قد درست في ألمانيا».

«عمّ تتحدث؟ هل هناك...»

«لا يمكنني الإيضاح الآن. افعلي فقط ما أطلبه منكِ».

«ألن تعود إلى الوطن الآن؟».

«سأعود قريباً. ولكنني أريد أولاً أن أعرف ما كان أبي يفعله هنا. وهناك ترتيبات هامة عليّ الاعتناء بها. لا بد أن يتم شحن الجثة إلى السويد، فقد أراد أبي أن يُدفن في ستوكهولم. وأنا على يقين من أنني سأُضطر إلى التعرف عليه. لا تخبري الولدين بأي شيء بعد، لأنني أرغب بأن أخبرهما بنفسي».

«هل أنت متأكد من أنك بخير؟ هل تود مني المجيء إليك؟».

«لا تقلقي، سأعود إلى الوطن عما قريب».

كانت الأجواء في حجرة الاجتماعات الواقعة في الطابق الثالث من مبنى المستشارية الألمانية متوترة ومرتبكة، بينما تساقطت زخات المطر على النافذة الملونة باللون الأخضر الداكن.

«لم نتلقَ حتى الآن رسالة من المبتز». قال رئيس الحرس.

فخيّم الصمت على المجموعة الجالسة حول الطاولة.

«ما الذي يعنيه ذلك؟». سأله وزير في الحكومة.

«لا أدري. هذا غريب، علينا أن ننتظر فحسب».

(20)

مـلأت كيـت رئتيهـا بالهواء الرطب والنقي. لقد صدمتهـا الأنباء المحزنة القادمة من برلين، فهي لم تكن مسـتعدة لتلقيها. وما كانت بالطبع لتختار أن تتولـى إخبـار إنغريـد بتلـك الأنبـاء، لكنها لم تقوَ علـى رفض طلب إيريك في ظل هذه الظروف.

كانت السـماء مظلمة بفعل السـحب الماطرة الداكنة، ولكن الجو كان لا يزال جافاً. وقد ظهر المنزل الكبير والحديث والكائن في ميزن كلوز بحدائقه أمامها كما كان دوماً. وقد منح السـياج المزين المصنوع من الخشـب الصلب واجهة المبنى تنوعاً. كانت إنغريد قد اشترت المنزل عندما انتقلت إلى إنجلترا في أوائل الثمانينيات، وقد أتت الأموال التي اشترته بها من السويد؛ من الميراث الذي تركه لها والدها الذي مات عن عمر يناهز السادسـة والتسـعين. وكل ما عرفته كيت عن والدها هو أنه كان قد امتلك شركة لصنع الأدوات المعدنية، ثم قام ببيعها في الخمسينيات.

كل بوصة مربعة من منزل إنغريد كانت مقيدة كضمان لشركة غندو عندما أنشـئت، وقـد كانـت كيـت ممتنـة لذلك. لقد كانت شـركة إيريـك ذات أهمية بالنسـبة إلـى إنغريـد، لدرجة أنها جعلتها وسـيلتها للتسـلية، لكنهـا عادة كانت مرهقة وشـاقة. وقد كانت حماتها لا تزال تتابع بنشـاط تطورات عالـم العلوم، وكانت سخية في التعبير عن آرائها عنه.

ولكـن مجـدداً، كانـت هناك أوقات تعيّـن فيها على كل من كيت وإيريك الاعتراف بأن رأي إنغريد يستحق الاستماع إليه. كان وقتهم مقيداً للغاية بروتين العمـل اليومـي وبالمنـزل، بينمـا لـم يكن أمام إنغريد شـيء أفضـل من متابعة المجلات العلمية وأعمال الطلاب المتخرجين من الجامعات. وقد أمّنت عدة باحثين مؤهلين بشكل عالٍ للعمل لدى غندو، وآخرهم كان كارل مولر. ومن

هـذا المنطلـق، كان مـن الواضـح تماماً سـبب ضمها كعضو فـي مجلس إدارة الشركة.

أمسـكت كيت بقارع الباب المصنوع على هيئة رأس أسـد. لم تفهـم قط سـبب عدم اسـتخدام إنغريد للجرس. قالت إنغريد إنها تفضـل أسـلوب الحياة القديم. فعلى ما يبدو، لقد أرادت أن يأتي الناس إلى منزلها ويطرقوا بابها. وكأن أي أحـد يمكنـه أن يصـدق أنها من النوع الذي يتجنب اسـتخدام التكنولوجيا، وهو نوع من التمثيل الذي جعل من إنغريد شخصية غير مريحة قليلاً. فكرت كيت: هل ستمثل الآن أيضاً، وتلعب دورها حتى في هذا الظرف؟! انفتح الباب.

«سيدة ويليامز، إن هذه مفاجأة حقاً».

إنها لينا مساعدة إنغريد. وهي امرأة في العقد الرابع من عمرها، وترتدي ملابس أنيقة، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مكبوتة.

إنها ممثلة كرئيستها، فكرت كيت.

«تفضلي رجاءً. السيدة ستورمار في المكتبة».

لوحـات ملونـة، وتماثيـل مـن الرخـام منحوتـة على هيئة رياضيين شـبان أعطـت توهجـاً إيجابيـاً وخيالياً تحت اللمعان الطبيعـي لأضواء الهالوجين في البهـو عالـي السـقف. فتحـت لينا بـاب المكتبة لها، ومجدداً لـم تسـتطع كيت إخفـاء إعجابهـا بمجموعـة الكتـب الهائلة التي تعكس بشـكل إيجابي الإنجاز العلمي والحكمة العملية لعقود مضت. كان الجو جليلاً وموقراً وساحراً تقريباً. كانـت هنـاك صفـوف من الكتب مرتبة بدقة تحت ضوء الحجرة الخافت، وقد غطت الأرض سجادة فارسية. علمت كيت أن الحجرة ضمت كمية هائلة من المعرفـة والبحـث فـي مجال العلوم الطبيعية، فقد أنفقت إنغريد حياتها المهنية الطويلة في عدة مختبرات أمريكية خاصة بأبحاث البيولوجيا الإشعاعية.

«كيت». قالت إنغريد من حيث كانت تجلس خلف مكتبها الضخم.

لمـع ضـوء المصبـاح على صحيفة «مان كاينـد كوارترلي»، وجهاز لوحـي مليء بالملاحظات، وقلم مونت بلانك أصلي.

نهضـت إنغريـد، وكانـت قـد انتقت ملابسـها بعناية كما هـو الحال دوماً،

وسارت نحو كيت بخطوات بدت رشيقة بالنسبة إلى من هم في مثل عمرها. فقط في السنوات الأخيرة بدأ ظهرها بالانحناء قليلاً.

«يا لها من مفاجأة رائعة!». أخذت إنغريد يد كيت واحتضنتها سريعاً، وكأنها كانت تمحو أثر لقائهما الأخير الذي انتهى بتوتر.

لم تظهر عينا إنغريد الزرقاوان والواسعتان شيئاً خلف ابتسامتها.

إنها ممثلة بارعة بالتأكيد.

كانت هناك خطوط وتجاعيد صغيرة عند عينيها، ولكن جلدها كان لا يزال ليناً ونضراً ويحظى بعناية جيدة، وقد أملت كيت أن تكون في مثل جمالها عندما تكبر.

«هل هناك خطب ما؟». سألتها إنغريد عندما لاحظت نظرة الجدية البادية على وجه كيت.

«لدي أنباء سيئة».

«أنباء سيئة؟!». نظرت إنغريد إلى عيني كيت مستفهمة.

«لقد مات رولف. أنا آسفة...»

نظرت إليها إنغريد للحظة من دون أن تبدو عليها أي تعابير، ثم أفلتت يد كيت، واستدارت لتنظر عبر النافذة إلى الأوراق الخضراء لشجرة الكستناء الضخمة.

«كيف حدث ذلك؟».

كان صوتها خالياً من المشاعر تقريباً وخافتاً. ولم يمنحها رد فعلها أي نقاط لدى كيت.

«لقد صدمته سيارة بالقرب من برلين».

واصلت إنغريد التحديق عبر النافذة. ربما ظهرت علامات من التأثر على وجهها، ولكن لم تبدُ أنها علامات حزن، بل بدت أكثر كامرأة تحاول منع نفسها من فعل شيء ما.

فجأة، استدارت ونظرت إلى كيت بتحدٍ.

«لماذا لم يأتِ إيريك ليخبرني بنفسه شيئاً كهذا؟ لماذا أرسل زوجته؟».

شعرت كيت بالدهشة والغضب، فقد كانت الكلمات مختصرة وجافة، ولم تكن تتوقع رد فعلٍ كهذا.

«إيريك في ألمانيا للاهتمام ببعض الأمور، وليس بمقدوره العودة إلى الوطن بعد».

«ما الذي لا يزال يفعله هناك؟ لماذا هرب إلى ألمانيا أصلاً؟ لقد أخبرته سابقاً بأنه إذا انهارت صحة رولف، فليس بيد إيريك ما يمكنه فعله للمساعدة».

كان صوتها أقوى الآن، وقد بدا أنها لاحظت ذلك بنفسها.

«لماذا لم يتمكن من الاتصال بي فقط؟». قالت بنبرة أهدأ قليلاً.

«لقد ظن على الأرجح أنه من الأفضل أن تسمعي ذلك وجهاً لوجه...». كانت كيت تعلم علم اليقين أن هذا تفسير ضعيف بشكل غير عادي. «كما أنه يحاول معرفة سبب تواجد رولف في ألمانيا، وكان يأمل أن يكون بمقدورك إخباره بشأن السنوات التي قضيتها أنتِ ورولف في ألمانيا. هل درستِ هناك؟».

«السنوات التي قضيناها في ألمانيا؟!». ولمعت عينا إنغريد: «ماذا تقصدين؟ هل تستجوبينني؟ ألهذا السبب أرسلكِ إيريك إلى هنا؟ ليس لدي ما أخبركِ به... فأنا لم أقضِ أي وقتٍ في ألمانيا».

استدارت إنغريد على عجل، وسارت نحو الباب ورأسها مرفوع، ونادت مساعدتها:

«لينا، هلا ترافقين كيت إلى الباب الخارجي؟ فهي ستغادر».

راقبت كيت إنغريد وهي تواصل السير عبر البهو لتصل إلى الغرفة التالية من دون أن تنظر خلفها. بدت المساعدة محرجة ومرتبكة بينما كانت ترافق كيت إلى الخارج، وقد سبقتها كيت وخرجت من الباب قبل أن تتاح لها الفرصة لقول أي شيء.

وعندما صعدت إلى السيارة، اتصلت بإيريك.

«ماذا جرى؟».

«لا يبدو أن موت رولف قد شكل أي صدمة بالنسبة إليها مثل حقيقة أنك قد أرسلتني لأخبرها بالنبأ. لقد شعرت بالإهانة، ثم فزعت عندما سألتها

عن الوقت الذي قضياه في ألمانيا، وزعمت أنه لا صحة لذلك».

«أنى لها بهذه الجرأة لتنكر ذلك؟ من المؤكد أن أبي، على الأقل، قد عاش في ألمانيا، وربما هي لا تعرف بشأن ذلك...»

«لا أعتقد ذلك. فأنا لا أثق بها على الإطلاق، واعتبرني جلفة إن شئت. ولكنها تمارس هواية التمثيل القديمة».

«لن أسمح لها بدفن سر أبي في القبر. هل ما زلتِ قرب بيتها؟».

«أنا في السيارة، فقد أوقفتها أمامه. إنك لا تنوي أن تطلب مني العودة إلى الداخل، أليس كذلك؟».

«ليس بعد، ولكن أصغي إليّ جيداً. ثمة حجرة سرية في المكتبة، وقد شاهدتها وهي تضع فيها ملفات ومظاريف بنية قديمة؛ أشياء يبدو أنها تطلع عليها بمفردها».

شعرت كيت بالدهشة وبالقليل من الإهانة. لماذا لم يخبرها بشأن هذا من قبل قط؟

«لن تطلب مني أن أتسلل إلى البيت، أليس كذلك؟».

«هذا ليس تسللاً، فأنتِ من العائلة. يمكنني أن أخبركِ كيف تدخلين من دون مفتاح».

«أتريد مني السطو على منزلها؟ هذه جريمة حتى لو كان الفاعل هو ابنها وزوجة ابنها».

«لا بد أن أكتشف من هما أمي وأبي حقاً، وذلك بما أنهما ليسا من كنت أظنهما طوال حياتي، وأود أن أعرف من أكون أنا».

وقفت كيت صامتة للحظة، ثم استدارت لتنظر إلى المنزل. لم تكن تصدق أنها ستفكر حتى في الموافقة على ما يطلبه إيريك منها. ولكن، ماذا يمكنها أن تفعل غير هذا في ظل هذه الظروف؟

جلس إيريك على مقعد في متنزه سافينيبلاتز، وبجانبه كانت هناك حقيبة كتف كانت تحتوي على الأغراض التي كانت بحوزة أبيه عند وفاته، محفظة

وهاتف وجهاز مساعدة على السمع رقمي. وكانت الشرطة قد سلمته الأغراض في كيس عندما ذهب للتعرف على الجثة.

لقد قاد الحادث إلى فتح تحقيق؛ وذلك لأن السائق قد فر من المكان. وقد سارع إيريك إلى إبلاغ الشرطة بأنه يعتقد أن الحادث ليس عرضياً، وأخبرهم بشأن اقتحام منزل أبيه في ستوكهولم، وبشأن الرجل المسلح، وبشأن الدخيل الذي اقتحم غرفة أبيه وغرفته في الفندق، وبشأن اختفاء أبيه، ورؤيته له على المقعد الخلفي لسيارة أودي حمراء بالقرب من دار المسنين التي تسكن فيها كاثرينا بلوغر التي تعاني من الخرف. أصغت إليه الشرطة، غير أنه قيل له إن أياً مما ذكره لا يثير الشبهات لديهم، فأموال أبيه لم تتعرض للسرقة، ولا حتى محفظته أو هاتفه.

كان سلوك الشرطة مثيراً للغضب. لماذا بحق الله سيذهب والده إلى قرية مجهولة محاطة بمبانٍ متهدمة ومهجورة؟ كان موقفهم هو أن الموضوع ليس سوى رجل عجوز ثقيل السمع ذهب إلى منطقة يتردد عليها شبان وسائقون متهورون، وبعضهم لا يحملون رخصة ولم يتجاوزوا السن القانونية أيضاً. وقد قبل إيريك بتفسيرهم للحادث؛ لأنه ببساطة لم يكن باستطاعته أن يجادلهم أكثر من ذلك، ولكنه شعر بالرغبة في المحاولة مجدداً.

اتصل بشركة غندو، ونقل لهم النبأ السيئ، فقد كان ذلك يعني أنه سيبقى بعيداً عن المكتب لفترة طويلة. فجأة، بدا كل شيء كان مهماً في عمله غير ذي أهمية كبيرة، فالشعور بالنشاط المستمر قد توقف فجأة؛ وكأنه قد اصطدم بجدار.

لن تكون الجنازة التي ستقام في ستوكهولم كبيرة، إذ لم يكن لدى أبيه الكثير من الأقارب ممن لا يزالون على قيد الحياة حسبما يعرف إيريك. كان هناك القليل من الأقارب البعيدين بالطبع، لكن حسبما يعرف هو، لم يبقَ والده على اتصال بأي منهم.

بعد تفكيره في الأمر، قرر إيريك الذهاب إلى الشرطة مجدداً، وأن يكون أكثر إلحاحاً هذه المرة. فقد كان يعرف أنه يدين لأبيه بذلك.

كانـت آخـر مـرة رآه فيهـا عبـر نافـذة إحـدى السـيارات، وبصحبـة رجل مجهول. لقد كان إيريك أكثر من متيقن من أن أباه كان في تلك السيارة رغماً عنه، ولم يفعل هو أي شيء حيال ذلك، لكنه سيفعل الآن.

(21)

جلست إنغريد على كرسي بذراعين وهي تمسك صورة في يدها. كانت تستمع إلى أداء لأوبرا ماكبث التي ألفها جوزيبي فيردي في دار أوبرا لا سكالا الإيطالية والذي نقلته إلى قرص مدمج، واستمعت إليه عبر مكبرات الصوت. كانت ماريا كالاس تغني بنبرة واضحة رغم الخدش الذي يعتري التسجيل القديم.

في الصورة، كانت إنغريد تقف مع رولف على شاطئ فانسي. وكان هانز قد التقط الصورة بكاميرا لايكا الخاصة به في صيف العام 1939. كانت الصورة بالأسود والأبيض، لكن إنغريد رأتها ملونة. كانت المياه والسماء باللون الأزرق، وأشجار الزيزفون ذات خضرة وارفة، وثوبها الجديد أحمر اللون، بينما كان رولف يرتدي بذلة رمادية.

رولف...

كانت الصور الأخرى تخص السنوات الأولى لهم في أميركا. وقد أخرجتها من «ألبوم» الصور المشترك بينهما بعد الطلاق، ولكم ترغب إنغريد بوضعها في ألبوم صور جديد. فقد ظلت لمدة طويلة لا ترغب بالاحتفاظ بأي شيء يذكرها بالطلاق. لقد كان ذلك أعظم إخفاق شخصي في حياتها؛ حتى إذا كان والدها قد قلل من شأن رولف واعتبر الطلاق تطوراً إيجابياً.

لقد كانت إنغريد معجبة بذكاء رولف الشديد، بل لقد كانت في الواقع تحسده. كانت الفيزياء النووية مجالاً مجهولاً بالنسبة إليها، لكن رولف علمها إياه بإصرار عندما بدأت تدرس الآثار الحيوية للنشاط الإشعاعي.

بهتت الصور بعدما امتلأت عينا إنغريد بالدموع، فقد حزنت على رولف أكثر مما كانت تتصور؛ بل وأكثر مما أرادت على الرغم من كل شيء.

هل كانت حقاً حزينة على رولف؟ ألم يكن رحيل رولف ما أثار شبح

المصير المشؤوم الذي ينتظرها؛ الموت المحقق الذي لاحقها؟

نظرت إنغريد إلى المرأة الشابة التي كانت تقف بثقة في الصورة، كما كانت جميلة وذكية. هكذا كانت، إذ لم يكن الموت قد خطر ببالها عند التقاط هذه الصورة. لكنها واجهته وجهاً لوجه لاحقاً في الثالث من فبراير من العام 1945. لم تنسَ ذلك اليوم، ولن تنساه لبقية حياتها؛ والآن بات يطغى على أفكارها بشكل لا يقاوم.

كانت تعلم أنها ربما تكون بصدد ارتكاب أكبر خطأ في حياتها عندما استقلت الترام مباشرة من منزلها وعبر مركز مدينة ديلم. عادة، كانت دوماً تسلك طريقاً غير مباشر إلى العمل بسبب عمليات التفجير، فكانت تستقل عربتين أو ثلاثة ترامات ومترو الأنفاق؛ متجاوزة مركز المدينة بأكبر مسافة ممكنة، لكنها تأخرت اليوم. فقد كان رولف ملازماً الفراش بسبب إصابته بالزكام لعدة أيام، وفقدت هي الإحساس بالوقت بسبب قلقها عليه، وتساؤلها عمّا إذا كان سيتمكن من تحمل المرض طوال اليوم من دونها.

لم تكن قد مرت سوى ربع ساعة منذ أن غادرت المنزل. لكن الترام الذي كان يعج بالركاب، كان قد سار في طريقه مسافة طويلة عندما انطلق صوت صفارات الإنذار عند الساعة السابعة وتسع وثلاثين دقيقة. ستحلق قاذفات B-17 الأميركية الشهيرة باسم «الحصون الطائرة» فوق برلين في غضون خمس عشرة دقيقة، وهو ما يعني أنه ليس هناك وقت كافٍ للعودة إلى المنزل. لكن رولف سيتاح له الوقت بلا شك للنزول إلى الملجأ الموجود في قبو المبنى المجاور خلال دقائق، حتى وإن أضعفته الحمى.

لقد كان وضع إنغريد أكثر خطورة، فأقرب ملجأين، واللذين تتذكرهما بوضوح من شهر نوفمبر باتا الآن مدفونين تحت كومة كبيرة من الأنقاض. شقت طريقها بين حشود البشر الذين يترجلون من عربات الترام ويخرجون من البيوت متجهين صوب إنفاليدنستراب ولارتر بانوف مهرولة.

بدا لها أن العديد من الملاجئ قد أغلقت أبوابها بالفعل. وقد عانى

الركاب الذين فوجئوا بصوت صفارات الإنذار من إيجاد مكان فيه مساحة إضافية. وقد انزلق الناس حولها وتعثروا على الرصيف المغطى بالثلج. كان الصباح البارد – حيث تنخفض درجة الحرارة بعشر درجات عن درجة التجمد– قد بدأ يلقي بحمله على رئتيها عندما اقتربت من ناحية الشارع، ورأت صبياً من قوة فولكسترام يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً على الأكثر، وهو يصرخ في الناس كي يسرعوا: «ادخلوا إلى الملجأ! أسرعوا!».

وبينما كانت تشق طريقها بين الحشد المرتبك باتجاه المنحدر الحديدي، ومن هناك إلى الدرج الحلزوني الضيق، تذكرت إنغريد مجدداً بامتنان كيف أن الدكتور فون تأكد من أنها ليست مضطرة إلى وضع شارة تحمل الحرف S التي تعرفها على أنها عاملة أجنبية. وكان قد فعل المثل مع رولف، فأنقذه من وضع شارة تحمل الحرف F. فبوضعهما تينك الشارتين اللتين ترمزان إلى «العمالة الأجنبية»، لن يكون لديهما أي أمل في إيجاد موطئ قدم في ملجأ من القنابل برفقة الألمان. أما من يضعون الشارات التي تحمل الحروف P وR و U، والتي ترمز إلى البولنديين والروس والأوكرانيين المعروفين باسم العمالة الشرقية، فقد كان حالهم هو الأسوأ على الإطلاق. ولم يكن هناك فرد من قوة فولكسترومر– عجوزاً كان أو شاباً– يجرؤ على السماح لهم بدخول الملاجئ برفقة الألمان.

استمرت في النزول على الدرج الحلزوني إلى الأسفل، وقبل غلق الأبواب فقط، ظنت إنغريد أنه بوسعها سماع جلجلة بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التي أحاطت بالمدينة، وهذا يعني أن أساطيل المقاتلات الأمريكية كانت على الأقل بالقرب من سبانداو، بل وربما تكون محلقة فوق تشارلوتنبيرغ بالفعل، وسوف تكون فوق رؤوسهم عما قريب.

كان الملجأ هو الأكبر الذي رأته إنغريد على الإطلاق، ولكنه رغم ذلك كان ممتلئاً بالناس. وقد عرض الناس المهذبون والهادئون والذين كانوا يرتدون ملابس أنيقة المقاعدَ القليلة الملاصقة للجدران على كبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة والنساء الحوامل.

لم يكن الضوء يلمع بشدة، لكن السقف المطلي بطلاء عاكس للضوء سهّل عليهم الرؤية. بدأت همهمة الطائرات، ودويّ الانفجارات الخافت فوقهم حوالى السابعة وخمسٍ وخمسين دقيقة. كانوا جميعاً في أمان تام، لكن إنغريد لم تستطع التوقف عن التفكير بشأن الأسوأ الذي قد يقع؛ إذ إن قصفاً مباشراً للمبنى الذي يعلوهم يمكنه أن يتسبب في انهيار الجدار الحجري والطوابق التي تقع أعلى وأمام الباب الحديدي بشكل كامل، وحينها سيموتون جميعاً بفعل الاختناق قبل وقت طويل من رفع الأنقاض. لقد سمعت أن مثل هذه الحوادث تقع هنا في برلين، وقد أثقل عليها قلقها على رولف؛ على الرغم من تيقنها من أنه لم يكن يتعرض إلى أي خطر.

بعد مرور خمس وأربعين دقيقة، كان لا يزال هناك الكثير من القاذفات تحلق فوق رؤوسهم. وكان معظم الناس في الملجأ قد جلسوا على الأرض الحديدية الباردة. وقد تم إشعال أول الشموع في الطابق الأرضي. وكانت تلك وسيلة معتادة لقياس مدى كفاية كمية الأوكسيجين.

واصلت إنغريد النظر إلى ساعتها التي كانت تشير إلى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة. كانت قد مرت ساعة ونصف الساعة، وما انفكت الضجة فوق رؤوسهم تتواصل. كان الجميع لا يزالون هادئين تماماً، وكان بوسع المرء سماع الهمهمات الخافتة هنا وهناك. وقد بدأت ألسنة لهب الشمعة الأولى تضطرب وتخفت قبل وقت قصير. وقد وُضعت الشموع الآن على الكراسي والمقاعد.

بعد الساعة العاشرة وخمس دقائق، وقفوا جميعاً وأمسكوا بالشموع عند مستوى أعينهم. وجرى حمل الأطفال الصغار الباكين، أو تُركت لهم المقاعد كي يقفوا عليها. وتمّ إسناد المرضى وكبار السنّ كي يتمكنوا من مواصلة الوقوف. وكان ثمة شخص قريب يتمتم بالأدعية بصوت منخفض.

لقد نزلت إنغريد إلى الملاجئ مرات عديدة أكثر مما يمكنها عدها، لكنها كانت دوماً بالقرب من منزلها أو بالقرب من المؤسسة، وليس في قلب المدينة ولهذا الوقت الطويل ووسط هذا الحشد من الناس.

وعند الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، كانت آخر ألسنة لهب الشمعة تطقطق، وكانت على وشك أن تنطفئ، وانتشرت رائحة كريهة في الغرفة من عدة اتجاهات. وقد بدأ بعض العجائز المرضى بالانهيار. وكانت دورات المياه على ما يبدو ممتلئة ومعطلة، مما سبب تلك الرائحة التي لا تحتمل. كانت الشمعة التي تمسك بها السيدة العجوز ضئيلة الحجم التي كانت تقف بجوار إنغريد قد انطفأت.

«أعطي الأمر». فكرت إنغريد في سرها: «الآن هو الوقت المناسب!». بدا أن اثنين من مصابي الحرب قد أقنعا فتى قوة فولكستيرم بما يتعين عليه فعله.

«اخرجوا! اخرجوا جميعاً! أسرعوا! أسرعوا!». علا صوت الفتى في ذعر مصطنع. كان أسوأ ما يمكن أن يحدث يقع بالفعل هنا والآن. وقد اضطر الفتى إلى أمر المحتشدين بالخروج من الملجأ، والوقوف مباشرة تحت القصف.

خرجت إنغريد في آخر المجموعة، ولم تتمكن من التنفس بشكل حقيقي إلا عندما صعدت السلم الحلزوني. وقد انعكس ضوء غامض وحرارة على المنحدر من الباب الخارجي. كان ذلك عندما أدركت سبب نزولهم إلى الملجأ. وكان بإمكانها سماع صوت الانفجارات بشكل أوضح أكثر وأكثر، ولكنه بدا وكأنه كان يأتي من مكان بعيد.

كان بانتظارهم في الخارج ضوء ساطع، وكانت المنازل الواقعة على طول الطريق تحترق، والسماء سوداء بسبب الدخان، وكان الضوء مصدره النيران المشتعلة. كانت القاذفات لا تزال تحلق فوق رؤوسهم، ولكن لم يكن بوسع المرء رؤيتها وإنما سماع صوتها فقط. وقد هرع الأشخاص الذين فروا من الملجأ إلى الشارع وارتموا على ركبهم واحداً تلو الآخر، ثم ارتموا على الأرض، حيث ظلوا ممددين في سكون. تعجبت إنغريد من المشهد في البداية، لكنها أدركت بعد ذلك أن الأوكسيجين قد نفد هنا أيضاً. فقد كان الحريق يستهلكه بأكمله.

أصبح التنفس أصعب أكثر فأكثر مع مرور الوقت. جثت إنغريد على ركبتيها، لكن لم يكن هناك المزيد من الأوكسيجين أيضاً. كانت الحرارة رهيبة،

وكانت أنفاسها محبوسة في حنجرتها، ورئتاها تحترقان. تمددت على بطنها من دون حراك، وحاولت أن تتنفس ببطء قدر المستطاع، ولكنها أدركت في الوقت نفسه أن الدخان- أول أكسيد الكربون- والغاز السام ستظهر فعاليتهما سريعاً. في تلك اللحظة، كانت واثقة من أنها ستموت، ومن أنهم جميعاً سيموتون. وقد شعرت بأنه ليس بمقدورها فعل أي شيء لمقاومة ذلك. ولكن كلا، ليس بهذه الطريقة. لن تختنق حتى الموت أو تحترق حية.

زحفت على طول المنطقة الفاصلة بين الشارع والرصيف لعدة أمتار، وهي تلهث كي تتنفس، إلى أن رأت فتحة للصرف؛ إنها فرصتها الأخيرة. ضغطت بوجهها وفمها على الفتحة وأخذت نفساً.

إنه أوكسجين! تمكّنت من التنفس، وقد استخدمت معطفها الشتوي ويديها لتغطية رأسها. كانت رائحة الهواء يملأها الوقود والعفن، ولكنه كان بارداً ويمكنها أن تستنشقه. في تلك اللحظة، وفي الساعة التي تلتها، كانت على استعداد لكي تقتل أي شخص يحاول أن يسلبها فتحة الصرف.

بعد مرور نصف ساعة، استيقظت على الحقيقة التي أحاطت بها. أدارت رأسها، وأدركت أنه يمكنها استنشاق الهواء خارج فتحة الصرف أيضاً. كانت الريح تدفع سحب الدخان بعيداً، لكن كل المباني المجاورة لإنفاليدنستراب ذات الطوابق الأربعة أو الخمسة كانت لا تزال تحترق. وكان هناك ثلج أسود ذائب في كل مكان، ورماد وشظايا زجاج وجثث ممددة في الشارع. وكان بوسعها سماع صراخ من مكان ما: «النجدة! النجدة! ساعدوني بحق الله!».

لم تشاهد أي سيارات مطافئ، لكن هذا لم يكن مفاجئاً، فقد تعرضت العاصمة الألمانية إلى قصف عنيف اليوم لم تشهده من قبل. وكان ثمة عاملا إسعاف يمشطان الشوارع بحثاً عن ناجين. وقد انحنى شخص ما يرتدي معطفاً أبيض كي يسأل إنغريد إن كانت بخير أم لا.

«أنا بخير». قالت وهي تسعل: «كانت رئتاي في حالة سيئة، لكنهما تتحسنان».

نظر إليها الرجل في أسى وقال: «لديكِ على الأقل حروق من الدرجة

الثانية وربما الثالثة على يديك. ألا يمكنكِ الشعور بأي شيء؟».

نظرت إنغريد إلى الأسفل. كان السواد يغطي يديها بسبب الاحتراق.

«هناك محطة للإسعافات الأولية في ليرتر بانهوف. هل تظنين أنه يمكنكِ الوصول إليها بمفردك؟».

جلست إنغريد، وتقيأت سخاماً أسود، وشعرت بألم شديد في رأسها.

«رولف... زوجي، لقد تركته وحيداً في المنزل، وهو مريض، يجب أن أعود...»

كان قد تم نقلها أخيراً على ما يبدو إلى محطة الإسعافات الأولية وهي فاقدة للوعي وتشعر بالاختناق بسبب التقيؤ. ولم تعد إلى المنزل حتى حل الظلام.

ولكن، لم يكن ثمة أحد في المنزل، فكل ما بقي من المبنى ذي الطوابق الخمسة الذي شُيّد في منتصف القرن التاسع عشر هو الجدران الخارجية. وكان الحي بأكمله على الشاكلة نفسها. لا يوجد شيء سوى الحطام الذي يصدر منه الدخان؛ حيث تحوّل الحي بأكمله إلى أنقاض، مثل نصف مدينة برلين. كان الرماد الأبيض لا يزال يتساقط من السماء على الطوب المتفتت والزجاج المحطم اللذين غطيا الشوارع المرصوفة بالحصى. لم تعثر على رولف حتى ساعات الصباح الأولى، وذلك عند محطة الإسعافات الأولية المجاورة للحي، وهو يهذي من شدة الحمى، ولكنه لم يصب بأذى والحمد لله. في تلك اللحظة، كانا بحقٍّ محرومين من أي شخص إلا من بعضهما.

وطدت هذه التجربة علاقة إنغريد برولف أكثر من ذي قبل، كما وطدت التحديات والتجارب المشتركة بينهما من تلك العلاقة بطريقتها الخاصة، إلى أن تبدل كل شيء في أميركا؛ عندما كان يتعين عليهما نسيان أسوأ مشاكلهما، فقد ظهر لها جانب جديد تماماً في شخصية هذا الرجل الذي ظنت أنها تعرفه حق المعرفة.

وضعت إنغريد الصور بعيداً، واستجمعت قواها. كلا، لن تحزن على رجل مثل رولف.

أخـذ مالـك بهرامي نفسـاً عميقاً، وقد ضغط علـى فمه قناعاً مصنوعاً من الـورق الأبيـض. بـدأ يحـرك ببطء الغطاء المصنوع من الرصـاص جانباً. وقبل أن تظهر محتويات الصندوق، بدأ نقر عداد غايغر يتسـارع حتى أصبح صوت صرير متواصلاً.

«أعد الغطاء إلى مكانه». قال بشير وهو يضع قناعاً على وجهه.

أعاد مالك الغطاء إلى مكانه بسرعة. كانت الحركة صعبة جداً لدرجة أن الغطاء كاد يقع، لكن الحافة ذات الشقوق أمسكت به فعاد إلى مكانه.

مرتعداً، التقط مالك مفك البراغي، وحاول البحث عن البراغي التي أعطاه بشير إياها، وقام بتثبيتها سريعاً. ثم قام كريم وراشد، وهما رجلان يبلغان من العمر ثلاثين عاماً تقريباً، وكانا يقفان في مواجهة الجدار، وساعداهما في رفع الصنـدوق المصنـوع من الرصاص ووضعـه داخل الحاوية الأكبر قليلاً وإقفال مزاليجها الثلاثة.

كانت جدران الغرفة مغطاةً بورقٍ بالٍ، وسُحبت سـتارة مبقعة كي تغطي النافـذة. وقـد عُلقـت بعض لوحات السـقف بشـكل منحرف. فـي أعقاب حل جمهورية ألمانيا الديمقراطية، ظل المنزل شـاغراً لعدة سـنوات إلى أن اشـتراه أحد المطورين وقام بتأجيره إلى المستأجرين المتعثرين مالياً.

قدم مالك نفسـه إلى مالك المنزل باسـم السـيد هوفمان. كان قد اختار اسم رجل يدعى ديترتش هوفمان والذي كان مدرس علوم النحو في مدرسته الواقعة في ناحية ألتونا في هامبورغ لأكثر من عشرين عاماً. كان رجلاً صالحاً، لكنـه لـم يكـن أقلهم عنصريـة. كان والدا مالك قد انتقلا من بغداد إلى ألمانيا عندما كان يبلغ من العمر خمس سنوات، وقد بات مالك الآن صاحب شركة نقل وتسليم صغيرة في برلين.

قـال مالـك لمرافقيـه الثلاثـة: «قومـوا بتغليفها بحذر. سـأجري القليل من الاتصالات الهاتفية».

قال بشير: «أسرع، فنحن بحاجة إلى الرحيل عن هنا بأسرع وقت ممكن».

لـم يكـن مالـك يحب تدخل بشـير في العمليات. كان بشـير يملك صالة

للألعاب الرياضية في هانوفر، وكان يعرف باسم مانفريد. كان شعره المقصوص بعناية وحاجباه قد صارت أفتح لوناً، ولم تعد سوداء اللون وإنما صار لونها بنياً. كما كان يضع عدستين لاصقتين ملونتين أيضاً، جعلتا نظرته أكثر حدة مما كانت عليه بالفعل. وما كان مالك ليعترف لنفسه بأنه يشعر بالخوف من بشير قليلاً.

وقف الرجال الأربعة حول الحاوية التي وُضعت على الطاولة صامتين للحظة، وكأنهم يبدون احترامهم لها. فيما تسللت آخر خيوط أشعة الشمس نحاسية اللون عبر فتحة في الستائر ووقعت على الصندوق؛ وكأنها تخلد ذكرى لحظة الصمت هذه. وتبادلوا النظرات فخورين.

لقد أنجزوا المهمة. لقد كانوا يصنعون التاريخ.

لكنها كانت المرحلة الأولى فحسب. فالطريق إلى لندن كان لا يزال طويلاً.

(22)

فتح إيريك النسخة التي أخذها من رسالة كاثرينا بلوغر وسلمها إلى ضابط المكتب في قسم شرطة تشارلوتنبيرغ في بيسمارستراب. كان المكان أرحب من قسم لوكنفالد الذي توجه إليه للتعرف على جثة والده. وقد ذكره المكان بالحصون.

كان وجود الضابط قليل الكلام ينسجم مع الأجواء في المكان. أخبره إيريك بحكايته من أولها إلى آخرها، بما في ذلك ماضي والده في ألمانيا، والذي بدا أن الرسالة على صلة به.

أعاد الضابط الورقة إليه على الفور قائلاً: «خسارتك لوالدك أمر مؤسف، ولكن لسوء الحظ لا يمكنني فعل أي شيء أكثر من ذلك للمساعدة. سيتحدث زملاؤنا في غوتو مع السكان المحليين، وسيحاولون تحديد هوية السائق الذي فر من مكان الحادث. وستوجه التهم إلى ذلك الشخص وسيمثل أمام المحكمة عقاباً على تهوره. ليس بيدي أن أفعل ما هو أكثر من ذلك».

كان صوته أقسى من ذي قبل، ولكنه لا يزال ودياً.

حاول إيريك أن يتجاهل ما قاله الضابط له، وقال: «لا أدري من أين أبدأ أيضاً. لم يكن والدي من نوع الأشخاص الذين يختفون فجأة ويذهبون إلى مكان ما. لقد كان رجلاً مسناً، وكان مدركاً لذلك. ما الذي دفعه بحق الله إلى الذهاب إلى حفنة من الثكنات التابعة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية المهجورة؟ إلى جانب أنه كان دوماً حذراً جداً عند عبوره الطريق؛ لأنه تعرّض لحادث اصطدام قبل عشر سنوات، حين صدمته سيارة، ولأنه كان يواجه صعوبات في السمع، فعندما كان يعمل على أحد البحوث الخاصة بالصواريخ في الولايات المتحدة حين كان شاباً، حصل خطأ في إحدى التجارب على صاروخ...»

وهنا، أصبحت تعابير وجه الشرطي أكثر اهتماماً وسأله:

«هل عمل في مجال الصواريخ بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة؟».

«أجل».

بدا الشرطي كما لو أنه يفكر بعمق، ثم قال: «قد يكون هذا هو الجواب عن سؤالك. فالمكان الذي عُثر فيه على جثة والدك منطقة عسكرية قديمة».

«قالت الشـرطة المحلية إن جيش جمهورية ألمانيا الديمقراطية هو الذي كان يستخدمها».

«أتحدث عن الحقبة التي سبقت جمهورية ألمانيا الديمقراطية. فقد كانت هنـاك منشـأة لاختبـار الصواريخ في غوتو فـي الثلاثينيات؛ بما في ذلك محطة لاختبار الصواريخ. ويحتمل أن يكون والدي قد عمل هناك عندما كان يعيش في ألمانيا، وأراد زيارة مكان يعود إلى الأيام الخوالي؟».

«هذا مثير للاهتمام. إنه تفسير ذو مصداقية، سأبحث في هذا الاحتمال».

خرج إيريك من قسـم الشـرطة، واتجه مباشـرة إلى مقهى للإنترنت حيث جلس العشرات من الأشخاص أمام الحواسيب. بحث عن القليل من الكلمات وتصفح النتائج، وقد لفت أحد الروابط انتباهه.

موقع غوتو لاختبار الصواريخ، كامرسدورف...

ضغط على الرابط.

بدأت ألمانيا بإجراء اختبارات على الصواريخ في منشأة بحوث المتفجرات في كامرسدورف في العام 1932. وقد جرى نقل موقع إجراء الاختبارات إلى بينيمندي الواقع على ساحل بحر البلطيق بين عامي 1936 و1937. كما نفذت إدارة السـلاح فـي فافينانـت بحوثـاً ذرية في غوتو بعـد العام 1938 تحت قيادة كيرت دينر...

أجـل، إن حقيقـة العثـور علـى والده في غوتو يمكنها أن تكون على صلة بموقع اختبار الصواريخ القديم. ربما شـعر بالحنين وأراد زيارة أماكن مألوفة لديه من شـبابه للمرة الأخيرة. ومع ذلك، شـك إيريك في أنها مجرد صدفة، وأنـه كان ضحيـة هجـوم خاطـف. لكـن ذلك كان ممكناً مـن الناحية الواقعية، بـل وحتـى مرجحـاً. كان هذا الاحتمال مرجحاً أكثر من نظريات المؤامرة التي

كانت تقبع في مؤخر رأسه.

بحث عن المزيد من المعلومات عن برنامج غوتو الخاص بالصواريخ. كانت تلك هي نقطة البداية لحياة فيرنهر فون براون المهنية، وهو اسم مألوف عثر عليه في آخر أعمال والده.

شعر إيريك بالرضى، فعلى الأقل باتت لديه الآن نقطة مرجعية صلبة من سنوات والده المجهولة في برلين. لكنه أراد أن يعرف المزيد. هل بإمكانه الاتصال ببعض من زملاء والده الذين عرفهم خلال السنوات التي قضاها في أمريكا؟ هل يتصل بشخص ما عمل معه في هانتسفيل أو كيب كانافيرال أو حتى في فترة لاحقة، أو في لوكهيد في كاليفورنيا؟ سيتطلب الأمر بعض التوضيح، لكنه قد يستحق المحاولة.

نظرت كيت إلى منزل حماتها، ثم نظرت حولها كي تتأكد من أن أحداً لا يمكنه أن يراها. ومشت بخفة متجاوزة خشب البقس مخروطي الشكل والمقلم. وكان هناك ضوء في الفناء العصري ينعكس على العشب، بينما أنيرت مجموعة من مصابيح الإنارة الخافتة في الداخل كما هو الحال دوماً. وكان بوسعها رؤية الأثاث العصري والمزهريات الكبيرة واللوحات الملونة عبر النافذة الكبيرة. كانت إنغريد أستاذة التصميم الداخلي الفخم.

توجّهت كيت إلى المنطقة الخلفية للمنزل الحجري الأبيض. كانت دوماً تشعر بالانزعاج لأن إنغريد لم تعطِ إيريك مفتاحاً للمنزل.

في الظلام، كان بوسعها فقط رؤية النافذة الصغيرة الخاصة بالمخزن والقريبة من الأرض. كانت النافذة علامة على الضعف البشري لدى إنغريد. فقد ذكرت لإيريك ذات مرة ومن دون أن تقصد ذلك أن القط تشارلي استخدمها للعودة إلى المنزل بعد غزواته الليلية، بل لقد فصلت حتى النافذة عن نظام الأمن الخاص بالمنزل كي تعفي القط من الحاجة إلى إطلاق الإنذار. لكن نظام الأمن كان مفعلاً على كل الأبواب والنوافذ الأخرى بالطبع.

فكرت كيت في أن النافذة تبدو صغيرة للغاية. لقد أفرط إيريك في تقديره

مدى نحولها. لكن، عليها على الأقل أن تحاول. التقطت إحدى الحجارة التي شكلت حاشية للزينة حول العشب، وكان قلبها يخفق. ترددت لحظة ثم حطمت النافذة، فأصدرت شظايا الزجاج رنيناً عندما ارتطمت بالأرضية الحجرية للمخزن.

انتظرت كيت من دون حراك، فلم تسمع أي شيء، ثم لاحظت الدماء التي تتدفق من يدها. وبخت نفسها، ثم أخرجت بسرعة قطعة قماش من جيبها وضغطت بها على إصبعها المجروحة.

أدخلت يدها عبر الفتحة بحذر وفتحت النافذة. كانت الغرفة مظلمة، لكن الضوء لمع في مكان ما بعيداً داخل المنزل. كان بوسعها فقط رؤية السلالم المؤدية إلى غرف المعيشة.

رفعت قدمها أولاً، ووجدت أنها ستمر عبر النافذة بسهولة مدهشة. وعندما وصلت إلى الأرض، فكرت في ما ستقوله إذا ظهرت لينا أمامها فجأة. وقد جعلتها هذه الخاطرة ترتعش.

فجأة، تحرك شيء ما في الظلام، فكاد قلب كيت يتوقف. بعد ذلك، رأت شبحاً يتنقل برشاقة على الأرض، وشعرت بشيء ناعم يضغط على ساقها. إنه القط.

في الواقع، كان ذلك تشارلي. لقد كان في الداخل، وعلى ما يبدو لقد تعرف عليها، وأتى ليرحب بها. فمالت إلى الأسفل وربتت عليه.

همست كيت: «لا تخبر والدتك بأي شيء عن هذا».

صعدت السلالم المؤدية إلى البهو، حيث قامت التماثيل الجميلة للرياضيين الشبان الساكنة بتحيتها في صمت. بدت التماثيل دوماً كرمز للطموح بالنسبة إليها، أما الآن وفي الظلام، فقد بدت مرعبة.

أثناء سيرها نحو المكتبة، ظنت أنها قد سمعت شيئاً، فالتفتت على الفور ونظرت إلى الرجل الشاب الأبيض كالثلج الموجود خلفها، والذي كانت يده تشير إلى السماء. هزّت رأسها في تشكك، وفتحت باب المكتبة. كان الضوء الوحيد في الغرفة مصدره التوهج الخافت المتسلل من المصباح الموجود في

الخارج عبر الستائر الرقيقة.

توجهت كيت نحو المكتب اللامع المصنوع من خشب الماهوغاني في منتصف الغرفة، وأنارت مصباح المكتب الذي كانت إنغريد تستخدمه عندما كانت «تجري بعض البحوث» كما تقول. ولكن، لسبب ما، لم ترد إنغريد ضوءاً في السقف في هذه الغرفة الكبيرة.

كان هناك عدد هائل من صفوف الكتب بمحاذاة الجدران. ووفقاً لإيريك، كانت هناك غرفة صغيرة في مكان ما خلفها، حيث احتفظت إنغريد بالملفات القديمة وبحزم سميكة من الرسائل. وقد أخبرها إيريك كيف أنه ذات مرة– عندما كان طفلاً في الولايات المتحدة– قد شاهد أمه وهي تحمل بعض الأوراق، فدخل عليها الغرفة فجأة، فعنفته بقسوة شديدة. ومرة أخرى، في هذا المنزل، وبعد عقود لاحقة، كان الباب موارباً، فرأى إنغريد تخفي الملفات نفسها في خزانة صغيرة خلف الكتب.

أخذت كيت كتابين من الرف، من المكان الذي وصفه لها إيريك، الأول كتاب من تأليف كل من هيرنشتاين وموراي «منحنى بيل: بنية الذكاء والطبقة الاجتماعية في الحياة الأمريكية»، والثاني كتاب من تأليف ويلسون «النمل». لقد اتخذ اهتمام إنغريد بعلم البيولوجيا الاجتماعية بعداً جديداً.

لم يكن هناك شيء غير معتاد بشأن الخشب الرقائقي الداكن الملون في مؤخر الرف. ربما يكون إيريك قد تذكر مكاناً خاطئاً، لذا انتقلت كيت إلى الرف التالي وأخذت منه المزيد من الكتب، فلم تجد شيئاً.

نظرت بتوتر إلى الساعة، وألقت نظرة سريعة على الرف العلوي. وفجأة، انزلق الكتاب الثقيل القديم من يدها وسقط على الأرض، فتناثرت منه بعض الصفحات البالية هنا وهناك. كانت هذه مشكلة إضافية عليها أن تتعامل معها، فقامت بجمع الصفحات كلها التي تناثرت في أرجاء الغرفة، وأعادتها إلى مكانها في الكتاب، ثم واصلت البحث.

وما إن أوشكت على الاتصال بإيريك حتى لاحظت شيئاً. فعند الجدار الخلفي للرف العلوي، بدا أن هناك شقاً رفيعاً. فأزاحت بسرعة بقية الكتب،

واكتشفت وجود مزلاج أسود صغير لامع، والذي بالكاد كانت ستلاحظه من مكان أبعد. قامت بإدارة المزلاج فانفتح ظهر الرف.

تحول إحساسها بالذنب إلى شعور بالنصر والفضول. فقد احتوت الخزانة المبطنة بالمعدن على ملف رمادي من الورق المقوى، وبعض الظروف البنية القديمة. فقامت بإخراجها بحذر، ووضعتها بتأنٍ على المكتب، وبدأت بفتحها تحت ضوء المصباح.

كانت الملف يضم نوعاً ما من بيانات دراسة بحثية. لم تكن البيانات تخص مجال الكيمياء أو الكيمياء الحيوية، ولكنها بيانات بشأن أدوية، تشبه تقريباً نتائج اختبارات الدم. كانت النتائج تخص الكثير من الأشخاص الذين لم تُذكر أسماؤهم، وإنما بعض الرموز التعريفية فقط؛ مثل HP–3 وCAL–2، وكانت التواريخ تعود إلى أواخر الأربعينيات، وكُتبت البيانات باللغة الإنجليزية.

أغلقت الملف وانتقلت إلى الظروف الثلاثة السميكة، وقد فوجئت بأنها مختومة. ما الذي يمكن أن يكون بداخلها؟ هل يجب عليها فحسب فتحها بوقاحة؟ أم يجب عليها أخذها إلى إيريك وتركه يقرر؟

خطر ببالها الازدراء الخفي الذي تحملته من إنغريد من أجل إيريك، وعندما طردتها إنغريد خارج المنزل؛ كان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير في علاقتهما، فضلاً عن أن طلب إيريك لم يكن محدداً. فليس هناك سبب يمنعها من فتحها، وليس لديها الحق في التلكؤ الآن.

قامت بنزع أحد الأختام وسحبت الأوراق ببطء. كانت مكتوبة باللغة الألمانية، فتسارع نبضها. لم تكن لغتها الألمانية التي تعلمتها في المدرسة الثانوية ونسيتها منذ مدة طويلة ستساعدها كثيراً. ولكن، كان من السهل تخمين ما يتحدث عنه الرسم البياني المفصل.

كانت له علاقة بالوراثة. وعلى وجه التحديد، كانت له علاقة بعيون الأشخاص أو عيون الحيوانات. قلبت الصفحات حتى وصلت إلى ملحوظة من نوع ما. كان النص مكتوباً على آلة كاتبة. وكان التوقيع ذو اللون الأصفر يشمل ختم النسر الخاص بألمانيا النازية، وبتاريخ «برلين، السابع من أكتوبر

من العام 1943».

حدقت كيت إلى الورق «أطروحة إنغريد حول علم تحسين النسل، التناسل الانتقائي».

مصدومة، أعادت كيت الأوراق إلى الظرف بسرعة وهي تفكر في سرها: أي شيء عدا علم تحسين النسل. ستكون مفاجأة مفزعة، وخاصة بالنسبة إلى إيريك.

أغلقت كيت الخزانة بغضب، وأعادت الكتب إلى أماكنها، والتقطت الملف والظروف وتحققت من عدم وجود أي شيء ملقى على الأرض أو المكتب، ثم أطفأت المصباح وغادرت المنزل سريعاً بالطريقة نفسها التي دخلت بها.

وما إن صعدت إلى السيارة حتى اتصلت بإيريك، وهي على يقين من أنه ينتظر بفارغ الصبر سماع الأخبار.

«كيف سار الأمر؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«أجل». أجابت كيت بأنفاس محبوسة وهي تشغل محرّك السيارة.

«هل عثرتِ على الخزانة الصغيرة؟».

«أجل، لم تكن بالضبط في المكان الذي وصفته أنت، لكنني عثرت عليها».

«هل كان ثمة أي شيء داخلها؟».

«ملف قديم فحسب وبعض الظروف. يمكنك تصفحها عندما تعود إلى الوطن».

«ولكن، لا بد أنكِ تصفحتها؟».

قالت بصبر نافد: «إيريك! ستتصفحها لاحقاً. ولكن، أجل. لقد رأيت أن إنغريد قد بدأت حياتها المهنية العلمية في ألمانيا، وهناك قدمت أطروحتها».

«أطروحتها؟! ماذا تعنين؟». كان صوته متوتراً ومتفاجئاً.

«لغتي الألمانية ليست جيدة بما يكفي في ما يتعلق بالمواضيع العلمية. سننظر إليها معاً عندما تعود...»

«أخبريني بما رأيتِه!».

أخذت كيت نفساً عميقاً ثم قالت: «حسبما فهمت، لقد أتمت أطروحتها

في علم تحسين النسل».

ساد الصمت في الجانب الآخر.

«إيريك، عد إلى الوطن. سنتجاوز هذا معاً، ولكن عليّ أن أسرع بالعودة إلى المنزل قبل أن تشتبه إنغريد بأي شيء. الأوراق بحوزتنا الآن، وهذا أهم شيء».

كان إيريك لا يزال صامتاً.

«إيريك، قل شيئاً».

«لا أدري ماذا يجب أن أقول».

انقطع صوته، فقد كان غاضباً جداً، وهو ما ليس مستغرباً. فبالنظر إلى مهنة إيريك، إن أي مجال على الإطلاق كان من الممكن أن يكون أقل إزعاجاً له من علم تحسين النسل.

اشتدت حدة الرياح في المساء، وأصدرت صفيراً حول المنزل الذي يبدو مهجوراً والذي يقع في ضاحية بيردينتز في برلين.

خلف الستائر الكثيفة، وقف أربعة رجال حول طاولة، وهم يميلون على مخطط بياني، وقد بدوا من مظهرهم الخارجي أنهم لا ينتمون إلى المكان المهجور.

كان مالك يرتدي بنطالاً ضيقاً وسترة من الصوف خشنة. أما راشد الذي كان يرتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً رسمياً، فقد كان أكثرهم معرفة بمثل هذه الرسوم، وقد ظهر ذلك في سلوكه الذي اتسم بالثقة في النفس. كان قد درس الهندسة، وعمل لحساب شركة تعمل في مجال الميكانيكا الدقيقة في ليبزيغ. وكانت أصابعه الطويلة والنحيفة تبدو كأصابع عازف البيانو؛ رغم أنه استخدمها لأغراض مختلفة تماماً.

كان كريم أصغر من في المجموعة سناً، ويرتدي بنطال جينز شبابياً أزرق، وقميصاً قصير الكمين، وينتعل حذاءً من ماركة نايك الشهيرة. كان قد عمل كمبرمج في شركة لتكنولوجيا المعلومات في برلين، وكان خبير اتصالات من الجيل الثاني. وقد انتقل مع والده من تونس إلى مانهايم.

نظر مالك إلى رفاقه الذين كانت تعابير وجوههم جادة ولكنها متحمسة. بدا له وكأن هذه المجموعة من الفنيين المحترفين ربما كانت تتناقش في أي نوع من المخططات البيانية، وفي أي يوم عمل عادي.

قال راشد: «15 سنتيمتراً على الأقل. سنضع علامة هنا».

تنهد مالك.

«يمكننا وضعها في السيارة الأخرى». قال كريم.

«كلا». قال مالك بتذمر، وأخرج ورقة مطبوعة على الحاسوب تضم مواصفات صندوق السيارة مع مقاييس دقيقة. «يمكننا استبدال العنصرين ثلاثة وأربعة. وهذا سيمنحنا مساحة كافية، وسيكون العمق كافياً. يمكننا أن نحاول على أي حال».

وبينما كان يتحدث، التقط لوحاً مثبت عليه خريطة لمركز مدينة لندن. وعند زاوية شارع الملك إدوارد وشارع أنجل، وبالقرب من حديقة صغيرة في قلب ضاحية وسترن هيمسفير المالية، جرى تثبيت دبوس ذي رأس أسود على الورقة.

(23)

سدّد إيريك أجرة السيارة التي استقلها والتي توقفت في الفناء المظلم الخاص بدار المسنين بواسطة بطاقته الائتمانية، ومشى مسرعاً نحو المبنى. كان الضوء يتسلل من بين ستائر عدد قليل من النوافذ.

كاثرينا بلوغر.

بما أن أمه يبدو أنها تريد تدمير آخر قدر من الثقة بينهما، كانت بلوغر هي البديل الوحيد المتاح أمامه. لمَ طلبت من والده المجيء إلى برلين؟ كيف لامرأة عجوز ومشوشة الذهن تماماً أن تكتب رسالة متماسكة كتلك الرسالة أصلاً؟

كان ثمة أمر واحد مؤكد، وهو أن بلوغر من بين الأشخاص القليلين الذين كانوا برفقة والده في ألمانيا. وقد كان يأمل بشدة أن يكون بوسعها تسليط القليل من الضوء على الأقل على هذا الأمر.

في طريقه إلى دار المسنين، تذكر أشياء أخبره بها والده وآراء عبّر عنها. وكلما فكر في الأمر، تذكر أشياء بدت مريبة له الآن. على سبيل المثال، الطريقة التي تحدث بها والده عن الفظائع التي ارتكبها ستالين. أكان يحاول التخفيف من حقيقة أنه عاش وعمل في ألمانيا تحت حكم هتلر؟

ناهيك عن والدته، فقد فتحت كلمات كيت عبر الهاتف هوة واسعة أمام إيريك. كانت أمه تهتم بعلم الوراثة منذ أمد بعيد حسبما يذكر. لقد عرفت الكثير بشأن الأمر، بل لقد عرفت كل شيء بشأنه، هكذا كان يفكر عندما كان طفلاً. لكن التناسل الانتقائي وعلم تحسين النسل...

فتحت الممرضة نفسها الباب مجدداً، وبوجه أكثر تجهماً من قبل. وتذمرت بسبب الساعة المتأخرة، لكنها قادته إلى غرفة بلوغر المقفلة.

تركته الممرضة واقفاً عند مدخل الباب. كانت المرأة العجوز تجلس في

مكانها المعتاد في مكان معتم قليلاً، ولم تبدُ أنها أتت بأي رد فعل لدى وصول زائرها.

شعر إيريك بالخوف- لم تكن ميتة، هل كانت كذلك؟- وشعر بالحاجة إلى الحصول على معلومات منها. سار عدة خطوات سريعة إلى أن وقف بالضبط أمام وجهها، فشعرت بالخوف.

«أنت!».

شعر إيريك بالارتياح. هل يمكن أن تكون قد تذكرته؟

بدت بلوغر كارهة التحدث إليه في بادئ الأمر، ولكنها أجابته على الفور عندما سألها عن رولف. لم يكن يرغب بالكشف عن وفاة والده الآن.

«أردت أن أسألكِ عما كان يفعله رولف في برلين بالضبط». قال ذلك متحدثاً بأكبر قدر ممكن من الوضوح.

«ماذا كان يفعل؟ البحوث بالطبع؟».

«علامَ كان يجري بحوثه؟».

لم تعد بلوغر تنظر إلى عينيه مباشرة.

«يجري الباحثون بحوثاً حول أي شيء يحصلون على أموال لقائه». قالت بصوت أجشّ، ثم تنهدت وأخفضت صوتها: «لا يمكنني الحديث عن عمل هانز ورولف، فوحدة أس أس تتولى الأنشطة الأمنية، وهم كذلك منذ العام 1939. قنبلة اليورانيوم ستنقذنا جميعاً. انتظر فقط وسترى».

تغلغلت الكلمات إلى وعي إيريك ببطء، فباغتته جملة قرأها في مقهى الإنترنت في كامرسدورف «كما نفذ الجيش بحوثاً ذرية في غوتو...»

هل كان والده مشاركاً في برنامج هتلر لصناعة القنبلة النووية؟

تنحنح إيريك وقال: «من يكون هانز؟».

«إنه زوجي الراحل هانز بلوغر. ولكن، دعنا لا نتحدث عنه».

حاول إيريك أن ينتزع منها المزيد من المعلومات، ولكنه لم يتمكن من فهم الإجابات المبهمة التي ردّت بها على أسئلته، فعاد إلى فندق أسكانيتشر هوف واتصل بكيت.

كانت كيت في المنزل، بينما كان الولدان نائمين. «لقد أخبرتك مسبقاً، يمكنك تصفح الأوراق بنفسك وفتح الظروف كيفما شئت. متى ستعود إلى الوطن؟».

«ما إن تتضح الأمور أمامي. أخطط لتوكيل محام؛ فالشرطة ببساطة لا يمكنها أن ترفض إجراء تحقيق موسع. أخبريني مجدداً، من الذين وقعوا على صفحة الغلاف الخاصة بأطروحة أمي؟».

ساد الصمت على الخط بينما كانت كيت تقلب الصفحات. لم يرغب إيريك بأن يخبرها بشأن مشروع غوتو للقنبلة الذرية بعد، على الرغم من أن ذلك يتماشى مع الصورة بشكل مفزع. لقد كان والده جزءاً من برنامج تطوير الصواريخ النووية الأمريكية في الخمسينيات قبل أن ينتقل إلى العمل على برنامج الفضاء.

قالت كيت: «الدكتور أوتمار فرشوير، والدكتورة كارن ماغنوسن».

دوّن إيريك الاسمين: «ماذا عن الأوراق الأخرى؟ ما هي؟».

«كل الأوراق التي وُضعت في أحد الملفات مكتوبة باللغة الألمانية، وتتحدث عن علم تحسين النسل. لست واثقة من فحواها. وثمة رسوم بيانية جميعها تتعلق بالعينين، ويعود تاريخها إلى أوائل الأربعينيات. إيريك، أنا آسفة للغاية».

صمت إيريك للحظة وهو يعاني لاستيعاب ما قد سمعه للتو.

«هذا غير ممكن! لماذا أمضت عقوداً وهي تخفي مجموعة من البحوث حول العين التي عملت عليها في ألمانيا النازية؟».

سمع نقرة على الخط فقال: «أحدهم يحاول الاتصال بي».

«إذاً، أجبه. لنحصل على قسط من النوم، وسنتحدث عن ذلك غداً».

رد إيريك على الاتصال الآخر.

«إيريك!». صاحت أمه تقريباً، وكان صوتها فزعاً.

أخذ نفساً عميقاً.

«ما الخطب؟». سألها بهدوء.

«ما الذي تعنيه بسؤالك ما الخطب؟ ألا يكفي أن رولف قد مات؟ وها أنت تدور في الأنحاء من دون أن يعرف أحد مكانك، وترسل زوجتك لتخبرني...»

كان هذا سلوكاً غير معتاد من أمه، لكنها بدت تقريباً في حالة هيستيرية. غير أنها لملمت شتات نفسها سريعاً رغم ذلك.

«أنا آسفة يا إيريك، أعرف أن هذا صعب عليك أيضاً، ولكن شيئاً مفزعاً قد حصل فحسب. لقد كان ثمة لصوص هنا».

«لصوص؟!».

«عليك أن تعود على الفور...».

«اهدئي. كيف دخل هؤلاء اللصوص؟».

«لقد حطموا نافذة غرفة تشارلي. بدا الأمر وكأنهم قد علموا بعدم وجود جرس إنذار فيها».

«هذا ما يبحث عنه اللصوص المحترفون. لقد حذرتكِ بشأن ذلك، أتتذكرين؟ ماذا أخذوا؟».

صمتت أمه.

«ما المفقود من المنزل؟». سألها مجدداً: «أهو نقود أم مجوهرات؟». ويا للعار! لقد كان تقريباً يستمتع بالموقف.

تنهدت أمه أخيراً وقالت: «لا شيء مهم جداً».

«لا شيء مهم!؟». ردد كلامها محاولاً المحافظة على هدوئه. إن هذا لا يصدق، فهي مستمرة في ألاعيبها؛ حتى الآن.

«لقد سرقوا شيئين فحسب، ولم يكونا بتلك الأهمية».

«لماذا سيقتحم شخص ما المنزل من دون أن يسرق شيئاً في الوقت الذي يمتلئ فيه المنزل بالمحتويات القيمة؟!».

أجابت بغضب: «وكيف لي أن أعرف؟ ربما شعروا بمجيئي ففروا. إنه لشيء مفزع فقط أن شخصاً ما قد تسلل إلى منزلي من دون إذن».

«هل اتصلتِ بالشرطة؟».

«كلا، لا فائدة من ذلك. سأصلح النافذة وأثبت نظام إنذار عليه، وسأجد

طريقاً بديلاً لتشارلي. يا إلهي!».

ظن إيريك أن بإمكانه سماع نبرة الهلع تعلو في صوت أمه مجدداً.

«لا بدّ أن أذهب». قالت له فجأة وأنهت الاتصال.

وضع هاتفه على الفراش ومشاعره مضطربة. في الماضي، كان سيشعر بالشفقة على المرأة العجوز الفزعة، ولكنه الآن كان غاضباً منها تقريباً.

هل كانت هناك أوراق تخص والده في مكان ما أيضاً؟ إن شخصاً ما كوالده من الصعب أن يكون قد احتفظ بشيء كهذا، فهذه ليست عادته. ولم يكن من المرجح أن تحتفظ والدته بأوراق تخص والده؛ ليس بعد طلاقهما على أية حال.

صور ومقاطع مصورة لرجال وحدة أس أس، والتجارب الوحشية التي تخص علم تحسين النسل سيطرت على عقل إيريك. لم يكن الرايخ الثالث سوى تاريخ بالنسبة إليه في يوم من الأيام، والآن بات قريباً من بيته أكثر مما هو على استعداد للاعتراف به.

التقط خريطة حصل عليها من مكتب السياح التابع لمطار تيغيل. كان ثمة إعلان عن رحلتين للمشي على ظهرها. إحداهما كانت رحلة «برلين إبّان الحرب الباردة»، والأخرى كانت عليها شارة النسر ونص يقول «عاصمة الرايخ الثالث، شاهد أهم المواقع إبان الحكم النازي».

كان من المفزع التفكير في أن والدته ووالده قد عاشا في هذه المدينة إبان تلك الفترة. لماذا التزما الصمت بشأن ذلك؟ هل احتفظا بالأمر لنفسيهما بدافع شعورهما بالخزي؟ أم فعلا حقاً شيئاً تعيّن عليهما إبقاؤه سراً طوال تلك السنوات؟

شعر راشد بحبات العرق تطفح على جبينه. كان يجب بشكل قاطع ألا يصل العرق إلى عينيه.

ركّز، هكذا أمر نفسه. فلم يكن بوسعه تحمل أي أخطاء.

ولزيادة الضغط في هذا الموقف، كانت بذلة الحماية المصنوعة من

المطاط التي يرتديها فوق قميصه المخملي وسرواله القصير وقناع الغاز الذي يضعه قد تسببا في زيادة تعرقه. كان يجدر به أن يطلب من كريم أو بشير أن يأتي ويجلس بجانبه ممسكاً بالمناديل. كانت الفكرة ممتعة رغم كل شيء، فسيكون كالجراح وممرضته.

فتح راشد سطح الحقيبة الصغيرة، واستخدم ملعقة شاي لملئها بمسحوق اليورانيوم. كانت هناك عدة حقائب ثقيلة تحتوي على المسحوق موضوعة على الطاولة بالفعل ومملوءة ومقفلة بحذر.

عندما أنهى عمله، قام بإغلاق غطاء الصندوق المصنوع من الرصاص بالبراغي.

وفي النهاية، وضع راشد الحقائب في الحاوية الكبيرة التي جلبوها، ثم خلع البذلة المضادة للإشعاع ووضعها في ثلاثة أكياس متينة.

نظر كل من كريم وبشير إليه بفضول عندما دخل الغرفة المجاورة. كانت الستائر تغطي النوافذ، وكانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً.

قال راشد: «لقد قمت بتقسيمه».

دخل مالك الغرفة وقال: «هذه هي أرقام الحجز». وسلمهم ثلاثة مطبوعات عليها شعار قطار أنفاق يورو ستار.

كانت الورقة الرابعة هي تذكرته الخاصة برحلته إلى لندن.

(24)

كان الصباح مشرقاً ورطباً وضبابياً في منطقة فيدينغ في برلين. وقف إيريك أمام مبنى منخفض متعدد الطوابق شُيد في الستينيات وقرأ الأسماء التي كُتبت على اللافتات.

لم يكن اسم هانز بلوغر مدوناً على الشقة رقم 2، فقد كان مكان الاسم فارغاً. ورغم ذلك، ذهب إلى الداخل، وسار إلى الباب الأمامي للطابق الأرضي، فلم يكن هناك اسم مكتوب على الباب أيضاً.

دق جرس الباب وانتظر. لقد كان مدركاً لحقيقة أن الناس ربما لا يزالون نائمين في هذه الساعة. وقد تفاجأ بسبب عثوره على اسم هانز بلوغر في دليل الهواتف الخاص ببرلين. فربما يكون الرجل قد مات قبل مدة طويلة.

انتصب إيريك في وقفته عندما سمع جلبة تصدر من خلفه. وحين استدار، رأى رجلاً مسناً ينظر عبر شق في الباب. كان يرتدي قميصاً بالياً منقوشاً بالمربعات، وبنطالاً تقليدياً منسدل الساقين، وكان يحدق إليه بحدة.

«ما الذي تبحث عنه؟».

«أبحث عن هانز بلوغر. ألا يقطن في هذا العنوان؟».

«اعتاد ذلك، ولكنه مات قبل زمن غير بعيد. والشقة معروضة للبيع الآن. هل كنت تعرفه؟».

«كلا. لكنني أعرف أن والدي عرفه في يوم من الأيام، وأردت فحسب أن ألتقي شخصاً عرف والدي».

كان التكلم مصدر راحة لإيريك، بصرف النظر عمن يتكلم معه.

«لقد كانت عائلة السيد بلوغر هنا بالفعل. لقد أتى ابنه جيرهارد بلوغر بسرعة شديدة، وباع كل أغراض والده إلى بائع خردة، هكذا ببساطة. وكل ما احتفظ به كان ألبومين للصور».

تفاجأ إيريك، وقال: «لم أكن أعرف أن لديه ابناً».

«كي أكون صريحاً معك، إنه ليس محبوباً جداً». وهز الرجل العجوز رأسه، فظهرت على وجهه ملامح الاستهجان. «حياة بأكملها بيعت إلى متجر خردة. لقد كان لدى بلوغر الكثير من الكتب أيضاً ورسائل. كل نوع من الأغراض المثيرة للاهتمام. لقد كان عالم فيزياء نووية، واعتاد العمل في مركز البحوث التابع لشركة سيمنز».

اقترب إيريك منه وقال: «أود أن أعرف كل شيء بشأن السيد بلوغر».

«هذا تقريباً كل ما أعرفه عنه للأسف. فقد انتقلت إلى هنا قبل ثلاث سنوات، وتحدثت إليه مرات قليلة، لكنني لاحظت أن رف الكتب الخاص به ممتلئ بالمواضيع المثيرة للاهتمام، وقد تم بيع تلك الكتب إلى تاجر خردة».

«هل يصادف أنك تعرف اسم تاجر الخردة ذاك؟».

«إنه شخص تركي أو عربي. لقد رن جرس بابي، وسألني إن كنت أرغب بشراء أي من الفرش، فأغلقت الباب في وجهه بعنف. لكن الوغد أسقط بطاقة هاتفه في صندوق رسائلي. إن هؤلاء الباعة عنيدون».

«أتظن أنك ربما لا تزال محتفظاً بالبطاقة في مكان ما؟».

بعد لحظة، كان إيريك يمسك ببطاقة مزخرفة مطبوع عليها باللون الذهبي «فاخر أهمار».

قالت كيت: «لقد أخبرني إيريك أن منزلكِ قد تعرض للاقتحام».

كانت تقف في ردهة منزل حماتها، متأملة وجه المرأة العجوز الشاحب، والذي أظهر أنها لم تنم جيداً في الليلة السابقة. فهناك دائرتان سوداوان حول عينيها، ووجهها هزيل، وشعرها غير مسرّح؛ وهذا ليس أمراً اعتيادياً بالنسبة إلى إنغريد المتأنقة بعناية. كما كانت لا تزال ترتدي ثياب النوم؛ وهو ما كان أمراً غريباً. لكن كيت لم تشعر بأي تعاطف معها، فطالما احتفظت إنغريد بأسرارها، وعليها أن تتوقع المتاعب.

وقفت لينا عند باب المطبخ وهي تبدو كما لو أنها على وشك الانفجار

في البكاء.

سألت كيت: «هل اتصلتِ بالشرطة؟».

«كلا». أجابتها إنغريد بفظاظة، ولكن نبرة صوتها تحوّلت إلى استرضائية حين تابعت: «لسنا بحاجة إلى الشرطة، إذ لم تتم سرقة أي شيء بالغ الأهمية. فقد سرقت مفكرتان ليست لهما أي قيمة».

وبينما كانت إنغريد تقترب منها، كان بوسع كيت رؤية معاناتها للحفاظ على هدوئها.

«وسيبدأ الجيران بالثرثرة بكل الشائعات إذا استدعيت سيارة الشرطة أمام منزلي. سأصلح النافذة فقط وسأنسى الأمر».

ثبّت نظر إنغريد على الضمادة الموضوعة على إصبع كيت.

«ماذا جرى لإصبعك؟».

«جرحتها بسكين المطبخ». ردت بعدم مبالاة قدر المستطاع، وتابعت: «هل أنتِ واثقة من أنه لم يسرق أي شيء ذي قيمة؟ ليس عليكِ التفكير في القيمة المالية فقط، فالمذكرات لها قيمة عاطفية أيضاً. ما الذي سرق تحديداً؟».

توترت تعابير إنغريد.

«لقد أخبرتكِ، لا شيء ذا أهمية مفقود».

«هل أخذ اللصوص شيئاً لا تودين الإفصاح عنه؟».

باغتت تعابير إنغريد المتشككة عيني كيت.

«ها أنت مجدداً تبدئين بإلقاء اتهاماتك الملفقة التي لا أساس لها». قالت لها إنغريد باستهجان، قبل أن تصرخ فجأة وقد فقدت هدوءها تماماً: «اخرجي!».

استدارت كيت للمغادرة، فقد كانت بالكاد قادرة على الحفاظ على سيطرتها على نفسها كي لا تنعت المرأة بالنازية المتمرسة.

فتحت الباب الأمامي بقوة، وسارت إلى الفناء.

(25)

شعرت إنغريد بضيق صدر وقلق بعد مغادرة كيت، فارتدت ملابسها، وأرسلت لينا إلى منزلها، وشربت عدة أكواب من شاي الكشمش الأسود.

وفي نهاية المطاف، اتخذت قرارها، فتوجهت إلى المخبأ الموجود في غرفة نومها الذي أسمته «المدفن» وهي تحمل كيس نفايات فارغاً في يدها، ووضعت فيه عدة ملفات نحيفة مغبرة من دون أن تكترث بفتح أي منها. لم يكن قد تم تدميرها في الفوضى التي حدثت في ربيع العام 1954، ولم تكن لتعرضها للخطر الآن. كما وضعت في الكيس أيضاً قرصاً صلباً أسود خارجياً يحتوي على بيانات قديمة.

قامت بإغلاق الكيس بإحكام باستخدام شريط لاصق، ثم توجهت إلى كوخ الحديقة الصغير الواقع في الفناء الخلفي. بدت تربة الخيار المزروع طرية بما يكفي، لدرجة أنها بقواها الضعيفة تمكنت من حفر حفرة كبيرة بما يكفي.

منذ أن اقتحم أحدهم المنزل، كان عقلها مشغولاً بالسؤال نفسه: لماذا لم يأخذ اللص سوى أوراق قديمة؟ ولمَ لم يسرق الحاسوب أو الفرش أو التحف؟ والأهم من ذلك، ما الذي كان يخطط لفعله بالأوراق؟

حمدت الله لأنها قامت بتوزيع الوثائق على عدة مخابئ. فما أخذه اللص من أوراق سيشكل إحراجاً إذا نُشر على الملأ، ولكنه لن يسبب كارثة.

حفرت الحفرة بهدوء وبحركات بطيئة، وقد بدت عملية دفن الوثائق مثيرة للسخرية ولا فائدة منها بشكل ما. ما الذي كان يُشعر بالخزي في بحوثها؟ حسناً، استخدام العنصر البشري كحقل للتجارب بالطبع. ولكن، رغم ذلك... على أي حال، كان من الأفضل ألا يعرف إيريك، ليس إيريك فقط بل وأي شخص آخر، شيئاً عن الأمر. على الأقل، ليس حين تكون على قيد الحياة.

تذكرت إنغريد بوضوح النهار الصيفي المشمس. لا بد أن ذلك كان في

شهر يوليو من العام 1944، عندما أعلنت رئيستها في قسم علم الوراثة الدكتورة كارن ماغنوسن عن وصول أول شحنة. وقد تولى رئيس القسم فرتشوير الأمر بنفسه.

دخلت سيارة أوبل عادية الفناء الموجود خلف المبنى، وحمل ضابطان يرتديان زي وحدة أس أس صندوقاً خشبياً بحجم حقيبة اليد خارج صندوق السيارة. قدّما نفسيهما على أنهما طبيبان يعملان في أحد المستشفيات التابعة لوحدة أس أس؛ الطبيب ليباو والطبيب فون هيلمرسن. كانت عينات الدم والعين مغمورة في الثلج. وما إن تم جلبها حتى سارعت الدكتورة ماغنوسن إلى نقل الحمولة إلى مخزن التبريد الخاص بالقسم.

«عيون غجر». أجاب الطبيب فون هيلمرسن ضاحكاً على سؤال الدكتورة ماغنوسن الحذر عن أصول مقل العيون. «إنها عيون تخص أشخاصاً أمواتاً. لن يحتاجوا إليها مجدداً».

لم تقوَ إنغريد إلا على الموافقة على تقييم رؤسائها. فقد كان العمل على الأعضاء البشرية مختلفاً تماماً عن العمل على الفراشات وذبابات الفواكه والأرانب. وبعد تصنيف واضح للعيون البشرية، كان بوسعهم فحص الصفات الوراثية للقزحية؛ بما في ذلك تلك الخاصة بالتوأم المتماثل وغير المتماثل بشكل أقرب مما كان ممكناً من قبل. كانت بعض العيون تعود إلى أجداد وآباء وأطفال ماتوا جميعاً في الوقت نفسه. وقد تساءلت إنغريد في سرها عن كيفية موتهم جميعاً في الوقت نفسه. تمّ تشريح بعض العيون لفحصها، بينما تمّ تثبيت أخرى على سبورة كمجموعة فراشات. كانت دراسة عيون التوائم ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى فرتشوير، وقد ظلت كذلك منذ العشرينيات.

كانت العينات التي تأتي بانتظام بعد ذلك عينات دم وأعضاء داخلية محفوظة في الكحول، بل وحتى هياكل عظمية كاملة، والتي أثارت اشمئزاز إنغريد قليلاً.

لم تكن لدى القسم القدرة على تحليل عينات الدم بالشكل المناسب، لذا كان يجري تسليمها إلى قسم الكيمياء الحيوية المجاور الذي يديره البروفيسور

أدولف بوتينانـدت الذي اكتشـف الهرمونات الذكريـة والأنثوية في الدم، ونال جائزة نوبل في الكيمياء في عام 1939.

في فصل الشتاء التالي، التقت إنغريد الطبيب جوزيف منغيل من وحدة أس أس، الحاصل على دكتوراة في الفلسـفة والطب ومدير المستشـفى الذي قام بزيارات متكررة إلى المؤسسـة. وقد كان تلميذاً لدى فون فيرشـور، مدير القسـم، منذ أيام عمله في قسـم الأحياء الوراثية في فرانكفورت، وكان مهتماً بالتوائم مثل معلمه. وفي أبحاثه على التوائم، حاول منغيل تحديد أي الصفات كانت وراثية وأيها تشكل بفعل نمط الحياة أو البيئة.

تذكرت إنغريد انطباعها الأول عن منغيل؛ فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صبيانيـة بريئـة. وقـد قـام بتقبيل يد كل مـن الدكتورة ماغنوسـن وإنغريد بأناقة وبطريقـة سـاحرة جعلـت أنفاسـه الدافئة الرقيقة تمر على ظاهـر يدها. وعندما علم أن إنغريد هي ابنة أريه ستورمار، طلب منها بشكل مهذّب أن ترسل إلى أبيها أحر تحياته.

يبدو أنه زير نسـاء، فكرت إنغريد حينها ووجهها يحمر خجلاً. كان آخر شـيء يمكن للمرء توقعه في ما يتعلق بالدكتور منغيل هو ما جرى كشـفه عنه لاحقاً، وهو أنه بتر أعضاء وأطرافاً بشرية من دون استخدام مخدر، وأجرى عن عمد عمليات نقل دم من نوع خاطئ، وقتل مرضاه باستخدام حقن الكلوفورم، وحـاول أن يغيـر لـون العيـن بحقن مواد ملونة في عيني طفل حي، مما سـبب للطفل التهابات مؤلمة وعمى. وعندما انتهت الاختبارات، لم تكن هناك حاجة إلى الأطفال مجدداً، ثم جرى بعد ذلك إرسال عينات الدم والعيون إلى قسم علم الوراثة. كان فون فيرشـور يحاول تطوير طريقة لتحديد العرق باسـتخدام البروتينات في الدم، وكان في حاجة إلى عينات دم كثيرة لتنفيذ المشروع.

بدت اتصالات أبيها مع الدكتور منغيل كريهة ومتهورة في أعقاب الحرب. فقد كان من الممكن أن يقبض على منغيل. لأنه لو كان هناك شـخص شـرير بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنى فهو منغيـل. فهو شـخص متوحش وعديم الإحساس.

انتهت من حفر الحفرة، ووضعت الكيس داخلها، ثم تحسست مكان القرص الصلب داخل الكيس وتأكدت من وضعه بشكل عمودي؛ على الرغم من أن المعلومات التي كان يحتويها لم تكن ذات أهمية وفقاً لبورن.

كان بورن مولر قد أعطاها القرص الصلب كي تحفظه في مكان آمن بقليل من التردد، ولهذا السبب أرادت إنغريد التعامل مع القرص الصلب بحذر.

كانت قد شعرت بالصدمة عندما قرأت لاحقاً عن مدى التعاون الوثيق الذي كان بين المدير فون فيرشور ومنغيل.

كما شعر الأمريكيون بالصدمة أيضاً من الأنشطة التي مارسها بعض الأطباء النازيين، والتي كانت طبيعية بالنسبة إلى أولئك الأطباء. فقد بدوا أنهم لا يتمسكون بأية قيم أو مشاعر إنسانية.

وفي الوقت الذي كان من السهل فيه نسيان دراسة علم تحسين النسل في ألمانيا، انطلقت البحوث حول هذا العلم في الولايات المتحدة في بداية القرن العشرين. وكان الغرض من البرنامج هو تعقيم «أضعف العناصر» في المجتمع، والترويج لفكرة تحسين العرق البشري..

وقد امتدح هتلر علناً البحوث الخاصة بالتناسل الانتقائي التي تنفذ في الولايات المتحدة. وكانت مؤسسة روكفلر في الولايات المتحدة هي التي منحت زملاء إنغريد ورؤساءها معظم التمويل الخاص بأبحاثهم في مجال علم تحسين النسل في العشرينيات والثلاثينيات. وقد عبرت نشرة «يوجنيكال نيوز» الأميركية عن إعجابها بالبرنامج، ودافعت عن برنامج تحسين النسل الألماني، وتعجبت كيف أن الألمان وظفوا الأمر بشكل عملي أكثر مقارنة بأميركا. كانت إنغريد قد قرأت أيضاً الصحيفة التي كانت تبجل بشدة رئيسها فون فيرشور. كانت مؤسسة روكفلر قد مولت كلاً من مؤسسة علم تحسين النسل في ديلم والمصح النفسي الواقع في ضاحية بوش في برلين.

في العام 1933، جرى في ألمانيا التصديق على قانون التطهير العرقي، على غرار نموذج قانون هاري هاملتون لاولن الذي استخدم في عدة ولايات أميركية.

ظل هاري هاملتون لاولن مدير برنامج علم تحسين النسل في كولد سبرنغز هاربور لمدة ثلاثة عقود.

كان أكثر شيء إثارة للفزع مما اكتشفته إنغريد هو برنامج الموت الرحيم Action T4، الذي دخل حيز التنفيذ في العام 1939. كان الاسم المختصر يشير إلى المقر الرئيس للبرنامج، وهو فيلا في العنوان تايغرتن 4. وكانت إنغريد على علم كامل بماهية برنامج T4، لأن أحد زملائها في قسم علم تحسين النسل كان قد عمل كطبيب ضمن البرنامج إلى أن جرى نقله من الأنشطة الطبية إلى أنشطة البحوث بسبب إصابته بتلف في الأعصاب. لم تتعجب من الإصابة التي لحقت به. فقد كان هدف البرنامج هو «القتل الرحيم» للأطفال الذين يعانون من عيوب خلقية والعمى والتخلف العقلي وأي عيوب أخرى، وذلك عبر الحقن القاتل الذي تشرف عليه المستشفيات. ولاحقاً، بدأ البرنامج في ضم البالغين أيضاً.

وبعد الحرب، كانت إنغريد تسمع أخباراً عن زملائها السابقين بين فينة وأخرى. إذ كانت رئيستها المباشرة الدكتورة كارن ماغنوسن قد تخلت عن العمل في مجال البحوث، وأصبحت معلمة أحياء في بريمن. وقد توفيت في العام 1997 عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. ولطالما تساءلت إنغريد عن سبب كون الأطباء، من بين جميع العاملين في المهن الأخرى، أكثر النازيين حماسة؛ فما يقارب نصف الأطباء كانوا أعضاء في الحزب النازي. وقد تلاهم القضاة في تلك الحماسة، ولكن ربع القضاة فقط تقدموا للحصول على بطاقة العضوية.

لم تتم إدانة رئيس القسم فون فيرشور مطلقاً في المحاكمات التي أقيمت للنازيين. لكنه دفع غرامة قدرها 600 مارك لتعاونه مع الحكومة النازية. وقد نأى بنفسه عن صديقه القديم منغيل وآخرين شهدوا ضده في المحكمة. لم يخفِ فون فيرشور وجهات نظره بعد انتهاء الحرب. ففي العام 1949، أصبح عضواً في مجتمع علم تحسين النسل. وبعد ذلك بعامين، مُنح وظيفة أستاذية اعتبارية في جامعة مونستر، حيث أنشأ أكثر مراكز بحوث علم الوراثة

شمولية في ألمانيا الغربية. وفي العام 1960، قام بتمويل دورية «ذي مان كايند كوارترلي»، والتي ساهم فيها أيضاً ككاتب.

كما أن العديد من زملاء إنغريد وقت الحرب من قسم علم تحسين النسل شغلوا أعلى المناصب في جامعات مثل مونستر ودوسلدورف وفرانكفورت وإرلانغن. وقد عمل فون فيرشور على نقل معرفته ووجهة نظره إلى جيل جديد، إلى أن توفي في حادث سيارة في العام 1969.

هذه مقبرة من نوع ما أيضاً، هكذا فكرت إنغريد وهي تغطي الكيس بالرمل. ثم سوّت التربة بحذر، ونشرت أغصاناً ميتة فوقها. هذه مقبرة مؤقتة على الأقل. لم يكن الدفن مناسباً، لكنها لم تستطع التفكير في مكان أفضل لإخفاء المستندات في الوقت الراهن.

ربما يتمكن بورن من مساعدتها يوماً ما.

(26)

نظر إيريك إلى المستودع الكئيب الواقع على الحد الفاصل بين ضاحية فيدينغ في برلين وبانزلاور بيرغ. كان ينتظر مكالمة من قسم شرطة لوكنفالد لمعرفة متى يمكنه إعادة جثة أبيه إلى ستوكهولم.

أصدرت الريح صوت حفيف على القماش الذي كان يغطي حزمة من الفرش المستخدم والموجود في الفناء. لم يكن المستودع يقع على مسافة بعيدة عن شقة هانز بلوغر، لذا قرر إيريك المجيء ورؤية ما إذا كان هناك المزيد من الأغراض من ممتلكات الرجل هنا. لقد ذكر جاره «كتباً ومراسلات». كان قد زار سوقاً للبضائع المستعملة في فرنسا ذات مرة، حيث كانت هناك صناديق تحتوي على أهم المتعلقات الشخصية من ممتلكات شخص ما.

الزينة ذات اللون الذهبي التي تم وضعها على باب المبنى جعلته يبدو مبهرجاً مقارنة مع بقية الأبواب الرمادية للبنايات المحيطة. فتح الباب وخطى إلى الداخل. ومن بين ركام من الأغراض المعروضة للبيع، ثبتت عيناه على الفور على سيارة بي أم دبليو كوبيه لامعة ومجهزة تجهيزاً جيداً. كان الغرض منها على ما يبدو هو الإيحاء بأن المالك يدير منشأة محترمة.

«ما الذي تبحث عنه اليوم؟». سأله رجل أسمر البشرة وبدين، شعره مجعد، وارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة.

«هل أنت فاخر أهمار؟».

«أجل».

بدا الرجل الضئيل مرتاباً للحظة.

«لقد اشتريت أغراضاً من ممتلكات رجل يدعى هانز بلوغر قبل فترة ليست طويلة، أليس كذلك؟».

«بلوغر». ردد الكلمة بتفكير عميق، ثم تهللت أساريره وقال بابتهاج:

«بالطبع فعلت».

«ما نوع الأغراض التي اشتريتها؟».

«على الأرجح، أنت تعرف ما أنت مهتم به». قال ذلك بهدوء أكثر من قبل، ثم ابتسم بلطف، وتابع: «أجل، بالطبع، لدي بعض الأغراض المثيرة للاهتمام جداً لأعرضها عليك».

وقف أهمار أمام صندوق من الورق المقوى، وأخرج منه خريطة للرايخ الثالث تعود إلى العام 1942، حيث كانت كاملة وعليها شعار النسر النازي.

قال: «مقابل ثلاثمئة يورو».

وسرعان ما لاحظ البائع تعابير عدم الرضى البادية على وجه إيريك فبدأ دفاعه:

«إنه سعر معقول جداً. فهذا النوع من الأغراض يثير اهتمام الناس. وهناك طلب كبير عليها في دوائر بعينها. هل أنت جامع مقتنيات عتيقة؟».

«نوعاً ما».

أرسل منظر الخريطة الملونة والمحفوظة بعناية تياراً من الأمل إلى نفس إيريك. ماذا لو أن أغراض بلوغر ضمّت صورة يستطيع إيريك التعرف إلى والده عبرها، أو رسالة قديمة، أو شيئاً من هذا القبيل؟

«أنا مهتم بالبحث في الأوراق الشخصية».

«لقد بيعت بالصندوق، باستثناء أوراق خاصة، وأنا على يقين بأنك على علم بها».

لم يفهم إيريك ما كان أهمار يقصده، ولكنه حاول أن يبدو مدركاً وحكيماً.

«تلك هي الأغراض التي أود رؤيتها».

نظر أهمار إلى إيريك نظرة تقييمية، ومشى نحو كوخ زجاجي يقع في ركن المخزن، والذي كان على ما يبدو مكتبه، فتبعه إيريك باهتمام.

وصل أهمار إلى أحد الرفوف، وأنزل عنه مفكرة قديمة مغلقة، وقال له: «هاك عينة صغيرة». ثم ناوله الكتاب الأسود. أشار النص المكتوب على الغلاف الأمامي إلى أنها مذكرات بلوغر، وتعود إلى العام 1941.

قرأ إيريك بسرعة النص الواضح والمكتوب بعناية.

العشرون من أغسطس. كان العمل شاقاً للغاية حتى أمس؛ عندما وقع تغير جديد في الأحداث. فقد لاحظنا أنه- بوجود مفاعل قيد التشغيل- ربما يمكننا الحصول على العنصر 94. إن وجود مفاعل قيد التشغيل خطوة تمهيدية فقط، فمن الممكن استخدامه لتحقيق أهدافنا بطريقة أكثر سهولة، بدلاً من المعاناة مع فصل نظائر U-235.

«هل تعرف ما هو العنصر 94؟». سأله أهمار وهو يختلس النظر إلى وجهه، ثم أجاب عن السؤال بنفسه هامساً، ووجهه أمام وجه إيريك بالضبط.

«إنه البلوتونيوم. هذا نص مثير للاهتمام بشدة».

كان أهمار يستعيد المفكرة بالفعل.

«انتظر لحظة». قال له إيريك، وقرأ سريعاً المزيد مما هو مكتوب.

العمل في غوتو صعب للغاية وشاق في هذه الأيام الحارة...

غوتو ثانية! واصل القراءة بنهم.

فكر ديبنر في إدخال اليورانيوم في هيئة مكعب بدلاً من لوح، كما فعل هايزنبيرغ في ليبزيغ. ويتم استخدام البارافين كمادة عازلة. وتمّ صنع الهياكل الداعمة من الألومنيوم، أو مادة أخرى لا يمكن استخدامها، لذا فكر ديبنر في تجميد الماء الثقيل في صورة هيكل دعم ذاتي.

«هذا يكفي، اشترِها واقرأها في بيتك، فهذه ليست مكتبة».

تجاهل إيريك عدم صبره.

لا يعتبر أكسيد اليورانيوم مادة مشعة من الناحية الفنية، لكنه سام للغاية، لذا نحن نستخدم المآزر وأغطية للأحذية ونظارات واقية وأقنعة للوجوه. ويعلم الجميع أن المفاعل سيكون منتجاً قوياً للنيوترونات الضارة وأشعة جاما إذا تم تفعيله. رولف قلق على صحتنا. وكل من الإجراءات الفنية وإجراءات الأمن الشخصي صارمة. كما أن وحدة أس أس قلقة حيال ذلك. أقوم بتدوين هذا سراً، وحتى كاترينا لا تعرف شيئاً عن مذكراتي...

رولف، كاترينا.

كاد إيريك يترك الكتاب يسقط من يديه، ولاحظ أن أهمار يتفحص وجهه عن قرب.

«كما قلت، المحتويات مثيرة للاهتمام بشدة». قال أهمار وهو يستعيد الكتاب بصرامة: «لقد عمل الرجل كفيزيائي في ألمانيا النازية».

حاول إيريك أن يجعل صوته يبدو هادئاً، بل وغير مبالٍ وقال: «كم تريد ثمناً لها؟».

«خمسمئة يورو».

كان السعر مثيراً للسخرية، لكن إيريك لم يشعر برغبة في المساومة.

«هل لديك المزيد منها؟ فهذه تخص شهوراً قليلة».

تردد صاحب المتجر.

«ربما كان بوسعي العثور على شيء ما، إذ لا يزال هناك صندوقان لم أقم بفتحهما بعد. هل يمكنك العودة في الأسبوع المقبل؟».

«ربما، لكنني سأشتري هذه على أي حال. ماذا عن المراسلات أو الصور؟».

«يمكنك التحقق من تلك الصناديق الموجودة عند الحافة هناك، لكنني لا أبيع المحتويات فرادى. سيتعين عليك شراء الصندوق بكامله كما قلت».

اتجه إيريك نحو مجموعة من الصناديق المبعثرة. كان في الصندوق الأول مظروف وملف من الورق المقوى ممتلئان بالأوراق، ولم يكن أي منها يخص أي حقبة زمنية تقترب من الأربعينيات. واحتوى الصندوق التالي على كتب؛ حاله كحال الصندوق الثالث. لا شيء منها يثير أدنى اهتمام.

ظهر صاحب المتجر إلى جانبه وهو يمسك بورق في يده وقال:

«لدي أيضاً نسخ قليلة من المذكرات الأخرى». قال ذلك بوضوح، ثم تابع: «هل تحتاج إلى الحصول على النسخ الأصلية فقط؟».

«كلّا، المحتويات هي الشيء الرئيس. هل يمكنني إلقاء نظرة عليها؟».

«كلّا، اشترِها وغادر فقط. كُتبَ عليها أنها تخص الفترة من مارس إلى مايو من العام 1945. ليست سلسلة متواصلة، لكنها كاملة تقريباً. السعر هو

خمسة آلاف يورو».

نظر إيريك إلى الرجل مصدوماً، ولم يكن باستطاعته تصديق أذنيه. وقبل أن يتمكن من الكلام، واصل صاحب المتجر حديثه.

«تلك هي الوثائق التي تبحث عنها. لذا، احسم أمرك». قال ذلك بنبرة هامسة مجدداً. شيء ما في تعابير وجهه أخبر إيريك أنه كان يعني ما قاله.

دفع إيريك ثمن المفكرة والنسخ المصورة من دون تردد ببطاقته الائتمانية، ثم استدعى سيارة أجرة. وبسرعة، أخبره أهمار أنه مرحب بحضوره مجدداً.

صعد إيريك إلى سيارة الأجرة، وطلب من السائق أن يقلّه إلى الفندق. ثم درس إحدى النسخ التي يعود تاريخها إلى العام 1939.

الثالث والعشرون من أبريل، ذهبت إلى السينما برفقة كاثرينا. كان الفيلم مملاً، لكن كاثرينا كانت أكثر جمالاً من أي وقت مضى. واشتريت كتاب اتش جي ويلز «تحرر العالم».

تذكر إيريك على الفور الكتاب الموجود على رف الكتب الخاصة بأبيه في فيلا سولسيدان.

كان أمراً لا يصدق أن الكتاب قد كُتب عام 1914. ففي القصة، يتوقع ويلز «بالطاقة الذرية» التي سينتج عنها ازدهار اقتصادي هائل، ولكن أيضاً ستنتج «قنبلة ذرية» ستعمل على تدمير المدن الأوروبية عندما تندلع الحرب في العام 1958. قمت بإعارة الكتاب إلى رولف، وقد عبّر عن إعجابه الشديد بمخيلة الكاتب، لأن ذلك أتى بعد استنتاجات هان بأن قنبلة كهذه بدت أمراً ممكناً حقاً. فقررت منح الكتاب إلى رولف كهدية، بما أنه ساعدني على الانتقال.

التاسع عشر من مايو، جرى نشر مقال كل من فون فايزاكر وفلاغ في «داي ناترفيسنتشافتن». حيث يقدمان تقديرات عن الطاقة الهائلة الناتجة عن الانشطار النووي. فكمية الطاقة الناتجة عن متر مكعب من أكسيد اليورانيوم يمكنها رفع متر مكعب من الماء إلى ارتفاع يبلغ سبعة وعشرين كيلومتراً! إن هذه الأرقام مدهشة بشكل لا يصدق.

شعر رولف بالدهشة وقال: «المقال يحكي كل شيء؛ فهو يكشف للعالم

أجمع أننا في طريقنا نحو إنتاج القنبلة».

نظرت إلى عينيه مباشرة وقلت: «هذا صحيح».

حينها فقط، بدا أن رولف قد أدرك أن بعض الباحثين أرادوا ذلك بالضبط؛ إذ أرادوا أن يحذروا بقية العالم بشأن بحثنا. كانت تلك هي المرة الأولى التي يبدو فيها رولف مدركاً كم هي نظرته ضيقة. فهو لا يقوىَ على النظر إلى أي شيء من أي منظور إلا بالمنظور العلمي!

شعر إيريك أن خديه يحترقان، وقد توقف للحظة قبل أن يتمكن من مواصلة القراءة.

الأول من سبتمبر، بدأت الحرب مع بولندا اليوم. وفي قسم الفيزياء، انصب التركيز بشكل حصري تقريباً على الأبحاث الخاصة بالتفاعل الانشطاري. كانت الأجواء مشحونة ومتوترة. وقد شعرت بالدهشة لأن اكتشافاً خطيراً كهذا في مجال الفيزياء لم يتم طرحه للنقاش العام بشكل أكبر؛ إلى أن أدركت أنه يعتبر سراً عسكرياً.

تناولت العشاء مع كاثرينا الليلة، وقد حضره رولف وإنغريد أيضاً. ساد شعور غريب، فالجميع كانوا يفكرون بشأن ما ستقود إليه الحرب مع بولندا...

رن هاتف إيريك، ولم يكن لديه الصبر الكافي لينتظر بدء كيت بالكلام. لذا، سارع على الفور إلى القول: «لقد حصلت للتو على مذكرات كُتبت في برلين إبان الحرب من قِبَل أحد زملاء والدي. وقد أتى على ذكر كل من أمي وأبي».

«جيد. أعني، هذا جيد لتسليط بعض الضوء على الأمور على الأقل».

«إن هذه المذكرات تبيّن بشكل لا لبس فيه أنهم كانوا يعملون كعلماء للفيزياء في مجال البحوث الذرية».

ساد صمت في الجانب الآخر من الخط.

«هل سمعتِ ما قلته؟ يبدو أن أبي كان من بين العاملين على تطوير القنبلة الذرية للنازيين».

«لا أدري ماذا أقول، عدا عن أنني أحمل أنباءً من نوعية الأنباء السيئة».

«تحدثي».

«والدتك غاضبة بشدة. لقد اشتعلت غضباً عندما ذهبت لرؤيتها، وطردتني».

«ماذا جرى؟».

«كانت متوترة بسبب الاقتحام، فسألتها مباشرة إن كان اللصوص قد أخذوا أي شيء لا تود الاعتراف بامتلاكها إياه؛ إذ لا يمكننا الاستمرار في هذه المسرحية الهزلية إلى الأبد».

تنهد إيريك وقال: «ما كان عليكِ منحها تلميحاً مباشراً كهذا، فهي فطة».

«من السهل بالنسبة إليك إرسال تعليمات من خارج البلاد. فلمَ لا تعود إلى الوطن؟».

«أنا عائد».

«جيد. إذاً، يمكننا النظر إلى الظرفين الآخرين اللذين أخذتهما من منزل إنغريد معاً».

من نبرة صوتها، شعر إيريك أن ثمة خطباً ما. هل قرأت الوثائق بالفعل، ولم ترغب بأن تخبره بفحواها؟!

(27)

غطى وشم لكِ إلى الأبد ذراع الرجل الشاب، بينما اهتز بطنه المستدير الوردي تحت قميصه الرياضي، وبدت نصف مؤخرته من فوق بنطاله القذر. كان يتحدث بلغة الطبقة العاملة، كما كان يتحدث بسرعة كبيرة جداً، وكل ما استطاعت إنغريد أن تفهمه هو البذاءات التي لم يكف عن ترديدها.

لكنه ورفيقه الذي يفوقه ذكاءً كانا يقومان بعملهما بعناية، وقد كان ذلك كافياً بالنسبة إليها. كان الزجاج الجديد قد جرى تثبيته على إطار النافذة تقريباً.

راقبت الرجل ذا الوشم عن كثب. كان بوسع المرء رؤية رجال مثله في الشارع وفي المتاجر، فقد كانوا ينتشرون في كل مكان. وخلال يوم العمل، يمكنك رؤية النسخة النسائية منه منتشرة بشكل أكبر أيضاً، واللاتي يكنّ عادة أمهات مطلقات يدفعن عربات الأطفال، وأطفالهن منكبون على التهام رقائق البطاطا والحلوى ذات اللون الفاتح.

كان ثمة الكثير منهم؛ فعددهم كان يزداد باضطراد فحسب. إذ كانوا يتناسلون أسرع بكثير من الأشخاص المتعلمين الذين قضوا وقتاً أكثر في المدارس، وواصلوا تأجيل مرحلة إنجاب الأطفال، فكانت النتيجة أن عدد مواليدهم كان في انحسار دائماً. وعلى طريقة الغربان التي عثرت على جثة، وجد السوق ضالته في غير المتعلمين؛ فهم أولئك الأشخاص الذين يهتمون بالترفيه الطائش والشراب وشرب المياه الملونة ويدمنون الوجبات السريعة. لذا، ستمثل السمنة انهيار النظام الصحي.

لقد أدركت إنغريد منذ زمن طويل أن أكبر خطر يهدد البشرية لم يكن التغير المناخي، بل كان ما يحدث للبشر من انحطاط. فخلال مئات قليلة من السنوات، ستتغير اللعبة، وستطغى الهيمنة المطلقة للكتلة الحيوية على التفكير المنطقي للبشر. لقد كافح الناس بنشاط لمواجهة التغير المناخي، فقد كانت

فكرة عدم فعل شيء حيال ذلك تعتبر بائسة. ولكن، لا يجب التدخل لمواجهة التدمير الذاتي للبشرية، فقد جرى رفض ذلك بشكل قاطع. لكنّ التغييرين الحاصلين تسبب فيهما البشر، وكان السبب الأساسي هو نفسه؛ المجتمع. فالناس يتخذون قرارات تتسم بقصر النظر اعتماداً على رفاهيتهم الشخصية.

ولكن، كان لا يزال هناك أمل بأن ينتصر المنطق على العاطفة. فتطوير الجنس البشري لن يصل إلى طريق مغلق إذا مُنح الباحثون فرصة لاستخدام العلم للمساعدة. لقد كان استخدام مصطلح «التناسل الانتقائي» محظوراً بالطبع، فضلاً عن أنه كان مرتبطاً بعلم تحسين النسل السلبي. لقد كانت زلة كبيرة أن يعتقد أن الذكاء مرتبط بالعرق، وكان الخطأ الأكبر هو محاولة القضاء على الأشخاص الضعفاء الذين ولدوا بالفعل أو منعهم من التناسل.

لقد كان الحل الحقيقي هو علم تحسين النسل الإيجابي، والذي كان شبيهاً بعلم الوراثة المعاصر. فبعد إنجاز الخريطة الجينية البشرية، ربما يتم تحديد الجين المسؤول عن السمنة على سبيل المثال.

«تفضلي يا سيدتي. نافذة جديدة». قال الرجل الأذكى من بين عاملَي تركيب الزجاج.

شكرته إنغريد بتهذيب، ودفعت لهما نقداً. وبعد ذلك، خرج العاملان من الفناء، بينما وقفت هي وحيدة إلى جانب نبات الأرطاسيا، ثم قامت بكسر إحدى سيقان النبات الهشة بعصبية، وسارت نحو النافذة الصغيرة للتأكد من أن الرجلين قد قاما بإغلاقها بإحكام.

ما فتئت فكرة عنيدة تراودها. أي نوع من اللصوص هو ذاك الذي يسرق وثائق فقط؟ وكيف عرف بمكانها السري؟

تسلل إلى عقلها أسوأ سبب ممكن. كيف يمكن لكيت أن تسأل بمحض الصدفة سؤالاً كهذا؟

لكنها كانت صدفة فحسب؛ فكيت إنسانة ذكية، وقد شعرت ربما أن إنغريد لا تود استدعاء الشرطة؛ حتى رغم اعترافها بفقدانها بعض الأغراض الصغيرة.

كانت تود أن تناقش المشكلة مع شخص ما، ولكن لم يكن هناك أحد

يمكنهـا التحـدث إليـه بشـأنها، فلقد سـئمت من حمل أسـرارها بمفردها. كان إخفـاء الماضـي هـو الجـزء الأصعب في حياتها. وقـد كان كذلك منذ طلاقها مـن رولـف. لقـد كانت الأمور على ما يرام فـي الولايات المتحدة من الناحية المادية، لكن أشباح الماضي أفسدت كل شيء.

كانت أحياناً تعتقد أن الطلاق ربما كان خطأ. هل كان يتعين عليها تحمل خيبة أملها، والصمت، والمحافظة على حياتهما معاً؟

كلّا بالطبع، فقد مثّل الكشف عن شخصية رولف الحقيقية صدمة لها لم تتعافَ منها مطلقاً. فعندما تعرف شـخصاً لحوالى ثلاثين عاماً، وتحسـب أنك تعرفه بشكل جيد، ثم تجد نفسك قد تعرضت للخيانة بأسوأ شكل ممكن...

كان من المثير للسـخرية أن رولف قد تحدث عن أزمة زواجهما الأولى بالطريقـة نفسـها بالضبـط. ففـي الخمسـينيات، عندما علم بشـكل تدريجي بما كانت إنغريد تفعله في القسم إبان الحرب، كان رد فعله هو الشعور بخيبة أمل كبيـرة منهـا. وكانـت قـد ظنت أن رولف– من بين كل الناس– سـيتفهم الأمر. ولكن كلّا، لقد كان انطباع أبيها الأولي عنه صحيحاً.

كان قد التقى رولف عندما كان يزور برلين في خريف العام 1943. وقد كان يقيـم فـي الفنـدق الفاخـر المخصص للضيوف المميزيـن لدى وحدة أس أس، ووجد وقتاً لمقابلة المسؤولين البارزين لوحدة فافن–أس أس المسؤولين عن تجنيد الأجانب، فضلاً عن زيارة البروفيسور فون فيرشور والدكتور منغيل فـي المؤسسـة. وقـد ناقشـوا برامـج فرض التطهيـر العرقي في السـويد، والتي تشابهت مع الإرشادات الألمانية إلى حد كبير.

لقـد بـدا أن والدهـا يشـعر بالإهانـة قليـلاً لأن ابنتـه لم تقم حتـى بدعوة والديهـا إلـى حفـل زفافهـا. وقد عانت إنغريد للتوضيح له أنه في زمن الحرب فـي ألمانيـا كان هنـاك العديـد من حفلات الزفاف الشـبيهة بحفل زفافهما؛ أي علاقات سـريعة تأخذ الصفة الرسـمية لدى القاضي، وبوجود شـاهدين فقط. لكـن الأمـور تغيـرت. فقد حل عالـم جديد حديث، وكان الوقت يقدر بالمال، وحفـلات الزفـاف الكبيـرة التـي تعقد في دار العبادة قد عفا عليها الزمن؛ على

الأقل في ذلك الوقت.

لحسن الحظ، وجد والدها وقتاً في جدوله المزدحم لتناول الغداء مع رولف. أو بالأحرى، لم يكن محظوظاً جداً، لأن إنغريد لم ترَ رولف متجهماً مطلقاً كما كان في تلك الأمسية، ولأسابيع بعد ذلك اللقاء.

وعندما حاولت أن تستفسر منه عن الخطب، التزم الصمت في البداية، ثم تحدث عن الأمر فقط بعد الكثير من التملق.

«كان من الأفضل بكثير لو أنكِ تزوجتِ من شخص نرويجي بدلاً مني. فهكذا، سيحمل زوج ابنة والدكِ أنقى دمٍ آري يسري في عروقه. يا إلهي!».

«يا إلهي! أياً كان ما قاله أبي، فهو لم يكن يقصد به أي شيء سيئ يا عزيزي. وأنا على ثقة بأنه لم يقل إن نسيباً نرويجياً سيكون أفضل من نسيب فنلندي؟».

رد رولف: «ليس بكلمات كثيرة. فقد كان فقط يثرثر بكلام بليغ متفوهاً بالهراء السويدي التقليدي نفسه بشأن الفنلنديين المنغوليين. لمَ بحق الله لا يستطيع رجل بالغ أن يفكر في شيء أفضل ليتحدث بشأنه مع زوج ابنته؟».

«كما قلت، أحياناً يصبح أبي أرعن قليلاً عندما تتملكه الحماسة، لكنه شخص صالح ومهذب. هل أخبرتك بما قاله عندما أخبرته عبر الهاتف أنني سأتزوجك؟ كان تعليقه: لا مشكلة لدي مع شخص فنلندي، إذا كان سيلائم ابنتي كأبٍ لأطفالها، وسيلائم المسؤولين الألمان كآري نقي».

قال رولف متذمراً: «يا له من مظهر رومانسي من الخارج! كل ما تحدثتما أنتما الاثنان عنه هو ما إذا كان أي من أفراد عائلتي يحمل أمراضاً وراثية».

«ولكن هذا من صلب اهتماماتي! وعلم تحسين النسل عزيز على قلب والدي. فنحن الأوروبيين لا نتحمل ببساطة جلب المزيد من الذرية غير المناسبة إلى العالم».

لم تتحسن العلاقة بين رولف ووالد إنغريد مطلقاً. ولكن لحسن الحظ، أصبح إيريك قرة عين جده. ففي عدة عطلات صيفية، لم يكن الفتى يفضل سوى الذهاب إلى بحيرة مالاك في رحلات صيد مع جده. وفي كل فصل

خريف، كان معجمه من المصطلحات السويدية يزداد كثيراً في غضون أسابيع قليلة فقط.

تنهدت إنغريد، والتقطت مقصات التقليم من بين أدوات الحديقة، وخرجت مجدداً من الفناء. قامت بقطع فرع جاف من مسكبة ورود جميلة ممتلئة بالورود الوردية. كانت تشبه بالضبط الزهور التي كانت موجودة في البيت الكبير في السويد حيث قضت طفولتها، مثل زهرة البوبيوس التي طورها كارل ستنبيرغ. لقد كانت حديقة الزهور مسؤوليتها منذ الصغر.

ابتسمت إنغريد لنفسها. لقد ظل والدها قوياً إلى أن وافته المنية عن عمر يناهز السادسة والتسعين. ليس جسدياً، وإنما عقلياً. كان ثمة وقت شعرت فيه إنغريد بالأسف على رولف؛ فقد شعر بالإهانة من قبل حميه. ولكن شكاوى والدها بشأنه- ولسوء الحظ- ثبّتت صحتها، فرولف كان ضعيفاً.

كانت تلك بالضبط هي الكلمة التي استخدمها والدها، «ضعيف».

لكنها في ذلك الحين رفضت ذلك بوصفه مبالغة أو سوء فهم، إلا أنه ثبّت لاحقاً صحة تشخيص والدها.

عادت إنغريد إلى داخل المنزل وإلى حجرة النوم، وفتحت الخزانة، وتحققت من أن الملابس المعلقة كانت تغطي الخزانة الموجودة داخل الجدار الخلفي. هل يجب عليها إخلاء مخزونها تماماً ونقله إلى مكان آخر؟ ولكن، إلى أين؟

تسبّب مجرد تفكيرها في نقل كل شيء بشعورها بالإجهاد، لذا قررت نسيان ذلك الأمر. فلو كان اللص يعرف بشأن المخبأ الموجود في حجرة النوم لكان قد بحث فيه أيضاً، وليس فقط في الخزانة الصغيرة الموجودة في المكتبة. لماذا سيرغب أحدهم بفضحها؟ هل يتعلق الأمر بمنظمة يهودية تطارد مجرمي الحرب النازيين؟

كان مجرد التفكير في تلك الكلمات يثير الغثيان. فهي لم تكن مجرمة حرب نازية، ولم تكن جزءاً مما كان اليهود يفعلونه على أية حال. لقد كانت ببساطة تقوم بأبحاث علمية.

ارتعدت إنغريد. كان بإمكانها رؤية أيدٍ تفتح أقفالاً كانت مقفلة بدقة منذ عقود. هل سيحاول أحدهم أن يبتزها؟ كان ثمة شيء مريح في تلك الفكرة، فربما ستتمكن من حل المشكلة باستخدام المال. يتعين عليها فقط أن تنتظر شخصاً ما ليتواصل معها. لحسن الحظ، كان أحدهم سيأتي غداً لتثبيت نظام الإنذار على النافذة. لتتركهم يحاولون الدخول.

فجأة، شعرت إنغريد بالخوف.

الجرح الذي أصاب إصبع كيت، وأسئلتها، وسلوكها العدواني كلّها تثير قلقها.

بالطبع. فجأة، أصبح كل شيء واضحاً وضوح الشمس في كبد السماء بالنسبة إليها. هل كانت مصابة بالعمى؟

إنها تلك البريطانية اللعينة.

(28)

كان الفراش المزدوج مغطى بالأوراق. فقد رتبت كيت وثائق إنغريد حسب اللغة والتاريخ.

كانت تجلس على كرسي في حجرة النوم وهي تقرأ وثيقة كُتبت باللغة الألمانية، والتي تصف بحوثاً حاولت أن تحدد عرق شخص ما باستخدام اختبارات الدم.

هراء علمي كامل! ومن أين أتت عينات الدم؟

قرأت بفضول وثيقة باللغة الإنجليزية عنوانها «لجنة الطاقة الذرية التابعة للولايات المتحدة». وفي الهامش وُضع عليها ختم «سري».

«أعطيني تلك الأوراق». قال صوت بنبرة باردة.

وحين نظرت كيت إلى الأعلى، كانت إنغريد تقف عند المدخل، وذراعها ممدودة إلى الأمام وهي تسير ببطء نحوها.

جلست كيت على الكرسي من دون حراك. كان الولدان يلعبان في الفناء، وكان باب البيت الأمامي مفتوحاً.

«بأي حق تقتحمين منزلي وتسرقين مني؟». قالت إنغريد ذلك بصوت يرتجف من شدة الغضب: «بأي حق تقرئين تلك الأوراق؟». ووقفت إلى جانب السرير، وبدأت بجمع الأوراق.

نهضت كيت عن الكرسي وهي لا تزال ممسكة بالأوراق في يدها، فاندفعت إنغريد نحوها برشاقة مدهشة وجذبتها منها، لكن كيت لم تفلتها.

ظهر كل من إميل وأوليفيا عند مدخل الباب، ونظرا إلى أمهما وجدتهما بمزيج من الحيرة والهلع.

فأمرتهما كيت: «أيها الولدان، اذهبا إلى الأعلى، الآن!».

لم يأتِ إميل وأوليفيا بأي حركة، وإنما راقبا ما يجري فحسب، وقد

تجمدا في مكانيهما.

حاولت إنغريد انتزاع الأوراق من كيت بقوة وغضب، ثم بصقت في وجهها. غير أن كيت أحكمت قبضتها على الأوراق. لكنها بعد ذلك تذكرت وجود الطفلين، فسيطرت على نفسها. عليها أن تستسلم.

جمعت إنغريد الأوراق عن الفراش ووضعتها تحت إبطها، ثم خرجت من الغرفة غاضبة من دون الاكتراث بعيون الطفلين المتسعتين.

في مؤخر سيارة الأجرة، وضع إيريك الهاتف على حجره.

كان يتحدث إلى غيرهارد بلوغر، نجل هانز. وقد علم أن كارلا بلوغر قد قُتلت في برلين.

كان يحاول جاهداً ترتيب أفكاره. فقد كان غيرهارد غاضباً جداً، ولم يستطع إيريك فهم علاقة ذلك بوالده. لكن غيرهارد بلوغر أخبره أن كارلا كانت تاجرة سلع مستعملة في برلين، حيث قام ببيع ممتلكات والده.

أكان ذلك ما قصده أهمار عندما قال ما باغت عقل إيريك حينها: «تلك هي الوثائق التي تبحث عنها»؟

هل يحتمل أن كارلا بلوغر كانت بحوزتها أيضاً نسخة عن يوميات هانز؟

تنهد إيريك بعمق، ونظر عبر نافذة السيارة بينما كانت برلين تعدو بجانبه. فكّر في والده الذي كان جالساً في السيارة برفقة رجال مجهولين، وأحدهم يتحكم بتحركاته؛ طبقاً لما ذكرته كاثرينا بلوغر. فوالده لم يكن رجلاً يخضع لأوامر أي كان بسهولة.

ثم كانت هناك الظروف التي أحاطت بالطريقة التي قتل بها في غوتو. إذ لم يرغب إيريك بتصديق رواية الشرطة الخاصة بشاب يقود بتهور.

فكر مع سره، لا بد أن يجري التحقيق في الأمر على أنه جريمة. لقد أراد أن يخبر الشرطة بالمزيد حول الأمر، لكنه كان قد رأى بالفعل سلوكهم حيال القضية وفقدانهم الاهتمام بها.

إذاً، يتعين عليه اتخاذ تدابير أقوى، فمال إلى الأمام كي يتحدث إلى سائق

سيارة الأجرة.

«هل يمكنك أن تخبرني أين يقع قسم الشرطة الجنائية المركزي؟ أعني، ليس قسم الشرطة المحلي».

نظر إليه السائق مندهشاً وقال:

«يشغل مكتب الشرطة الجنائية الاتحادي حياً كاملاً في تريبتو».

«لنذهب إلى هناك». قال إيريك وفتح مفكرة أخرى.

الخامس من ديسمبر، أتى هايزنبيرغ اليوم كي يشرف شخصياً على بناء أول نموذج في «بيت الفايروسات». وبالطبع، لم يتم إخبارنا بشيء نحن المساعدين الشباب عدا ما كان ضرورياً للعمل.

هناك تنافس متواصل بين الفيزياء النظرية والعملية. فلم تكن معرفة كيفية حساب سلسلة التفاعل الخاصة بالنيوترونات وإنجاز الكتلة الحرجة كافية إذا لم يكن باستطاعتك بناء مفاعل للاختبار.

تصفح إيريك المفكرة والنسخ المصورة طوال الطريق نحو المقر الرئيس لمكتب الشرطة الجنائية الاتحادي. لقد كان مهتماً بشكل الخاص بالنسخ، بما أن صاحب المتجر كان لديه سبب لكي يحدد ثمناً غالياً جداً لها؛ بشكل مثير للسخرية. وكلما أمعن في النظر إليها، بدأ بفهم السبب أكثر. كما فهم كيف بإمكانه أن يجعل الشرطة مهتمة بالقضية.

«كدنا نصل». قال السائق.

على أحد جانبي الشارع، كان ثمة متاجر ودار للسينما. وعلى الجانب الآخر، كان ثمة سياج بلون واحد، وقد وُضع فوقه سلك شائك وملفوف. وكانت هناك كاميرات مراقبة مثبتة عند مسافات متساوية. وقف سائق سيارة الأجرة أمام بوابة حديدية حديثة ومغلقة.

«لا يمكنني التقدم أكثر».

دفع له إيريك الأجرة، وترجّل من السيارة، فتقدم نحوه حارس شاب يرتدي ثياباً موحدة اللون، وتتدلى من عنقه بطاقة تعريف.

«هل يمكنني مساعدتك؟». سأله بصوت خشن قليلاً.

«أود مناقشة مسألة تشمل أنشطة إرهابية نووية مع شخص ما».
أصبح وجه الشاب أكثر جدية.
«هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟».
«أعتقد أنه ربما تكون بحوزتي معلومات بشأن تهديد إرهابي نووي».
«ادخل».

وقاد إيريك عبر بوابة المشاة. لم تكن الأراضي الواسعة تبدو كمجمع كامل للشرطة، بل بدت أكثر كحرم جامعي؛ فالعشب مقصوص، وثمة طرق من الأسفلت، وبنايات عصرية مشيدة من الطوب الأحمر. حتى إن الموظفين بدوا شباناً وهادئين أثناء تنقلهم في جماعات من مبنى إلى الآخر.

تبع إيريك الحارس إلى كوخ أمن ذي جدران زجاجية، حيث فتشه الشاب بجهاز كاشف للمعادن ونظر إلى حقيبته.

أعطته امرأة تجلس خلف طاولة استمارة كي يملأها بمعلوماته الشخصية، بينما وقف الحارس جانباً وهو يتحدث عبر الهاتف إلى أن انتهى هو من ملأ الاستمارة. ثم قامت المرأة بنسخ رقم جواز سفره، وأعطته بطاقة كُتبت عليها كلمة «ضيف» كي يعلقها.

ثم قالت له: «سيلتقيك السيد شنايدر خلال لحظة، رجاءً انتظر هنا».

وأومأت برأسها نحو كرسي أسود من الجلد وُضع في الجانب الآخر من الغرفة.

جلس إيريك على الكرسي، وأخرج إحدى أوراق مذكرات هانز بلوغر من حقيبته. وكان يخشى أن يكتشف المزيد.

كاثرينا في ميونيخ مجدداً. لا يمكنها التحدث عما يفعلونه هناك، وكنت أظن أنني الوحيد الذي يخفي أسراراً. يمكن ببساطة تحديد عدد أطنان اليورانيوم اللازمة لشركة أوير الكائنة في أورانيبيرغ لترقيتها.

إلا أن فصل نظير U-235 عن أكسيد اليورانيوم من أجل إنتاج القنبلة أكثر صعوبة من الحسابات التي أجريناها. وقد تم استخدام عدة طرائق للاستخلاص، ولكن لا شيء منها يبدو واعداً. يشارك رولف عن قرب في تطوير نابذة فائقة

السرعة، لكنني أثق أكثر في الاستخلاص الكهرومغناطيسي؛ لأنه أنتج على الأقل كمية صغيرة من مادة U-235.

إحدى الطرائق الواعدة الأخرى هي باستخدام أنبوب تشاسي ديكل للفصل الذي يفصل النظائر باستخدام قانون نيرستاين، فضلاً عن مخزون النظائر المطور من قبل باغ.

انفتح باب، فنظر إيريك إلى أعلى. دخل الغرفة رجل ذو شعر أشقر في العقد الرابع من عمره، يرتدي بنطال جينز أزرق، وقدم نفسه على أنه شنايدر. كان سلوكه الودي متناقضاً بشكل كامل مع وجهه الجاد. وبالنظر إلى ثيابه، يمكن للمرء أن يظن أنه الطريدة وليس الصياد.

مشيا عبر الفناء متجهين إلى بناية قديمة من الطوب. وقد كانت واحدة من بين بنايات عديدة.

قال شنايدر أثناء سيرهما: «أردت أن نتحدث بشأن موضوع متعلق بهجوم إرهابي نووي».

«تهديد محتمل بهجوم إرهابي نووي».

بدأ إيريك بإخبار شنايدر بشأن الرجل المسلح الذي اقتحم شقة والده، وانتهى بوصفه ظروف وفاته الغريبة، والمعلومات المفاجئة التي بدأ يعرفها عن أبيه.

فتح شنايدر باب المبنى ببطاقته التعريفية. ولاحظ إيريك لوحة صغيرة إلى جانب الباب كُتب عليها «مركز مكافحة الإرهاب المشترك وحماية الدستور التابع لمكتب الشرطة الجنائية الاتحادي».

تردد صدى وقع أقدامهما على الأرض الحجرية التي تغطي البهو الطويل. وأخيراً، وقف الرجل، ووجّه إيريك للدخول إلى مكتب عالي السقف وحديث في تصميمه ولكنه قديم في روحه.

«لقد اكتشفت أن رجلاً يُدعى هانز بلوغر قد عرف والدي. فقد عمل كل منهما كعالمين في الفيزياء في ألمانيا وقت الحرب». قال إيريك ذلك وهو يجلس على كرسي أمام مكتب شنايدر. «لقد توفي بلوغر مؤخراً، لكنه ترك

خلفه وثائق قديمة ومذكرات ترجع إلى سنوات الحرب. وقد أخبرني جاره أن ابنه غيرهارد قد باع كل متعلقاته لنوع من أسواق السلع المستعملة».

مال شنايدر إلى الخلف على كرسيه، ووضع يديه على مكتبه، وبدا أن صبره قد بدأ ينفد.

واصل إيريك حديثه بإصرار.

«لقد اشتريت مجموعة مذكرات بلوغر من تاجر بضائع مستعملة تعود أصوله إلى مكان ما في الشرق الأوسط لأن اسم أبي مذكور فيها».

وأخرج المذكرات والنسخ المصورة من حقيبته.

«إنها تظهر بلا شك أن أبي وهانز بلوغر قد عملا في البرنامج الذري خلال الحرب. لقد كانا يطوران سلاحاً نووياً لصالح هتلر».

توقع إيريك أن يصدر عن شنايدر أي رد فعل، لكنه هز كتفيه ببساطة.

«و؟».

«اقرأها بنفسك». وسلّمه إيريك الوثائق.

تصفح شنايدر الغلاف أولاً، ونظر إليه من دون أن يلاحظ ما كُتب عليه من نص.

«بناءً على سلوك صاحب المتجر، بدا لي أن ثمة شيئاً مثيراً للاهتمام جداً في هذه الوثائق؛ شيئاً لا يزال يثير الاهتمام إلى اليوم. لا أدري إن كان لما سأقوله أية علاقة بالأمر، لكن كارلا حفيدة بلوغر ذهبت إلى المتجر نفسه لتبحث عن متعلقات جدها هانز، وقد وُجدت الآن مقتولة».

رأى إيريك بصيصاً من الاهتمام على وجه شنايدر.

«هل هذا مرتبط بجدها بشكل ما، أم بوالدك؟».

«لا أدري. ليس بالضرورة، ولكن ربما. فثمة شيء واحد مؤكد، وهو أن موت أبي لم يكن حادثاً عرضياً».

«تلك القضية ليست من اختصاص قسمنا، لكنني سأطلب من زملائي في القسم المختص إجراء القليل من التحقيقات. إن موت كارلا بلوغر الذي ذكرته جدير بالملاحظة بكل تأكيد، لذا سنبقى على تواصل مع المجموعة

التي ستحقق في الأمر. أما هذه، من ناحية أخرى...» وأومأ إلى المذكرات الموضوعة على المكتب، وتابع: «لا يمكنني حقاً قول أي شيء بشأن مدى أهميتها. اعذرني، ولكن هل يمكنك الانتظار في البهو للحظة؟ أود إجراء بعض الاتصالات الهاتفية».

نهض إيريك وخرج إلى البهو، وقرر أن يتصل بكيت لكي يخبرها بآخر التطورات، لكنها لم تعطِه فرصة للكلام.

«لقد كنت أحاول الاتصال بك». قالت ذلك بصوت شبه باكٍ، وتابعت: «لقد كانت أمك هنا. ظهرت في غرفتي من دون سابق إنذار بينما كنت أقرأ أوراقها. لقد كانت غاضبة بشدة، ولم يسبق لي أن رأيتها هكذا من قبل قط. كما أنني واثقة أنك لم ترها هكذا أنت أيضاً. لقد هاجمتني أمام الولدين».

رمى إيريك بنفسه على الكرسي.

«كيف استطاعت أن تفاجئك هكذا؟».

«كيف؟». علا صوت كيت بغضب وقالت: «لقد دخلت إلى الفناء فحسب، وسألت الولدين عن مكاني».

«وما الذي حدث بعد ذلك؟». سألها إيريك وعيناه مغمضتان بينما كان يحاول استيعاب ما كان يسمعه؛ لقد جُن جنون أمه.

«أخبرتك! لقد اندفعت إلى داخل الغرفة بغضب، وسحبت الأوراق بعيداً عني».

«أتقصدين أن الأوراق بحوزتها الآن؟».

«أجل».

«كلها؟».

«حباً بالله! أهذا كل ما أنت قلق بشأنه؟ الأوراق؟ أجل، لقد كنت محقة. شكراً لك على سؤالك عني. في البداية، تطلب مني ارتكاب جريمة، ثم تتحدث فقط عن الوثائق الخاصة بأمك والتي ترجع إلى العهد النازي...».

وصمتت كيت، فبقي كل منهما صامتاً للحظة.

«آسفة، لم أقصد...»

«بلى، قصدتِ، ولا بأس في ذلك. أنا آسف يا كيت، فالأمر برمته... أنا مرتبك للغاية. أمي عاملتكِ كما لو أنكِ حثالة، وأنا سعيد لأنكِ والولدين بخير. كيت، هل ما زلتِ تسمعينني؟».

كانت هناك لحظة من الصمت.

«أنا هنا. لا أفهم كيف تحافظ على توازنك نسبياً وسط كل هذه الفوضى. أعتقد أن كلينا ظلمنا بعضنا، والوثائق...»

فقاطعها إيريك محاولاً أن يظهر نبرة ضحك حقيقية في صوته: «أهذا كل ما أنت قلقة بشأنه؟! الأوراق؟».

كان بإمكانه الاستماع باستمتاع إلى تذمر كيت في الجانب الآخر. وتذكر فجأة كيف كانت الأمور طبيعية يوماً ما بينهما، حتى في جدالاتهما، إلى أن تدخلت إنغريد وضغط الحياة وشركة غندو.

قالت كيت بنبرة جادة: «إيريك، تلك الأوراق تبدو كما لو أنها خرجت من الجحيم. لا أفهم سوى القليل من النصوص، لكنها تتحدث عن علم تحسين النسل، واستخدام اختبارات الدم لتحديد نوع العرق البشري، ودراسات عن التوائم وعن العيون».

باغته كل ذلك دفعة واحدة. لقد كان اهتمام أمه بدراساته وعمله في الشركة طوال السنوات الماضية، فضلاً عن الرواتب التي دفعتها للموظفين، والمال الذي دبرته... كان كل ذلك استكمالاً لعملها؛ ذلك العمل الذي بدأته في ألمانيا النازية. لقد عرف الجميع بشأن الصلة بين البحوث الخاصة بعلم الوراثة وتلك الخاصة بعلم تحسين النسل، لكن لم يتحدث أحد بشأن ذلك بصوت عالٍ. فكر في الاختبار التشخيصي الوراثي الخاص بهما، وكيف أنه قد يستخدم بشكل خاطئ...

قال شنايدر من حيث يقف عند مدخل الباب: «سيد ويليامز».

قال إيريك لكيت: «لا بد أن أذهب، فأنا في قسم الشرطة».

«إلى أين ستذهب؟».

«سأعاود الاتصال بك قريباً».

أنهى إيريك الاتصال وهو في عالم مختلف تماماً، ففاتته كلمات شنايدر، وانتبه إلى نظرات الاستغراب البادية على وجه الرجل.

«آسف، هل يمكنك تكرار ما قلته؟». قال إيريك.

«لقد تحدثت للتو إلى خبير في علم الفيزياء النووية ويدعى زفايغر، وهو مطلع على البحوث الذرية التي جرت في الحرب العالمية الثانية. إليك نسخاً عن المفكرة والوثائق، فنحن نرغب في فحص الأصول هنا لفترة من الزمن».

أخذ إيريك النسخ التي سلمه إياها شنايدر بعدم اكتراث.

«اترك بيانات الاتصال الخاصة بك، وسنتواصل معك عندما نسمع المزيد من البروفيسور زفايغر».

«سأستقل غداً الطائرة المتجهة إلى لندن». قال إيريك وهو يسلم شنايدر بطاقته. وكان يهم بالمغادرة عندما قال شنايدر: «تلك المدعوة كارلا بلوغر، ما مدى معرفتك بها؟».

«لا أعرفها على الإطلاق».

فجأة، ظهر رجل عند مدخل الباب وكأنه ظهر من العدم.

فقال له شنايدر: «سيرافقك إلى الخارج».

نظر مالك إلى بشير الذي كان يقف في ركن الغرفة. كانت حقيبة بطارية السيارة التي احتوت على الصندوق المصنوع من الرصاص على الأرض بجانب قدميه.

تنقل مالك بنظره عبر الغرفة، ولم يستطع رؤية أية حركة، فقد جمعت الريح سحباً ممطرة عبر السماء.

أومأ إلى بشير الذي التقط حقيبة البطارية بحذر، وحملها إلى سيارة من طراز أوبل فكترا متوقفة في الفناء وظهره منحنٍ.

فتح رشيد باب صندوق السيارة، فوضع بشير البطارية داخله بين مجموعة أخرى من أجزاء السيارة المبعثرة.

ثم ذهب لجلب البطارية الأخرى، وحملها إلى سيارة من طراز فولكسفاغن

باسات كانت متوقفة بجانب الأوبل. وقد كان صندوق سيارة الفولكسفاغن ممتلئاً بقطع الغيار نفسها الموجودة في السيارة الأولى.

وعندما تم تحميل كلتا البطاريتين عاد الرجلان إلى الداخل. توقف مالك بينما كان يتقدمهما إلى الداخل، ونظر إلى عيني كل منهما بحدة.

«هذه مسؤولية عظيمة. وإذا تم إلقاء القبض على أي منكما، فأنتما تعرفان ما يتعين عليكما فعله».

فبادلاه نظراته الجادة.

«لن يُقبض على أي منا». قال رشيد متذمراً. وكان قد بدل قميصه، وارتدى قميصاً أبيض متموجاً.

«أنا أثق بكما. معاً يمكننا حمل هذا إلى النهاية. رحلة سعيدة».

نظروا جميعاً إلى المكان الصامت في الخارج. ثم صعد راشد إلى سيارة الأوبل وقام بتشغيل المحرك فيها، بينما جلس كريم خلف مقود الفولكسفاجن وجلس بشير خلفه.

نظر مالك إلى الفناء بتمعن بعد أن خرجت السيارتان إلى الشارع.

رن هاتفه، فنظر إلى الشاشة، ورأى أن أهمار هو المتصل. هل سيطلب ذلك الأحمق المزيد من المال؟

لقد اتفقا على ألا يتصلا ببعضهما إلا لأمر هام.

«ماذا تريد؟». رد مالك باحتقار.

«حسبتك ترغب بمعرفة هذا الأمر. المذكرات التي اشتريتها عليها طلب، فقد أتى إلى متجري رجل بدا مهتماً بها للغاية».

جفل مالك. من الذي يعرف عن الأمر كي يسأل عن المذكرات؟ هل كان ذلك الرجل يعرف بمحتوياتها؟ أم كان مجرد شخص شغوف بجمع التذكارات النازية؟

سأله: «هل عرفت اسمه؟».

«ويليامز، إيريك ويليامز. ولقد سدد ثمنها ببطاقة ماستر كارد بلاتينوم من بنك إنجليزي، وهو بنك لويدز تي أس بي. لقد بدا وكأنه أكاديمي. فهؤلاء

الأشخاص يكون لديهم عادة الكثير من الاهتمام بهذا النوع من الأشياء».

ويليامز. تمتم مالك باللعنات في سره. ألم يكن تدخل ويليامز واحد كافياً؟

«أفترض أنك قد أخبرته أنه تم بيعها بالفعل، أليس كذلك؟».

«أجل».

«هل سأل أي أسئلة عن هوية الذين اشتروها؟».

«كلا».

كان بإمكان مالك أن يستشعر من نبرة أهمار أنه لا يقول الحقيقة. فقد كان رجلاً طماعاً.

«التزم باتفاقنا، ولا تخبر أحداً بشأني أو بشأن أي شيء آخر إلى أي كان. هل هذا واضح؟».

«بالطبع».

«ولا تتصل بي مجدداً، بل قم بمسح هذا الرقم».

«لا تقلق، فلن تسمع مني مجدداً». قال أهمار بكل تواضع.

(29)

جلست إنغريد على كرسي بذراعين وهي تتصفح الأوراق والظروف التي نُزعت عنها الأختام. كم أتيح لكيت من الوقت كي تقرأها؟ وما مقدار ما فهمته منها؟

رشفت إنغريد من كأس الشراب بضيق صدر، رغم أنها عادة كانت تتجنب تناول هذا النوع من الشراب. كانت قد قامت بتشغيل السيمفونية السابعة لبيتهوفن، فقد شعرت أنها بحاجة إلى سماع الموسيقى كي تمنحها القوة: كان من الصعب عليها الاعتراف بذلك، لكنها كانت تشعر بالارتياح بشكل ما لاكتشاف السر. فقد كان حملٌ ثقيلٌ من الأسرار يثقل كاهلها.

الصدمة الأكثر عنفاً هي تأثير ذلك في إيريك، وقد كانت على يقين من ذلك. كل ما عليها فعله فحسب هو أن تثق في ذكائه وقدرته على التفكير بعقلانية. فالذكاء والعقلانية ميزتان تتوفران بشدة لدى ابنها.

تصفحت الأوراق القديمة التي استدعت قدراً هائلاً من الذكريات والمشاعر. فقد تذكرت تسلمها شهادتها في قاعة أنيقة ذات سقف عالٍ مدهش وثريات، بينما جلس شبان وشابات وهم يكتسون بثيابهم الرسمية، كل ينتظر دوره. وقد أثَّرت النبرة الرسمية، بل وحتى الوعظية، للحدث على نظرتهم إلى أنفسهم، فقد كانوا النخبة المستقبلية في مجال العلوم، وقد قُدر لهم تغيير العالم. كانت إنغريد تندفع بفخر أثناء صعودها إلى المسرح لاستلام شهادتها من الدكتور فون فيرشور الذي كانت معجبة به بشدة حينها.

«أداء ممتاز يا سيدة ستورمار». قال البروفيسور وهو يصافح يدها: «أنتِ موهوبة، وأنتِ وعد بمستقبل أفضل».

كانت قد قررت بالفعل تكريس حياتها للعلوم، لكن كلمات فون فيرشور حسمت قرارها. ثم بدأت المعركة؛ فقد اختارت برنامج علم تحسين النسل،

وعملت كمساعدة لكارن ماغنوسن بينما كانت تكمل أطروحتها.

نظرت إنغريد بقلق إلى الرسوم البيانية المعدة بدقة، والتي استخدمت لتوضيح الأساس الوراثي للون العين، والتي كانت قد ضحت بقدر هائل من الوقت في العمل عليها.

أعادت الأوراق إلى داخل الظرف مجدداً وهي تتنهد، ثم أخرجت قصاصة من مجلة تعود إلى بضعة شهور مضت. تنقل «الصحيفة الأميركية لعلم الوراثة البشرية» عن باحث في جامعة كوينزلاند قوله إن لون عين الإنسان يتأثر بشكل أساسي بواسطة جينين، وليس جيناً واحداً فقط كما كان يُعتقد من قبل. كان ثمة جين مسؤول عن تكون العيون ذات اللونين الأزرق والبني، وآخر مسؤول عن العيون ذات اللونين الأخضر والبندقي. كما كانت هناك أيضاً جينات أخرى أثرت في هذه العملية؛ وهو ما يعني أن الآباء ذوي العيون الزرقاء يمكنهم أحياناً إنجاب أطفال ذوي عيون بنية.

كم كانوا سيوفرون قدراً هائلاً من الوقت والمعاناة إذا عرفوا بهذا فقط عندما كانت في القسم. لقد كان كل من فون فيرشور ومنغيل يشعران بالقلق الشديد في كل مرة يحصلان فيها على أطفال توائم ذوي عيون بنية من أبوين ذوي عيون زرقاء.

عاودت تصفح الورق القديم. كانت التجارب غير الأخلاقية على البشر قد تواصلت بعد الحرب أيضاً، ولكن ليس في ألمانيا. نظرت إلى الاستمارات المملوءة ببيانات الأشخاص الخاضعين للاختبار؛ تاريخ الميلاد، الأمراض التي أصيبوا بها سابقاً، الأمراض لدى الأهل. وقد رأت خط يدها؛ أرقاماً وحروفاً وتواريخ وأماكن.

الثالث من مارس من العام 1946، روتشستر، نيويورك. جانيت ستادت، امرأة بيضاء في الحادية والأربعين من عمرها، رمز سلسلة الاختبار HP–8.

بمجرد دخولها هي ورولف أميركا، أتيحت لهما الفرصة لتوضيح النتائج التي تم التوصل إليها في دالم حول تأثير الأشعة الإشعاعية على جسم الإنسان للعديد من الباحثين. لقد كان كل شيء مرتبط بهذا الموضوع سرياً للغاية في

الولايات المتحدة؛ على الرغم من أنه قد تمّ بالفعل إلقاء القنابل على هيروشيما وناغازاكي. ولم تكن قد أخبرت أحداً حينها بأنها استولت على بعض الوثائق سراً من قسم علم تحسين النسل في برلين.

كان قد مضى عليها هي ورولف أكثر من بضعة أشهر لم يذهبا خلالها إلى فورت بليس عندما صدرت لها الأوامر بتحويل الكلمات إلى أفعال. لقد كان لدى الأميركيين اهتمام كبير بمقدار السرعة التي ينتشر بها كل من «العنصر 94» الذي أطلق عليه اسم البلوتونيوم، ونظير اليورانيوم 235 في الجسم، وأي الأجزاء من جسم الإنسان يجري اختزانهما بها، وما هي الآثار الضارة المترتبة على التعرض لهما.

ساهمت إنغريد في الاختبارات التي قادها قسم سري في مشروع مانهاتن التابع لجامعة روتشيستر. تذكرت يوماً ممطراً في فصل الخريف في مستشفى سترونغ ميموريال عندما بدأت الاختبارات. حيث تم حقن جرعة تبلغ خمسة مايكروغرامات من البلوتونيوم في مجرى الدم الخاص بتسعة عشر مريضاً. وقد كانت الجرعة أكبر بخمسة أضعاف مما اعتبر خطراً على صحة البشر. وقد ثبت أن ميكروغراماً واحداً أو ميكروغرامين من الراديوم لهما تأثير خطير على العمال الذين قاموا بطلاء عقارب الساعة المضيئة. ولكن، على عكس الراديوم، لم يسبب البلوتونيوم انبعاثاً لأشعة جاما، لذا لم يكن من الممكن قياسه بعداد غايغر.

لم يكن الخاضعون للاختبارات يعلمون أنه يتم حقنهم بالبلوتونيوم. تذكرت إنغريد جيداً المرأة النحيفة والشاحبة، جانيت ستادت، التي كانت تعاني من مرض جلدي مزمن. المريضة HP-8 الخاضعة للاختبار منتج بشري. كان معظم المرضى الآخرون من الرجال، وكان العديدون منهم من ذوي البشرة السوداء.

تجمع البلوتونيوم في عظام وأكباد الخاضعين للاختبار. والأسوأ هو أن مخزون الجسيمات المنبعثة من قبل أشعة ألفا يمكنه المرور إلى خلايا جذعية رقيقة. لقد كان الخاضعون للاختبارات مرضى بالفعل، لكن إجراء الاختبارات

تطلب أن يكون لديهم كبد وكليتان تعمل بشكل طبيعي. عندما وضعت إنغريد عينات البول والبراز والدم وعينات أخرى في صندوق خشبي كي يجري نقلها إلى لوس ألاموس، كانت تتذكر بوضوح صناديق العينات القادمة من أحد السجون قبل عام مضى.

كما ساعدت إنغريد في إعداد تقرير الدراسة الذي كان عنوانه «الدورة الدموية والحقن الوريدي للبلوتونيوم في الأعضاء البشرية». كان التقرير سرياً بالطبع. ولكن، رغم ذلك، كانت ممتنة لأن المسؤولين عن الدراسة– رايت لانغام وساموبل باسيت– هما اللذان وُضع اسماهما عليها فقط.

في دراسة لاحقة أجريت في شيكاغو، تمت زيادة جرعة البلوتونيوم إلى خمسة وتسعين ميكروغراماً، أي ما يقارب مئة ضعف الجرعة التي تعتبر آمنة. كان من بين المرضى الخاضعين للاختبار ثلاثة أطفال. لم تكن إنغريد لتصدق أن الأميركيين سيقومون بمثل تلك الأبحاث المشكوك فيها من الناحية الأخلاقية، لكنها تفهمت الضغط الواقع عليهم، فقد كان تطوير القنبلة الذرية ينتشر بسرعة، وكان من الضروري أن يحددوا نوع المخاطر التي سيضعها على العمال، وذلك من أجل تجنب أي دعاوى قضائية لاحقة، ناهيك عن الحاجة إلى معرفة ما سيحدث عند استخدام قنبلة ذرية.

لم يكن رولف دوماً يشعر بالراحة بشأن تلك الاختبارات، وبشأن القنبلة الذرية وعمله على الصواريخ الموجهة. ولم يستوعب حقاً ما كان يفعله إلا بعد ما حدث في هيروشيما وناغازاكي. وقد حاولت إنغريد إقناعه بأنه حتى لويس باستور قد استخدم عناصر بشرية في تطوير البنسلين. وأن والتر ريد قد قتل العديد من الخاضعين لاختباراته عندما كان يطور لقاحاً للحمى الصفراء التي ينقلها البعوض، لكنه في المقابل أنقذ آلاف الأرواح، وجعل من بناء قناة بنما أمراً ممكناً.

ولكن، ما كان أي جدال ليجدي نفعاً معه. ففي النهاية، تسبب سلوك النفاق الذي يتبعه الأميركيون في فقدانه الثقة تماماً في العمل على خدمة «العالم الحر».

أما إنغريد فقد استمتعت بوطنها الجديد. فقد التقت علماء تحسين النسل الذين يطلقون على أنفسهم اسم أخصائيي علم الوراثة. وبفضل علاقات قديمة مع بعض الأشخاص، وعدة باحثين في مجال الإشعاع، تمّ تعيينها في مشروع في جامعة فاندربيلت في ناشفيل. كان المشروع الذي بدأ في خريف العام 1945 قد تم تمويله من قبل مؤسسة روكفلر الشهيرة، واشتمل على منح ثمانمئة من النساء الحوامل في المستشفيات «محلولاً مغذياً» لشربه، والذي اعتقدت أولئك النساء الحوامل أنه جيد لصحتهن وصحة أطفالهن.

ولكن في الواقع، كان الشراب عبارة عن حديد إشعاعي. وبعد مرور ساعة على استمتاعهن بالشراب، كان سينتقل عبر مجرى الدم الخاص بهن إلى الرحم، وسيعبر إلى مجرى الدم الخاص بالجنين. وفي زيارات لاحقة، تم إجراء اختبارات على الدم لتحديد معدل امتصاص الشراب. وقد أصبح بعض الأطفال الذين ولدوا مرضى بعدة أنواع من السرطانات خلال سنوات قليلة من أعمارهم، وهو ما لم تتم ملاحظته على مجموعة التحكم.

وبفضل علاقاتها القديمة مع العاملين في مجال علم تحسين النسل، سمعت إنغريد أيضاً بشأن بعض الأبحاث المشكوك فيها بشدة في مدرسة فيرنالد، وهي مؤسسة خاصة بالفتيان المصابين بالعته، والتي كانت محط اهتمام خاص بالنسبة إلى علماء تحسين النسل منذ العشرينيات. وفي العام 1946، بدأت دراسة متعددة السنوات هناك، وبسببها حاز الباحثون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا على الثقة في ما يتعلق بفكرة عزل هؤلاء الفتيان، ودشنوا «أندية للعلوم» خاصة بهم. وقد حصل الفتيان على أربعٍ وسبعين ساعة ميكي ماوس وهدايا أخرى، وتم اصطحابهم إلى مباريات البيسبول مقابل أكلهم كعكاً من الشوفان معداً خصيصاً لهم كل صباح. وقد عقد الفتيان صداقات مع مضيفيهم في «نادي العلوم»، غير مدركين أنهم يحصلون على نظائر مشعة مع وجبات الفطور والتي تقاس بشكل منتظم عبر اختبارات الدم.

كانت إنغريد تشعر بالفزع من استغلال ثقة الأطفال في التجارب، وما زال ذلك يشعرها بالفزع.

وضعت الظروف جانباً، وفكرت في ما ستقوله لإيريك. كان من الواضح أن نوع المعلومات التي رأتها كيت كان كافياً لإغضاب كل منهما.

حرك مالك ضوء المصباح في أنحاء الشقة الفارغة الواقعة في باردنيتز جنوب برلين، والتي بدت وكأن أحداً لم يسكن فيها من قبل. فورق الجدران كان متعفناً وفي حالة يرثى لها، وانتشرت خيوط العنكبوت كالأشباح في المنطقة المحيطة بأُطر النوافذ. ولم يكن ثمة صوت إلا صرير الأرضية الخشبية القديمة أسفل قدميه، والحفيف الغريب لفروع الأشجار على الجدار الخارجي للمنزل.

كان مالك قد جمع ما تبقى من ملابس المجموعة في سيارته، ونظف المكان بعناية شديدة. كان الشيء الوحيد الذي لم يكن في مكانه في البيت المجهول هو تذكرة الطائرة الموضوعة على الطاولة.

التقط التذكرة، وتحقق من توقيت الرحلة المتجهة من برلين إلى لندن مجدداً، وأرسل رسالة إلى نظمي حلبي كي يعرف متى يقله من مطار هيثرو.

لم تتوقف مكالمة أهمار عن شغل تفكيره. لقد كان ابن رولف ويليامز يبحث عن المذكرات، وقد أزعجته تلك الفكرة حقاً. لقد كان أهمار يعرف شيئاً عن قيمة محتويات تلك المذكرات، وكان رجلاً جشعاً.

يا له من أمر سيئ!

سيئ للغاية.

قرر مالك أن يقوم بزيارة إلى أهمار قبل مغادرته إلى لندن.

(30)

كانت البنايات المنزوية الخاصة بحرم الجامعة التقنية في برلين بارزة في ضوء المساء عبر الجدران الزجاجية الكبيرة. سار إيريك خلف المفتش شنايدر نزولاً على الدرجات الواقعة أمام صالة الاحتفالات. كان شنايدر قد اتصل به واقترح أن يلتقيا في الجامعة.

تجاوزا الطلاب الذين يغادرون المحاضرة التي انتهت للتو، وشاهدا رجلاً مرتدياً بذلة بالية أسفلهما يحزم حقيبته أمام السبورة.

«البروفيسور زفايغر؟». سأله شنايدر.

فاستدار الرجل وهو يحمل حقيبته بيده وأومأ برأسه.

قال شنايدر: «سأدخل مباشرة في صلب الموضوع. أنت خبير بارز في مجال تاريخ الفيزياء النووية في ألمانيا. وكما أخبرتك عبر الهاتف، نود معرفة رأيك حول بعض قصاصات هي عبارة عن مذكرات».

أخرج شنايدر المادة التي أعطاه إيريك إياها في وقت سابق من حقيبته.

«تخضع الوثائق الأصلية لدراسة أولية في معملنا. وليس هناك– في الوقت الراهن– ما يشير إلى أن تواريخها مزيفة. ويمكن للسيد ويليامز أن يصف بإيجاز إلى من تعود تلك المذكرات».

فسأله إيريك: «هل سمعت عن عالم الفيزياء النووية هانز بلوغر؟ لقد عمل في شركة سيمنز من بين أماكن أخرى إبان الحرب».

«لم أقرأ من قبل عن أي شخص يدعى بلوغر، ولكن هذا لا يعني أي شيء. فخلال الجزء الأخير من الحرب، تم تدمير عدد كبير من الوثائق المتعلقة بأبحاث اليورانيوم، إما عمداً أو خلال القصف. والباحثون الوحيدون الذين نعرف بشأنهم هم البارزون فقط».

«لقد كان الدكتور بلوغر زميلاً لوالدي. وقد علمت مؤخراً أن والدي–

رولف ويليامز- قد عمل كعالم للفيزياء هنا في برلين إبان الحرب. وفي ذلك الوقت، كان يستخدم اسمه الفنلندي الأصلي نارفا. هذا الاسم على الأرجح لا يعني أي شيء لك أيضاً، أليس كذلك؟».

نظر البروفيسور إلى إيريك باهتمام، ثم مد يديه وقد بدت عليه ملامح الاعتذار: «للأسف، كلّا».

وبحث عن نظارته في جيبه، ووضعها، ثم بدأ بتصفح الوثائق.

قال شنايدر: «يصف الدكتور بلوغر نشاطاته إبان الحرب في هذه المذكرات. ومن بين أشياء أخرى، إنه يعطي تفاصيل دقيقة حول تجميع مفاعل للاختبار في دالم وغوتو، ولاحقاً في ستادتلم».

قرأ البروفيسور النسخ بانتباه وتمتم: «هذا مثير للاهتمام للغاية، فنحن لا نعرف إلّا القليل جداً عن برنامج هتلر الخاص باليورانيوم. وقد تمّ مؤخّراً الكشف عن بعض المعلومات من أرشيف مدينة موسكو تشير إلى أن البرنامج كان متقدماً أكثر مما كان يعتقد من قبل، كما أن كيرت دينر قد أنجز أكثر مما أنجزته مجموعة هايزنبيرغ التي حصلت على دعاية أكبر، وأن مجموعة أس أس تحت قيادة هانز كاملر الذي حصل على أفضل المصادر ليعمل بها قد تجاوزتهم جميعاً».

قال شنايدر: «كما تصف المذكرات أيضاً عملية تخصيب اليورانيوم بالتفصيل. هل يحتمل أن شخصاً ما في الوقت الراهن يمكنه أن يستخدم هذه المواصفات الفنية لأغراضه الخاصة؟».

«أشك في ذلك. فقد كان تخصيب اليورانيوم إلى مستوى استخدامه في الأسلحة إحدى أصعب العقبات أمام البرنامج الذري وقت الحرب. كانت الوسائل المتبعة حينها صحيحة بشكل مبدئي؛ أي استخدام الانشطار واستخدام أجهزة الطرد المركزي من بين وسائل أخرى، ولكن هناك معلومات متقدمة أكثر بكثير متاحة اليوم».

نقّل زفايغر نظره عبر الوثائق أثناء حديثه وقد بدت عليه الحماسة.

وقال مجدداً: «هذا مثير للاهتمام بشدة. فليس هناك حقاً أي توثيق للأعمال

الأولى التي قام بها دينر. هذا كشف هام. فإذا كانت هذه الوثائق حقيقية، فإن لدينا فرصة لا تقدر بثمن لإلقاء نظرة على أنشطة المجموعة. ولكن، ليست هناك مدعاة للقلق من أنه قد تكون هناك معلومات بينها يمكنها أن تشكل خطراً اليوم».

وافق كل من إيريك وشنايدر على إرسال الوثائق إلى زفايغر لاحقاً، ثم قاما بشكره وانصرفا.

كان الجو في الخارج دافئاً ورطباً. وكانت هناك مجموعات من الطلاب الذين يتجاذبون أطراف الحديث عبر الحرم الجامعي.

قال إيريك بينما كان يصعد إلى سيارة شنايدر: «بدا لي أن فاخر أهمار لديه المزيد من المذكرات، وأنا أنوي الاستحواذ عليها كلها».

«لا بد أن ماضي والدك قد فاجأك بشدة». قال شنايدر بنبرة متعاطفة أثناء تشغيله محرك السيارة.

أومأ إيريك بالموافقة فقط، إذ لم يرغب بأن يخبره أن خلفية أمه تشكل صدمة أكبر.

«لقد تم التعامل مع المسألة بالقدر الذي تعنى به إدارتي». واصل شنايدر حديثه بينما كان يقود: «إن قيمة المادة تاريخية أكثر منها تقنية».

«على الأقل، إنها لا تغير اعتقادي أن موت والدي لم يكن حادثاً عرضياً».

«لم يظهر أي شيء إلى النور قد يجعلنا نفترض أن موت والدك كان ناجماً عن جريمة قتل». قال شنايدر بتأكيد وبشكل مهذب. «لكن زملائي في القسم الجنائي سيتخذون قرارهم بناءً على الدليل المتاح».

كان إيريك منزعجاً من حديث شنايدر الذي لم يخبره بأي شيء حقاً.

بعد أن ودّع إيريك شنايدر أمام محطة قطار إرنست رويتر بلاتز، أخرج بطاقة الأعمال الخاصة بفاخر أهمار واتصل به، فعرّف بنفسه ودخل صلب الموضوع مباشرة.

قال: «أنا مهتم بشراء المزيد من المواد المكتوبة من بين أغراض السيد بلوغر، بما في ذلك المذكرات الأصلية».

ساد الصمت على الخط في البداية، ثم قال أهمار: «أنا آسف. لقد كان المشتري الآخر الذي ذكرته لك هنا منذ قليل، واشترى ما تبقى منها».

تمتم إيريك باللعنات في سره.

واصل فاخر كلامه بنبرة ودودة: «لكنني أخذت نسخاً من معظمها، وهي بالطبع معروضة للبيع. السعر هو ألفان وخمسمئة يورو لكل مذكرة».

يا لي من أحمق! فكّر إيريك في سرّه.

«من يكون ذلك المشتري الآخر؟».

«لا يمكنني أن أخبرك بذلك، فبيانات الزبائن سرية».

«سآتي لأخذ النسخ الآن».

«سأكون خارج المتجر حتى التاسعة من صباح الغد. وسأحفظها لك جانباً إلى ذلك الحين».

ذكّرته الرائحة المنبعثة من كشك بيع السجق المجاور بأنه لم يأكل منذ مدة طويلة، فاشترى طبق «الكوريفيرست» الشهير محلياً. وكان قد أكل نصفه عندما رن هاتفه. أشار الرقم الظاهر على الشاشة إلى أن الاتصال قادم من السويد.

«مرحباً، أنا دانييل بيرغمان، محامٍ من ستوكهولم. أهذا ابن رولف ويليامز الذي يتحدث؟».

أجاب إيريك بدهشة: «أجل».

«أدرك أن هذا وقت صعب بالنسبة إليك، ولكنني أود تحقيق أمنية والدك كما طلب مني عندما كان حياً».

«أية أمنية؟». سأل إيريك باستغراب ومسح فمه بمنديل.

«لقد طلب مني أن أتصل بك بعد موته، وأن أعطيك رسالة تركها لك بحوزتي».

«رسالة! أية رسالة؟».

«لا أعرف محتوياتها. إنها عبارة عن ملف كبير محشو. وحسبما يبدو لي، إنه يحتوي في داخله على أكثر من مجرد أوراق. كيف يمكنني أن أصل

إليك؟».

أصغى إيريك بذهول وهو يفكّر: ما الذي تركه له والده؟ هل كان لديه شعور بشأن شيء ما قبل أن يخوض رحلته إلى برلين؟

«متى أعطاك والدي الرسالة؟».

«قبل سنوات».

كان ذلك مصدر راحة لإيريك من ناحية، ومصدراً لخيبة الأمل من ناحية أخرى.

«لكنه طلبها عدة مرات مؤخراً، وكان يعيدها إليّ في اليوم التالي. أظن أنه كان يضيف إلى محتوياتها».

«أنا في برلين في الوقت الراهن، لكنني سأعود إلى وطني إنجلترا غداً. يمكنك أن ترسلها لي عبر خدمة البريد السريع».

«يفترض بي تسليمك إياها بشكل شخصي».

ورغم أنه اعترض في البداية، إلا أن المحامي وافق على طلبه؛ شرط أن يتصل به إيريك حالما يستلم الرسالة.

عندما أنهى المكالمة، نزل إيريك السلالم المؤدية إلى مترو الأنفاق، وكاد يسقط فوق متسول يضع بطانية رثة ويمسك بكوب من الورق في يده.

حاول إيريك أن يركز أفكاره على ما يتعين عليه فعله، ولكن من دون جدوى. ربما سيخبره والده في هذه الرسالة بالحقيقة التي لم يمتلك الشجاعة لإخباره بها وجهاً لوجه عندما كان حياً. هل الأشياء التي كشف عنها لها أية علاقة بوالدة إيريك؟

ستغادر الرسالة ستوكهولم غداً، لذا ستصل إلى وجهتها النهائية بعد ظهيرة اليوم التالي. كانت الأفكار تتسارع في عقل إيريك لدرجة أنه لم يلاحظ في البداية أن هاتفه يرن. بحث عن هاتفه، وسار إلى مكان مجاور لمتجر الكعك منخفض المستوى للرد على الاتصال.

اتصال آخر من ستوكهولم، ولكن هذه المرة من المؤرخ فاغرسترام.

قال فاغرسترام: «لقد تصفحت معظم الكتب. وقد بدا لي في بادئ الأمر

أنني لن أعثر على أية إشارة إلى إنغريد ستورمار، ولكنني مررت بعد ذلك على كتاب ألماني عنوانه «الطب الألماني في عهد الرايخ الثالث». وبداخله، ثمة مرجع صغير ولكنه مثير للاهتمام جداً».

فجأة، شعر إيريك بالنفور أكثر من شعوره بالاهتمام بما هو على وشك أن يسمعه.

«ذُكر في الكتاب أن باحثة تدعى كارن ماغنوسن قد عملت في قسم التناسل الانتقائي التابع لمؤسسة القيصر ويلهلم الذي أداره البروفيسور فون فيرشور بدءاً من العام 1942. وقد تخصصت في أبحاث الوراثة الخاصة بالتوائم، وخاصة بحوث العيون. وقد قرأت عنها من قبل، وقد حصلت على المواد الخاصة بأبحاثها من جوزيف منغيل. لكنه يذكر أن كارن ماغنوسن كانت لديها مساعدة سويدية شابة تدعى إنغريد ستورمار.

أغمض إيريك عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، ثم قال بصوت أجشّ: «أيقنت أنه عليّ أن أتوقع شيئاً كهذا. ولكن، ليس هكذا بالضبط. هل ذكر أي شيء آخر عنها؟».

«كلّا، هذه الإشارة فحسب».

«سأتصل بك بعد قليل؛ فأنا الآن في حالة سيئة نوعاً ما...»

أنهى الاتصال، ووقف بلا حراك للحظة، ثم باغتته موجة عنيفة من الغثيان، فاندفع إلى أعلى السلم المتحرك وتقيأ في سلة للنفايات.

(31)

يمر طريق A40 السريع عبر الأراضي الزراعية الواقعة غرب ألمانيا بالقرب من الحدود الهولندية. وقد كانت حركة السير تتحرك بسرعة.

نظر راشد إلى مرآة الرؤية الخلفية لسيارة الأوبل، وحاول أن يتبين مكان سيارة الفولكسفاغن التي يستقلها كريم وبشير في طابور السيارات خلفه. نظر إلى عداد السرعة الذي كان يشير إلى سرعة 130 كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة متوسطة. لم يكن عادة يفكر بشأن خطر وقوع حادث عندما يقود السيارة، لكنه الآن لا يقوى على التفكير في أي شيء آخر سوى ذلك.

فجأة، لاحظ شيئاً ما داكناً وناعماً على كم قميصه. هل هذا ممكن؟ هل وقع بعض غبار اليورانيوم على ملابسه؟ سرت موجة من الهلع في جسده، وخلال ثانية كان غارقاً في العرق. هل كانت ثمة فجوة بين القفاز والكم في بذلة الإشعاع الخاصة به؟

وفيما كان في حالة الهلع تلك، ترك مقود السيارة، ونفض الغبار عن ذراعه. وبينما كان يفعل ذلك، قام عن طريق الخطأ بهز يده الأخرى التي كانت لا تزال ممسكة بالمقود، فانحرفت السيارة إلى اليسار، وكادت تصطدم بسيارة بورش تسير بسرعة على مسرب المرور المجاور له، فأعاد السيارة إلى مسرب المرور المخصص له في لمح البصر، وسمع أبواق السيارات خلفه. وكان يأمل ألا يتصل أحد بالشرطة ويبلغ عنه بحجة القيادة المتهورة.

لم يعد يرى أي غبار على كمه الآن. كيف استطاع أن يكون بهذا الغباء الشديد ويحاول نفض الغبار؟ فإذا كان هذا يورانيوم فعلاً، فكل ما فعله هو أنه نشره في الهواء وداخل رئتيه.

كلّا، لقد كانت الفكرة بأسرها مثيرة للسخرية. هل كان الإجهاد والقلق ينالان منه.

ظهرت سيارة الفولكسفاجن إلى جانبه. نظر راشد إلى الجانب ورأى كريم وبشير يحدقان إليه بعينين واسعتين. هز كريم رأسه ببطء، وحاول راشد أن يمنحهما نظرة تؤكد لهما أن كل شيء تحت السيطرة. وأشار لهما بأن كل شيء على ما يرام. فزادت الفولكسفاغن من سرعتها، واختفت بين السيارات المتقدمة.

سريعاً، رأى راشد لافتات أخبرته بأنه يقترب من الحدود الألمانية الهولندية، فخفّف من سرعته. لم تكن هناك كاميرات لمراقبة الحدود، ولكن كانت هناك نقاط تفتيش تظهر بين فينة وأخرى.

قاد السيارة عبر النقطة الحدودية المهجورة. كانت محطة التوقف التالية في فينلو التي كانوا يخططون لشراء شيء ما ليأكلونه منها، كما كان أخذ قسط من الراحة فكرة جيدة. كانت لا تزال أمامهم مسافة طويلة ليقطعوها، فالمسافة إلى كالايس وشواطئ القناة الإنجليزي تبلغ ثلاثمئة وخمسين كيلومتراً.

سار إيريك باتجاه الفندق وهو يضع هاتفه على أذنه، متفادياً اللافتات الإعلانية الموضوعة على الرصيف.

قال لكيت بصوت خشن ومجهد: «لقد اتصل فاغرسترام. لقد وجد إشارة في كتاب ما تقول إن ثمة متخصصة في مجال الصفات الوراثية للعيون في التوائم والتي كانت لديها مساعدة شابة تدعى إنغريد ستورمار. وقد حصلوا على المواد الخاصة بالأبحاث من أحد السجون الكبرى. ومنغيل هو الذي أرسل المواد، كي أكون دقيقاً».

«ليس هناك ما يمكنك فعله بشأن ما فعله والداك في الماضي. لا يمكنك...»

«لقد كان كل من أمي وأبي جزءاً من الحكومة النازية. لم يكونا مجرد متفرجين سلبيين أو مرغمين على المشاركة، بل كانا مساهمين فاعلين. لقد كانا يكذبان عليّ بشأن ذلك طوال تلك السنوات».

«لقد أرادا حمايتك، وأن يحولا دون معرفتك حقيقة من الصعب جداً

إدراكها وفقاً لأي تفكير منطقي كان؛ حتى بالنسبة إليهما».

«حقاً! إذاً، لمَ تود أمي مواصلة أكاذيبها؟».

التزمت كيت الصمت في الناحية الأخرى.

رد إيريك على سؤاله قائلاً: «السبب هو أنني كنت بمثابة وسيلة لاستكمالها عملها، وأداة بين يديها. أتذكر كم كانت تبدو سعيدة عندما كنت أظهر أي اهتمام بعلم الأحياء...»

ارتجف صوت إيريك وهو يتابع: «إن برنامجنا الخاص بإعداد الخريطة الجينية هو استكمال لما عملت عليه طوال حياتها. إنه حلم لدى عالمة متيمة بعلم تحسين النسل...»

وانخفض صوته، وأصبح يهمس بصوت أجشّ: «هل لا تزال لدى إنغريد خطة ما؟ هل لاحظتِ؟! لا أود مناداتها أمي بعد الآن».

«اتصل بها، وتحدث إليها مباشرة بلا مراوغات. فما عاد بمقدورها إخفاء أي شيء بعد الآن».

«سأجري بحثاً عن بعض الأمور أولاً، فأنا أود معرفة الحقيقة عندما أتحدث إليها».

توقف إيريك عند ضوء إشارة المرور. وعلى الجانب الآخر من الشارع، وقف رجل شعره أبيض في مثل عمر أبيه تقريباً منتظراً. كان كلما رأى شخصاً ألمانياً في مثل عمر أبيه، أُجبر على التفكير في ما كان يفعله وقت الحرب. كان بعضهم مجندين سابقين لدى وحدة أس أس، أو عملاء للشرطة السرية، أو جنوداً، وعمل بعضهم على استلام المعتقلين. هكذا كان يظن.

قبل أن يتزوج، كان يواعد شابة تدعى جوتا، وقد كانا يتحدثان عن الشيء نفسه. كان جدا جوتا قد عاشا في بايرن وذهبا كضحيتين عاديتين للحرب، كما فقدا ابناً ومنزلهما ومخبزهما، واضطرا إلى بدء حياتهما من جديد بعد الحرب.

عاد إيريك إلى الفندق وهو يشعر بالإرهاق والاضطراب. كان يعلم أن حياته لن تعود كما كانت من قبل.

جلس على كرسي بذراعين في ركن غرفة الفندق الباردة. لقد كان جلياً

للغاية أن الأبحاث والخدمات التي يقوم بها هو وشركته تبدو خطيرة. كما أن كل الأعمال الصالحة التي ظن أنه كان يقوم بها عبر السنين يمكن النظر إليها على أنها أعمال شريرة. فحياته المهنية العلمية وحياته بأسرها كانت خاضعة لتوجيهات امرأة كانت جزءاً من أكثر الأبحاث العنصرية فظاعة في التاريخ؛ فقد كانت زميلة لجوزيف منغيل. لقد كان أمثالهما من الأطباء والعلماء هم الذين ساهموا في ارتكاب تلك الفظاعات التي لا توصف. ببساطة، إنهم النسخة الساخرة والبشعة للعلماء الحقيقيين.

لم يكن ثمة سبيل للهرب. لقد كان يرغب بمعرفة كل شيء مهما كان ذلك مؤلماً. استجمع قواه للحظة، ثم بدأ يقرأ نسخة يعود تاريخها إلى العام 1942.

الثالث من مارس، لقد ذهبت إلى ليبزيغ مرات عديدة على متن القطار برفقة رولف وغيرهارد. لقد كان مفاعل الاختبار L-IV الكائن في هايزنبيرغ والذي شُيد في الشهر الماضي بمثابة تقدم حقيقي كبير. فقد زادت النيوترونات بنسبة ثلاثة عشر بالمئة. ورغم ذلك، سمعت الإدارة تقول إن هذه ليست زيادة كبيرة، وإن هتلر يعد لاستخدام كمية هائلة من الموارد الصناعية في هذا المشروع.

قفز إيريك إلى الأمام عدة صفحات، ووصل إلى أبريل من العام 1943.

تعرضت برلين لقصف عنيف، ويجري نقل الوحدات تدريجياً لتأمين سلامتها. لا يزال استخلاص نظائر U-235 يمثل مشكلة، ووالدة كاثرينا مريضة، وقد ذهبنا إلى زيارتها في عطلة نهاية الأسبوع.

قلب إيريك الصفحات. لقد أصبحت التدوينات أقصر، وغدا خط اليد أصعب في القراءة. وصل إلى بداية أغسطس من العام 1943.

بدأت أحلم بنظائر U-235. وقد واجهت أعمال تطوير النابذة فائقة السرعة في كيل نكسات طوال فصل الصيف. ففي البداية، حدث تسرب بين الطبقات، ثم انفجرت أسطوانة الدوار. وقبل أسابيع قليلة، جرى نقل المشروع بأكمله إلى فريبيرغ، وبعد ذلك تعرضت كيل للقصف.

وفقاً لما يجري تداوله من إشاعات، فإن مصنع IG Farben لإنتاج المطاط الصناعي في مونوفيتز منشأة لتخصيب اليورانيوم تابعة لوحدة أس أس، ولكننا لسنا مطلعين على آخر تطورات نجاحاتهم وذلك لتشجيع تحقيق تقدم على الجبهات كافة.

بدأ عقل إيريك في تكوين صورة لشابين بالغين في مكان ما في هذه المدينة، اللذين درسا وتخرجا وعملا وعلى ما يبدو تزوجا فيها، وعاشا لسنوات حياة لا يعرف إيريك عنها شيئاً.

لقد كانت الفكرة مهينة، ولكنها مدهشة في الوقت نفسه. قبل أن يلتقي جوتا، كان تعامل إيريك مع الألمان محدوداً. كان أول ما تذكره بشأن ألمانيا برنامجاً وثائقياً تلفزيونياً عن المحاكمات الخاصة بجرائم الحرب. وقد شاهد إيريك لاحقاً في الفيلم وجه رجل متهم يجلس على مقعد، وتساءل كيف استطاع أحد ارتكاب مثل هذه الفظائع الغامضة.

فكر ملياً في المكان الذي شاهد فيه هذا الفيلم بالضبط؛ لأنه لم يشاهده في المنزل. هذا صحيح، لقد كان ذلك في منزل أحد الأصدقاء، ربما يكون هاري دايسن. إذ لم يكن والده يريد منه أن يشاهد أفلاماً عن الحرب، ولا حتى برامج وثائقية، فقد كانت تغضبه بشدة.

كان قد سأل جوتا عما يشعر به الألمان عندما يشاهدون أفلاماً حربية من إنتاج هوليوود، فقالت جوتا: «لا شيء». لكن إيريك لم يصدقها.

لقد كان يريد أن يعرف بشكل أكثر تفصيلاً عن حياة أبيه وأمه في ألمانيا. كان يود رؤية الوثائق التي اطلعت عليها كيت بأسرع وقت ممكن، وأن يتحدث إلى أمه وجهاً لوجه؛ على الرغم من أن هذه الفكرة قد أقلقته بشدة.

عاد إلى مطالعة اليوميات، عند يوم الحادي عشر من نوفمبر من العام 1943.

أخيراً! نجحنا في زيادة كمية النيوترونات المستخلصة بنسبة ستة في المئة. إن المجموعة بأسرها مرهقة من العمل تماماً، ولكن لا أحد يفكر في الاستسلام. ولا تزال عمليات القصف تزداد ضراوة. لقد ذهبت أنا ورولف لقياس بعض الحفر التي أحدثتها قنابل الحلفاء الفعالة بشكل مدهش بمقياس

غايغر مولر، وذلك كي نتأكد فقط من أن العدو لا يمتلك أي قنابل انشطارية صغيرة بين ترسانته. ولكن لحسن الحظ، لم نجد أي آثار للإشعاعات.

وضع إيريك الورقة على حجره.

العدو...

كانت الكلمة منفرة. قرر ألا يتحدث إلى أمه إلى أن يتمكن من فعل ذلك وجهاً لوجه، لكنه لم يكن قادراً على السيطرة على نفسه أكثر من ذلك، فالتقط هاتفه.

«أجل، لقد درس رولف في برلين». أجابت إنغريد مباشرة، فقد أدركت أنه لا فائدة من المراوغة.

«وعمل في برنامج هتلر للسلاح الذري، أليس كذلك؟».

كانت ثمة تنهيدة عميقة.

«لقد انتهى به الأمر بالعمل في مجال تصميم الأسلحة؛ على الرغم من أنه كان يرغب بالتركيز على أبحاث الفضاء. لكن حمل الماضي كان ثقيلاً جداً عليه كما أخبرتك، فلم يكن قادراً على تحمله. وقد ارتكب أخطاء جسيمة لاحقاً».

«ماذا تعنين؟».

«لقد كان والدك جباناً للغاية، وكنت تشعر بذلك حتى عندما كنت طفلاً، ولهذا كنت تفضل البقاء معي. لقد كنت ابن أمك، حتى منذ أن كنت في سنواتك الأولى. إنك لا تدرك كم كنت سعيدة عندما أظهرت اهتماماً بعلم الأحياء، وعندما اخترت علم الوراثة ليكون مهنة لك في حياتك...»

همس إيريك: «كفى. هل هناك أي احتمال بأن يكون هناك شخص ما لا يزال يبحث عن الأبحاث التي قام بها والدي وزملاؤه؟».

أجابت والدته بسرعة: «لا أدري».

«أما زلتِ تخفين أشياء عني؟».

«ثمة بعض الأشياء التي تفرض المسؤوليات التزام الصمت بشأنها عوضاً عن التحدث عنها».

«لا تقلقي، فأنا أعرف مسؤولياتي جيداً. هل تشكين في ذلك؟».

«كلا. لكنني قطعت عهداً بأخذ أسرارٍ تخص بعض شؤون رولف معي إلى القبر».

«أتفهم ذلك، لكنني أعلم بالفعل أن أبي قد عمل في مشروع اليورانيوم، وأريد أن أعرف ما إذا كان من الممكن أن يكون هناك شخص ما لا يزال مهتماً بأبحاثه».

«إن نتائج دراساتهم ليس فيها شيء سوى قيمتها التاريخية الآن. ولكنهم عند نهاية الحرب، قاموا بإخفاء بعض المواد التي أنتجوها واستخدموها».

«أي مواد؟».

«الماء الثقيل واليورانيوم على الأقل».

«هل قاموا بإخفاء بعض اليورانيوم؟».

«يورانيوم مخصب، لكنها رغم ذلك كمية قليلة. كانت أجهزة الطرد المركزي في فرايبرغ وكنديرن وسيلي تعمل ليل نهار. ولا أعرف بشكل رسمي أي شيء عن المخزون ولا أنت أيضاً؛ تذكر ذلك».

شعر إيريك بالدهشة.

هل يمكن أن يكون هذا ممكناً؟

شعر برعشة تسري في عموده الفقري.

«أين قاموا بإخفاء تلك المواد؟».

«في مكان ما في ثورينغر فالد. لا أعرف أين بالضبط، ولكن كان هانز بلوغر برفقته حينها».

«أخبريني بكل شيء تعرفينه عن هذا الأمر».

«لا أعرف المزيد عن هذا الأمر».

«فكري في الأمر، فهذا مهم».

«ألا تفهم ما قلته؟ لا أعرف المزيد عن هذا الأمر. انسَ الأمر برمته، وعُد إلى هنا، وسنتحدث في الأمر».

فقال إيريك بهدوء وتأنٍ: «سآتي في أقرب وقت ممكن».

(32)

أشرق صباح الحادي عشر من سبتمبر مكتسياً بالغيوم على مشارف كالايس، وقد كان الشاطئ الفرنسي من القناة الإنجليزي مستوياً وخالياً من الأشجار.

كان راشد يمرن كتفيه، وعيناه ثابتتان على سيارة الفولكسفاغن المتوقفة أمامه، والتي أشارت إلى أنها ستنعطف. كان قد نزل في أحد فنادق فورمولا 1، وهي سلسلة فنادق متواضعة. بينما نزل كل من كريم وبشير في فندق نوفوتل المجاور.

توقفت سيارة الفولكسفاغن عند مخرج عبّارة نقل السيارات التي أشير إليها بصورة قارب وُضعت على لافتة. كان من المقرر أن يعبر كل من كريم وبشير القناة نحو دوفر على متن العبارة التي ستبدأ بالتحرك عند الساعة السادسة والنصف. فيما واصل راشد التقدم نحو محطة قطار الأنفاق، وقد ساعدهم استخدام طرق مختلفة في الحد من خطر اعتقالهم.

قال تقرير المذياع: «في ذكرى الهجمات التي تعرضت لها نيويورك، تعتزم الولايات المتحدة إغلاق سفارات تابعة لها في عدة أجزاء من العالم، ورفع مستوى التحذير من خطر وقوع هجمات إرهابية. كما ستقوم المقاتلات بعمل دوريات فوق كل من نيويورك وواشنطن. كما نصبت وزارة الدفاع صواريخ مضادة للطائرات في محيط البنتاغون. وسيلتقي الرئيس بوش بعض الأشخاص ممن فقدوا أحباءهم في الهجمات الإرهابية في حفل صامت سيقام عند أنقاض مركز التجارة العالمي...»

أخيراً، ظهر مخرج يوروستار، فأبطأ راشد من سرعة السيارة، وانعطف بتأنٍ على الطريق المنحني المؤدي إلى مرأب كبيرة جيد الإضاءة، والذي يضم صفاً طويلاً من الأكشاك المغطاة عند أحد جوانبه. لمع ضوء على شكل

الحرف X باللون الأحمر فوق أكشاك التذاكر المغلقة، بينما لمع ضوء على شكل الحرف X باللون الأخضر على الكشكين اللذين كانا مفتوحين.

قاد راشد السيارة إلى آخر الطابور القصير ويداه تتصببان عرقاً. وعندما حان دوره، توقف عند مدخل الكشك، وأعلن عن وجهته، وقدّم جواز سفره، فحصل على بطاقة تتضمن حروفاً كي يعلقها على مرآة الرؤية الخلفية تبين أن ميعاد مغادرته هو عند الساعة الخامسة وثمانٍ وأربعين دقيقة. كان هناك قطار يتحرك كل عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة، بناء على الوقت في اليوم.

واصل راشد تحركه عبر دائرة المرور متجهاً إلى المنطقة الواسعة والمحاطة بسور الواقعة أمام مبنى المحطة الحديث، ثم ترجل من السيارة، وذهب لتناول كوب من القهوة وشطائر من الخبز الفرنسي في المقهى، حيث إنه تجاهل وجبة الفطور المتواضعة المقدمة في الفندق.

كان قد أزعجه قليلاً أن المرأة التي تجلس عند شباك التذاكر كانت هي نفسها التي التقاها قبل أسبوعين عندما كانوا يجربون العبور، لكنها لم تتذكره بالتأكيد، ولا يهم إن تذكرته. فالعديد من الناس كانوا يقومون بعدة رحلات ذهاباً وإياباً.

بعد أن منح نفسه وقتاً كافياً، ولكن من دون أن يغادر مبكراً جداً، خرج من مرأب السيارات وتوجه نحو القطار. كانت تتقدمه سيارة من طراز فولفو تحمل رخصة إنجليزية. ثم ما لبث الطريق أن ضاق ليتسع فقط لسيارة واحدة، وعُلقت لوحة فوق الطريق للإشارة إلى أقصى وزن مسموح به للمركبة الواحدة. وكانت هناك فتحات داكنة على الأرض، وقد عرف راشد أنها تضم كاميرات لمراقبة الجوانب السفلى للسيارات.

لم يقوَ على كبح جماح ضربات قلبه أثناء توقفه على الأسفلت ووصوله إلى كشك التفتيش. كانت ضابطة الجمارك تُعِد منطقة لعمليات التفتيش، وتوجِّه مركبات محددة للخضوع للتفتيش.

راقب راشد المرأة التي كانت ترتدي سترة عاكسة وهي تفحص السيارات المقتربة منها، ثم رفعت ذراعها ولوحت له ليتجاوز سيارة الفولفو التي تقف

أمامه.

ضغط بشدة على مقود السيارة إلى أن تخدرت يداه أثناء تجاوزه السيارة. وبعد مسافة قصيرة أخرى، كان ثمة كشك آخر. أنزل راشد نافذة سيارته، ففحص مسؤول آخر جواز سفره.

حينها فقط تنفس الصعداء، ثم انتظر في الطابور مع السيارات الأخرى لبضع دقائق إلى أن سُمح له بنزول المنحدر إلى داخل الرصيف الموازي للقطار. كان أحد الموظفين يلوح للسائقين للدخول عبر أبواب عربات القطار. وفي المرة الأخيرة التي جاء فيها إلى هنا، تم توجيهه لصعود المنحدر الحديدي إلى المستوى الثاني. أما هذه المرة، فقد تقدم ببطء عبر المستوى الأدنى متجاوزاً سيارة تلو الأخرى على طول القطار إلى أن رفع أحد الموظفين يده ليطلب منه التوقف بالقرب من ممتص الصدمات الخاص بالسيارة التي تسبقه. وعندما امتلأ قطار السيارات بشكل كامل بعشرات المركبات، تم إغلاق أبواب الحرائق الواقعة بين السيارات.

ترجل بعض الركاب من سياراتهم في المساحة الضيقة الفاصلة بين المركبات وجدار قطار السيارات، لكن راشد التزم بمكانه.

استرخى قليلاً، والتقط خريطة لندن التي وُضعت على كرسي الركاب. ستستغرق رحلة عبور القناة حوالى عشرين دقيقة. وبعد ذلك، كل ما تبقى للقيام به هو قيادة السيارة حوالى مئة كيلومتر نحو المدينة.

كان إيريك يقود سيارته نحو مركز الشرطة الجنائية الاتحادية وسط حركة المرور المزدحمة صباحاً. وكان قد اتصل بشنايدر باكراً في الصباح، وأطلعه على المعلومات الجديدة والمثيرة للقلق.

ولدى توقفه عند الإشارة الحمراء، اتصل بالبروفيسور زفايغر.

«لقد تلقيت تأكيداً من شخص عرف والدي بأن والدي وهانز بلوغر، في الواقع، كانا جزءاً من مجموعة الباحثين التي طورت القنبلة الذرية لصالح ألمانيا النازية». قال إيريك ذلك وهو يحاول الحفاظ على هدوء نبرته. «ولكنّ

أكثر ما يثير الاهتمام هو شيء عرفته حديثاً؛ فقد ساعدا في إخفاء بعض اليورانيوم المخصب عند نهاية الحرب».

«هذا ادعاء خطير. من أخبرك بهذا؟».

«أمي هي التي أخبرتني بشأن ذلك. لقد تمّ إخفاء ماء ثقيل وأكسيد اليورانيوم. كما قالت أمي إن أجهزة الطرد المركزي التي كانت في فرايبيرغ وكاندرم وسيلي كانت تعمل على مدار الساعة».

«يبدو أنها تعرف ما تتحدث عنه. فقد جرى تنفيذ الكثير من العمل في كاندرن في العام 1944 باستخدام أسلوب بول هارتك لتوظيف أجهزة الطرد المركزي، ولكن من غير المعروف مقدار ما تم إنتاجه من المواد المخصبة أو إلى أين ذهبت. وفي سيلي، جرى تشغيل نابذة فائقة السرعة، وتم إنتاج عشرات الغرامات يومياً. وعندما وصل البريطانيون إلى سيلي في الثاني عشر من أبريل، كان قد تمّ نقل اليورانيوم المخصب إلى مكان غير معروف لأي كان. أود بشدة أن أتحدث إلى أمك...»

«لن تتحدث عن هذه الأمور مع شخص غريب تحت أي ظرف. لكن، هل وجود مخزون من اليورانيوم المخصب ممكن من حيث المبدأ؟».

«لقد انتهى المطاف بالمادة في مكان ما، هذا مؤكد. لكنّ معدل التخصيب كان ضعيفاً؛ على الأقل في البداية. وفي مارس من العام 1943، بالكاد كانوا يحصلون على عشر غرامات من اليورانيوم في اليوم باستخدام أسلوب الطرد المركزي المزدوج الخاص بهارتك، وقد تمكنوا فقط من تخصيب خمسة في المئة منه. غير أن معدل التخصيب كان قد تحسن بتطوير الأسلوب. ولكن، كما قلت، كانت الكمية المخصبة ضئيلة جداً».

«ولكن، حتى الكمية الضئيلة ستكون خطيرة جداً إذا وقعت في الأيدي غير المناسبة».

«بالطبع. إن إنتاج كمية ضئيلة من اليورانيوم المخصب صعب للغاية ومكلف؛ لدرجة أنني واثق من أنه ثمة اهتمام لدى أطراف كثيرة بالحصول على اليورانيوم جاهز التخصيب. هل لديك أي معلومات محددة عن المكان

أو أي تفاصيل أخرى؟».

«ربما كانت هناك إشارة إلى المكان في مذكرات بلوغر. أنا في طريقي لمقابلة شنايدر في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية، وبعد ذلك سأعود إلى متجر الأغراض المستعملة لأبحث عن المزيد من المذكرات، أو بالأحرى عن نسخٍ منها».

قاد إيريك سيارته نحو مرأب السيارات التابع لمركز تربتو بارك للتسوق، وعبر الشارع نحو مكاتب الشرطة الجنائية الاتحادية، حيث كان شنايدر بانتظاره.

قال شنايدر: «لقد تحدثت مع رئيسي، واتفقنا أنه ما من سبب لاتخاذ أية إجراءات إضافية في هذه القضية».

حدق إليه إيريك بدهشة وقال: «لا يمكن أن تكون جاداً».

كان بوسعه رؤية نظرة شنايدر المشتتة التي تدلّ على تأسفه.

«ثمة الكثير من المزاعم والشائعات التي تتعلق ببرنامج القنبلة الذرية الخاص بهتلر. فهناك أولئك الذين يهتمون بتضخيم نجاح هذا البرنامج، وكذلك الذين يحاولون التقليل من شأنه. ولكن، إن كانت ادعاءاتك حول مخزون اليورانيوم المخصب حقيقية، فمن المؤكد أنه كان سيكون هناك شهود آخرون على ذلك».

«لقد أخبرني البروفيسور زفايغر للتو أنه تم إنتاج كميات ضئيلة من اليورانيوم المخصب، وأنه لا يعرف مصيرها. وبما أن مذكرات الدكتور بلوغر تذكر...»

«لقد ظهرت كل أنواع المذكرات عبر السنوات. ولا يمكننا ملاحقة كل كلام مبهم في مذكرات كتبها أحمق ما؛ إن سمحت لي بهذا الوصف».

«لكن أمي قالت...»

«ما الذي يثبته ذلك؟ ومن تكون أمك في نهاية المطاف؟ هل كانت لديها أي علاقة بالبرنامج الذري؟».

عضّ إيريك على شفته. فقد جعله شنايدر يبدو فجأة كرجل مجنون ومهووس ولديه ذاكرة نشاطها زائد.

«لقد عملت أمي في قسم البحوث الطبية التابعة للجنة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة، لذا ما كنت لأنعت شهادتها بالهراء. لقد أكدت لي بثقة أن أبي قد أخبرها أنه قد أخفى بعض اليورانيوم المخصب. أنا في طريقي إلى متجر فاخر أهمار للبحث عن المزيد من المذكرات، وأعتقد أنها ذات مصداقية. فأنا أود أن أعرف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن ماضي أبي».

قال شنايدر وقد بدا متعاطفاً نوعاً ما: «أتفهم ذلك. ولكن، ليس لدينا أي سبب لبدء تحقيق في المسألة، ونأمل أن تكف عن تخمين المزيد حول الكلام الذي يخص اليورانيوم، فهذا موضوع خطير للغاية...»

«أنا لا أخمن...»

«سامحني. كان ذلك إساءة اختيار للكلمات. لكن، دعنا نودع بعضنا الآن يا سيد ويليامز».

شد شنايدر على يد إيريك أثناء مصافحته له، ثم رافقه حارس أمن إلى خارج الباب الأمامي. ولم يفِق إيريك من شروده إلا عندما عاد إلى ازدحام المرور في الشارع. لقد وُصم بأنه مهووس يسعى للترويج لنظرياته الغريبة، وجرى طرده من المبنى. كان سيشعر بالإحراج لو لم يكن غاضباً.

سطعت شمس الصباح خلف حجاب رفيع من الغيوم، بينما كانت الأرض مظلمة وساكنة. سار إيريك نحو مرأب السيارات حيث أوقف السيارة التي استأجرها.

أخرج بطاقة أهمار من جيبه، وأدخل العنوان في نظام الملاحة الخاص بالسيارة. فربما يكون أهمار في المتجر عند وصوله إلى هناك. لقد كانت لدى الشرطة مطلق الحرية للتشكيك في مصداقية والدي إيريك وهانز بلوغر. أما إيريك فلم تكن لديه شكوك كهذه.

كان الطريق المؤدي إلى المستودع الواقع في لورتزينغستريب مستقيماً وسريعاً بشكل معتدل. لاحظ إيريك أن البوابة مقفلة، لذا أوقف سيارته بجانب الطريق. كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمسٍ وأربعين دقيقة صباحاً.

احتوت البوابة الكبيرة على باب أصغر مر عبره إلى داخل الفناء.

فتح باب المستودع بحذر. كانت الأجواء مظلمة وهادئة في الداخل، لكن ثمة ضوء متوهج قادم من الكوخ الزجاجي الواقع في الجانب الآخر من المبنى، والذي كان يستخدم كمكتب.

سار إيريك نحو الكوخ ثم توقف.

كان ثمة شخص يتحرك عند المكتب. لقد كان شخصاً آخر بخلاف أهمار القصير والبدين.

تسببت حركات الرجل بشعور إيريك بالقلق؛ فقد كانت حركاته متعجلة ومضطربة. انسحب إيريك بشكل تلقائي إلى خلف الكبائن القديمة. كان بوسعه رؤية الرجل وهو يتحرك ذهاباً وإياباً في المكتب. ما الذي يفعله؟ لقد بدا له أنه ينزل ملفات من فوق الرف.

اقترب ببطء وهو لا يزال مختبئاً خلف الفرش القديم. سقط ضوء مصباح السقف على وجه الرجل. كان إيريك متأكداً من أنه قد رأى هذا الوجه في مكان ما من قبل، ولكن أين؟

أخذ الرجل ملفاً أخضر من فوق الرف. لقد كان النوع نفسه من الملفات الذي احتفظ أهمار داخله بنسخ عن مذكرات بلوغر.

هل كان هناك شخص آخر يبحث عن مذكرات بلوغر؟ فتح الرجل الملف وأزال محتوياته وبعثر الأوراق على الأرض، ثم فعل الشيء نفسه مع ملف تلو الآخر.

أخيراً، انحنى إلى الأسفل واختفى قليلاً، ثم نهض على الفور وسار إلى خارج المكتب. بدأ الضوء في الكوخ الزجاجي بالتمايل والتوهج بشكل غريب. ثمة حريق.

مشى الرجل نحو مدخل المستودع، وحينها تذكر إيريك أين لمح ذلك الوجه، في السيارة التي رآها قادمة من دار المسنين التي تسكن فيها كاثرينا بلوغر، حين كان والده يجلس على مقعد السيارة الخلفي.

بمجرد أن رحل الرجل، اندفع إيريك نحو المكتب. كانت النيران مشتعلة بشدة بالفعل، فقام برفع أكبر قدر ممكن من النسخ عن الأرض، ثم تراجع

بعيداً وهو يرفع ذراعيه إلى الأعلى كي يحمي نفسه من الحرارة، وهرع إلى خارج المبنى.

لماذا يحرق الرجل الذي كان برفقة والده في السيارة مذكرات بلوغر ومستودع أهمار بأسره؟

هرع إيريك إلى الفناء وهو يحمل الوثائق بين ذراعيه، ثم خرج من الباب وتوجه نحو الشارع. نظر إلى يساره، فرأى سيارة من طراز أودي حمراء تبتعد عن الرصيف. اندفع إيريك نحو سيارته وهو يخرج مفاتيحه من جيبه، ولم يترك الرجل الذي يركب سيارة الأودي يغيب عن ناظريه. ثم رمى بنفسه خلف مقود السيارة، ورمى الوثائق على الكرسي المجاور له، وراقب سيارة الأودي وهي تقف عند إحدى إشارات المرور.

ارتعدت يد إيريك بينما كان يحاول إدخال المفتاح في فتحة التشغيل في السيارة. وتحول ضوء إشارة المرور إلى اللون الأخضر عندما شغل السيارة بالضبط. فاندفع خلف سيارة الأودي المسرعة، آملاً أن يلحق بها قبل أن يتحول ضوء الإشارة إلى الأحمر مجدداً.

نظر إلى مرآة الرؤية الخلفية، فرأى دخاناً يتصاعد من خلف الجدار المحيط بالمخزن. ضغط على دواسة البنزين وعبر الإشارة في آخر لحظة.

من دون أن يرفع عينيه عن سيارة الأودي التي تسبقه، بحث عن هاتفه في جيبه واتصل بشنايدر.

قال وهو يلهث: «أنا إيريك ويليامز».

«ما الأمر الآن؟».

«لقد كنت للتو قرب المستودع الخاص بأهمار، تاجر السلع المستخدمة، الواقع عند نهاية لورتزينغستريب. وقد رأيت الرجل نفسه هناك؛ أعني ذاك الذي كان لدى كاثرينا بلوغر برفقة أبي. لقد قام بحرق مذكرات بلوغر والنسخ المصورة منها، وأشعل النار في المستودع بأسره. اتصل بإدارة الحرائق...»

«هل أنت جاد؟».

«اللعنة! ألا تصدقني؟! أرسل إدارة الحرائق، واذهب إلى هناك بنفسك؛

هذا إذا كانت عمليات الحرق المتعمد بدم بارد تثير اهتمامك».

«انتظر لحظة».

كان بوسع إيريك أن يسمع شنايدر وهو يصدر أمراً مختصراً صارماً لشخص ما.

«أين أنت الآن؟».

نظر إلى جهاز تحديد المواقع وقال: «أنا أتتبع سيارة الأودي الحمراء التي يقودها الشخص الذي أشعل الحريق. إن السيارة تتجه شمالاً نحو برونينستريب».

أمره شنايدر: «توقف! توقف عن تتبع السيارة. أنت تخوض مخاطرة غير ضرورية أبداً. أبلغنا بموديل السيارة ورقم لوحتها».

أعطاه إيريك المعلومات التي طلبها.

كرر شنايدر بلهجة حازمة: «سنتبعها في الحال، وستوقف أنت عن ملاحقتها على الفور».

أنهى إيريك الاتصال من دون أن ينطق بأي كلمة أخرى، وفكر في سرّه: «ستتبعونها في الحال؛ هذا ما أخبرتني به من قبل».

مرت إنغريد بليلة صعبة وغير هادئة. فقد حلمت بأنها كانت برفقة رولف في حفل في حديقة مركز فون براون، بمنزلهما الجديد الواقع في شارع ماكلانغ في هانتسفيل.

كانت قد منحت لينا إجازة اليوم، إذ لم تكن ترغب بوجود دخلاء في المنزل.

أعدت الفطور لنفسها بينما كان الحلم لا يزال يسيطر على تفكيرها. فنظراً إلى كونها سويدية شقراء، كانت على علم بالمجتمع الألماني القوي هناك. ولكن، لم تكن لذلك أية علاقة بحقيقة أن السويديين كانوا علماء تحسين النسل المناسبين للعرق الشمالي. وكان الألمان المتواجدون في هانتسفيل علماء في الفيزياء ومهندسي صواريخ. ولم يكن لديهم أي اهتمام بالمسائل

العرقية.

وعلى الرغم من أنها لم تعش في السويد مطلقاً في مرحلة المراهقة، إلّا أنها لطالما أُعجبت بتلك الدولة، وبجوانب خاصة في مجتمعها الديمقراطي. وكانت الناشطة النسائية وخبيرة علم تحسين النسل ألفا ميردال قدوتَها ومثالَها الأعلى. كانت ميردال قد أرادت تطوير المجتمع السويدي، بالإضافة إلى إدخال إصلاحات اجتماعية. وقد عكست أفكار ميردال مفاهيم كانت سائدة في الولايات المتحدة التي زارتها تحت رعاية مؤسسة روكفيلر.

كما سمعت إنغريد أخباراً جيدة وكثيرة عن ميردال من والدها. فقد كانت شخصية محورية ومؤثرة في حالة الرفاهية التي تنعم بها السويد، حيث كانت مصلحة الدولة بالنسبة إليها لها الأولوية على مصالح الأفراد. وفي العام 1939، نصحت ميردال الأميركيين بالنهج المناسب الذي يتعين عليهم اتباعه في ما يخص المشاكل السكانية.

ابتسمت إنغريد. لقد عرفت أرض شركات SKF وفولفو وIKEA كيف تنمي علامة تجارية.

وفي الخمسينيات، تابعت إنغريد القفزات المهنية التي تحققها ميردال في الولايات المتحدة بإعجاب، إن لم تكن قد حسدتها بصراحة، وذلك بعد أن قادت ذراع الخدمات الاجتماعية لمنظمة اليونسكو في نيويورك وأصبحت أكثر النساء في العالم تأثيراً. وقد كان جوليان هاكسلي- أول مدير لمنظمة اليونسكو- خبيراً أيضاً في علم تحسين النسل، واستخدم تأثيره الدولي بفعالية لتوسيع نفوذه، كما ساهم في إنشاء الصندوق العالمي للحياة البرية، والذي استخدم حماية الحياة البرية كغطاء لتحديد النمو السكاني الذي يهدد رفاهية الحيوانات في الدول النامية. كما جرى الترويج للرسالة نفسها طوال عقود في أربعة إصدارات ملونة من مجلة ناشيونال جيوغرافيك الرائعة.

بعد أن قطعت ألمانيا أشواطاً بعيدة جداً في التناسل الانتقائي، تعين على خبراء علم تحسين النسل الحذر في كيفية ترويجهم لغرضهم. لقد كانت السياسات السكانية التي روجت لها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا

العظمى مقبولة بشكل عام؛ على الرغم من تعارضها مع الأهداف الرسمية للأمم المتحدة. لم يكن النمو السكاني في السويد هو المشكلة، فقد كانت هناك جهود تبذل في السويد لزيادة نسبة المواليد في ذلك الوقت. بل كانت المشكلة هي نمو النوع الخاطئ من السكان.

لقد تمت مشاركة أفكار ميردال الديمقراطية الاجتماعية عن طريق بعض الرأسماليين البارزين وقتها. وفي عام 1952، أسس جون دي روكفلر الثالث مجلس السكان لتمويل أبحاث تحديد النسل. وقد ترأسه فريدريك أوسبورن؛ رئيس مجتمع علم تحسين النسل الأميركي الذي قال لاحقاً: «لا بد من تحديد أهداف التناسل الانتقائي تحت اسم مختلف عن علم تحسين النسل».

لقد كان محقاً. وقد بدأ استبدال مصطلح علم تحسين النسل، وحلّ محلّه المصطلح «علم الوراثة» الذي كان أكثر شمولاً، ومفهوماً أكثر قبولاً، والذي يشمل علم الأحياء الاجتماعية والسوسيوبيولوجيا. كما حصل علم تحسين النسل على دعم من علم النفس التطوري الذي أصبح مألوفاً. وبالطبع، عرفت إنغريد أنه مثلما فكر فرانز جي كالمان ذات مرة بأن علم الوراثة هو الأساس لكل شيء- بما في ذلك مرض السل- سيتم إثبات أن علماء النفس التطوريين متحمسون بشكل زائد بشأن تأثير الجينات على السلوك البشري.

كان أحد التطورات المرحب بها هو أخلاقيات علم الأحياء. فلمدة طويلة بعد الحرب، كان من الضروري وضع حدود واضحة بين ما كان مسموحاً به بشكل أخلاقي وما لم يكن كذلك. فأخفت الحدود بين الأبيض والأسود، وبين ما هو صحيح وما هو خاطئ. وقد كان ذلك مساعداً على وجه الخصوص في نمو مجال التكنولوجيا الحيوية.

لقد اعتبرت إنغريد نفسها علمَ تحسين النسل بمثابة علم البيئة بالنسبة إلى البشر. وهكذا، فهي جزء من الحركة البيئية الأوسع. لكن إيريك رفض النظر إلى الأمر من وجهة نظرها.

كانت تتناول فطوراً خفيفاً من دون شهية تقريباً عندما رن الهاتف.

إنها كيت، أو ربما إيريك. فكرت إنغريد بذلك وهي تأمل أن يكون ابنها

المتصل.

ردت على الهاتف في غرفة الجلوس، غير أن الصمت كان سائداً في الناحية الأخرى.

كررت كلامها: «مرحباً؟».

فقال صوت امرأة «إنغريد؟».

قالت وهي تبحث عن كرسي: «كاثرينا!».

«أردت فقط أن أتأكد من أن ليلة أمس مرت بسلام. لقد فقدنا حيين في فندلستريب، حتى إن متجر زيلر قد أصابه القصف».

كانت إنغريد على وشك أن تقول إنها بخير. لكن، ثمة شيء في صوت كاثرينا جعلها تتوقف.

فقالت بصوت جاد ولكن ودي: «لا تتفوهي بالحماقات يا كاثرينا. فقد انتهت الحرب وكل ما تلاها. تعرفين هذا، أليس كذلك؟».

ساد الصمت لفترة. وقبل أن تواصل إنغريد حديثها، تحدثت كاثرينا.

«أردت فقط أن أعرب لكِ عن أسفي».

فكرت إنغريد للحظة في ما يتعين عليها أن تقوله، ثم سمعت صوت الطنين.

لقد أنهت كاثرينا الاتصال.

عضّت إنغريد على شفتها، وأعادت الهاتف إلى مكانه ونبضات قلبها تتسارع. ما كان سبب ذلك؟

أما كاثرينا فجلست في غرفتها ممسكة بسماعة الهاتف. أخذت الممرضة الهاتف منها، وخرجت إلى الرواق، وأقفلت الباب خلفها.

حدقت كاثرينا أمامها شاردة، وعبثت بخصلات شعرها الرفيعة بأصابع متيبسة، وقد تنقلت أفكارها هنا وهناك حتى ثبتت أخيراً على منظر منوم؛ رقائق الثلج المحمولة بواسطة الريح من الظلام إلى دائرة الضوء في مطار فرانكفورت، حيث كان قد وصلت للتو من برلين. كان العام هو 1950، وكادت العاصفة الثلجية أن تمنع الطائرة التابعة للقوات الجوية من الهبوط. لم يعد

هانز برفقتها، لذا كانت وحيدة وخائفة، ولكنها في الوقت نفسه كانت متحمسة.

اصطحبها الطيار الأمريكي في سيارة الجيب الخاصة به بالإضافة إلى هيربرت وهيلغا غيرستنر إلى محطة قطارات فرانكفورت، حيث استقلوا قطاراً إلى بافاريا. تركوا الليل والظلام خلفهم. وكم كانت السماء الزرقاء لامعة في مشهد خلاب في لاندشت عندما أقلعت طائرتهم إلى العالم الجديد.

كانت مفعمة بالنشاط، ويملأها الأمل والثقة. فهي ستكون على خير ما يرام في الولايات المتحدة، وسوف تكون على مستوى كل التوقعات التي وُضعت على كاهلها.

(33)

تتبع إيريك سيارة الأودي على طريق منحدر، ورافقها في طريق ذي ثلاثة مسارب، وتتدلى فيه لافتة من الأعلى، وهناك سهم يشير إلى طريق المطار مع صورة طائرة. هل كانت سيارة الأودي في طريقها إلى مطار تيغيل؟

لقد ثبت أن هذه هي الحقيقة، فقد سلكت السيارة الحمراء المخرج التالي المتجه نحو المطار.

جذب إيريك هاتفه مجدداً.

سأل شنايدر: «أين أنت؟».

فاختبره شنايدر بسؤال مضاد: «وأين أنت؟».

«أنا أتتبع الشخص الذي أشعل الحريق نحو مطار تيغيل».

كان بوسعه سماعه وهو يتنهد غاضباً: «انتظر عند مدخل المطار. سأرسل رجالي».

«كان من المفترض أن يتواجدوا هنا بالفعل». قال إيريك بغضب وهو ينهي الاتصال عندما كانت سيارة الأودي تدخل منطقة ركن السيارات مسدسة الشكل. دخل إيريك خلفها، ووقف عند بوابة المرأب، وأخذ تذكرة من دون أن يرفع عينيه عن سيارة الأودي أثناء انعطافها إلى داخل صف من أماكن الركن. قاد سيارته ببطء إلى الأمام إلى أن رأى الرجل يترجل من السيارة ويخرج حقيبة من صندوق السيارة.

توقف إيريك على مسافة بعيدة قليلاً، وتتبع الرجل الذي كان يجر الحقيبة خلفه إلى داخل محطة المطار التي كانت مبنية بشكل مختلف عن معظم المطارات. كانت مناطق مراقبة جوازات السفر تحيط بالمدخل، مع وجود منافذ للخروج عبر مناطق مراقبة جوازات السفر تصل مباشرة إلى نقاط التفتيش الأمني.

هـرع الرجـل مباشـرة نحـو البوابة رقم «سـبعة وعشـرون»، حيث كان من المقرر أن تغادر رحلة تابعة للخطوط الجوية البريطانية إلى لندن خلال أربعين دقيقة.

توقف إيريك خلف كشك لبيع الصحف واتصل بشنايدر مجدداً.

قال بصوت منخفض: «الشـخص الذي أشـعل الحريق سـيغادر إلى لندن على متن رحلة تابعة للخطوط الجوية البريطانية، وأنا لا أرى رجالك في أي مكان».

«انتظر هناك. سيصلون عما قريب».

«سـأصدق ذلـك عندمـا أراه». قـال إيريك بنبرة غاضبـة، وأنهى الاتصال. لمَ لم يكن بوسـع شنايدر إبلاغ الشرطة المتواجدة في المطار بالفعل؟ لِمَ هم بطيئون جداً هكذا؟ لقد كان شنايدر يتصرف وكأنه غير مهتم بالقبض على من أشعل الحريق.

اختفـى الرجـل بين أفـراد الأمن، فتوجّه إيريك إلى منفذ الخطوط الجوية البريطانيـة، وطلـب الحصـول على تذكرة علـى متن الرحلة التالية المتجهة إلى مطار هيثرو، لكن المرأة الشابة التي كانت تجلس خلف المكتب أبلغته معتذرة بـأن جميـع المقاعـد علـى الطائرة مشـغولة، حتى إنه لم تكـن هناك أي مقاعد متاحة على درجة رجال الأعمال، ولن تغادر الرحلة التالية قبل ثلاث ساعات.

اندفع نحو منفذ شركة لوفتهانزا للطيران. كان من المقرر أن تغادر الرحلة التاليـة إلـى لنـدن خلال خمس وخمسـين دقيقة. وكان موعـد الوصول المقرر إلـى لنـدن بعـد خمس عشـرة دقيقة مـن موعد وصول رحلـة الخطوط الجوية البريطانية، وكان لا يزال هناك عدد قليل من المقاعد الشـاغرة. اشـترى إيريك تذكرة، وهرع إلى سيارته في الطابق الأدنى وجمع الوثائق التي كان قد أنقذها من متجر أهمار في رزمة ودفع بها إلى داخل الحقيبة الموجودة على المقعد الخلفي.

عـاد إلـى منطقـة فحـص الجـوازات التابعة لطيـران لوفتهانـزا وعبر نقطة التفتيش. كان الركاب يصعدون للتو على متن الطائرة. فكر إيريك بإمعان في ما

يتعين عليه فعله. فلو لم تكن هناك مساعدة من الشرطة الألمانية، فهل ستكون هناك أية مساعدة من الشرطة البريطانية؟

دلف إيريك إلى الداخل، وطلب رقم الخدمات الأمنية البريطانية.

اتصل بهم، وعرف عن نفسه، وقال إنه يود مناقشة أمر على صلة بنقل شحنة من اليورانيوم المخصب إلى داخل لندن. وقد جرى تحويل المكالمة إلى شخص يدعى جيننغز. فأخبره إيريك بإيجاز عن مخزون اليورانيوم ودور والده كعالم للفيزياء في البرنامج الذري النازي.

«إن المعلومات التي تخص مخزون اليورانيوم ربما تكون الآن في أيدي الأشخاص المسؤولين عن وفاة والدي. أنا أتصل من مطار تيغيل في برلين، وأردت أن أخبركم أن الرجل الذي يرتبط بشكل ما بكل هذا في طريقه إلى مطار هيثرو على متن الرحلة رقم BA0991 التابعة للخطوط الجوية البريطانية. وبخلاف أي شيء آخر قد يكون على علاقة به، إنه مسؤول بكل تأكيد عن إشعال حريق بشكل متعمد في مبنى في برلين».

أيقن إيريك كيف أن الأمر برمته يبدو غريباً، وكأنه هذيان من شخص أحمق.

«أثق بأنك تدرك أننا سنحتاج إلى معلومات أكثر تفصيلاً بكثير عن هذا. هل أبلغت الشرطة الألمانية؟».

«أجل، ولكنهم لم يصلوا إلى المطار في الوقت المناسب».

«وأثق أيضاً بأنك تدرك أنه لا يمكننا اتخاذ أي إجراءات على أساس مثل هذه المعلومات غير المحددة. سيتعين علينا استلام طلب رسمي بالتعاون من الشرطة الألمانية، ونحن لم نتلقَ مثل هذا الطلب».

تفهم إيريك أن ادعاءاته بدت بعيدة الاحتمال. ورغم ذلك، لم يكن هناك سبب للغضب. فهذا سيضيف سبباً لانحياز جيننغز ضده. وقد تمنى لو أنه استطاع حمل شخص ما على تصديق ما يقوله.

«هل يمكنني الحضور إلى مكاتبكم عندما أصل إلى لندن؟».

«هل لديك أي شيء محدد تود مناقشته؟ إن كان الأمر كذلك، فتعالَ على

الفور. ولكن بخلاف ذلك سيكون من الصعب...»

«أتفهم ذلك».

أعطاه جيننغز الرقم الذي يمكنه عبره التواصل معه مباشرة. وعندما أنهى الاتصال، انضم إيريك إلى طابور الأشخاص الذين يصعدون إلى الطائرة، واتصل بكيت.

«لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد حول ذلك، لكنني في طريقي إلى مطار هيثرو على متن الرحلة التالية التابعة لطيران لوفتهانزا». قال ذلك وهو يحاول إخفاء غضبه. «أصغي إليّ بتركيز، اشتري تذكرة إلى أي مكان كي تتمكني من المرور عبر الأمن في مطار هيثرو، واذهبي لاستقبال الرحلة رقم BA0991 القادمة من برلين عند البوابة. سيترجل رجل ذو شعر بني من الطائرة، يرتدي سترة رمادية وقميصاً أزرق داكناً بلا ربطة عنق، وربما سيكون حاملاً معطفاً على ذراعه. كما أنه ينتعل حذاءً أسود اللون، ويحمل حقيبة بنية بالية مصنوعة من الجلد. اتبعيه عن بعد مسافة كافية لا تجعله يلاحظكِ. وإذا لاحظكِ، دوّني رقم السيارة، أو رقم سيارة الأجرة إن استقل واحدة. ولكن، إن استقل قطاراً، فلا تحاولي تتبعه».

«هل أنت على دراية بما بت تطلبه مني مؤخراً؟».

«كيت، أنا...»

«أصغي إليّ الآن. لا أعرف حتى ما تنوي فعله هناك. إيريك، أنا أثق بك بكل تأكيد، ولكن الأمر بدأ يزيد عن الحد بشدة. إذا أردت مني دعمك ومساعدتك، فعليك أن تثق بي أيضاً».

كان إيريك عاجزاً عن الرد للحظة، فقد كان خجولاً من نفسه.

«أنا آسف يا كيت. وأنا ممتن لكِ أكثر مما تتصورين...»

«حسناً، إذاً أعتقد أن هذا يفي بالغرض. سوف نستوضح الأمر برمته معاً. سأتوجه مباشرة إلى المطار وعندما تصل، ستشرح لي كل شيء، أليس كذلك؟».

«بالطبع. لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونكِ. سأتصل بكِ قريباً».

أنهى الاتصال وصعد إلى الطائرة. وعندما عثر على مقعده، أخرج النسخ

المصـورة مـن الوثائـق التـي تمكـن من إنقاذهـا من الحريق مـن حقيبة الكتف الخاصة به، ثم وضـع الحقيبة أسـفل المقعد، وشـرع على الفور في تصفحها. كانت النصوص تشير إلى تاريخ لاحق للمذكرات الأخرى، فقد كانت تخص آخر مرحلة من الحرب في العام 1945.

الثالث من فبراير، بتنا متقدمين أكثر في تطوير المفاعل عن هايزنبيرغ. وقد اتضح ذلك في الأسـبوع الماضي عندما أمر دبليو غيرلاتش بنقل آخر شـحنة من الماء الثقيل واليورانيوم إلينا في ستادتلم بدلاً من منشأة هايزنبيرغ الواقعة تحت الأرض في هايغرلاتش.

يعتقـد رولـف أن الموقـع الجديد قـد جرى اختياره بعناية، فهو يبعد فقط مسافة مئة كيلومتر عن الكهف الكائن في ميتلفيرك. وأنا قلق بشأن صحتنا لأننا لا نحصل على الغذاء الكافي، وسـنتعرض لأشـعة غاما والنيوترونات والأشعة المقطعية.

لقد تم نقل المشاريع الأكثر أهمية إلى مكان آمن الآن؛ بما في ذلك جهاز الطـرد المركـزي Mark III–A الـذي تم نقله من فرايبيرغ إلى مصنع المظلات الواقع في سيلي.

سمعت اليوم مجدداً شخصاً ما يزعم أن وحدة أس أس تتقدم علينا كثيراً، وأنا نجحت في تخصيب اليورانيوم في مصنع بونا الواقع في مونوفيتز.

أشعر بالخوف على كاثرينا، فأنا لم أسمع منها أي شيء منذ أن غادرت إلى غوتو.

قلب إيريك إلى الأمام عبر الصفحات. لقد جرى تعديل التواريخ، فآخر تاريخ كان بوسعه إيجاده هو الثلاثين من فبراير.

ثمـة فوضـى عارمة في سـتادتلم منذ الصبـاح، فالحلفاء يقتربون مع مرور الوقت. ولقد أمرت أنا ورولـف بإخفاء نظائر U–235. وستقوم وحدة أس أس بمساعدتنا في ذلك.

كان أسـفل الصفحـة معلمـاً بخـط أفقـي، وكأنهـا كانـت آخـر صفحة في المذكرة. وستكون التواريخ اللاحقة في مذكرة أخرى.

وضع إيريك الوثائق على حجره، وفكر بشأن ما لديه من أدلة قوية كي يعطيها للسلطات البريطانية. لم يكن متيقناً تماماً من رغبته بالبدء في التفتيش في ماضي والدته مع أي شخص. كما أن عليه مناقشة الأمر مع كيت، بل ومع أمه أيضاً. وماذا عن الشركة؟ هل كان يرغب بالاحتفاظ بشركة على صلة بأبحاث علم تحسين النسل النازية عن طريق أمه؟ ماذا سيقول عملاؤه؟

لم يكن بوسعه إغفال هذا الأمر أكثر من ذلك، لكنه كان مدركاً أن الأخطاء التي ارتكبها والده قبل سنوات مضت قد تكون لها عواقب سلبية في الحاضر. وكان يود أن يعرف الأسرار المظلمة التي تعلقت بحياة والده وبموته.

(34)

لـم تسـتطع إنغريـد إكمال فطورها، فقـد كانت مكالمة كاثرينا غير متوقعة على الإطلاق لدرجة أنها عجزت عن التفكير في أي شيء آخر.

رمت بنفسها على الأريكة وتمددت عليها، وهذا أمرٌ لم يكن من عادتها فعله. إذاً، لقد أرادت كاثرينا الاعتذار عن الأيام الخوالي.

لقد كان بإمكانها فهم ذلك، لكنها كانت تود أن تسمع طلبها للغفران قبل زمن طويل جداً. قديماً، عندما كان كل شيء لا يزال ممكناً.

كانـت قـد تحدثـت إليهـا عبر الهاتف عدة مرات منـذ العام 1950، وذلك عندمـا انتقلـت كاثرينـا مـن لاندشـت في بافاريا إلى سـان أنتونيو، حيث جرى جمع علماء مشروع بيبركليب.

لكـن الأمـر اسـتغرق عامـاً إلى أن التقتـا في أميركا. لقد كانت المدرسـة الطبيـة التابعـة للقـوات الجويـة الأميركية تقع في سـان أنتونيو، وكانت المكان الذي جمع فيه هيوبرتوس «ستروغي» ستراغهولد ثلاثين خبيراً ألمانياً وباحثين ثقاة تحت رعاية مشـروع بيبركليب. وأخيراً، اسـتدعى هيربرت غيرستنر، الذي كان قد تُرِكَ في المنطقة التي يحتلها السـوفييت، وكاثرينا التي كانت قد انتقلت بالفعل إلى الغرب.

لـم يكـن أي مـن الألمـان متخصصـاً فـي العيـون، لـذا أخبـرت كاثرينـا سـتراغهولد بشـأن إنغريـد، وقـد بدأت بإجراء أبحاث حـول عمى الوميض في سـان أنتونيـو فـي العـام 1951. وكانـت تهدف إلى اكتشـاف كيفية تأثير وميض القنبلة الذرية في عيون الجنود والطيارين.

سافرت إنغريد إلى قاعدة راندولف الجوية في يوم جميل في أوائل فصل الربيع. كان لقاؤها كاثرينا مجدداً مشهداً عاطفياً. فقد كانت آخر مرة التقتا فيها فـي برليـن خـلال المرحلـة الأخيرة من الحرب. كانت كاثرينـا قد بقيت برفقة

هانز في المنطقة الخاضعة للاحتلال السوفيتي، وبعد أربع سنوات لاحقة، انتقلا إلى ألمانيا الغربية وانفصلا عن بعضهما، ثم انتقلت كاثرينا إلى الولايات المتحدة بعد ذلك مباشرة.

شاركت إنغريد في التخطيط لاختبارات الوميض، واختيرت طبيب عيون للمجموعة. وعبر عدة سنوات من الاختبارات، عانى ستة مرضى من تلف في العين.

أتت كاثرينا أخيراً لزيارة إنغريد ورولف في هانتسفيل في فصل الخريف من العام 1951. لقد بدا لقاء كاثرينا ورولف مقيداً في نظر إنغريد، فقد بدا رولف فاتراً ومكتئباً وقتها، ولم تستطع إنغريد الانتباه إلى زوجها كثيراً لأن عملها في لجنة الطاقة الذرية استهلك كل طاقتها.

انفجرت القنابل في بيكيني أتول وصحراء نيفادا، وآلاف الجنود الذين خدموا كفئران تجارب جرى تعريضهم عمداً إلى التسرب الإشعاعي. وقد تم استخدام طرائق عديدة في محاولة لتحديد الآثار الأوسع نطاقاً لاختبارات القنبلة. على سبيل المثال، في أيداهو، جرى تلويث حظيرة أبقار باليود المشع وتمت تربية أبقار لعدة أيام، ثم جرى إعطاء حليبها إلى أشخاص خاضعين للاختبارات.

كان رولف يشعر بالهلع من الأسلحة النووية، وهو ما اعتبرته إنغريد أمراً غير منطقي. ولكن، كلما أجرت هي وزملاؤها المزيد من الأبحاث، أصبحوا أكثر توتراً أيضاً. وأخيراً، في العام 1956، كشفت الاختبارات التي جرت في إنجلترا وويلز أن الرحم، بخلاياه التي تتكاثر بسرعة، كان على وجه التحديد سريع التأثر بالإشعاع، وقد لاحظوا أن التسرب الذري كان أكثر خطورة مما كان يعتقد سابقاً.

كان يجب عليهم ببساطة تحديد حجم الخطر على عامة الناس من اختبارات الجو، والسبيل الوحيد لدراسة تأثير التسرب على الناس هو بجمع العينات. كانت إنغريد جزءاً من التخطيط لعملية «غروب الشمس»، التي جمعت عينات من خمسة عشر ألف جثة من كل أنحاء العالم. وقد كانت

النتائج واضحة.

وقد تعين وقف اختبارات الجو، وهذا ما جرى. وبعد جدال طويل، تم نقل الاختبارات الأميركية إلى مكان تحت الأرض.

نهضت إنغريد عن الأريكة، وذهبت إلى الرف الخاص بالصور المؤطرة الخاصة بإيريك عندما كان طفلاً، وحين كان صبياً في المدرسة، وفي الجامعة. نظرت إلى صورة لإيريك وهو يقف أمام المبنى الرئيس في كولد سبرينغ هاربور وهو أحمر الخدين ومبتسماً.

تساءلت وهي تشعر بالانهيار إن كان ثمة شيء بينهما قد انكسر ولا يمكن إصلاحه.

تذكرت اليوم الذي تأكد فيه حملها به في العام 1957 وكأنه حصل بالأمس. لقد كانت بالفعل سنة غير عادية بالنسبة لها ولرولف. فقد صدم الاتحاد السوفييتي الأميركيين بإرساله القمر الصناعي سبوتنك للدوران حول الأرض. وبالإضافة إلى كل شيء، إن الصاروخ القوي نفسه الذي حمل سبوتنك إلى مداره كان قادراً على حمل القنبلة الذرية إلى مسافة طويلة جداً.

حفز ذلك برنامج الفضاء الأميركي. فقد دفع سبق السوفييت لغزو الفضاء إلى اتخاذ قرار بتجنيد كل الوسائل الممكنة للمنافسة من دون ادخار أي مصادر. كان التنافس بين القوتين العظميين يعني حدثاً سعيداً آخر بالنسبة إلى رولف وإنغريد، فبالإضافة إلى أنهما رُزقا بإيريك، جرى إنشاء ناسا؛ وهو برنامج حكومي مخصص للفضاء، وأصبحت الجهة التي يعمل رولف لحسابها، أي مركز الصواريخ الباليستية التابع للجيش، مركز مارشال للسفر عبر الفضاء، وهو شعبة داخل ناسا ويترأسه فون براون. لقد كانت المنظمة المدنية مصدر راحة ومتعة كبيرة بالنسبة إلى رولف، فللمرة الأولى في حياته لم يكن يعمل على تطوير أسلحة للجيش.

في السنة التالية، أعلن الرئيس الأميركي كنيدي للعالم بأسره عزمَ أميركا إرسال رحلة مأهولة إلى القمر بحلول نهاية الستينيات. ومن دون فون براون

ومجموعته من الألمان، كان برنامج إرسال أي إنسان إلى القمر سيبقى مجرد حلم. لقد ناسب مشروع أبولو إنغريد أكثر من أي شخص آخر، كما كانت ناسا مصدر تمويل أيضاً للمشاريع الطبية الهامة. ما مقدار الإشعاع الذي سيواجهه رواد الفضاء في حزام فان ألين الإشعاعي؟ وكيف سيؤثر الإشعاع المنبعث من الفضاء الخارجي على قدرتهم على التناسل؟ كانت الأسئلة لا تنتهي، وكان من الضروري العثور على إجابات لها.

قاموا بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من علماء الإحياء الإشعاعي. وقد مولت ناسا إجراء دراسات في مستشفى صغير للأبحاث يقع في أوك ريدج تينيسي، حيث تم تعريض أجساد مئة وأربعة وتسعين مريضاً للكمية نفسها من الإشعاع الذي سيتعرض له رواد الفضاء في الفضاء الخارجي. لكن متابعة حالة الخاضعين لاختبارات الإشعاع مثلت مشكلة، فقد كانوا في حاجة إلى مرضى يمكن فحص حالاتهم في ظروف مقيدة لمدة عقود.

كان الحل هو السجن. فقد شارك 131 نزيلاً من سجن ولاية أوريغون في الاختبارات الإشعاعية للخصية. وقد حصلوا في المقابل على خمسة دولارات شهرياً، وهو ما يعادل أجر عشرين يوم عمل في السجن. كما حصلوا أيضاً على عشرة دولارات للخضوع لعمليات تعقيم في نهاية الدراسة لضمان عدم إنجابهم مواليد مشوهين.

ثم جاء العام 1968، حيث عمّت الفوضى العالم. فقد اجتاح الجنود السوفييت المتمركزون في وارسو تشيكوسلوفاكيا لوضع حد للثورة في براغ. كما كان الرئيس الأمريكي الجديد، ريتشارد نيكسون، يحاول وضع حد للحرب في فيتنام. وكان سباق التنافس الفضائي بين القوتين العظميين في أوجه. وعلى مستوى حياتها الشخصية، واجهت إنغريد كارثة كاملة...

لم ترغب بالتفكير في تلك الفترة، فلطالما تجنبت التفكير فيها، والآن ليس استثناءً. وضعت الصور جانباً وعادت إلى المطبخ، ورمت فطورها البارد في القمامة.

لحسن الحظ، سيكون هناك لقاء اليوم لجمعية العلماء المهتمين بعلوم

الوراثة، وستتاح لها الفرصة للتفكير في شيء آخر؛ وسيتواجد كارل أيضاً.

بدأت بارتداء ملابسـها. لقد بدت الأمور سيئة من كل النواحي، ولكنها لم تكن الشخص الذي يفر من المسؤولية.

(35)

جلس مالك بهدوء في طائرة البوينغ التابعة للخطوط الجوية البريطانية. كانت الطائرة قد توقفت للتو أمام بوابة محطة الخروج الأولى في مطار هيثرو، وقد شرع المسافرون في التقاط أمتعتهم ومعاطفهم من خزائن الطائرة.

أبدت المرأة التي كانت تجلس على المقعد المجاور للنافذة حركة تدل على انزعاجها، حيث كانت ترغب بالخروج لالتقاط حقيبتها، لكن «مالك» جلس بعناد على الكرسي المجاور لممر الطائرة. أخرج هاتفه وشغله، ثم أرسل رسالة نصية إلى نظمي.

رد نظمي على الفور قائلاً إنه سينتظر عند منطقة الركاب الوافدين في المحطة الأولى.

شق طابور المسافرين طريقه ببطء نزولاً من الطائرة. نهض مالك برفقة آخر راكب، وأنزل حقيبته ومعطفه، وسمح أخيراً لجارته البائسة بالنهوض عن مقعدها.

وبينما كان يخرج من الطائرة إلى المحطة، استقبل رسالة نصية أخرى.

لقد وصل كل من كريم وبشير وراشد إلى وجهتهم وبرفقتهم الحمولة.

انتظرت كيت بقلق كبير على بعد مسافة قصيرة من بوابة وصول طائرة الخطوط الجوية البريطانية. ولم يكن أي من الركاب الذين كانوا على متن الرحلة القادمة من برلين يطابق المواصفات التي ذكرها إيريك.

كانت تمسك بقلق بتذكرة مرور تخص الرحلة المتوجهة من وسط بريطانيا إلى نيس في فرنسا، وقد كلفتها مئة وأربعين جنيهاً إسترلينياً؛ على الرغم من أنها لم تكن ستستخدمها.

تباطأ تدفق المسافرين الذين يغادرون الطائرة إلى حد كبير، فتساءلت كيت بقلق عما إذا كان شخص ما ممن مروا بالفعل هو في الواقع الشخص الذي

يبحث عنه إيريك.

كانت على وشك أن تنهض وتغادر عندما رأت مسافرين آخرين يمران عبر البوابة. الأولى كانت سيدة في منتصف العمر تجذب حقيبة وردية خلفها بسرعة. وقد لحقها رجل مهندم الشكل ويسير بهدوء وبخطوات واسعة، وقد تطابق مع وصف إيريك بالضبط.

نهضت كيت وهي تشعر بالارتياح والتوتر في آن واحد وتبعته. ما علاقته برولف؟ هل كان على علاقة بشكل ما بماضي إنغريد؟

التقط الرجل مقبض حقيبة الألومنيوم الخاصة به، وخرج إلى الدهليز المزدحم. وقد عانت كيت كثيراً كي تبقيه أمام ناظريها. سار بخطوات واثقة نحو مرأب السيارات المؤقت. فتركته كيت يبتعد عنها أكثر قليلاً.

توقف عند سيارة من طراز فورد مونديو، فترجل رجل أسود البشرة ذو شارب من السيارة وصافحه، ثم وضع الحقيبة في صندوق السيارة.

اقتربت كيت أكثر كي تنظر إلى رقم اللوحة. وما إن صعد الرجلان إلى السيارة حتى دونت الرقم على قصاصة ورق قديمة وجدتها في محفظتها.

عادت إلى دهليز المحطة كي تنتظر إيريك، واستخدمت هاتفها للبحث عن مالك رقم اللوحة.

أخيراً، ظهر إيريك بين مجموعة من الأشخاص الوافدين. أثار مظهره خوفها، فقد كان شاحباً ومتوتراً وغير حليق، مع نظرة تصميم تبدو في عينيه. تعانقا بمودة.

سألها: «هل رأيته؟».

«كان هناك رجل في مرأب السيارات في انتظاره. الرجل ذو بشرة سوداء وشارب، وقد غادرا في سيارة فورد مونديو بيضاء يملكها نظمي حلبي، يسكن في كيمبشوت رود في ستريثام».

لاحظ إيريك بقلق الاسم العربي، لكنه لم يقوَ إلا على الابتسام بسبب ذاكرة كيت الحادة. لقد أدهشته منذ أن التقيا للمرة الأولى في كولد هاربور.

قال لها: «ممتاز».

«من يكون؟».

«ليست لدي أدنى فكرة. أين سيارتك؟».

«في مرأب السيارات. ماذا يجري؟».

«سأشرح لكِ في الطريق». وتوجّه إيريك نحو الباب.

أسرعت كيت خلفه وهي تقول: «في الطريق إلى أين؟».

«الخدمات الأمنية. لقد اتصلت بجهاز المخابرات الحربية MI5».

في طريقهما نحو لندن، أخبرها عن الشخص الذي أشعل الحريق؛ ذاك الرجل الذي كان برفقة أبيه عند كاثرينا بلوغر، وعن تلكؤ الشرطة الألمانية.

«لقد فسرت الشرطة الألمانية اتصالي بهذيان شخص أخرق، وما من شك في أن الشرطة الإنجليزية ستحذو حذوها. لكنني أعتقد أن اليورانيوم المخصب مسألة خطيرة بما يكفي لدرجة أنهم يريدون سماع المزيد حول الأمر على أي حال».

قالت كيت بحدة: «هذا أمر يخص الشرطة فقط، ولا دخل لك به».

«بالطبع هو كذلك، ولكن هل لدى الشرطة أي اهتمام بخلفية أبي؟ من الواضح أنهم ليسوا كذلك. وإذا لم أقم بكشف الحقيقة، فستبقى مخفية إلى الأبد».

لم تنطق كيت بكلمة.

«وإذا كان كل هذا على صلة ببرنامج اليورانيوم القديم الذي عمل عليه أبي، فأنا أعتزم التأكد من ألا يقع اليورانيوم في الأيدي الخاطئة».

قالت كيت بحدة: «كلا، حتى إذا كان ثمة يورانيوم مخبأ في مكان ما، فلست مسؤولاً عن ذلك بأي شكل من الأشكال».

حان الآن دور إيريك كي يصمت. لم يبدُ أن كيت تفهم كيف أنه من المهم بالنسبة إليه ضمان أن الأخطاء التي ارتكبها والده لا تسبب الأذى لأي كان، ناهيك عن أخطاء أمه...

قالت كيت: «لم يحضر بيورن اليوم إلى العمل، ولاحظ مايك أنه كان يلج إلى ملفات قاعدة البيانات الخاصة بخدمة علوم الطب الشرعي، والتي لا

شأن له بها على الإطلاق، لذا ألغينا كلمة المرور الخاصة به».

«هل حاولتِ التواصل معه؟».

«تركت له رسالة أخبره فيها بضرورة الاتصال بي».

قال إيريك: «هذا لا يبشر بالخير على الإطلاق».

كان يتحـرق شـوقاً للتحـدث إلى إنغريد، لكـن كان لديه أمر أكثر إلحاحاً للتعامل معه أولاً.

(36)

جلس خمسة أشخاص تتفاوت أعمارهم في حجرة المؤتمرات في أنجل بوستنغ هاوس وفندق ليفري، اللذين كانا قد استخدما للسكن واسطبل للماشية ويقعان في شارع غيلدفورد. كانت إنغريد ستورمار أكبر الموجودين سناً، بينما كان بيورن مولر أصغرهم.

قال بيورن، وهو رجل طويل ونحيف، بنبرة غضب: «إنهم يعرفون ما نقوم به». لكن إنغريد أوقفته ووضعت يدها على كتفه بحنان.

«لا تقلق بشأن غندو، فستحصل على وظيفة في مكان آخر، أنا واثقة من ذلك. ولن تثير غندو أي ضجة حول هذا؛ فهم قطعاً لا يريدون أن تبدأ وسائل الإعلام بإثارة فضيحة حولها».

كان بيورن قد أخذ نسخة من قاعدة بيانات الحمض النووي الخاصة بالشرطة الإنجليزية، والتي تتضمن عينات الحمض النووي الخاصة بالأشخاص المشتبه بهم في ارتكاب جرائم. لقد أرادت جمعية العلماء المهتمين بعلوم الوراثة استخدام تلك البيانات في دراسة من تمويلها، والحصول على التصاريح المناسبة لذلك سيكون صعباً. وكان الغرض من الدراسة هو تحديد تباين بعينه في توزيع إنزيم أوكسيديز لدى المجموعات العرقية المختلفة. وقد بُنيت على دراسة نيوزيلندية أشارت نتائجها الأولية إلى أن التباين الجيني الذي يسبب ميلاً لدى الأشخاص نحو العنف والإجرام كان يزيد بنحو الضعفين لدى الرجال الماوريين عن أولئك ذوي الأصول الأوروبية.

وقد شارك كبير الباحثين لدى جمعية العلماء المهتمين بعلوم الوراثة، وهو أستاذ متقاعد في علم الأحياء الاجتماعية، ملخِّصاً خطة أبحاثه مع بقية المجموعة. وقد شعرت إنغريد بأنها تقوم بعمل هام لمساعدة منظمة تضم الرجال والنساء المهتمين بالعلوم.

بعد الاجتماع، غادرت إنغريد الفندق، وطوت بحذر النسخ ووضعتها في حقيبة يدها. خلال مسيرتها المهنية، كانت قد أعدت دوماً نسخاً مكتوبة بخط اليد أو عبر الآلة لملخصات كل دراسة شاركت فيها. وقد كان احتفاظها بالوثائق في المنزل خطراً، لكنها لم ترغب بالاحتفاظ بها في أي مكان آخر.

ولم تكن هناك مدعاة للقلق حول ما إذا كانت المعلومات قد تسربت إلى مكان آخر. لقد ظنت أن الأبحاث التي تمولها لجنة الطاقة الذرية على الأقل ستبقى طي الكتمان، ولكن ليس هذا ما حدث.

في العام 1994، عندما كانت تعيش بالفعل في إنجلترا، عين الرئيس الأميركي كلينتون امرأة سوداء البشرة حكيمة تدعى هازل أوليري في منصب وزيرة، فبدأت تحقيقاً حول البحوث التي جرت على البشر خلال الحرب الباردة، وكشفت معلومات كان من المفترض أن تبقى طي الكتمان. شعرت إنغريد بالقلق، لكن اسمها لم يظهر في وسائل الإعلام.

بعد خمس سنوات لاحقة، نشر الصحفي الحائز على جائزة بوليتزر أيلين ويلسوم كتاباً حول الاختبارات الخاصة بالإشعاع، مما أثار هلع إنغريد للحظة. كان الكتاب يحوي معلومات جديدة حتى بالنسبة إليها. فعلى الرغم من أن ثلاثة من الأشخاص الذي منحوا البلوتونيوم في السلسلة الأولى من الاختبارات التي جرت في روتشستر توفوا خلال عام، إلا أن العديد منهم عاشوا لعقود، فبعضهم عاشوا ثلاثين سنة إضافية. وقد كانت تلك معلومات جديدة بالنسبة إلى إنغريد.

جانيت ستادت، المريضة رقم HP-8، لم تمت حتى نوفمبر من العام 1975. أما إلمير ألن، المريض رقم CAL-3، وهو رجل أسود جرى حقنه بالبلوتونيوم في العام 1947، فلم يمت حتى العام 1991. وقد نُقش على قبره الرمز CAL-3.

أسدل الستار على الموضوع في أكتوبر من العام 1995 عندما ألقى الرئيس كلينتون خطاباً يعترف فيه بالاختبارات غير الإنسانية. لم يثر ذلك اهتمام الأميركيين، فقد صدر هذا الإعلان في أوج الضجة التي أثارتها محاكمة

أو جاي سمبسون على جريمة القتل التي طغت على أخبار الخطاب. لقد كانت إنغريد مقتنعة أنه لم يكن بوسع أحد ابتكار حدث يغطي على الخطاب بشكل مثالي هكذا؛ حتى لو كان من يفعل ذلك محترفو الألاعيب الخفية في الاستخبارات الأميركية.

كما تعاملت معهم أيضاً في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم، ولم تكن تخشى أن يتم نشر دراساتهم على الملأ. تركزت إحدى الدراسات على البحث عن أساليب لاستخدام المواد المشعة مثل السيزيوم والبولونيوم في عمليات الاغتيال. وقد كان هناك بحوث مشابهة لدى الاتحاد السوفييتي.

أجبرت إنغريد عقلها على الكف عن التفكير في الاستخبارات الأميركية، فتلك الوكالة في يوم ما كانت تعرفها بشكل جيد للغاية.

جلس كل من إيريك وكيت جنباً إلى جنب في مكتب قليل الفرش في مقر المخابرات MI5 الواقع في ضاحية ميلبانك التي تقع بدورها قرب التايمز في لندن.

جلس هاغ غريفين خلف المكتب أمامهما. وهو رجل في العقد الرابع من العمر تقريباً، يضع نظارة تقليدية منحنية، وذو تسريحة شعر غريبة؛ إذ بدت تجعيدات شعره غزيرة وغير متناسقة مع مظهره. كما كان ضابط آخر يدعى جون ماكفيغون حاضراً، والذي تميز بنطقه بلهجة اسكتلندية ثقيلة.

أطلعهما إيريك بشكل مفصل على الأحداث التي وقعت في الأيام القليلة الماضية، وأراهما النصوص التي تحتويها المذكرات. وعندما أنهى كلامه، نظر غريفين إلى المذكرة والنسخ المصورة بتمعن، وقال: «هذا مذهل. لقد أخفى النازيون اليورانيوم المخصب».

حاول إيريك أن يفسر نبرة صوته، لكنه لم يستطع تحديد ما إذا كان مقتنعاً أم مرتاباً.

واصل غريفين كلامه: «يا له من ادعاء مدهش لا يدعمه أكثر من نصوص قليلة مقتطعة من مذكرات شخصية. وخاصة أنه لا توجد إشارة إليها في كتب

التاريخ التي أعرف عنها. أخبرني بالمزيد عن والدتك؛ بما أنها الشخص الوحيد الذي عاصر الأمر».

كان إيريك يود أن يترك والدته خارج الموضوع، لكنه عرف أنه لو أراد ترك أي انطباع إيجابي لدى الشرطة، فلا بديل أمامه سوى أن يكون صريحاً معهم.

«لقد درست والدتي وعملت في برلين في الفترة نفسها مثل أبي».

«هل كانت عالمة فيزياء؟».

«كلا. كانت خبيرة في علم الوراثة».

كان بوسع إيريك أن يرى الاهتمام في عيني غريفين أثناء تصفحه الوثائق.

«أي مجال عملك نفسه. ولكن، لم يكن مجال التكنولوجيا الحيوية قد ظهر حينها».

شعر إيريك بحمرة الخجل.

«نود التحدث إلى أمك في مرحلة ما، لكننا مهتمون على وجه الخصوص بذرية زميل والدك هانز بلوغر المقيمين في ألمانيا».

تفاجأ إيريك.

«ذرية بلوغر؟».

«ابنه وحفيدته كارلا بلوغر التي تم قتلها».

«كيف عرفت بشأن كارلا بلوغر؟».

نظر غريفين إلى زميله الهادئ ذي الشعر الرمادي الذي تحدث للمرة الأولى منذ وصوله.

قال ماكفيغون: «لدينا معلومات لا يمكننا مناقشتها للأسف. ولكن، دعنا نقول إن كمية اليورانيوم المخصب في العالم محدودة. لذا عندما تظهر كمية منه، فسيبرز السؤال حول المكان الذي أتت منه بشكل طبيعي».

«هل قام الألمان...»

«لا يمكنني الإجابة عن أي سؤال، فنحن من نطرح الأسئلة. سنقوم بنقل المعلومات التي زوّدتنا بها إلى زملائنا في برلين. فمن الواضح أنهم يرغبون

بالتحدث إليك حول المسألة في أقرب وقت ممكن».

كان إيريك يزداد حيرة أكثر فأكثر.

«سأغادر إلى ستوكهولم قريباً لحضور جنازة أبي».

«تود الشرطة الألمانية أيضاً التحدث إليك عن الشخص الذي أشعل الحريق، ونحن بالطبع مهتمون على وجه التحديد بادعائك أن شخصاً ما ربما يكون على معرفة بشيء ما عن اليورانيوم المخصب قد انتقل إلى هنا قادماً من برلين اليوم».

بحث إيريك في جيبه عن رقم لوحة السيارة التي كانت كيت قد دونتها.

«هاك الاسم والعنوان الخاص بمالك السيارة». قال وهو يناول الورقة إلى ماكفيغون الذي نظر إليها ثم مررها إلى غريفين.

«هلّا تعطينا وصفاً للرجل».

أجاب إيريك بدقة قدر المستطاع، وأضافت كيت وصفاً مفصلاً لشعر الرجل وملابسه.

«ممتاز». قال غريفين، ثم نهض من مكانه في إشارة إلى أن الاجتماع قد انتهى.

سأل إيريك وهو لا يزال جالساً: «ما الذي تخطط لفعله؟».

«أولاً، سنتحقق من كاميرات المراقبة في مطار هيثرو لنتأكد من الرجل الذي وصفته، وقد نحتاج إلى أن نريك الصور للتأكيد. ثم سنتفحص سجلاتنا وخلافه، وبالطبع سنبقى على تواصل مع زملائنا في برلين. يمكنك أن تسترخي وتذهب إلى المنزل. سنتولى الأمر من هنا».

(37)

استقلت إنغريد سيارة أجرة إلى المنزل من غيلدفورد، وكانت تقوم بتخمير بعض أعشاب الشاي في المطبخ، فيما كان لحن سمفونية بتهوفن السابعة يتدفق من المكتبة البعيدة.

فجأة، سمعت صوت نقر على الباب، أو بالأحرى سمعت قرعاً شديداً، فهرعت للنظر إلى الشاشة المثبتة في فتحة صغيرة في البهو ورأت إيريك. ارتعدت إنغريد بشكل لا إرادي، وحاولت طرد مخاوفها من أفكارها. لماذا لم يتصل بها ليخبرها بأنه قد عاد من ألمانيا؟

تواصلت الطرقات الغاضبة واحدة تلو الأخرى.

وسمعت صوته المكبوت وهو يقول: «أمي، افتحي الباب! أعرف أنكِ في الداخل».

انتصبت إنغريد في وقفتها وفتحت الباب. وقف إيريك أمامها، وشعره في حالة فوضى، فيما بدا غير حليق الذقن، وتوجد هالتان سوداوان حول عينيه.

نظر إليها والشرر يتطاير من عينيه.

فقالت إنغريد وهي تحاول أن تبدو نشيطة: «ادخل بعيداً عن المطر».

خطى إيريك إلى البهو، فأغلقت إنغريد الباب خلفه.

«ناولني معطفك، فسأعلقه كي يجف».

فقال بصوت بارد ومنخفض: «لا تكترثي بمعطفي».

للحظة ما، كان من الصعب على إنغريد النظر إلى عيني ابنها مباشرة. وقد بدت الموسيقى البهيجة القادمة من المكتبة وكأنها قد أضافت بعداً درامياً إلى الموقف.

قال إيريك: «ستخبرينني بكل شيء الآن».

«دعنا نجلس».

«كلاّ، دعينا نتحدث. سنفعل ما أ...»

«عزيزي، لن نقف هنا». سارت إنغريد إلى داخل المكتبة، وتبعها إيريك.

«أعرف ما يكفي الآن؛ مما يجعلني أخبركِ بأنه ما من فائدة في محاولة إنكار أي شيء. والآن، أود سماع ما تبقى؛ بشأنكِ وبشأن أبي».

تنهدت إنغريد وجلست خلف مكتبها: «هل تود الحصول على بعض الشاي؟ كنت أقوم بتخمير بعضه للتو».

«كلّا، لا أود الحصول على أي شاي لعين، بل أود التحدث إليكِ». كان يصرخ تقريباً.

«حسناً، ولكنْ ثمة أمور يود المرء تركها طي الكتمان، وأثق أن لديك بعضاً منها أيضاً. فعندما تعلم أنه ليست هناك أدنى فرصة بأن يتفهم الآخرون الوضع الذي دفعك للتصرف بالشكل الذي تصرفت به، وبأن تتخذ القرارات التي اتخذتها...»

«لست مهتماً بالمبررات».

تفاجأت إنغريد من عدم سماعها نبرة غضب في صوته، وإنما شيء ما أقرب إلى شعور بالخزي، وقد أراحها ذلك قليلاً.

«لقد عملت على بحوث التناسل الانتقائي، ولكن لم يبدأ ذلك بواسطة النازيين. أنت تعلم علم اليقين أن ذلك بدأ في أميركا. إن كولد سبرينغ هاربور مكان مألوف بالنسبة إليك يا إيريك. إنها مهد علم التناسل الانتقائي. يجدر بك تقبل حقيقة أنك شخصياً كنت تعمل في مجال علم تحسين النسل...»

قال بعنف «لا تزيفي الحقائق!».

«ألا تود سماع الحقيقة؟ حسبت أن هذا ما تسعى وراءه».

صمت إيريك على مضض.

«ليست مصادفة أن مشروع الجينوم البشري قد بدأ في كولد سبرينغ هاربور. لقد أتيحت لك فرصة المشاركة في عمل كنت أحلم به فقط. كم كنت أحسدك، وكم كنت سعيدة بالسرعة التي يتقدم بها كل شيء. لقد كانت لديك حواسيب لصنع الخريطة الجينية. أما نحن في دالم في برلين، فقد كان علينا

أن ندخل رموز ألوان العين والشعر إلى منظم الجداول الميكانيكي باستخدام البطاقة المثقوبة IBM Hollertith...»

«كفي عن هذا الهراء! لا يمكنكِ مقارنة أبحاثنا باختباراتك المتوحشة على البشر، وقتل الناس باسم علم التناسل الانتقائي».

سارت إنغريد نحو رف الكتب وقالت: «لا تكن معتداً بنفسك يا إيريك. لا تخدع نفسك بالتلاعب بالألفاظ. لقد ضم القائمون على برنامج T4 للقتل الرحيم الأخصائي النفسي إرنست رودين الذي جرى تمويل عمله من قِبل مؤسسة روكفلر. وكان شريك رودين هو فرانز جي. كالمان، وانتقل إلى نيويورك في العام 1936».

وأخذت كتاباً مغطى بالقماش من الرف.

«أكمل كالمان دراسته لمجموع الصفات الوراثية لمرض الفصام في نيويورك، وقد استند في جزء منه على الأنشطة النازية الخاصة بالقتل الرحيم...»

«أنا هنا لأسمع عن أنشطتكِ خلال الحرب. إنكِ تتصرفين بجبن ومراوغة».

«أفضل الحديث عن أنشطتك يا إيريك. لقد كان كالمان عضواً في مجتمع علم تحسين النسل بعد الحرب، ولكنه أسس هو وأحد شركائه منظمة تعرفها أنت بشكل جيد؛ هذا صحيح، الجمعية الأميركية لعلوم الوراثة البشرية، وهي منظمة علمية احترافية أسست على تعاليم علم التناسل الانتقائي. الآن هذه المنظمة نفسها هي أكبر منظمة في هذا المجال في أميركا، جزئياً لأنك وكيت وثمانية آلاف آخرين من أخصائيي علم الوراثة تسددون ثمن العضوية فيها».

لمحت إنغريد مزيجاً من الهلع والكراهية والإنكار على وجه إيريك. ولكنها لم تنزعج من ذلك، فقد كانت قد قررت في وقت سابق ما ستقوله، ولم تكن تعتزم إطلاق الأحكام؛ حتى على ابنها.

«إن كلاً من منظمة كالمان وشركتك مكرس لتطوير أسلوب لتشخيص الجنين، بغية تقليل عدد المواليد من الأشخاص غير المرغوب فيهم. لقد كانت الجمعية الأميركية لعلوم الوراثة البشرية هي القوة المحركة خلف مشروع الجينوم البشري الذي جرى تدشينه في كولد سبرينغ هاربور، مهد علم تحسين

النسل...»

صمتت إنغريد لالتقاط أنفاسها، لكن إيريك كان لا يزال صامتاً. وكان وجهه خالياً من التعابير الآن بشكل مقلق، ونظرته باردة. وكل ما كان بوسع إنغريد القيام به هو إبقاء صوتها منخفضاً على الرغم من حقيقة أن إيريك كان مثل الجبل الذي يصعب تسلقه.

«لقد حاول علماء تحسين النسل التخلص من العيوب الوراثية عن طريق تعقيم حامليها. أما الآن، فيحاول علماء الوراثة التخلص من العيوب الوراثية عن طريق إجراء اختبارات جينية قبل ولادة الطفل، والنتيجة متساوية في الحالتين. فقد تم تحديث الأساليب المتبعة فقط، والآن يرغب الناس برؤية هذه العملية كقرار يتخذه الوالدان؛ قرار يتخذه أفراد. ولكن، يمكنك أن تتيقن من أنه ينظر إلى الأمر من منظور أوسع من ذلك من قبل صناع القرار والعلماء القادة المسؤولين عن تقدم المجتمع. ولا تكشف المعلومات الوراثية تاريخ الأحياء البشرية فقط، وإنما مستقبلها أيضاً. إياك أن تعتقد للحظة أن أولئك الذين يتحكمون في ذلك النوع من المعلومات لن يعمدوا إلى استخدامها، عاجلاً أم آجلاً...»

«أنتِ تنظرين إلى كل شيء وكأنه مخطط شرير، ولكنكِ نسيت أهم شيء، وهو أن الباحثين الوراثيين يحاولون إيجاد طرائق لعلاج المرض. ليست للأمر علاقة بالتناسل الانتقائي، بل له علاقة بمساعدة الناس! والآن، سنتحدث عن أنشطتكِ في ألمانيا النازية. هل تسمعينني؟».

«إذاً، لنتحدث، ولكنني آمل ألا تلجأ إلى حكمة الإدراك المتأخر. لقد جرى تمويل قسم علم تحسين النسل في دالم من قبل مؤسسة روكفلر التي مولت أيضاً برنامج التناسل الانتقائي في كولد سبرينغ هاربور، كل هذا إلى جانب تمويل مؤسسة كارنيغي وعائلة هاريمان. وقد مول هنري فورد الثالث مجلس السكان. كانت تبرعات المنتجين الصناعيين هي الممول للعلوم وقتها، ولكن الآن جرى تسخير علوم الوراثة كوسائل ربح للشركات، بما في ذلك غندو. كما قاموا بتسجيل براءات اختراع بالكائنات البيولوجية، فجنوا أموالاً

من ورائها، وأدخلوها في جيوب الملاك من دون وجود أي نوع من الهيئات التنظيمية الوطنية. وأنت تعرف تمام المعرفة نوع التقدم الذي ستقود إليه في نهاية المطاف».

«ألا تدركين أنكِ كلما شرحتِ أكثر، بدوتِ مذنبة أكثر؟ إذا كان ما فعلته يمكنه أن يخرج إلى العلن، فلماذا يصعب عليكِ التحدث عن الأمر؟».

«في الثلاثينيات، كانت ثمة بحوث حول التناسل الانتقائي تجري في كل مكان حول العالم. في كل مكان يا إيريك. لقد كان ذلك هو التيار الرئيس للعلوم. سأعقد لك مقارنة، إن الأمر يشبه بالضبط فكرة أن الإنسان هو السبب في التغير المناخي، وهذه الفكرة تعتبر وجهة النظر الوحيدة الصحيحة في اللحظة الراهنة. فكل باحث يرغب بالحصول على تمويل لأبحاثه عليه أن يتكيف مع ذلك. ولكن، دعنا نفترض أنه سيتم لاحقاً إثبات أن فكرة وقوف الإنسان خلف التغير المناخي نظرية خاطئة، وأن الباحثين الذين صدقوها سيخسرون سمعتهم».

«لا يمكن أن تكوني جادة! قد يعتبر خبراء علم تحسين النسل أنفسهم أخصائيين في علم الوراثة، ولكن العكس ليس صحيحاً. لا يمكنكِ الادعاء بأن التكنولوجيا الجينية مجرد وجه آخر للتناسل الانتقائي. تلك هي أغبى...»

«أقول ذلك لتوضيح وجهة نظري. بالطبع، لقد قضيت وقتاً في التحقق من مسؤولياتي الشخصية، وأتفهم تماماً أن كل الدراسات العرقية كانت تضم الكثير من الهراء. هراء من النوع الذي كان يتم في الولايات المتحدة وأوروبا في الثلاثينيات. أعني، إن كل الكلام الذي كان مثاراً حول «العرق الآري السامي الأشقر» لم يكن إلا شعوراً خالصاً بالذاتية وأوهاماً رومانسية وطنية. وبالطبع، كان من الممكن أيضاً أن يُترك اليهود الألمان في سلام».

نظر إيريك إلى أمه من دون أن يخفي اشمئزازه، وردد وراءها باستهزاء: «كان من الممكن أيضاً أن يُترك اليهود الألمان في سلام! يا لتواضعكِ!».

قالت إنغريد وهي تشعر بالدهشة من هدوء صوتها: «دعني أكمل حديثي يا عزيزي. لم يكن ثمة سبب منطقي للسلوكيات العدوانية المناهضة لليهود، لأنه

كان من الممكن استخدام قدراتهم الفكرية لمصلحة ألمانيا والبشرية جمعاء. فكِّر فحسب في شخص مثل ألبرت أينشتاين أو ليز ميتنر، أو جميع الآخرين الذي دُفع بهم بصورة عبثية للعمل ضد الألمان. أعني، كان بوسعك الزواج من كونسويلا أو من تلك الفتاة الصينية، ماذا كان اسمها؟ لقد بحثت عنهما لاحقاً، وكانتا كلتاهما تحملان درجة الدكتوراه عندما بلغتا سن الخامسة والعشرين. لقد كان من غير المنطقي بالنسبة إلي أن أتصرف بشكل غير معقول حيال مسألة تافهة مثل عرقهما...»

«لقد كنتِ غير معقولة مطلقاً. كم كنت أبلغ من العمر حينها؟ السادسة عشرة!؟ يا إلهي! لقد كنت في المدرسة العليا حينها، ولم أكن أفكر في الزواج! إنه من المقزز للغاية أن تعرف أن أمك لا تزال عنصرية مسعورة خلال السبعينيات...»

نجحت إنغريد في الابتسام بضجر، وكأنها كانت تشعر بعدم جدوى توضيح أبسط مسألة في العالم لطفل محب للاستطلاع في الثالثة من العمر.

«لا يهم على الإطلاق ما فعلته أو اعتقدته عندما كنت شابة، فقد كنت فتاة حمقاء في عالم لم يعد له وجود الآن. لقد أردت أن أوضح لك فقط أن الحفاظ على الجنس البشري لن يكون أسهل بوجود عصابة من «الآريين» الذين وُلدوا في أوروبا وأميركا، والذين لا يساعدهم انخفاض مستوى ذكائهم إلا في الترفيه الشامل السلبي واستهلاك المسكرات. وأن أي شخص هندي أو صيني نشط أو أي شخص منتج من أي عرق على الإطلاق، سيكون أكثر قيمة لتطور الجنس البشري بألف مرة».

«تطور الجنس البشري! هذا كلام نبيل. هل لديكِ أية فكرة عن حقيقة أن أفكاركِ الخيرة تلك بشأن المساواة بين الأجناس لا تثير أي اهتمام لدى الأشخاص العاديين؟».

«استمر في سخريتك. ولكن، إذا كان ثمة أحد في هذا العالم يتحلى بالذكاء الكافي لفهم ما أتحدث عنه فهو أنت، فقط إن أردت ذلك. إن العالم يدار بحماقة شديدة اليوم؛ لدرجة أن تلك الحماقة لن تتاح لها الفرصة ليظهر

تأثيرها، لأن البشر سيدمرون القدرة المادية للحياة على الكوكب أولاً».

شعر إيريك بالهيستيريا قليلاً وهو يواجه أمه، إذ لم يكن قادراً على فهم أي مما تقوله. هل هي مجنونة؟

تعين عليه كبح رغبة مفاجئة في الضحك. هل كانت حقاً تميز نفسها في الأيام الخوالي بأنها عقلانية جداً ومناصرة لحماية البيئة؟

واصلت كلامها مثل آلة تمت برمجتها: «إن التطور بطيء، لكن تدمير البيئة ليس كذلك. أنا أفضل أن أرى العالم يحكم بطريقة تجعل من هذا الكوكب- الوحيد الذي تمتلكه الإنسانية- يفي بالغرض. لذا، سيكون حلم والدك باستعمار الفضاء غير ضروري، ولكن ما نحتاج إليه في هذه اللحظة وحتى نهاية العالم هو أن نطبق العدالة والمساواة؛ بأن تحصل كل عائلة صينية وهندية وأفريقية على سيارة وثلاجة ومجمدة وموقد وجهاز ميكروويف، وليس مجرد قطعة واحدة فقط، ولكن أن تكون جديدة وأفضل طوال الوقت. كان من الممكن أن يكون هذا عالماً توجد فيه أطراف مسؤولة تراقب التطور اعتماداً على العلم والتفكير العقلاني، وليس على الأديان والخرافات، أو على حوافز الربح التي تتسم بقصر النظر. لكن ذلك ليس ما حدث، فقد قمنا بالفعل باختراع الطاقة الذرية، ورغم ذلك يتجه العالم مباشرة نحو حرق الكربون في الهواء، وذلك بشكل غير مسؤول وينم عن قصر نظر. لن يتمكن كل من أوليفيا وإميل من الفرار من الأشياء المريعة التي ستحدث. وقد تسعى أنت إلى الموت قبل أن يحين أوان ذلك...»

صحيح. طوال فصل الشتاء في العام الماضي، ما انفكت تردد كيف أن درجات الحرارة في نيوك، عاصمة غرين لاند، قد ارتفعت باضطراد في شهري يناير وفبراير. لقد كانت غرين لاند تذوب طوال الوقت.

قال إيريك بشكل قاطع: «لقد تلاعبتِ بي طوال حياتي، لكنني لم أدرك ذلك». لقد تملّكته كل المشاعر الممكنة التي لا يمكنه إظهار أي منها. «لن نتحدث عن تدمير البيئة الآن، بل سنتحدث عن تدمير البشر، وسنتحدث عن قسم علم تحسين النسل. أنتِ متهمة بارتكاب فظاعات لا يمكن للعقل

تصورها».

«أنت لا تعرف ما تتحدث عنه. لم أكن متهمة قطّ بارتكاب فظاعات، بل على العكس تماماً، لقد أنجزت عملي لخدمة الناس».

حدق إليها إيريك بعدم تصديق وقال: «إذاً، ما زلتِ تنكرين ذلك! وما زلتِ غير قادرة على الاعتراف بالحقيقة لي!».

«أية حقيقة؟ ما الذي تريد مني قوله بالضبط؟».

«أنكِ كنت خبيرة في علم تحسين النسل في ألمانيا النازية، ومساعدة لكارين ماغنوسن. وأن من بين المواد التي استخدمتها في أبحاثك أعين توائم تم تزويدكِ بها من قبل الطبيب جوزيف منغيل. لا يمكنكِ إنكار مسؤوليتكِ!».

«وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد كنت مساعدة شابة، وقد أردت إنجاز أبحاثي ومساعدة البشرية».

«كفى. لقد أجريت أبحاثكِ على عيون أطفال تم قتلهم!».

«لقد أخبروني أنها عيون مأخوذة من أشخاص موتى. لقد فعلت ما أمرني به رؤسائي. لماذا كنت سأرفض؟».

«لأنه تم قتل أناس كي تحصلي على المواد اللازمة لأبحاثكِ! لا يمكنك أن تكوني قد اعتقدتِ أن تلك العيون قد أتت من أشخاص ماتوا بفعل أسباب طبيعية».

«لقد كنت أعتقد ذلك في البداية، ولكنني سمعت لاحقاً أنها مأخوذة من أشخاص كانوا سيموتون على أية حال. وما كنت لأتغاضى عن أي جريمة تحت أي ظرف. ولكن، بما أن أعضاءهم الجسدية قد انتهى بها المطاف في خدمة العلم، فهم لم يموتوا عبثاً».

هز إيريك رأسه وهو يشعر بالعجز: «كيف يمكنكِ التحدث هكذا؟ أما زلتِ تكابرين؟ إن التضحية بالبشر خطأ، مهما كان الغرض النبيل الكامن وراء ذلك. إن عمليات الإبادة ليست لها علاقة بالعلم».

تنهدت إنغريد وقالت: «أنتم علماء الوراثة اليوم تكررون دائماً ذلك الجدال لأنه يخلصكم من أغلال الماضي. هل من المنطقي توقع أن تكون

مساعدة شابة قادرة على نقد مستوى الأبحاث عندما يصنفها أساتذتها على أنها عالية المستوى جداً؟ كما أسلفت، لم أكن أعلم من أين تأتي المواد. لقد كان الدكتور منغيل رئيس قسمنا، وهو ربيب فون فيرشور. لماذا كنت سأشك في أن شيئاً فظيعاً قد حدث؟ لقد كان أبي يعرفهما أيضاً».

للمرة الأولى، كان ثمة شيء من التوتر، أو شيء ما آدمي في صوتها.

«أعلم أنك تفضل عدم سماع ذلك، لكن جدك كان أحد الداعمين المؤثرين جداً للنازية في السويد. وبخلافي، لم يقم بمراجعة تصرفاته حتى بعد أن ارتكبها؛ وذلك عندما انكشفت الحقيقة حول منغيل وكل الفظائع التي ارتكبها. عندما سمعت عن الفظائع التي ارتكبها منغيل، ظننت أن أبي سيقطع علاقته به، وسيمتنع عن إرسال المال إلى أميركا الجنوبية وكل تلك الأمور، لكن ذلك كان منافياً للعقل. فقد كان أبي رجلاً عجوزاً، وسجيناً لخيالاته، وقد فضل تصديق وجهة نظر منغيل للأحداث. وقد كان هذا ما باعد بيننا أخيراً».

لم يكن إيريك يعرف ما يمكنه قوله. فقد كان المال الذي ورثته أمه عن أبيها مرتبطاً بغندو. كما أنه قد تم تمويل شركته وتمويل جوزيف منغيل؛ شركة تكنولوجيا الجينات الأولى في الوقت الراهن، وأفظع دجال في تاريخ البشرية، من قبل الشخص نفسه. لقد كانت هذه الفكرة غير معقولة ومخيفة للغاية، لدرجة أن كل ما كان بوسع إيريك القيام به هو هزّ رأسه في حيرة.

واصلت أمه حديثها بهدوء وبتواضع أكثر من قبل: «لم يعترف أبي قطّ بأن ثمة أي شيء يدعو إلى الندم، لكنني شعرت بالندم بالطبع. لقد كان أكثر يوم صادم في حياتي عندما قرأت عما فعله منغيل في ذلك المعتقل. وقد ندمت على عدم محاولتي معرفة من أين تأتي المواد المستخدمة في البحوث في دالم. لكن رولف لم يكن يعتقد أنني نادمة بما يكفي، فقد ندم على تصرفاته بشدة. وبحسب رأيه، أنا لم أحاول التكفير عن أخطائي المزعومة. أكفر عنها؟!! إن فكرة التكفير عن الأخطاء محض خداع في رأيي. وأنا لم أرغب بأن أحاول إصلاح نفسي بالتكفير عن حماقات ارتكبتها في شبابي. لقد حملت الأخطاء التي ارتكبتها معي، ولم أكن متسامحة مع نفسي؛ رغم أنني أشك في أن أياً

كان سيصدق ذلك».

ارتعش صوتها وظهرت الدموع في عينيها. وقد حاول إيريك تجاهل مشاعرها، رغم أنها بدت صادقة.

سألها بهدوء: «هل أخبرتني بكل شيء تعرفينه حول مخزون اليورانيوم عندما تحدثنا عبر الهاتف؟».

«أجل. كيف عرفت بشأن الأبحاث التي أجراها رولف على اليورانيوم؟ هل حدثك عن ذلك؟».

نهض إيريك فجأة، واندفع نحو الباب.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«سوف أعود غداً على أبعد تقدير».

تسللت تشارلي إلى جواره في الردهة. لقد غدا لاختيار أمه تربية هرّة بعد جديد لدى إيريك الآن، فقد كانت سلالة قططة المانكس مريضة ذات يوم، لكن صحتها تحسنت عبر التكاثر.

صاحت أمه من ورائه: «أود أن أتحدث معك أكثر عن علم تحسين النسل. أنت حريص للغاية على نفض يديك منه، لكن القضاء على خمس سكان العالم يحدث الآن؛ وذلك منذ أن سنّت الصين قانون الأمومة في العام 1994. لقد قضى قانون الرعاية الصحية للرضع والأمهات بضرورة التخلص من ذوي الاحتياجات الخاصة. إنه نهج تقليدي لعلم تحسين النسل، وأشبه بنسخة محدثة ومنقحة لقانون التطهير العرقي الألماني الصادر في العام 1934. لكنني على ثقة بأنه لن يخطر ببال الصينيين استخدام أساليب التشخيص التي تتبعها غندو...»

أغلق إيريك الباب بعنف وخرج إلى المطر.

(38)

كانت الأمطار تهطل بعنف على طريق كمبشوت في ضاحية ستريثام في لندن. ولم يكن ثمة شيء يميز المبنى رقم اثنين وسبعين عن المباني التي تليه. فقد كان الطلاء متقشّراً عن الأبواب، وكانت الطحالب تغطي الأسطح، وكانت ثمة حديقة خلفية طويلة وضيقة فيها عربة أطفال مهجورة وخردوات أخرى ملقاة على العشب الذي تعلوه نباتات ضارة.

عند إحدى نوافذ الطابق الثاني التي تطل على الحديقة الخلفية، كانت هناك ستائر جديدة ذات ألوان داكنة ستجعل الغرفة مظلمة للغاية لولا وجود مصباح على الطاولة.

في دائرة الضوء المنبعث من المصباح، قامت أصابع شخص ما بتأنٍ بتوصيل سلك أصفر اللون بأداة تفجير إلكترونية، ثم التقطت مفكاً وأحكمت تثبيت البرغي الذي ثبّت السلك إلى أن أصبح ثابتاً في مكانه بإحكام. كانت المتفجرات موضوعة خلف الكرسي ذي الذراعين.

راقب مالك «نظمي» بينما كان يعمل بحرص.

تمتم نظمي وهو منهمك في العمل: «كنت أود أن تكون أكياس المسحوق متصلة بالمتفجرات بالفعل».

فطمأنه مالك بالقول: «ستكون هنا خلال أقل من ساعتين».

كان كل من راشد وكريم وبشير قد اتصلوا بهما في الوقت المقرر عندما عبروا القناة، لكن حادثاً وقع في الطريق الدائري M25 الذي يحيط بالمدينة وعطلهم.

جعل هذا الوضع «مالك» عصبياً قليلاً، لكن أهم شيء هو أن المسحوق في السيارة بأمان.

أزالت مساحتا الزجاج الأمامي أكبر قدر ممكن من مياه الأمطار، لكن إيريك لم يكن يلاحظ هطول الأمطار. فقد قاد سيارته عبر الطريق المعتاد الذي يصل إلى غيلدفولد بشكل تلقائي، وكأنه طيار آلي.

تدفقت كلمات أمه في عقله مثل ينبوع منفجر من باطن الأرض. ولكن بدرجة ما، تفهّم تفكيره السليم كل ما قالته بشكل كامل. وبدرجة أهم، وبدرجة عاطفية، شعر بأنه قد تعرض للخيانة بشكل كامل. وقد أصبحت أمه في عداد الموتى بالنسبة إليه الآن.

وعلى الرغم من أن الأدلة المكتشفة من سنوات العهد النازي لا يمكن دحضها، إلا أن اعتراف أمه كان لا يزال حدثاً جللاً، أو ليس اعترافها في واقع الأمر، وإنما رفضها إظهار أي شعور بالتواضع أو الخزي، والطريقة التي دافعت بها عن تصرفاتها. وكي تزيد الطين بلة، رأت في عمل إيريك استكمالاً لعملها، ربما حتى بطرائق قاسية لم يكن إيريك نفسه قادراً على إدراكها بعد.

باغتت أفكاره ذكرى أحد الاجتماعات التي دعته أمه لحضورها، وذلك للقيام بعرض تقديمي حول مشروع إعداد خطة للجينوم البشري. كانت ثمة غرفة اجتماعات في روزن إن ممتلئة ببعض أصدقاء أمه القدامى؛ القدامى بالمعنى الحرفي، بما أن العشرات منهم أو نحو ذلك من الأشخاص الموجودين كانوا جميعاً من المتقاعدين. لم يوضّح أحد منهم حقاً خلفياته له، ولم يكن هو على وجه الخصوص مهتماً بذلك. كان يتحدث أمامهم فقط كي يبهج أمه، ولأنه- وفقاً لها- كان من بين هذا الجمع الجدير بالاحترام من كان بصدد عملية اتخاذ قرار في ما يتعلق بالوجهة التي توجه إليها المنح والرواتب من قبل المؤسسات الكبرى.

فقط الآن، في هذه اللحظة بالذات، أدرك من كان أولئك الأشخاص. لقد كانوا نسخاً مطابقة لأمه، كانوا أناساً مقتنعين بأن الجنس البشري يجب إعادة صقله على نحو فعال. كما أنه تلقى مكافأة على أطروحته من مؤسسة روكفلر؛ من أحد الأشخاص المقربين من أمه.

لكن أسوأ شيء عرفه هو ما قالته له أمه بشأن جده مورفار. فقد وجد

إيريك أنه يكاد يكون مستحيلاً بالنسبة إليه أن يصدق أن جده كان قد دعم منغيل؛ حتى بعد الحرب. لكنه كان يعرف أن ذلك حقيقي؛ لأنه سمع ذلك بنفسه عندما كان صبياً.

كانت الذكريات تتدفق إلى عقله بوضوح مزعج، وخاصة ذكرى فصل الخريف عندما كانت أمه تحدثه عبر الهاتف. لماذا تذكرها بوضوح شديد؟ في كل مرة كانت تتحدث فيها عبر الهاتف، كانت تبدو غاضبة وخائفة، وكانت هي ووالده قد انفصلا عن بعضهما قبل عامين، وكان إيريك يعيش معها في أورلاندو. وكان وقتها يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة تقريباً، وكان ذلك في العام 1970.

كان ثمة خطب ما، ولم يكن قادراً على سماع كل شيء بوضوح من غرفته الموجودة في الطابق العلوي، لكنها كانت تتحدث باللغة السويدية. لا بدّ أنه مورفار! هرع إيريك صوب الدرج، فقد أراد التحدث إلى جده، إلا أن نبرة أمه المتوترة وشديدة الاهتياج أوقفته. كان بوسعه أن يخمن أنها لا ترغب بأن يستمع إلى ما تقوله. ولكن، ما السبب؟ وضع أذنه على الجدار الخاص بالغرفة المجاورة وأصغى السمع.

لماذا تصرخ في وجه جدي؟! لقد بدت كما لو أنها تبكي. وفكّر حينها أنه لم تكن ثمة فائدة من محاولة فهم تصرفات البالغين...

«أرجوك يا أبي، ارحل عن هنا! أنت لا تدين لهم بأي شيء...»

من هذا الذي لا يدين له بأي شيء؟ لقد كان مورفار غنياً! كان يسافر كثيراً، وخاصة بعدما تقاعد. ولكن، أين كان هذه المرة؟ ولماذا أرادت منه أن يغادر؟

«أصغي إليّ يا أبي... لقد ساعدت الطبيب بما يكفي، وليس بيدك المزيد للقيام به، فضلاً عن أنه سيكون بأمان إذا عاد إلى البرازيل. هؤلاء أناس خطرون، لذا يتعين عليك أن تغادر الباراغواي».

تناثرت مياه بركة عميقة على الزجاج الأمامي لسيارة إيريك وكأنها قد انسكبت من دلو ما.

يـا إلهـي! لقـد أدرك الأمـر بوضوح تام الآن. لقد كانت تتحدث إلى أبيها عن الدكتور منغيل الذي كان قد فرّ إلى جنوب أفريقيا.

ظهرت لافتة مضيئة تحمل أسـماء عدة شـركات، ومن بينها شـركة غندو، أمام المصابيح الأمامية للسيارة. وعندما اقترب منها، انعطف بالسيارة. لقد شعر بأنه غير قادر على التنفس بشكل تلقائي بعد الآن؛ فقد بدا له وكأنه يتعين عليه إجبار نفسه على التنفس شهيقاً وزفيراً...

أوقف سيارته في مساحة الركن الخاصة بشركة غندو، وترجل من السيارة إلى الأمطار التي كانت لا تزال تهطل بشدة. وسار نحو الباب بالطريقة نفسها التـي فعلهـا مئـات أو ربمـا آلاف المـرات، ثم أدخل بطاقته فـي الجهاز قارئ البطاقـات، وأدخـل رمـز التعريـف الخـاص به من دون أن يلاحـظ حركاته أو حركات المحيطين به.

لقد واصلت العمل الذي بدأته أنا في ألمانيا قبل سنوات عديدة...

واصل إيريك سيره عبر المدخل، واستقلّ أحد المصاعد إلى بهو الشركة، وأشعل المصابيح، ثم سار متجاوزاً مكتب الاستقبال المنحني ودخل المختبر. بعـد ذلـك، توقـف بيـن الطـاولات وهـو يلهث بسـبب مشـيه السـريع. كانت الحواسـيب تصـدر صوتاً خافتاً، وكانت أضـواء آلات إجراء تفاعل البوليميراز المتسلسـل (PCR) تتوهـج. وكانـت أجهـزة الطـرد المركـزي وأجهـزة التعقيم وأجهزة تحليل اللون والمجاهير تلمع في غرفة التعقيم في الجانب الآخر من الزجاج.

حـوّل نظـره نحـو الحاسـوب المحمول الـذي كان قد تـم تخزين المنتج الرئيس للشـركة على ذاكرته؛ وهو برنامج تشـخيص الحمض النووي للجنين، أهم عمل أنجزه في حياته.

وأهم عمل أنجزته أمه في حياتها.

يمكـن اسـتخدام البرنامج للكشـف عن وجود الأمـراض الوراثية، ولمنع حصولها.

وذلك بغية تحسـين الجنس البشري.

أراد إيريك ألا يفكر في ما سيستخدم فيه البرنامج الذي أنتجته غندو في الصين في الواقع. لقد كان يعرف بشأن عمليات التطهير العرقي التي كانت أمه قد أشارت إليها، لكنها كانت قد شُرحت له بكلام قانوني بأفضل شكل ممكن، مع مزاعم بأن الفروق الدقيقة لا يمكن ترجمتها إلى لغات غربية.

اندفع إيريك نحو الحاسوب المحمول بحركة واحدة سريعة، ثم سحبه ورفعه عالياً فوق رأسه. كان ينوي تحطيمه على الأرض، لكنه توقف عندما رأى صورته منعكسة على زجاج غرفة التعقيم. أي خير سينجم عن الغضب؟ لقد كان مسؤولاً عن أنشطة الشركة، وكل تصرف ضار بحق غندو سيسبب الضرر لزملائه وموظفيه.

وضع الحاسوب مكانه، ورمى بنفسه على أحد الكراسي.

فجأة، طرأت على عقله خاطرة مثيرة للسخرية بشكل صارخ. هل كان لأمه أي انخراط مباشر في أنشطة غندو؟ أي الأجزاء في الشركة التي أولتها أكبر قدر من العناية؟

ذهب إيريك إلى منطقة المكاتب المفتوحة التي كانت مقسمة إلى مقصورات منخفضة الجدران، وجلس إلى أحد المكاتب. كان المكتب يعود إلى بيورن مولر، أحد «اكتشافات» أمه.

قام بإدخال كلمة المرور الخاصة به، وفتح الشبكة الداخلية الخاصة بغندو. لم يتمكن من الولوج إلى ملفات بيورن الشخصية، ولم يحاول فعل ذلك. وبدلاً من ذلك، تصفح أكثر سجلات قاعدة البيانات أهمية.

لقد نسخ بيورن كمية كبيرة من البيانات.

لماذا؟

لم يستطع إيريك التفكير في أي سبب يجعل بيورن في حاجة إلى تلك الملفات في عمله.

تجمع حشد كبير في ذكرى هجمات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك. أبعدت إنغريد نظرها عن الشاشة، وواصلت مشيها السريع والمضطرب. لم

يكـن بمقدورهـا التفكيـر فـي النوم، فقد كانت حزينة وغاضبة من نفسـها ومن ابنها. وقد كان قلبها لا يزال يخفق بقوة، وشعرت بأنه لن يستقر أبداً مجدداً.

كان بوسـعها تفهّـم السـبب الـذي جعـل إيريـك يشـعر بما كان يشـعر به بالطبع. فقد ارتكبوا أخطاءً خطيرة في الماضي، في قسـم علم تحسـين النسـل في برلين. لكن الأمر لم يكن وكأن الطب الألماني قد ارتكز فقط على عمليات التطهير العرقي. فقد كانت لدى ألمانيا أكثر حملة متقدمة لمواجهة السرطان في العالم، وكانت ثمة قيود على اسـتخدام الحديد الصخري، وفُرض حظر على استخدام الألوان الاصطناعية والمواد الضارة في الأطعمة. وكان أول ربط بين التدخين وسرطان الرئة قد حصل في ألمانيا في العام 1939. وقد حظر الألمان التدخين في العديد من الأماكن العامة، مثل المكاتب وغرف الانتظار. وجرى تنظيم عمليات الترويج للتبغ، واحتوت القطارات على أماكن لغير المدخنين.

تنهـدت إنغريـد. بالنظـر إلى الحالة المزاجية التي كان إيريك عليها عندما رحل، سيمر بعض الوقت قبل أن يعود، لقد كانت متيقنة من ذلك. في بعض الأحيان، يمكنه أن يكون حساساً بشكل طفولي للغاية بشأن بعض الأمور. لقد ورث الكثير من خصال رولف.

تذكرت إنغريد بوضوح كيف كان رولـف يشعر بالخزي، بالطريقة الطفولية نفسها التي أخفى بها ماضيه في ألمانيا عندما كانا يبنيان حياة جديدة في أميركا. كان هناك المئات من خبراء الصواريخ الألمان وعائلاتهم يعيشون في هانتسفيل في ألاباما، وعلى رأسـهم فيرنهر فون براون. لقد كانوا سـعداء بتركهم الطبيعة الصعبة والقاحلة الخاصة بولاية تكساس وانتقالهم للعيش على التلال الواقعة شـمال الاباما؛ حيث تم إنشـاء منشـأة ريدسـتون أرسـنال، وهي منشـأة ضخمة لاختبار الصواريخ.

لقد أراد رولـف منذ البداية أن يبقي على مسافة بينه وبين الألمان؛ لدرجة أنهما لم يشـتريا منزلاً في مونت سـانو أو على تلة سـاوركراوت حيث اسـتقر الألمـان، ولكنهمـا بـدلاً من ذلك اشـتريا منـزلاً بين الأميركيين فـي لوندوود. وقـد شـجع فـون براون الألمان على الانخراط بنشـاط في الحيـاة الاجتماعية

المحلية، وجعل من نفسه قدوة لهم. وقد قضى رولف وقت فراغه في موقع بناء المرصد والقبة السماوية الخاصين بالمدينة، واعتقدت إنغريد حينها أن ذلك علاج جيد لميوله نحو الاكتئاب.

في هانتسفيل، بذل رولف وإنغريد كل قدراتهما لإبراز أصولهما الشمالية؛ على الرغم من وجود عدد قليل من الناس الذين أظهروا عدم الود تجاه الألمان الذين انتقلوا للعيش هناك. كان الشخص الوحيد الذي تذكرته إنغريد هو مالك محطة الحافلات الذي كان قد فقد ابنه في الحرب، وقد علق لافتة على باب المحطة تعلن أن الألمان غير مرحب بهم.

اعتاد رولف السفر إلى المقر الرئيس لبرنامج القنبلة الذرية الواقع في لوس أنجلوس، أو إلى مركز المفاعل الكائن في أوك ريدج، لكنه أيضاً وجد وقتاً كافياً لإخبار إنغريد بشكل أعمق عن الفيزياء الإشعاعية. كان ثمة طلب على العلماء ذوي الكفاءة مثلها، وقد كان لديها الكثير من العمل لتقوم به في مجال اختبارات البلوتونيوم التي تم تمويلها والإشراف عليها عن كثب عن طريق أقسام الطب والبيولوجيا الحيوية التابعة للجنة الطاقة الذرية ذات النفوذ القوي.

ثم جاء العام 1950 الذي كان عاماً حاسماً. فقد وصلتهم أنباء مفاجئة في شهر يناير. فقد أتت كاثرينا من ألمانيا للعمل في وحدة طب الطيران في سان أنتونيو في تكساس، والتي كان يرأسها هابرتوس ستراغهولد.

كان الأميركيون يركزون جهودهم على البحوث العسكرية، مع التركيز على القوات الجوية. وقد تمّ الكشف عن كلاوس فوش باعتباره جاسوساً على البرنامج الذري؛ فقد مرر كل الأسرار الذرية الهامة الخاصة بمشروع مانهاتن إلى موسكو. وقد بدأ رولف وإنغريد عملية التقديم للحصول على الجنسية الأميركية إلى جانب الآخرين الذين وصلوا من ألمانيا؛ وهو ما أطلق تحقيقاً من قبل وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي حول المشتبه بهم في وجود صلات لهم بوحدة أس أس، أو بأنهم متعاطفون مع النازيين. وبسبب أصولهم الاسكندنافية، اجتاز كل من رولف وإنغريد التحقيق بصعوبة مع القليل من

الضغط من قبل المسؤولين.

اضطربت الأجواء أكثر عند بداية الحرب الكورية؛ مما جعل الكثيرين يعتقدون أن السلاح النووي سيستخدم قريباً، وأن الصراع سيمتد وسيتسبب في اندلاع حرب عالمية ثالثة. وقد قام رولف وزملاؤه في العمل، تحت إشراف فون براون، بإصرار كبير بإعادة إنتاج صاروخ ريدستون قصير المدى كي يخدم كنظام لنقل الرؤوس الحربية، وقاموا بتطوير صاروخ جوبيتر متوسط المدى. وقد أصبح عمل إنغريد مع لجنة الطاقة الذرية والباحثين الطبيين التابعين للجيش أكثر انضباطاً.

لا تزال تلك الذكريات تسبب لإنغريد الشعور بالانزعاج. ذهبت إلى المطبخ، ووضعت القليل من الحليب على الموقد كي تعد مشروب الكاكاو؛ فربما سيهدئها بشكل أفضل مما لو تناولت أعشاب الشاي. فهي ترفض تناول الحبوب المنومة.

لقد ندمت على إخبارها إيريك أن رولف كان يعلم بشأن مخزون اليورانيوم. ولكن، كيف عرف إيريك بشأنه؟

غلب شعور إنغريد بالغضب والقلق إحساسها بالخوف. ما كان يجب على إيريك أن يتدخل في أمور أكثر خطورة وذات تأثير كبير أكثر مما يدرك. هل يتعين عليها تحذيره؟

كلّا، فسيزيد هذا من اهتمامه بالأمر فقط.

تدفّقت رائحة الحليب الذي بدأ يحترق إلى وعي إنغريد، فاندفعت نحو الموقد، ونقلت وعاء الحليب الذي احترق قعره بغضب إلى طاولة المطبخ الحجرية.

تمنت لو أنها لم تقل شيئاً حول بقية الأمر أيضاً. فإيريك ببساطة لم يتفهم وجهة نظرها حول علم تحسين النسل وعلم الوراثة، ولم يكن من شأنه التدخل في وضع متفجر.

لقد تباعدت السبل بينهما في المجال العلمي الآن؛ وقد كان ذلك هو الشيء الذي لم ترغب حقاً بتقبله. فجأة، تملكها شعور بالغضب الشديد،

فرمت وعاء الحليب المحترق في الحوض بقوة، لدرجة أن الحليب تناثر على ملابسها.

مالت على الطاولة وهي ترتعد، وأدركت أنه يجب عليها أن تحذر بيورن؛ فإيريك ليس شخصاً أحمق على الإطلاق.

(39)

جلس إيريك برفقة كيت في غرفة المعيشة المظلمة، والمضاءة بواسطة مصابيح وُضعت على الأرض وعلى الطاولة. انهمر المطر على النافذة بشدة، وحركت الرياح بعنف سلك هوائي التلفاز المفكوك على جدار المنزل.

تناقش مع كيت بشكل دقيق بشأن ما قالته له أمه، فيما جلست تصغي إليه وهي في حالة ذهول.

قال إيريك فجأة: «لقد كنتِ محقة... لقد قام بيورن بنسخ الكثير من الملفات من قاعدة البيانات الخاصة بخدمة علوم الطب الشرعي. فهل تعرفين السبب؟».

«ليست لديه أي علاقة بتلك الملفات».

«اذهبي إلى غندو غداً وقومي بمسحها».

فكرت كيت للحظة ثم قالت: «لا يمكنك أن تكون جاداً. لقد أصبحت مذعوراً».

«لا تجادلي. كوني مطيعة فحسب، وافعلي ما أطلبه».

التقط إيريك الحاسوب المحمول عن الطاولة، وكتب القليل من كلمات البحث. لقد كان يعتزم إخبار كيت بشأن مخزون اليورانيوم أيضاً، لكن سلوكها المتشكك أزعجه. وتساءل عمّا إذا كان عليه التواصل مع الشرطة الألمانية في الصباح. هل من الممكن أن يكون الأمر برمته على علاقة ما بمقتل كارلا بلوغر؟

«انظري إلى هذا». قال وهو يري كيت النتائج التي عثر عليها، وتابع: «لقد حصلت على منحة مالية كبيرة من صندوق بايونير للتمويل. وقد كنت أعلم أنها مؤسسة مثيرة للجدل، ولكنني لم أكن أعلم أنها كانت على ارتباط وثيق جداً بأبحاث علم تحسين النسل...»

غادرت كيت الغرفة من دون أن تنطق بكلمة، فمن الواضح أن كليهما يشعران بالقلق والألم. كان إيريك يدرك أن ما يفعله يثير الغضب، ولكن لم يكن بوسعه القلق حيال ذلك الآن. قام بكتابة الاسم «جوزيف منغيل».

أمضى لحظة وهو ينظر إلى النتائج، ثم صعد إلى الأعلى، وهمس إلى كيت عبر باب غرفة النوم: «سأصعد إلى العلية».

«لماذا؟».

«سأصعد وحسب».

لم يكن قادراً على توضيح كل شيء لجميع الأشخاص؛ حتى إلى كيت.

اختلس نظرة إلى غرفة الطفلين. كانت أوليفيا تغط في نوم عميق، وتصدر صوت شخير منخفضاً، أما إميل فقد تقلب في فراشه بلا راحة.

كيف سيخبرهما يوماً بحقيقة جديهما؟ أو بحقيقة جدهما؟ هل من الضروري حتى إخبارهما بذلك؟

بالطبع، كان ذلك ضرورياً؛ إذ ينبغي تحطيم سلسلة الأسرار كي لا يُضطر طفلاه إلى المرور بما يمر به الآن.

فتح باباً ضيقاً وصعد الأدراج المؤدية إلى العلية، ثم اتجه نحو مجموعة من الصناديق الكبيرة القديمة، المملوءة بصناديق أصغر حجماً، والتي قام بفتحها بشكل عشوائي. كانت المرة الأخيرة التي قام فيها بالعبث بالصناديق قبل سنوات عديدة، وقد فعل ذلك مع ولديه، حين كان يبحث عن ألعابه القديمة.

عثر على مفكرة علم الأحياء الخاصة به، وتنقّل بين صفحاتها بعناية شديدة. احتوت المفكرة على تجارب مندل المتعلقة بنبات البازيلاء، ومخططات بيانية رُسمت بألوان مختلفة. كان لا يزال يتذكر الحماسة التي شجعته بها أمه لدراسة علم الأحياء ودراسة كل مواده. لقد كانت تدعمه، ولكنها ضغطت عليه أيضاً. وشعر الآن أنه يودّ أن يعيش طفولته مرة ثانية، كي يرى الأمور كلها من زاوية مختلفة.

رمى إيريك المفكرة داخل الصندوق مجدداً، وبحث بدقة وفي عمق

الصندوق. كانت ثمة شهادات لم يرها منذ عقود، باستثناء إلقائه نظرة خاطفة عليها عندما كانوا ينتقلون من منزلهم القديم، بالإضافة إلى مشاريع نجارة، وقطة بالية كان يستخدمها كدمية للفراش. عبث إيريك بها بقلق، ثم تذكر صوت رجل عجوز يقول له:

«إنه الأسلوت». قال جده موضحاً. «إنه يعيش في الغابات الممطرة الواقعة بين المكسيك والباراغواي، مروراً عبر أميركا الوسطى والجنوبية. إنه من سلالة النمر، وهو أصغر حجماً من الأسد، لكنه أكبر حجماً من القط العادي. وهو لا يشكل أي خطر على الإطلاق بالنسبة إلى البشر».

عثر إيريك على شعار أبيض مع الوصلة الخاصة به. كان النص المكتوب عليه ممسوحاً، ولكنه عندما أمسك بها على بعد سنتيمترات قليلة من وجهه، استطاع تبيّن ما كُتب عليه «صُنع في البرازيل».

أعاد القط الأسود إلى داخل الصندوق، وأخرج حزمة من البطاقات البريدية الخاصة بجده والملفوفة في شريط مطاطي؛ صوراً لشواطئ رملية وأشجار النخيل وساو باولو وريو دي جانيرو، لم تكن هناك طوابع بريدية لتخبره عن البلد الذي أرسلت منه أو التاريخ. لقد قام بقصّها، لكنها كانت في مكان ما في الجوار... عثر على كتيب صور كامل يضم طوابع بريدية أسفل حزمة البطاقات البريدية. كانت الطوابع البريدية القليلة الأولى هي الجميلة، فقد كانت هناك صور للطائر الطنان وصور أزهار. وكانت كل الطوابع البريدية قادمة من الباراغواي حتى العام 1963، ثم من البرازيل بعد ذلك.

سُمِعت نقرة إيقاعية قوية على الباب، فأومأ مالك إلى نظمي الذي ذهب لفتح القفل.

دخل راشد وهو يحمل في يده حقيبة لوندسديل رياضية تبدو ثقيلة. وكان يرتدي بنطالاً قصيراً وينتعل حذاءً لامعاً.

قال مالك وعيناه ثابتتان على راشد: «لقد استطعت الوصول في الموعد؛ رغم أنها ساعة الازدحام المروري».

فبادله راشد النظرات وقال: «أجل».

أخذ مالك الحقيبة إلى الغرفة الخلفية، حيث كانت الستائر لا تزال مسدلة.

سأل راشد: «هل كل شيء جاهز؟».

أشار نظمي إلى الجهاز الموجود على الطاولة وقال: «تبقى إضافة التوابل الأخيرة فقط».

ابتسم راشد، وأخرج الحاوية المصنوعة من الرصاص من الحقيبة ووضعها على الطاولة.

سألهما: «من منا سينفذ الخطوة الأخيرة؟».

كان عليهم أن يقرروا من سيحظى بشرف تثبيت القنبلة بشكل نهائي مِن بين خبيرَي صناعة المتفجرات.

نظر مالك إلى نظمي أولاً ثم إلى راشد وقال: «أثق بكل منكما بشكل كامل، لكن راشد اجتاز مسافة طويلة ليجلب المكونات. لذا، دعه يقوم بتثبيتها».

حمل راشد الصندوق المصنوع من الرصاص ووضعه على الطاولة.

(40)

جلس إيريك إلى مكتبه الذي ضربته الفوضى في حجرة مكتبه في البيت. ألقت أشجار القيقب ظلالاً خضراء على الحجرة، فيما سمع صوت مشاحنات الولدين الصادر من المطبخ، والجلبة التي تسببها الأطباق، وصياح كيت المتوتر. لقد كان ممتناً لكيت مجدداً؛ لأنها على ما يبدو تتركه بمفرده كي يفكر.

كان يحدد معالم الحقائق القليلة التي جمعها ويدوّنها. إذ إن هذه هي الطريقة الوحيدة لحل أحجية والده. كانت أحدث المعلومات وأكثرها خطورة هي اسم نظمي حلبي وعنوانه. فقد أعطته تلك المعلومة صلة بين نظمي والرجل الذي يسعى للحصول على مذكرات بلوغر. وهي صلة يمكنها أن تقوده إلى المذكرات التي تحدثت عن مخزون اليورانيوم، أو على الأقل يمكنها أن تمنحه معلومات عن سنوات والديه في ألمانيا.

بحث إيريك عن عنوان نظمي حلبي عبر الإنترنت، وطبع خريطة للمنزل، وجلس يفكر بعمق.

رن جرس الهاتف، وكان المتصل هو جاكوب، المدير العام لشركة غندو، وقد أخبره أن بيورن استقال من الشركة؛ بدءاً من اليوم.

توقفت حافلة تخص خدمة البريد السريع أمام المنزل، فأخبر إيريك جاكوب بأنه سيعاود الاتصال به لاحقاً، ثم وقّع على استلامه ظرفاً مغطى بالنايلون، وهرع بفارغ الصبر عائداً إلى مكتبه.

«من الذي أرسله؟». سأله صوت إميل من مكان بعيد، فلم ينتبه إليه إيريك.

«اترك أباك وشأنه الآن». أجاب صوت كيت من المكان البعيد نفسه.

أغلق إيريك باب الغرفة خلفه بحذر، ووقف عند مكتبه المغطى بالأوراق وبأكوام الكتب، وبحث عن المقصات. على الأرجح، لقد أخذته أوليفيا من أجل مشروع نحت. فقام بالتخلص من غلاف النايلون الذي كان يغطي الظرف.

كانت في داخله رسالة من بيرغمان- المحامي الخاص بوالده- لتذكيره بضرورة إبلاغه في حال وصول الطرد.

فتح إيريك الظرف الذي كان يحمل عنوانه بخط يد والده، فوجد أنه يحتوي على ظرف صغير مبطن عليه ختم؛ ختم من الشمع الأحمر الحقيقي، ولم يكن إيريك قد رأى مثله منذ أن كان صبياً؛ فقد رآه على وثائق أمه.

كان بإمكانه تخمين المحتويات من الشكل والوزن. وبعد أن عانى في فتحه، تبيّن له صحة تخمينه.

تسجيل كاسيت.

أدخل يده في الظرف متوقعاً أن يجد رسالة من نوع ما، لكنه كان خالياً. هناك فقط شريط كاسيت مدته تسعون دقيقة من صناعة شركة تي دي كي كُتب عليه «من أجل إيريك».

اندفع إيريك نحو المطبخ وسأل كيت: «هل ما زال لدينا مشغل شرائط الكاسيت؟».

نظرت أوليفيا إلى الشريط بفضول وسألت: «ما هذا؟».

ثم فكرت للحظة قبل أن تجيب عن سؤاله: «ربما يكون هناك مشغل شرائط كاسيت في المخزن. هناك واحد في الهوندا...»

تذكر إيريك الأمر نفسه، وكان بالفعل في طريقه للخروج من الباب.

فتبعته كيت، وسألته بتردد: «هل تود أن نستمع إليه معاً؟».

«كلّا. لا بدّ أن أستمع إليه بمفردي أولاً. ولكن، شكراً».

قبّلها على خدها، والتقط مفاتيح السيارة عن الطاولة المجاورة للباب الأمامي، وتوجّه إلى نهاية الفناء حيث كانت سيارة دفع رباعي من طراز هوندا تقف هناك. كان من الممكن بالفعل الشعور بنسمات الخريف في الهواء، وكانت ثمة برك مياه على الأرض من الأمطار التي هطلت مؤخراً. صعد إلى السيارة، وأدار المحرّك كي يستمع إلى الكاسيت، ثم أخذ نفساً عميقاً، وأدخل الشريط في المشغل.

ضغط على زر التشغيل من دون تردد، ومال برأسه على مسند الرأس،

واستمع إلى الضجة الصادرة.
ثم سمع نقرة وصوتاً.
«إيريك... إذا كنت تستمع إلى هذا، فهذا يعني أنني ميت».
أزعجه بشدة كلام والده الصريح.
«التاريخ الآن هو الثامن من أغسطس من العام 1998...».
كان الصوت مكبوتاً وبعيداً. انتقل إيريك عبر التسجيل إلى الأمام، ورفع الصوت.

«في البداية، أود القول إنك جلبت متعة ونوراً هائلين إلى حياتي. ولهذا السبب، لم أكن قادراً على إخبارك بأحلك الفترات ظلمة في حياتي؛ تلك الفترات التي أود أن أنساها. يؤسفني بشدة أنني لم أكن قادراً على محادثتك بشأن ذلك عندما كنت لا أزال على قيد الحياة. ولكن، حان الآن الوقت لكي تعرف. آمل وأثق بأنك لن تخبر أياً كان حول هذه الأمور، وأنك ستفعل الشيء نفسه بهذا التسجيل كما أفعل الآن؛ سلّمه إلى المحامي الخاص بك عندما تنتهي من الاستماع إليه، وأعطِه التعليمات نفسها التي أعطيتها للمحامي الخاص بي. ويستطيع إميل وأوليفيا يوماً ما أن يفعلا الشيء نفسه، وهلمّ جراً. لا يجب الإعلان عن هذه الأمور أمام العامة تحت أي ظرف، ولكن لا يجب أن تُدفن بشكل كامل أيضاً. إذ لا يجب أن تموت معنا وأن يتم إخفاؤها عن الأجيال القادمة».

أصغى إيريك إلى صوت أبيه بانتباه وألم.

«عندما كنت شاباً، كنت طموحاً جداً؛ مثلك بالضبط، ومثل العديد من الفنلنديين الآخرين. وقد قررت أن أدرس في ألمانيا، كما كان شائعاً حينها. في أغسطس من العام 1937 ذهبت إلى برلين، كي ألتحق بقسم الفيزياء في مؤسسة القيصر ويليام في دالم...»

لقد تحدث عن دراساته في برلين، والتقدم الثوري الذي كان سائداً حينها، ومفاعل الانشطار، وأطروحته في مجال بحوث اليورانيوم. لقد تحدث عن البروفيسور ديبنر، وصديقه هانز، والتحدي الذي واجههما؛ ألا وهو بناء

قنبلة ذرية. وفي آخر مرحلة من الحرب، كان قد تم نقله إلى القسم المتعلق بأبحاث الصواريخ لابتكار طريقة لحمل القنبلة إلى هدفها.

ثم أصبح صوته منخفضاً وغليظاً.

«أثق بأنك ستفهم سبب عدم تحدثي عن كل هذا...»

رفع إيريك مستوى الصوت. كانت هناك ضجة في الخلفية، ولكن كان باستطاعته فهم الكلمات بشكل أفضل أيضاً.

«لقد شاهدت في كهوف ميتلفيرك كيف تتم معاملة السجناء فإن تعثر أي من العمال البالغ عددهم عدة آلاف أو أغمي عليه بفعل الإجهاد ولم يقوَ على النهوض، كان يتم ضربه بواسطة عصا».

وأصبح صوته حزيناً وهو يتابع:

«وإذا لم ينهض السجين، فسيتلقى رصاصة في رأسه بكل وضوح وبساطة. لقد نفذوا عمليات إعدام شنقاً في المصنع، لكنني حاولت بإصرار الابتعاد عن القاعة 41 قدر استطاعتي. لم يكن ذلك ممكناً على الدوام، هل خمنت ما كان يجري هناك؟ بالطبع، فقد التقيت كاثرينا، وهي باحثة ألمانية في مجال الطب، التقينا عبر هانز...»

اعتدل إيريك في جلسته ومال إلى الأمام.

سعل، أو هذا ما يبدو على أي حال.

«لكن ألمانيا انهارت قبل اكتمال إنتاج القنبلة. وقد علمت أن مجموعة أس أس في مركز أبحاث بلزن كانت تتقدم علينا، لكنها قامت بعملها سرّاً، وقد بقي سراً إلى أن جند الأميركيون الرجال والمواد لمشروع مانهاتن. لقد كان كل شيء محاطاً بسرية شديدة، كما جرى التحقيق معنا أيضاً. ولكن حسبما يبدو، لم يُنظر إلينا على أننا نمتلك معلومات لم تكن بحوزة الأميركيين بالفعل. وقد نجحنا من عدة نواحٍ، ولكن لم يكن من بين اهتمامات أي كان إحداث ضجة بشأن ذلك بعد الحرب. لكننا عملنا على عزل نظائر اليورانيوم...»

حبس إيريك أنفاسه عندما ذكر والده أخيراً إخفاء اليورانيوم في ثورينغر فالد.

«لم أخبر أياً كان بذلك باستثناء أمك، وذلك في لحظة ضعف. لقد كانت كمية ضئيلة تبلغ 168 غراماً. ولكن، عندما يتعلق الأمر باليورانيوم المخصص للتسليح، لا يمكنك إلاّ أن تكون حذراً للغاية».

حدق إيريك إلى مشغل الكاسيت وكأن شيئاً مثيراً للاشمئزاز سيخرج منه.

«أعلم أن هذا سيبدو كعذر، ولكن لمدة ثماني سنوات من حياتي، كان هذا هو العالم الوحيد الذي عرفته... في ذلك العالم، كانت «ألمانيا الجديدة» لها مبرراتها، وكانت تنتصر في حربها التي اندلعت بسبب معاهدة فرساي المخزية وصعود البلشفية في روسيا».

تحرك إيريك بقلق على مقعده وكأنه يجلس على فحم مشتعل.

«عندما حقق معي الأميركيون، بدت الفكرة برمتها سخيفة ومقززة. لكن ذلك كان في العالم الذي كنت أعيش فيه. ولم أفهم أي واقع آخر غير ذاك الخاص بي...».

أطفأ إيريك الجهاز، فقد تعيّن عليه فعل شيء ما على الفور، وبوسعه الاستماع إلى ما تبقى لاحقاً. أخرج شريط الكاسيت ووضعه في جيب صدره وترجل من السيارة.

سألته كيت عندما دخل المنزل: «علامَ كان يحتوي؟».

قال إيريك بهدوء: «إنه يؤكد تخزين اليورانيوم المخصب. سأتصل بغريفين».

انسحب إلى داخل مكتبه، وطلب الرقم، وأخذ نفساً عميقاً.

«أتذكرك بشكل جيد يا سيد ويليامز. ماذا يدور في رأسك؟».

«لدي شريط يحمل شهادة صوتية من أبي. ويقول فيه إنه قد عمل في برنامج هتلر الذري، وإنه قد ساعد في إخفاء 168 غراماً من اليورانيوم الخاص بالتسليح».

«أهذا كل شيء؟».

قال إيريك وهو يشعر بالدهشة والإهانة: «ماذا تعني؟ ألا تظن أنه من الأجدر...»

«أعني، هل تحدث والدك عن أي شيء آخر؟ أم إن هذا هو سره؟».

«لا أعرف إلى ماذا ترمي. لقد أردت دليلاً على وجود مخزون اليورانيوم و...»

«أجل، وما تقوله يبعث على الارتياح. إنها كمية ضئيلة، ويستحيل أن يتم تحويلها إلى قنبلة ذرية، على سبيل المثال».

أثارت نبرة غريفين المهونة للأمر غضبه فقال: «ولكن، حسب فهمي، يمكن استخدامها في إنتاج قنبلة قذرة».

«إن لديك مخيلة خصبة جداً يا سيد ويليامز». رد غريفين، وكان صوته بارداً إلى درجة أن إيريك شعر بالصدمة. «لقد قمنا بتحقيق كما سبق ووعدتك. واستناداً إلى ما اكتشفناه، ليس هناك ما يجري ونحتاج إلى القلق بشأنه».

«هل ذهبت إلى بيت نظمي حلبي؟ من يكون؟».

«نحن لا نناقش التحقيقات مع أي شخص من خارج القسم. ولكن، عليك أن تثق بأننا نقوم بعملنا بتأنٍ شديد».

«هل ذهبت إلى بيته؟ ربما كان لديه المزيد من المذكرات، وربما ستخبرك بشكل أكثر تفصيلاً...»

«سنكون سعداء بأخذ الكاسيت والاستماع إليه كإجراء روتيني. فهل يمكنك جلبه؟».

نظر إيريك إلى ساعته وقال:

«يمكنني التواجد هناك خلال ساعة».

أنهى المكالمة وهو يمعن في التفكير. يستطيع غريفين نسخ الشريط، فإيريك ما كان ليتخلى عن النسخة الأصلية لأي شخص. وخاصة ليس قبل أن يستمع إلى التسجيل كاملاً. تحسس بشكل غير إرادي جيب صدره، وشعر بالهلع لمجرد تفكيره في أنه قد يفقد التسجيل قبل أن تتاح له الفرصة لإعداد نسخة منه والاستماع إلى كل شيء قاله والده. توجّه نحو الباب الأمامي وارتدى معطفه.

«إلى أين ستذهب؟». سألته كيت وقد اعتادت حسبما يبدو على تقلباته

المفاجئة.

«سأذهب في نزهة، كي أستمع إلى التسجيل».

حدق مالك إلى القنبلة التي كانت تبدو مرعبة بالفعل. كانت المتفجرات الصلبة ملفوفة بإحكام في عدة طبقات من البلاستيد المربوط بالسلك. وقد وُضع فتيل التفجير بجانبها بانتظار تثبيته.

«عمل مدهش». قال مالك، ورمى كلاً من راشد وكريم وبشير ونظمي بنظرة طويلة ذات مغزى.

لكن «راشد» لم يبادله النظرات؛ وهو ما كان غريباً، وبدلاً من ذلك، نظر إلى الآخرين بصمت.

فقط مزحة كريم هي التي لطفت الأجواء.

بدأ كل من راشد وبشير بوضع القنبلة داخل الحقيبة الرياضية.

مشى مالك نحو حجيرة المرحاض الصغيرة الواقعة عند أول الدرج، وأخرج هاتفه بأصابع مرتعدة، وأرسل رسالة نصية إلى الرقم الذي كان قد حفظه، وقد احتوت الرسالة بأسرها على الرقم ثلاثة.

وعندما عاد إلى الغرفة، كان الآخرون قد اختفوا، فوقف مالك في الغرفة الفارغة وهو يشعر بالصدمة والقلق.

(41)

كان إيريك يقترب من تقاطع الطرق عند متنزه راينز جنوب لندن. وقد تبع السيارات بشكل فطري، فقد كان جل انتباهه منصباً على صوت أبيه المألوف الصادر من مكبرات الصوت.

«لم أكن قطّ واحداً منهم. هكذا أخبرت نفسي عندما كنت أنتظر خضوعي للاستجواب في القاعدة الأميركية. لقد كنت فنلندياً ولست ألمانياً، ولم أساند مطلقاً الأيديولوجيا النازية؛ فقد كنت فعلياً عاملاً زائراً. لقد كنت على الجانب الخاطئ، ولكنني كنت مجبراً على البقاء هناك بفعل الظروف، وبسبب فقداني للإدراك. كيف كان بوسعي التصرف عكس ذلك!؟ وما الذي كان بوسعي فعله؟ هل كان عليّ أن أقوم بتهريب مسدس إلى داخل القسم عندما أتى دوري لمصافحة الفوهرر؟».

فات إيريك مقطع مهم. هل صافح أبوه يد هتلر؟

«لقد أخبرت الأميركيين الذين استجوبوني أنني لم أعتبر نفسي موظفاً لدى الحكومة النازية إطلاقاً، وأنني بالكاد اعتبرت نفسي باحثاً، فقد كنت الأصغر سناً في الهرم الوظيفي، والأقل مرتبة في الترتيب الهرمي للموظفين، وبالأخص لأنني أجنبي. أتذكر بشكل جيد رد الرائد الساخر: أتعلم يا سيد نارفا؟ تبدو ألمانيا الآن ممتلئة بالملايين من أمثالك؛ ممن كانوا بالكاد يمتثلون للأوامر القادمة من الأعلى، وذلك بصرف النظر عن ماهية تلك الأوامر، من دون تحديها أو التساؤل بشأنها».

بالضبط، هكذا فكر إيريك بينما كان ينظر إلى الورقة المسجل عليها عنوان نظمي حلبي. وثبتت عيناه عليها للحظة، ثم انعطف يميناً نحو ستريثام. قرّر أن يذهب ويلقي نظرة على المكان بما أن ذلك كان السبيل الوحيد أمامه لمحاولة الوصول إلى الرجل الذي كان عند كاثرينا بلوغر برفقة أبيه. ولم يكن

لديه أي سبب محدد يدفعه للاعتقاد بأنه سيحصل على مساعدة من غريفين لمعرفة الحقيقة.

كانت أسماء الشوارع هي التي تتحكم بانتباهه. لا بدّ أن طريق كمبشوت لا يبعد أكثر من كيلومترين الآن.

«شيئاً فشيئاً، أصبحت أسئلة الأميركيين متعلقة بالتفاصيل الدقيقة لعملي. ثم فاجأوني بعرضهم عليّ فرصة الانتقال إلى الولايات المتحدة ومواصلة عملي هناك؛ بعدما كنت قبل لحظة فقط عدواً نازياً! ولكن بالطبع، كان تجنيد الباحثين تصرفاً حكيماً منهم. فقد كان لدى الألمان مخزون هائل من الخبرات الفنية والعلمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالصواريخ. لقد كانت مجموعة فون براون متميزة تماماً، وفريدة من نوعها. كما أرادت أمك الذهاب إلى أميركا...»

ثبّت إيريك في مكانه أخيراً.

«لم أذكر أي شيء بخصوص إنغريد، لأنه من الصعب بالنسبة إليّ التحدث عن ذلك. أنا وهي كان بيننا الكثير من القواسم المشتركة في برلين، وفي عملينا أيضاً. ففي المكان الذي كانت تعمل فيه، كانوا يجرون تحقيقاً عن الآثار البيولوجية والوراثية للإشعاع، وقد كان الأميركيون مهتمين جداً بنتائجهم بسبب...»

بدأ صوت أبيه يرتجف، بينما شدّ إيريك قبضته على عجلة القيادة.

«يصعب عليّ الخوض في هذا، وذلك لأنني قطعت وعداً لأمك بأنني لن أفعل ذلك. ولكن، لا يمكنني الحديث عن ماضيّ من دون أن أعرج على ماضي أمك... ولسوء الحظ، إنه يؤثر عليك أيضاً. آمل أن تتحمل سماع الحقيقة».

كان الاجتماع قد بدأ للتو في برلين في مكتب الشرطة الجنائية الاتحادية في ضاحية تريبتو. كانت هناك قهوة طازجة، ومعجنات على الطاولة.

كانوا قد تسلموا نتائج التحاليل المتعلقة ببقايا اليورانيوم التي عثروا عليها على سطح مكاتب مبنى المستشارية من قبل مؤسسة العناصر فائقة الثقل ITU، وهي ذراع بحثي تابع للاتحاد الأوروبي، وتقع في كارلسرو. كانوا عادة

يحصلون على الكثير من المعلومات عبر مطياف الكتلة الأيونية الثانوي ومجهر المسـح الإلكترونـي، حيـث تم إعـداد المواد، ويجري تحديـد كيفية تخصيصها وكيف سيتم استخدامها.

كانـت مشـاهدات مؤسسـة العناصـر فائقـة الثقـل غيـر عادية هـذه المرة. فعينـات اليورانيـوم أتـت من مصـادر متعددة، فبعض الجسـيمات تم الحصول عليها عبر الطرد المركزي، وبعضها عبر الانتشـار، والبعض الآخر عبر طريقة مجهولـة تمامـاً. لـم يتمكنوا من تحديد أي شـيء يخص أصل المادة، وكل ما كان بوسعهم هو التعجب منها.

راقب مالك سلوك رفاقه بشكل أكثر توتراً عندما عادوا. فقد دخلوا الغرفة من دون أن ينظروا إليه؛ فبدأ وجهه يتصبب عرقاً في الغرفة الدافئة والضيقة.

سأل بنبرة متشككة: «ما الأمر؟ أين كنتم؟».

قال كريم: «كنا نناقش كيفية توجيهنا الشكر لك على هذا المشروع. فقد قدّمـت خدمـات لا تقـدر بثمن، ومن دونـك ما كنا لنحصل على اليورانيوم أو القنبلة».

كانـت كلمـات كريـم الودية تناقض تماماً نبرة صوته، فسـرت رجفة هلع في عمود مالك الفقري.

قال كريم: «لقد قررنا أنه بقي أمامنا خيار واحد».

ورفع يده أثناء حديثه، فحدّق مالك إلى فوهة المسدس.

«أثق في أنك تتفهم دفعَك حياتك ثمناً لخيانتك».

وقـف مالـك صامتـاً بضع ثـوانٍ لم ينبس خلالها أحـد بكلمة، فقد وقـف الرجال الثلاثة الآخرون وهم يحدقون إليه بغضب.

«أنا لا أفهم حتى ما...»

«لا تحاول، فنحن نعرف الحقيقة».

وقف مالك بلا حراك وهادئاً بشكل غريب، لكن عقله كان يعمل بكامل طاقته؛ باحثاً عن مخرج من المأزق. وكان بوسعه تذوق طعم الموت في فمه.

«ماذا تعني بقولك إنكم تعرفون؟ ما سبب هذا؟ وما الذي يجعلك تشتبه بأنني خنتكم؟».

«العديد من الأمور الصغيرة». أجاب كريم وهو لا يزال يصوب المسدس المجهز بكاتم للصوت مباشرة نحوه. «على سبيل المثال، الطريقة التي كنت بها على استعداد لترك حفيدة بلوغر حية، والرجل العجوز».

«أخبرتكم السبب، قتل الأشخاص سيجذب انتباهاً غير مرغوب به نحونا فقط».

مدّ بشير قطعة من النايلون سميكة على الأرض وقال: «قف هنا».

تحرك مالك ببطء بأكبر قدر ممكن نحو الغطاء. مرت ثوانٍ. كانت هذه هي اللحظة التي كان يخشاها خلال السنوات الماضية، وذلك منذ أن التقى للمرة الأولى بالشرطة الألمانية في مقر الشرطة الفدرالية لحماية الدستور في هامبورغ.

قال كريم: «تحرك».

وقف مالك على الغطاء وقال: «ماذا ستفعلون بالقنبلة؟».

«سنقسمها إلى نصفين وسنفجرهما؛ ولكن ليس في المكان الذي يتوقعه رؤساؤك».

تجمد جسد مالك وعقله من الهلع.

ولاحظ كريم رد فعله فقال: «هذا صحيح. لقد كنا نراقبك، وقد سمعناك عبر الهاتف».

«لا يمكنكم...»

قال كريم «تحرك، وتمدّد على الأرض».

ظل مالك واقفاً. ولكن، كانت ثمة حركة مفاجئة خلفه، وسرعان ما تسببت ركلة راشد على ساقيه من الخلف في سقوطه. لم تكن بيده حيلة، لكن كان عليه أن يحاول. شد قبضة يده، فيما أخرج نظمي كاميرا رقمية ووجهها نحوه.

قال كريم: «سيعلم العالم بأسره الحقيقة».

ومض ضوء الكاميرا، فيما طرف مالك بعينيه.

وجّه كريم المسدس نحو رأس مالك، فرأى هذا الأخير إصبع كريم وهي تلتف حول الزناد، ثم سمع صوت الطلق الناري.

لم يكن إيريك على وعي بما يدور حوله وهو يستمع إلى صوت والده أثناء قيادته السيارة. كان يتكلم عن فتاة ذات عزيمة قادمة من ستوكهولم أظهرت موهبة كبيرة.

«اندهش فون فيرشور، رئيس القسم، من ذكاء إنغريد الذي كان على ما يبدو بحاجة ماسة إليه في قسم علم تحسين النسل. وحتى عندما كنتُ في أميركا، لم أكن أعرف في البداية نوع الدراسات التي كانوا يقومون بها في المختبر الذي كانت إنغريد تعمل فيه. أدرك أن سماعك هذا سيكون صعباً جداً عليك. وبعملها لصالح الأميركيين، واصلت أمك إجراء أبحاثها غير الإنسانية. كانت الدراسات الإنسانية التي جرت في الجيش ولجنة الطاقة الذرية...»

ابتلع إيريك لعابه. كانت قد ثارت ضجة حول تلك الاختبارات في أوائل التسعينيات، وكان قد شعر بالصدمة حينها، وتساءل عن نوع الباحث الذي قد يوافق على إجراء مثل تلك الاختبارات.

رأى مساحة فارغة بجانب الطريق فأوشك على ركن السيارة، غير أنه سمع صوت بوق سيارة خلفه، وأدرك أنه كان يعترض طريق السيارة في المسرب المجاور له، فتركها تمر ثم ركن السيارة. لقد كانت حالة الشارع فوضوية.

«لقد أعدت إنغريد تقارير بحثية سرية للاستخبارات الأميركية وجهات أخرى غير معروفة. كانت الحكومة فاسدة يا إيريك، ولم تَرُق لي ازدواجية الأميركيين. لقد تحدثوا عن النازيين وكأنهم تجسيد للشر، لكنهم قاموا بتوظيف الباحثين أنفسهم. ومثل مئات العلماء الألمان الآخرين المجندين، قمت أنا وإنغريد ببناء منزل في وطننا الجديد. ولكنني كلما عرفت أكثر عن الفظائع التي ارتكبتها الحكومة النازية، شعرت بشكل أسوأ. وأسوأ ما في الأمر هو أن إنغريد لم تتفهم شعوري على الإطلاق...»

كان إيريك يخشى سماع ما سيأتي تالياً. لقد ظن أنه قد سمع بالفعل أسراراً مفاجئة، ولكن كان من الممكن قول ذلك بالنسبة إلى أبيه، أما الجزء

الأصعب فلم يأتِ بعد.

«زعمت إنغريد أن صحتي العقلية قد تلقت صدمة. لم أكن أتصور حتى أن أبادلها المشاعر، ورغم ذلك، بقينا متزوجين؛ إذ لم أرغب بأن أكون وحيداً، وإقامة علاقة مع امرأة جديدة كانت فكرة غير قابلة للنقاش... فلم يكن بوسعي أن أطلع أية امرأة على حقيقة ماضيّ، ولم يكن بوسعي الكذب».

ولكنك استطعت الكذب عليّ. فكّر إيريك وهو يشعر بالحزن أكثر من الغضب. أو على الأقل لم تتحدث إليّ حول الكثير من الأمور. هكذا كان الأمر، أنت لم تتحدث عن الأمر، ولم تكن تكذب بالضبط. كان يشعر برغبة في التمسك إلى النهاية باعتقاده أن والده لم يخنه بالمقدار نفسه الذي خانته به أمه.

«على الرغم من كل شيء، حاولت أن أحب أمك وعرفت كيف أحبها. ربما لم يكن بالقدر الكافي، لكنني على الأقل حاولت...»

لم يكمل رولف جملته، وواصل بصوت أجش: «قبل ولادتك في العام 1950، انتقلت كاثرينا بلوغر التي أشرت إليها آنفاً إلى الولايات المتحدة. كانت زميلة إنغريد في المدرسة، وحبي الكبير في برلين. وقد التقينا مجدداً للمرة الأولى في الولايات المتحدة في العام 1951. وحتى في ذلك الوقت في هانتسفيل، كان بوسعي أن أشعر بما سيحدث. وقد حدث... لقد بدأت علاقة مع كاثرينا، وظلت قائمة لسنوات عديدة».

ابتلع إيريك لعابه وهو يرتعد. فما كان ليصدق مطلقاً أن أباه قد فعل ذلك لولا أنه سمع بالأمر من الرجل نفسه.

راقب كريم أصابع نظمي تحت ضوء مصباح الطاولة بينما كان يقسّم مسحوق اليورانيوم إلى كومتين كبيرتين.

كانت جثة مالك هامدة تماماً وملفوفة في النايلون، وكان قد تم نقلها إلى الغرفة الأخرى.

كان ثمة رجل آخر برفقتهم الآن؛ سعيد شقيق نظمي الذي تمّ ضمّه إلى المخطط عندما تم اكتشاف أكاذيب مالك قبل ذلك بأسابيع.

كان سعيد طموحاً، وكان ثمة منطق جيد في أفكاره. فلماذا يقتصر الأمر على تفجير واحد؟ لماذا تضع كل البيض في سلّة واحدة؟ سيكون من الأفضل تنفيذ الأمر بالطريقة المعتادة؛ حيث تقوم بتفجير قنبلة واحدة أولاً، ثم تنتظر حتى تبدأ الفوضى، ثم تفجر واحدة أخرى فتسبب أكبر قدر من الهلع والفوضى.

ولا بدّ أن تكون إحدى القنبلتين على الأقل كبيرة في الحجم، ما يعني أنه يجب تجهيز سيارة مفخخة.

كان سعيد قد جلب سيارة إلى مرأب نظمي لهذا الغرض. وقد خضع اختيار المركبة المناسبة لدراسة متأنية. إذ لم يكن من الممكن أن تكون مركبة ركاب عادية؛ لأنهم سيضطرون إلى تركها خالية في ميدان عام. فكروا في سيارة أجرة، إلا أن ترك سيارة أجرة فارغة سيلفت الانتباه أيضاً.

ظهر الحل أمامهم عندما كان سعيد يراقب الهدف المستهدف بالتفجير. كان ثمة نوع واحد فقط من المركبات لم يجذب أي انتباه هناك، وهو نوع المركبة التي يمكن تركها خالية من دون أن تلفت الانتباه. فكانت تلك هي المركبة التي جلبها سعيد.

أعاد نظمي كومَتي اليورانيوم إلى الحقيبتين الخاصتين بهما، وأخذ راشد وسعيد الحقيبتين إلى المرأب، وثبتاهما في السيارة المفخخة، بينما جمع كل من كريم ونظمي الجهاز الأصغر الذي كان مثبتاً في كرسي كهربائي متحرك.

جرى تثبيت القنبلة في المكان المخصص لبطارية الكرسي أسفل المقعد. وكانت أداة التفجير التي كان قد حصل عليها مالك على الطاولة، وكانت مجهزة بفتيل إشعال من النوع الذي كانوا يعلمون أنه سيعمل.

كانوا قد اضطروا إلى تثبيت بطارية أصغر حجماً للكرسي لإفساح مكان للقنبلة. ولكنها كانت كبيرة بما يكفي لتشغيل الكرسي، ولكن فقط لبضع مئات قليلة من الأمتار.

كان هذا كل ما يحتاجون إليه؛ إذ يمكنهم الاقتراب من الهدف بما يكفي لدفع الكرسي، ثم تشغيله من هناك.

(42)

استوعب إيريك كل كلمة ينطقها والده، وكل صوت يصدر عنه. أما الشارع والعالم بأسره خارج السيارة، فكان بعيداً جداً؛ وكأنه في كوكب آخر.

«لماذا سمحت لعلاقتي بكاثرينا بأن تتطور؟ حتى الآن لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال. لكنني شعرت بخيبة أمل لا توصف عندما واصلت إنغريد العمل على دراسات الإشعاع في لجنة الطاقة الذرية. لقد قاموا بأشياء غير إنسانية أثناء إجرائهم تلك الدراسات؛ لدرجة أنها لم تتمكن من إخباري بشأنها. وقد لاحظت سريعاً أنها لا تود التحدث عنها. لقد كانت مخلصة لأبحاثها، وكانت تعتقد بصدق أنها تقوم بالعمل من أجل تحقيق أهداف هامة. لقد كان الأمر غامضاً؛ لأنني شعرت أن الاختبارات كانت غير أخلاقية على الإطلاق».

تنهد بعمق وتابع: «وطوال الوقت، طوال النصف الأول من الخمسينيات، أردت القيام بشيء للتعويض عن سنوات عملي لصالح النازيين. لكن، بدا لي أن ذلك مستحيل مع الأميركيين. أجل، لقد عملت لصالحهم، لكنني شعرت بشكل أسوأ مع مرور السنوات. وقد بدا لي أن كاثرينا هي الإنسانة الوحيدة التي تفهمني، أما إنغريد فلم...»

تفهم إيريك الأمر على الفور. لم يتقبل ما فعله والده، وكيف أنه خان والدته، لكنه تفهم الأمر.

«لقد خضع البرنامج الذري الألماني للنقاش علناً على نطاق ضيق بعد الحرب، فلم يكن ثمة شيء معروف عنه حقاً. وفي العام 1957، صدر كتاب ألمع من ألف شمس، وقد اشتريته سراً. كل ما احتواه الكتاب كان مخالفاً للحقيقة... فقد ذكر أننا لم نحاول حقاً إنتاج القنبلة. وقد قال هايزنبيرغ إنه بذل كل ما في وسعه لمنع البرنامج من النجاح، بينما التزم ديبنر بالصمت. ولاحقاً، سمعت أنه في الخمسينيات تقدم ديبنر وحصل على براءات اختراع

تتعلق بالقنبلة النووية الحرارية ومشاريع أخرى. ولم أسمع أي شيء عن مصير مجموعة أس أس. كان الوضع الأصعب من نصيب أوتو هان، وهو مكتشف الانشطار النووي. فقد تم جلبه إلى إنجلترا لاستجوابه في نهاية الحرب، إلى جانب أشخاص آخرين ممن عملوا ضمن برنامج السلاح النووي الألماني، ثم انتشر الحديث عن أن القنبلة الذرية قد تم إسقاطها على هيروشيما... وفي تلك الليلة، تبادل العاملون في المشروع الذهاب إلى غرفة هان للتأكد من عدم قيامه بأي شيء ليؤذي نفسه. كان وقع نتائج عمله شديداً عليه إلى هذا الحد. ربما شعر هو أيضاً بأنه يجب عليه أن يكون قادراً على تخفيف الحمل عن نفسه بشكل ما. وبأن يعوض عما قام به...»

تنحنح للتخلّص من الحشرجة في صوته ولم يكمل جملته. كان من الواضح أنه يصعب عليه الحديث عن هذا الأمر.

«لكنني واصلت العمل على تصميم الصواريخ لصالح الأميركيين في هانتسفيل. عملت أولاً لصالح الألمان، ثم لصالح الأميركيين الذين حاربوا الألمان. لا أعتقد أنك أو أي شخص آخر سيتفهم هذا، ولكنني في نهاية الأمر عثرت على حل خاص بي؛ والذي قادتني إليه كاثرينا. فقد بدأت بتمرير معلومات حول البرنامج إلى الروس الذين كانوا يحاربون الأميركيين».

للحظة، ظنّ إيريك أنه قد أساء الفهم، وشعر بكتلة باردة في معدته. ولم يتوقف صوت والده العنيد عن الكلام.

«لقد علمت أن الباحثين التابعين للجيش السوفيتي كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لمعرفة أسرارنا. وقد أدركت تدريجياً أن كاثرينا قضت الجزء الأعظم من سنوات عملها لصالح جمهورية ألمانيا الديمقراطية في موسكو، وقد أُرسلت إلى الغرب من أجل تجنيد جواسيس. وقد سافرت بهدف العمل كثيراً، والتقيت كاثرينا بشكل دوري، وذلك في المطاعم والفنادق... وأخيراً، التقيت أيضاً الشخص الذي كانت على تواصل معه في مديرية المخابرات الرئيسة الروسية GRU. وبدلاً من الإبلاغ عن ذلك إلى مدير الأمن الخاص بنا، بدأت بتقديم معلومات إلى موسكو عبر الشخص الذي كانت كاثرينا على

تواصل معه تحت الاسم الرمزي الروسي أوريل وإيغل. النسر الثالث والأخير».

كان قلب إيريك ينبض وكأنه سينكسر. مال برأسه على عجلة القيادة وخشي أن يفقد وعيه.

«لكنني لم أفعل ذلك من أجل الاتحاد السوفييتي، بل فعلته من أجل نفسي ومن أجل العالم بأسره. كان ستالين قد توفي للتو، وما كنت لأفعل ذلك مطلقاً لو أنه كان لا يزال في السلطة. لقد كانت حكومة خروتشوف الجديدة تكشف عن الفظائع التي ارتُكبت في عهد ستالين، وقد كان في ذلك مصدر راحة شديدة بالنسبة إليّ. لقد بدا لي أن حقبة جديدة تماماً من الحرية قد بدأت في الاتحاد السوفييتي. وقد كانت كاثرينا متحمسة ومعينة. وقد تملكني الشعور نفسه أيضاً. لقد وجدت أخيراً السبيل للتعويض عن الأخطاء التي اقترفتها في سنوات عملي لدى النازيين».

ظهرت نبرة قوية جديدة في صوته.

«كنت أعرف نوع الدمار الذي يمكن أن تسببه قنبلة نووية. وعلمت أن الوضع خطير بالنسبة إلى الجميع؛ لأن الأميركيين كانوا متفقين بشدة في مجال الأسلحة النووية والقدرة على استخدامها. كان استعدادهم لتدمير هيروشيما وناغازاكي رسالة قاسية. وكان بوسعهم استخدام مدن أصغر لإثبات قدرتهم على التدمير. لقد كانت ثمة حاجة لإحداث توازن بين القوتين العظميين، وهو ما عُرف لاحقاً بتوازن الرعب».

(43)

مجدداً، أدرك إيريك على مضض أنه يتفهم ما يقوله والده، لكنه لم يكن قادراً على الموافقة عليه على الإطلاق.

شعر فجأة برغبة ملحة في التحدث إلى أمه، أو بالأحرى إلى كاثرينا بلوغر وهي في حالتها المضطربة تلك.

نهض نظمي من المكان الذي كان جاثماً فيه بجوار الكرسي المتحرك. كانت أكياس مسحوق اليورانيوم قد تم تثبيتها حول القنبلة، وتم توصيلها بفتيل التفجير.

«ما زالت أمامنا ساعتان؟ هل سيكون ذلك كافياً؟».

ونظر إلى كل من راشد وكريم.

قال راشد: «سيكون ذلك كافياً».

بدأ نظمي بالضغط على أزرار المؤقت الرقمي؛ إذ إن استخدام جهاز تفجير عن بعد عبر الهاتف الخلوي لا يمكن الاعتماد عليه. ففي أسوأ السيناريوهات، قد تكون السلطات قادرة على تعطيل شبكة الاتصالات المتنقلة بأسرها في منطقة معينة فتمنع وقوع الانفجار.

أخرج كل أفراد المجموعة ساعات اليد الخاصة بهم، وقاموا بضبطها على عد تنازلي ينتهي خلال ساعتين، ووضعوا أصابعهم على أزرار التفعيل.

قال نظمي: «هل أنتم مستعدون؟ و... الآن».

قاموا جميعاً بتفعيل ساعاتهم.

تغير الرقم خلال ثانية واحدة إلى 01:59:59...

من دون تبادل أي كلمة أخرى، قام كل من راشد وكريم بإعادة الغطاء البلاستيكي الرمادي إلى الجزء المخصص لمحرك الكرسي وقاما بتثبيته

بالبراغي.

ثم توجهت المجموعة إلى المرأب، حيث كانت شاحنة نقل من طراز فوكسهول ذات مقعدين تقف هناك.

ظهر ختم نصف دائري على جانب المساحة المخصصة للتحميل «خدمات الصيانة البيئية». وكُتب تحته «مقاول رويال باركس: للأعمال الميكانيكية والكهربائية». كان أكبر عميل لدى الشركة هو قسم رويال باركس الذي قاموا فيه بكل أعمال الصيانة والأعمال الكهربائية.

لكن مساحة التحميل في هذه الشاحنة احتوت على قنبلة ضخمة تتكون من فتيل تفجير وأكياس مسامير وزجاجة من البوتان ويورانيوم. كانت المتفجرات من النوع الصلب، ومعدة للانفجار بعد وقت قصير من انفجار القنبلة المثبتة في الكرسي المتحرك.

(44)

كانت سيارة إيريك لا تزال متوقفة، إذ لم يستطع حمل نفسه على مواصلة طريقه نحو منزل نظمي الذي كان يبعد حوالى كيلومتر عنه؛ فقد تركته كلمات والده في حالة من الشلل.

«بعد أن مرَّرت أول أسرار الصواريخ النووية إلى كاثرينا، تمكنت من النوم ليلاً للمرة الأولى منذ وقت طويل، وذلك من دون أن تطاردني الكوابيس. لم تعرف إنغريد بشأن التجسس وبشأن علاقتي مع كاثرينا. ولم يكن خروتشوف كما كان يبدو عليه في البداية، فبدأت أشعر بالندم على قراراتي. وبعد ذلك، في العام 1957، عادت كاثرينا فجأة إلى ألمانيا؛ إلى ألمانيا الشرقية أو موسكو حسبما أعتقد. وعندما غادرت، توقفت عن تمرير المعلومات. لقد كنت أخشى حتى الموت من أن يرد الروس بعنف. فقد أردت أن أنسى هذه الفترة بأسرها، وأن أبدأ مع إنغريد مجدداً. بعد عامين لاحقاً، ولدت أنت، بركة لطالما انتظرناها...»

ضعُف صوته مجدداً، فيما أبت الأفكار التي تطايرت في عقل إيريك أن تستقر على نمط ذي معنى.

«قطعت علاقاتي بالروس. ولحسن الحظ، تم تحويل مركز تصنيع الصواريخ الباليستية التابع للجيش إلى منظمة ناسا المدنية في ذلك الوقت، وقد تغيرت مسؤولياتي في العمل. ابتعدت أخيراً عن مجال الأسلحة، ولم أخبر أحداً بشأن التجسس. وبعد عدة سنوات، انتقلنا إلى فلوريدا، وانغمست في عملي في كيب كنيدي مع برنامج أبولو. لكن الأسرار تثقل كاهل المرء؛ مما يوجب عليه مشاركتها مع شخص ما. انتظرت عشر سنوات، ثم في إحدى ليالي الخريف المظلمة، أخبرت إنغريد بشأن كاثرينا وبشأن التجسس...»

وتنهد بعمق.

«لقد كان ذلك خطأ؛ إذ لم تتفهم إنغريد الأمر على الإطلاق، وهو ما كان بالطبع رد فعل طبيعياً. لا أدري أيهما كان أكثر صدمة بالنسبة إليها؛ عندما عرفت بأمر علاقتي مع كاثرينا، أم التجسس لصالح الروس. تشاجرنا بشكل فظيع؛ مما جرّ الحديث إلى كل الفظائع التي وقعت في مختبرها في دالم، فضلاً عن تلك التي ارتُكبت لاحقاً في اختبارات لجنة الطاقة الذرية. لم يبدُ أن كشف هذه الأمور قد أثر بشكل كبير عليها، لكن خيانتي لها ولأميركا كانت بمثابة انتهاك شيء مهمّ بالنسبة إليها. أرادت الطلاق على الفور. وبالطبع، لا بدّ أن هناك أسباباً أكثر من ذلك خلف الطلاق؛ مشكلات قديمة، لكن اعترافي هو الذي فجر فكرة الطلاق».

صُدم إيريك من سبب طلاق والديه، لكنه شعر بالراحة أخيراً لمعرفته الحقيقة، أو على الأقل لمعرفته نسخة أبيه من الحقيقة. شغّل محرّك السيارة وتحرك بها، فقد كان عليه أن يتحرك، وذلك لكسر تعويذة التسجيل التي تشبه الكسر، ولكسر إحساسه بتوقف الزمن.

«في النهاية، مثّل الطلاق راحة لي أيضاً؛ لأنني لم أتمكن على الإطلاق من تفهّم قبول إنغريد لكل الأفعال الوحشية القديمة والجديدة. لكم وددت أن أحصل على حضانة كاملة لك، ولكم وددت أن أبعدك عنها قدر الإمكان، لكنك كنت متيماً بأمك...»

تسلل الحزن إلى صوته، وشعر إيريك بذلك أيضاً. مسح عينيه الدامعتين بإحدى يديه، لكنه أعادها إلى المقود بسرعة عندما رأى اللافتة التي كُتب عليها «شارع كمبشوت».

«كان بوسع إنغريد أن تصب لعنتها على الناس، كما فعلت معي ذات مرة. وبعد ذلك، أظهرت أنت اهتماماً بعلم الأحياء وشعرت هي بالبهجة. عارضتُها، لكنك كنت ذكياً وموهوباً وبريئاً جداً في حماستك».

كانت ثمة سيارة فورد مانديو بيضاء تقف أمام المنزل رقم 72. حدقت عينا إيريك إلى لوحة الرخصة التي تطابقت مع الأرقام التي دونتها كيت بالضبط.

«لم أستطع منعك من فعل ذلك. وقد أملت فحسب أن تتمكن من فعل

شيء لصالح البشرية في عملك، وليس كما فعل والداك...»

اضطر إيريك إلى التخفيف من سرعته عندما كان السير متوقفاً بسبب شاحنة مرسيدس فيتو فضية اللون مع منحدر كان يستخدمه شخص لإدخال كرسيه المتحرك الكهربائي إلى داخل الشاحنة.

هل كان الرجل الذي يساعد ذلك المقعد على صعود الشاحنة هو نظمي حلبي؟

«أعرف أنك ستصاب بالصدمة وخيبة الأمل، لكنني آمل بصدق أن تكون قادراً يوماً ما على أن تغفر لي...»

واصل إيريك تقدمه ببطء إلى أن رأى مساحة فارغة للركن فركن فيها. كان من المؤكد أن مالك سيارة الفورد لن يتعرف على وجهه، لذا قرر المشي بجانب المنزل.

«وأخيراً، أود العودة إلى ما كنت أقصده عندما تحدثت عن فساد الحكومة...»

أوقف إيريك الشريط، وأخرجه من الجهاز، ووضعه في جيبه وترجل من السيارة. كان اعتراف أبيه بكونه جاسوساً سخيفاً جداً؛ لدرجة أنه عجز عن إيجاد وسيلة لتقبل تلك المعلومة، على الأقل ليس الآن.

لقد تفهم دوافع والده الشخصية، وتفهم ازدراءه لازدواجية الأميركيين، وتفهم بوضوح تام الإرهاب المطلق الذي ظهر في تلك الفترة بين القوتين العظميين.

سار نحو المنزل الذي كانت سيارة فيتو رمادية اللون تقف أمامه، لكنه لم يقوَ على الكف عن التفكير في أبيه. ما تأثير التجسس على شخصية الشخص؟

كان بإمكانه بشكل ما أن يتفهم سلوك والده كباحث شاب في نظام استبدادي خلال الحرب، ولكن ليس التجسس.

أدرك إيريك فجأة أنه يقف في صف إنغريد، فلا بدّ أن التجسس والعلاقة مع كاثرينا كانا صدمة أعنف بالنسبة إليها، وقد أراد التحدث إليها في أقرب وقت ممكن.

فتح سعيد باب المرأب الخاص بنظمي وسار إلى داخل المساحة الضيقة. كانت شاحنة فوكسهول الخضراء الداكنة الخاصة بقسم الحدائق نظيفة، ولكنها لم تكن لامعة للغاية.

كان سعيد شقيق نظمي متحفزاً وذكياً، ولم يمثل تحويل سيارة الفوكسهول المستعملة إلى مركبة خاصة بخدمات الصيانة البيئية في لندن أي مشكلة بالنسبة إليه، فقد كان من السهل إيجاد المواد اللازمة؛ كما هو الحال مع الخطوط المستخدمة في كتابة الأحرف. كما كان رقم رخصة السيارة وتصريح الركن منسوخين من إحدى المركبات الخاصة بالقسم. حتى إن شاشة منع السرقة البيضاء المعلقة على النافذة الخلفية تم الحصول عليها من الشركة نفسها التي تستخدمها مركبات القسم الحقيقية.

لم يلاحظ موظفو القسم أي شيء غير عادي في الوثائق الخاصة بسعيد؛ باستثناء شيء واحد، لقد كانت حمولة المتفجرات ثقيلة، لذا تعطل لفترة قصيرة.

أمام المرأب، كان كريم يؤمن الكرسي المتحرك في مؤخر الشاحنة برباط يشبه حزام مقعد السيارة.

«أسرع». أمره بشير بهدوء وهو يقف على الرصيف.

ثبت كريم الرباط بإحكام، ثم ترجل من السيارة. مر رجل في حوالى الخمسين من عمره بجوار الشاحنة على الرصيف ورماهما بنظرة سريعة، فانتبه إليه كريم لأنه لم يتذكر أنه قد رآه في الجوار من قبل.

قام هو وبشير برفع المنحدر المصنوع من الألومنيوم إلى داخل الشاحنة. كان راشد ينتظر عند باب المبنى. وبينما مال كريم كي يغلق باب مؤخر الشاحنة، لاحظ الرجل وهو يمر بجانبهم مجدداً في الجانب الآخر من الطريق.

فسار كريم نحو نافذة السائق وسأل نظمي الذي كان يجلس خلف مقود السيارة: «هل تعرف ذلك الرجل؟».

«كلّا. لماذا؟».

لم يُجب كريم، وانتظر إلى أن جلس بشير على مقعد الركاب.

أغلق بشير باب الركاب وقاد نظمي السيارة بعيداً.

مشى إيريك بسرعة بينما كان يتجاوز المبنى ذا الطابقين مجدداً. بدت أنشطة الرجال الذين حملوا الكرسي المتحرك غريبة بالنسبة إليه، فلم يكن أي منهم في حاجة إلى كرسي متحرك للتنقل في الأنحاء، وقد تطابقت ملامح الرجل ذي البشرة السمراء الذي كان يجلس خلف مقود السيارة مع الأوصاف التي ذكرتها كيت في ما يتعلق بالرجل الذي كان يقود سيارة الفورد. شاهد إيريك الشاحنة البيضاء الصغيرة التي حملت شعاراً يبدو رسمياً في أعلى ممتص الصدمات الخلفي، لكنه لم يتمكن من تبيّن ما كان مكتوباً عليها.

اتصل بغريفين أثناء سيره، وأخبره بما رآه بجُمل قليلة.

«ماذا تفعل بحق الله؟». سأله غريفين بنبرة تكاد تكون عدوانية وفظة. «أصغي إليّ. تعال إلى هنا الآن، وإلا وقعت في ورطة كبيرة...»

أنهى إيريك الاتصال، وفتح القفل الآلي الخاص بسيارته. كانت ثقته بالسلطات قد انخفضت، إذ لم ينله منها سوى الغضب والصياح... صعد إلى سيارته وأغلق الباب.

حينها فقط انفتح باب الركاب، وصعد إلى السيارة شخص غريب بدا من دول البحر المتوسط أو من الشرق الأوسط. كان أحد الرجال الذين رآهم للتو أمام المبنى.

«إيّاك أن تتحرك وإلا فستموت حيث تجلس». قال الرجل وضغط بفوهة مسدس على ضلوع إيريك.

القسم الثالث

(45)

«إيريك عزيزي، اتصل بي رجاءً، فأنا أود التحدث إليك». قالت إنغريد لابنها عبر خدمة الرد الآلي.

لم تتحمل فكرة قطع إيريك علاقته بها بشكل كامل، فقد كان بمثابة كل شيء بالنسبة إليها، ولطالما كان كذلك، ولسوف يظل كذلك دوماً. ما زالت نادمة بشدة لأنها لم تمسك لسانها عندما أتى لزيارتها.

عادت إنغريد مجدداً لتصفح الصور المؤطرة في المكتب، والتقطت الصورة التي ظهرت فيها وهي تحمل إيريك بين ذراعيها عندما كان عمره شهوراً قليلة فقط. كانت تلك أفضل فترة في حياتها. فقد شعرت أن دور الأم يناسبها تماماً؛ على الرغم من تجاوزها سن الأربعين. لقد كانت في وضع جسدي وعقلي جيد، على عكس رولف الذي كانت حالته صعبة في تلك الأيام. لقد كان متوتراً ومنعزلاً طوال الوقت تقريباً عندما انتقلوا إلى أمريكا، ولكن مع ولادة ابنه، كان بإمكانه أن يهدأ قليلاً. ولكن لاحقاً، اتضح لها السبب وراء سلوك رولف، بكل ما أثاره من هلع، حين لم تكن تعرف أي شيء.

حجبت قطرات من الدموع الصورة من أمامها. لقد خسرت كل شيء الآن؛ فقد توفي رولف، وقد تشاجرت مع إيريك بعنف بشكل لا يمكن إصلاحه. هل ستفقد ابنها أيضاً؟ هل كره أمه بشدة لدرجة أنه سيقاطعها بشكل كامل؟ ألن ترى حفيديها مجدداً؟ وهل ستموت كامرأة وحيدة وعجوز ومهجورة؟

أصابها حزن شديد للغاية؛ لدرجة أنها أسقطت الصورة. تبعثر زجاج الإطار على الأرض، فتركت وجهها يسقط بين يديها.

انغلق صندوق سيارة الفورد بعنف؛ مما ترك إيريك في ظلامٍ دامس. كان ممدداً على جانبه، ويداه وقدماه مقيدة بشريط لاصق. لقد كان التحرك أمراً

مستحيلاً. كانوا قد غطوا فمه تماماً تقريباً بشريط لاصق، وأذنيه أيضاً، وذلك زيادة في التأمين.

قاوم إيريك الشعور بالهلع الذي سيطر عليه. لم يقوَ على التنفس، وحاول أن يصرخ، لكن كل ما صدر منه كان تمتمة مثيرة للشفقة. راودته كوابيس بأنه يستيقظ في الظلام، ويعلم بأنه في كفن مغطى بمترين من الطين والرمال، وهو يصرخ وحيداً في مقبرة حيث لا يسمعه أحد.

ولكن، لم يكن هذا حلماً، فقد شعر باهتزاز السيارة وهي تتحرك.

كانوا ينوون قتله خنقاً؛ فكر وهو في حالة هلع. وتلوى في محاولة منه لتخليص يديه، لكن الشريط قيدهما بإحكام. كان أسوأ ما في الأمر هو الشريط، فقد كان محكماً جداً على فمه لدرجة أنه لم يستطع إزالته.

فرك وجهه بكل ما أوتي من قوة بصندوق السيارة، ثم أخرج زفيراً عنيفاً من أنفه، فشعر بأن الشريط اللاصق على أحد جانبي أنفه قد ارتخى، فدخل القليل من الهواء إلى رئتيه.

شعر براحة كبيرة، لكنه في الوقت نفسه علم أنها راحة مؤقتة فقط؛ إذ كان يتم اقتياده إلى مكان ما للتخلص من جثته.

وإذا اكتشفوا أنه لا يزال حياً، فستكون النتيجة ببساطة عملية إعدام بدم بارد.

(46)

نظر جاك بلوم بتوتر إلى ساعته، وفتح قارورة مشروب الطاقة الخاص به مصدراً هسهسة استهجان، ثم قام برفع جهاز الاستقبال إلى أذنه، وأفرغ العلبة في حلقه في شربة واحدة طويلة.

تحقق مجدداً من وصول رسالة من مالك بهرامي. كانت لديه بطاقة تعريفية مسبقة الدفع من شركة فودافون في هاتفه الخلوي. لقد كانت العملية بأكملها شديدة السرية، وما عرفه عنها كان يثير الشك قليلاً، وكان قد اشترك في بعض أكثر العمليات السرية غير الرسمية لصالح أميركا.

كانت معظم معدات المراقبة التي كان قد وضعها في مساحة التخزين بشاحنة الرينو الخاصة بالسمكري عديمة الفائدة، لأنهم لم يقوموا بإخفاء جهاز تنصت، ناهيك عن كاميرا للتصوير في ملابس مالك أو في بيت نظمي. إذ لم يكن بوسعهم المخاطرة بأن ينكشف أمرهم؛ فمالك كان يتكفل بأموره بنفسه.

انطبق القدر نفسه من السرية الشديدة على العملية بأسرها. فقد كان يتولاها فقط ستة رجال في لندن، ولم تكن لهم أي صلات بأي من الممثلين المحليين لوكالة الاستخبارات الأمريكية.

انفتح باب مقصورة السائق وأدخل كريغ لامبرت رأسه عبره.

«ألم نتلقَ شيئاً بعد؟». سأل الرجل ذو الشعر المجعد وهو يخفي قلقه.

فتمتم جاك: «كنت سأخبرك لو كان هناك أيّ شيء جديد».

فكر لامبرت للحظة ثم قال: «دعنا نذهب لنلقي نظرة على موقع القنبلة، فربما لم يستطع مالك إرسال رسالة لسبب ما».

لسبب ما، بدا ذلك نذير شؤم.

أغلق لامبرت باب المقصورة، وخرجت الشاحنة من مكانها. تنهّد جاك وثبت حزام مقعده. كان يكره الجلوس في مؤخر السيارة، فقد كان يُصاب

بدوار الحركة بسهولة. ولكن، لحسن الحظ لم يكن المكان الذي سيتجهون إليه بعيداً.

جالساً خلف المقود، وهو يرتدي بنطال جينز قذراً وسترة رياضية، وينتعل حذاء مخصصاً للعدو، قاد كريغ لامبرت شاحنة السمكري المزيفة نحو المدينة. وعلى مقعد الركاب جلس ديفيد ستون، وهو قائد فريق الاستخبارات الأميركية، وهو يرتدي ملابس عادية.

لم يتحدث أي منهما؛ لأنه لم يكن هناك ما يقال. لقد عارض كل منهما العملية، وظنّا أنها خطيرة للغاية، لكن رؤساؤهما في واشنطن لم يتمكنوا من مقاومة الأمر. لا بدّ من إيقاف العراق بأي ثمن، ولكن يجب تبرير الضربات الجوية. فما إن يمول العراق خلية إرهابية تهدد لندن بقنبلة قذرة حقيقية، فلن يكون بمقدور أحد اتهامهم «باختلاق دليل» لتبرير الحرب.

لقد كان مالك بهرامي مخبراً يعمل لصالح المكتب الاتحادي لحماية الدستور التابع للشرطة الألمانية. كان قد أعطى الخيوط الأولى المتعلقة بخلية هامبورغ. وقبل وقوع هجمات سبتمبر، راقبت الشرطة الألمانية الشقة؛ شقة محمد عطا ورفاقه، ولكن لم تعثر على أية دليل ضدهم. التقى ديفيد ستون بهرامي مرات قليلة منذ هجمات سبتمبر، وأخبره بهرامي بما يعرفه، والذي كان محدوداً جداً كالعادة، ثم ابتعد عنه بأسرع ما يمكنه.

منذ شهور قليلة مضت، بادر مصدر المعلومات القديم الخاص ببهرامي فاخر أهمار إلى الاتصال به، وعرض عليه بعض «المواد المثيرة للاهتمام المتعلقة باليورانيوم المخصب»، فأبلغ ستون بشأنها.

تحدث ستون إلى رؤسائه، وفي نهاية المطاف أعطى بهرامي مشروعاً خاصاً؛ بأن يترك الأميركيين يراقبون بينما تقوم مجموعة تابعة لتنظيم القاعدة قادمة من العراق بزرع قنبلة قذرة حقيقية في لندن.

حصل بهرامي على المساعدة لتنفيذ المشروع من ستون ومن مقر الاستخبارات الأميركية في لندن. وقد عثروا على كاثرينا بلوغر، وزيفوا الرسالة المرسلة من قبلها إلى رولف نارفا الذي أصبح الآن رولف ويليامز

في ستوكهولم. لقد كان ويليامز هو المفاجأة الكبرى في العلاقة بأسرها، فقد كان يحمل تصريحاً رسمياً شديد السرية من قبل الاستخبارات الأميركية، وكان من الصعب جداً الحصول على إذن لاستغلاله في العملية.

عبرت الشاحنة نهر التايمز عبر جسر بلاك فرير، وواصلت طريقها عبر تقاطع هولبورن وصولاً إلى نيوغيت. ظهر مقر مؤسسة ميريل لينش تحت سماء الليل الملبدة بالغيوم. قريباً سيتدفق العاملون إلى خارج الضاحية المالية في طريق عودتهم إلى بيوتهم، كي يعودوا صباحاً عبر المسار نفسه إلى مكاتبهم. انعطف لامبرت يساراً عند شارع الملك إدوارد وتوقف لدى النصب التذكاري لحديقة بوستمان.

«انتظر هنا. سأقوم بجولة في الأنحاء». قال ستون وترجل من السيارة.

توجه متمهلاً إلى منطقة تظللها الأشجار وبنايات بجدران ذات أسقف مائلة على جانب واحد. وكان الجدار مزيناً بنقوش تعود لنهايات القرن التاسع عشر التي خلدت ذكرى مواطنين عاديين أنقذوا أرواح مواطنين آخرين.

لم يكن هناك أثر لحقيبة لوندسديل الرياضية التي كان من المفترض أن تكون مخبأة تحت أحد المقاعد.

كان ستون على وشك المغادرة عندما لاحظ صحيفة مطوية في المكان نفسه الذي كان من المفترض أن توضع فيه الحقيبة التي تحتوي على القنبلة. اقترب أكثر فرأى قصاصة ورق مثبتة على الصحيفة.

التقط قصاصة الورق فقرأ فيها:

أردتم تلفيق التهمة لنا. لكم ما أردتم، سيكون هناك تفجير، ولكن في مكان ووقت مختلفين.

سيطر على ستون شعور بالتعب الجسدي، وبحث عن هاتفه بأصابع مرتعدة.

جلس نظمي وكريم في الشاحنة أثناء سيرها عبر ساعة الازدحام المروري في هولبورن متجهين إلى ويست إند. كانوا قد تركوا رسالتهم للأميركيين

المتآمرين مع مالك في حديقة بوستمان؛ حيث كان يفترض بهم ترك القنبلة.

كانت الأمسية مظلمة، والسماء مغطاة بطبقة سميكة من الغيوم. اضطر نظمي إلى الضغط على المكابح بعنف عندما توقفت سيارة أجرة عند محطة تشانسري لين للبنزين.

«كن حذراً». قال كريم بصوت خشن وهو ينظر عبر الحاجز الشبكي إلى مؤخر الشاحنة. كان الكرسي المتحرك لا يزال مثبتاً بإحكام.

نظر إلى ساعته، لم تكن ثمة حاجة إلى العجلة، فلم يتبقَ سوى كيلومترين كي يصلا إلى ميدان ليستر الواقع في القلب السياحي لمدينة لندن. لكن حركة المرور في وسط المدينة كانت مزدحمة على غير العادة.

(47)

استجمعت إنغريد قواها؛ فقد كانت تعلم أنه يتعين عليها القيام بالأمر، وكانت معتادة على ذلك.

التقطت الهاتف، واتصلت بزوجة ابنها التي كانت تشتري من البقالة. كانت كيت متحفظة وحذرة في البداية. ولكن، عندما سألت إنغريد عن إيريك، اتسم صوت كيت بالقلق.

«كان يفترض به أن يذهب للتحدث إلى السلطات حول شيء ما، لكنني سمعت للتو أنه لم يصل إلى هناك بعد؛ على الرغم من أنه قد غادر قبل مضي بعض الوقت».

«يتحدث إلى السلطات! بشأن ماذا؟».

«لا يمكنني أن أقول. سيتعين عليك أن تسأليه».

«بشأن اليورانيوم؟»

«لا يمكنني التحدث في الأمر. أنا عند طاولة الدفع في تيسكو. يمكننا التحدث لاحقاً».

هدّأت إنغريد مشاعر الغضب التي اشتعلت داخلها. هل ذهب إيريك وأفشى السر إلى الشرطة؛ ذاك الأحمق الصغير؟

على الجانب الآخر، إلى من كانت ستشير بأصابع الاتهام لتسريب المعلومات الخاصة باليورانيوم؟

لم تكن تعرف كيف تحسم رأيها، فقد طفا الأمر برمته على السطح بعد كل تلك السنين بشكل مفاجئ تماماً. لقد كان الرجل الأميركي ودوداً، ولكنه عندما ظهر على عتبة بابها قبل شهرين مضيا شعرت بالذعر؛ على الرغم من أنها شعرت بالإطراء أيضاً.

قدّم نفسه على أنه عميل الاستخبارات الأميركية ديفيد ستون، وقال لها

إنه يريد أن يطرح عليها بعض الأسئلة المتعلقة بقضية قديمة. ففي العام 1968، أخبرت إنغريد الاستخبارات الأميركية بما كان رولف قد أخبرها إياه حول اليورانيوم المخصب الذي تم إخفاؤه في نهاية الحرب. وقد ندمت على ذلك لاحقاً؛ لأنها وعدت رولف ذات مرة بأنها لن تخبر أحداً بشأن ذلك. وعلى أي حال، كان يجب أن تكون أكثر حذراً؛ فقد كان لديه القليل من الأشياء التي كان بوسعه أن يخبرهم بها حول ماضيها أيضاً...

ولكنها في شهر يونيو من العام 1968، توجّهت أثناء نوبة غضب إلى مكتب ويل موس من الاستخبارات الأميركية؛ الرجل المسؤول في وحدة العلوم والتكنولوجيا عن برنامج المواد الإشعاعية الذي كانت إنغريد على معرفة سابقة به. لقد كانت تنوي إخبار الاستخبارات الأميركية بشأن مسألة مغايرة تماماً؛ إذ كانت تنوي إخبارهم بالحقيقة التي اعترف بها رولف قبل أسبوع، وهي أنه قد مرر معلومات إلى الروس بشأن نظام الصواريخ الدفاعية قبل عشر سنوات.

لقد كان اعتراف رولف أكبر صدمة تعرضت لها في حياتها. لقد كان موضوع التجسس مبهماً بما يكفي، ولكن الأسوأ منه هو علاقته بكاثرينا، وحقيقة أنه ظل صامتاً بشأن الأمر برمته لمدة عشر سنوات. لكن، من الواضح أنه قد أدرك حقيقة واحدة صعبة؛ وهي أنها لم تستطع أن تتقبل حماقاته، وبدرجة أقل تجسسه لصالح الشيوعيين. ولم يغير مرور الوقت من تلك الحقيقة، حتى على الرغم من أنه كان يأمل ذلك.

كانت قد أخبرته بأنها لا تقوى على البقاء يوماً آخر برفقته. وفي اليوم التالي، وبينما كان إيريك- الذي كان في العاشرة من عمره فقط حينها- في المدرسة ورولف في عمله، اتصلت إنغريد بالاستخبارات الأميركية وحددت موعداً معهم.

لاحقاً، بعد ثلاثة أيام مؤلمة، التقت ويل موس بنيّة الوشاية برولف. فكيف لها أن تتأكد من أنه لن يقوم بتسريب معلومات عن عمله في برنامج أبولو؟ وعن أشياء يهتم بها حقاً إلى الاتحاد السوفييتي؟

ولكـن، فـي اللحظـة الأخيـرة في مكتب موس، باغتهـا الندم، فلم تتمكن من الوشـاية بوالد ابنها وإخبارهم أنه جاسـوس. لكن الهرب من مكتب موس سـيكون مسـتحيلاً، إذ كان سـيثير الكثير من الشـبهات، وتحديداً بعد أن عرف مسبقاً عن الموضوع الذي رتبت الاجتماع بشأنه؛ «اعتراف يخص زوجها». لذا، في خضمّ حالة الرعب التي كانت تتملكها، كشـفت إنغريد عن تورّط زوجها في إخفاء يورانيوم مخصب خلال الأيام الأخيرة في الحرب. ولم تكن قادرة على تقديم أي تفاصيل لأنها لم تكن تمتلك أياً منها.

حاولـت إنغريـد الاتصـال بإيريك مجدداً. ربما سـمع رسـالتها، ولكنه لـم يُجب بعد.

رأى المارة على جسر لامبيث مشهداً غريباً، فقد رأوا شاحنة سمكري من طراز رينو بيضاء اللون تتجاوز مسـرعة السـيارات الأخرى فيما صافرة الإنذار الخاصة بها تدوي، وكان ضوء المصابيح الأمامية اليمنى واليسرى يومض في تناغم، كما ومض ضوء أزرق خلف شبكتها، وثُبت آخر على سطحها بواسطة مغناطيس.

«أريد رقم لوحة ذلك السمكري». قال رجل يرتدي معطفاً مشمعاً للوقاية من المطر بنبرة جافة لرجل آخر أثناء انتظارهما دورهما لعبور الشارع.

«لن أقبل بلا كجواب». قال ديفيد ستون وهو يتحدث عبر هاتفه المؤمن بينمـا كان يجلـس علـى المقعد الأمامي، وتابـع: «نحن في وضع حرج. أكرر، الوضع حرج».

كان ذلك يعني أكثر الأوضاع خطورة؛ حيث يوجد تهديد محدق ملموس يتطلب رداً فورياً، ويتجاوز كل الأولويات الأخرى.

«أحضر تلك المرأة حتى لو كانت تتناول العشاء مع الملكة». قال ستون وهو يحاول أن يبدو متسلطاً وغير خائف على الرغم من القلق الذي يتملكه.

«إنهـا هنـاك بالضبـط». قال الصوت في الناحية الأخرى من الخط. «كيف

عرفت ذلك؟».

«حسناً، إنها لا تتناول أي حلوى لعينة!».

أوقف لامبرت السيارة أمام مقر الاستخبارات البريطانية العسكرية MI5 الواقع في تيمز هاوس في ميلبانك بضغطة عنيفة على المكابح.

ترجّل ستون من السيارة وهو يحمل الهاتف وحقيبة في يده، وصعد متجهاً إلى المدخل الرئيس فطريقه المعتاد المار عبر الفناء سيستغرق وقتاً طويلاً للغاية.

ذهب لامبرت إلى مؤخر السيارة، فيما توقف أمامه حارس أمن يرتدي ملابس مدنية.

قال الحارس بصرامة: «كما ترى، الركن هنا ممنوع».

فتح لامبرت مؤخر الشاحنة، فترجل منها جاك الذي كان شاحباً كلوح أبيض، وتقيأ بعنف على أسفلت الشارع.

قال لامبرت: «آسف يا جاك، أكانت جولة عصيبة؟».

لوّح الحارس بيده بقلق وقال: «سيتعين عليه إبعاد هذه المركبة عند...»

«ليس لدينا وقت للقيام بهذا الآن». قال لامبرت، وأظهر للحارس بطاقته «كريغ لامبرت، الاستخبارات الأميركية. الرمز الأحمر».

تغيرت تعابير الحارس إلى الشك، وسعل بتوتر ثم سأل: «هل يمكنني مساعدتكما بشيء ما؟».

«راقب السيارة أثناء توقفنا للقيام بزيارة».

(48)

قبـل أن ينفتـح حتـى بابا المصعد بشـكل كامل فـي الطابق الرابع من مقر قيادة الاسـتخبارات العسـكرية البريطانية MI5، تسـلّل ديفيد سـتون إلى الرواق وهو يضع شارة زائر حصل عليها من مكتب الاستقبال حول عنقه. كان يرافقه مايـكل ألدريتـش، وهـو منـدوب الاسـتخبارات الأميركيـة إلى وحـدة مكافحة الإرهاب التابعة للاستخبارات البريطانية.

عبر ستون البهو سريعاً متجهاً إلى مكتب ألدريتش، وأغلق الباب بمجرد دخول هذا الأخيرّ.

«لقد خدعنا مالك بهرامي». قال ستون وهو يلهث ويدخل يده في جيب صدره. «لا تزال المجموعة تمتلك القنبلة، وهم متعصبون عنيفون».

أخـرج قصاصـة الـورق، وتابـع: «تركـوا هـذه فـي المكان الـذي كان من المفترض أن يضعوا القنبلة فيه».

نظر ألدريتش إلى الورقة، وأصبح وجهه شاحباً، ثم أنزل قصاصة الورق ببطء وحدق إلى ستون وكأنه يرى شبحاً. «حمقى!».

قال ستون: «تلطف في حديثك».

«قصدتكم أنتم». وحدّق ألدريتش إليه بغضب. «أتقول لي إنهم يمتلكون قنبلة قذرة فعلاً؟».

«يبدو الأمر كذلك». فضّل ستون ألا ينظر إلى عينَي ألدريتش.

«لقد ثبت مالك فتيل تفجير معطوباً. ولكن، بما أن أمره قد افتُضح الآن، فربما تتوقع بقية المجموعة ذلك وتقوم باستبداله. لذا، علينا العمل على فرضية أنهم يمتلكون قنبلة قذرة».

خيّم صمت بارد على الحجرة.

قال ألدريتش بغضب: «أيها الأميركيون، أنتم حمقى. فأنتم تأتون إلى مكان

ما وتفسدون شؤون الآخرين... وتطلبون أشياء، وتقومون بابتزازنا للابتعاد عن شؤونكم... هل تعرف ما يعنيه هذا؟».

«اهدأ يا مايك».

«أهدأ؟! العشرات وربما المئات من الناس قد يموتون، والآلاف أو عشرات الآلاف منهم قد يصابون، وقد تصبح أحياء كاملة في لندن غير قابلة للسكن لمدة سنوات. كان بوسعكم على الأقل أن تخبرونا بالمخاطر المحتملة!».

كان غضب ألدريتش مبرراً. ولكن، ماذا كان بوسع ستون أن يخبره؟ لقد كانت العملية شديدة السرية لدرجة أنهم أطلعوا ألدريتش على جزء من الحقيقة فقط.

«هل بدأتم تقتنعون بدعايتكم التي تسوّقونها؟ تلك التهديدات التي تغذّونها لزيادة ما تحصلون عليه من تمويل وللحفاظ على وظائفكم؟».

فقال ستون: «نحن نتحدث عن نظائر U-235 المشعة. إنها أسوأ من مسحوق الرصاص، لكنها ليست مثل السيزيوم أو البلوتونيوم ولله الحمد».

«لا تهوّن الأمر! كيف ستتصرف؟».

«يجب التعامل مع الموقف سريعاً، وفي صمت، ومن دون أية مقاومة. أين رؤساء فيلكس؟ استدعهم إلى هنا على الفور».

مال ألدريتش نحو هاتف المكتب وقال: «أرسل غريفين وروز إلى هنا، بسرعة».

وضعت كيت أكياس التسوق المصنوعة من القماش على السلالم، وأخرجت مفاتيحها من محفظتها، فيما سحب إميل أحد الأكياس، وأغلقت أوليفيا باب السيارة بعنف.

كان قفل باب المنزل مفتوحاً، فسيطر شعور سيئ على كيت؛ إذ كانت متيقنة من أنها قد أقفلته عندما غادرت.

عندما دخلت المنزل، رأت أحد أدراج المكتب مقلوباً على الأرض. وضعت المشتريات على الأرض، واستدارت لتدفع إميل نحو الخارج. وكان

قد نظر إلى داخل المنزل من خلفها.

«من الذي قام ببعثرة الأشياء...»

«انتظر في السيارة». قالت كيت بتوتر، ودفعته بعيداً عن المنزل.

صرخ إميل قائلاً لشقيقته: «لقد تعرضنا للسرقة».

فتحت كيت باب السيارة، ودفعت الطفلين إلى داخلها.

فسألتها أوليفيا بقلق: «ماذا حدث يا أمي؟».

«لا شيء خطير. انتظرا هنا. سأدخل بنفسي أولاً».

عادت كيت إلى داخل المنزل وهي تشعر بقلق شديد. كانوا يخافون من اللصوص، لكنهم لم يتعرضوا للسرقة يوماً؛ حتى الآن.

كان المكان في حالة فوضى عارمة. إذ كانت الأرض مغطاة بأغراض ملقاة من الخزائن ومن الرفوف ومن الأدراج. هرعت إلى المكتب، وشعرت بالارتياح بعد أن رأت الحاسوب لا يزال في مكانه؛ إذ لم يكن الأوان قد فات على أخذ نسخ احتياطية من ملفاتهم.

أثناء تفقدها الغرف، تحوّلت صدمتها إلى غضب بسبب الدمار الذي حل بها. اللصوص يسرقون، وهذا عادي. ولكن، هل كان يتعين عليهم قذف كل شيء في كل مكان؟

ذهبت إلى غرفة الطفلين التي كانت قد تعرضت للنهب أيضاً. كان إيريك قد قرأ في الصحيفة أن اللصوص يتركون أقل أثر في غرف الأطفال والمطابخ. لكن على ما يبدو، هذا اللص كان استثناءً. عثرت كيت على صندوق المجوهرات الخاص بأوليفيا؛ حيث كانت تحتفظ بكل مجوهراتها الخاصة كنوع من الخداع. كان كل شيء لا يزال في مكانه.

«أمي!». صاحت أوليفيا من عند مدخل البيت، وقد بدت قلقة.

«أنا في الأعلى. عودي إلى السيارة وانتظريني، سآتي على الفور».

اتصلت كيت بالشرطة، فقيل لها إن ضابطاً سيكون لديها خلال ساعة. بعد ذلك، أقفلت الباب الأمامي بحذر، وعادت إلى السيارة حيث كان الطفلان اللذان يثرثران بحماسة بانتظارها.

«سآخذكما إلى منزل فيفيان». قالت كيت أثناء جلوسها خلف المقود.

سألها إميل: «هل ستأتي الشرطة؟ أريد أن أرى الشرطة وهي ترفع البصمات، وتأخذ عينات الحمض النووي و...»

«لا تكن سخيفاً. ستنتظران في منزل فيفيان. وعلى الأرجح، سنبيت ليلتنا هناك».

تمتم إميل بنبرة احتجاج: «فيفيان مملة».

كانت راحتا يدي سعيد تنضحان عرقاً على عجلة القيادة الخاصة بشاحنة الفوكسهول الخضراء. وقد أبطأت شحنة المتفجرات الموضوعة في مؤخر الشاحنة من سرعتها.

انعطف نحو اليسار إلى داخل A23 في شارع بريكستون الذي يقود إلى وسط لندن. عند اختيارهم مكان التفجير، سألوا أنفسهم عن أكثر الأماكن أهمية في لندن؛ المكان الذي سيمثل التفجير فيه جرأة غير مسبوقة، وسيوقع أكبر عدد ممكن من الضحايا.

كان الجواب واضحاً. فقد كان هذا المكان أكثر الأماكن خضوعاً للحراسة المشددة في المدينة؛ وخاصة اليوم. وهكذا، فهو المكان الذي يشكل أكبر تحدٍّ. لكن هذا الأمر مناسب لهم؛ فقد أرادوا خوض تحدٍّ ما.

انعطف سعيد يساراً في شارع كنغستون، وقاد الشاحنة ببطء وهو يختفي في وسط الزحام. كان لا يزال على بعد كيلومترين من مقر الحكومة البريطانية؛ حيث يتواجد مقر مجلسي البرلمان، في 10 بشارع داوننغ، فضلاً عن مقرات الوزارات الرئيسة. إن هذا المكان هو قلب حكومة المملكة المتحدة.

(49)

ساد جو من القلق والاستعجال في مكتب مايكل ألدريتش الواقع في الطابق الرابع من مبنى الاستخبارات البريطانية. كان ثلاثة بريطانيين وثلاثة أميركيين حاضرين. وكان جاك بلوم لا يزال يبدو شاحباً وفي حالة إعياء وهو يجلس خلف هوائي ضخم متصل بحاسوبه المحمول. أما ديفيد ستون فقد رمى سترته في ركن الغرفة، وقام بثني كميه، ولكنه كان لا يزال أحمر الوجه ويتصبب عرقاً، وقد أخفض هاتفه عن أذنه قائلاً:

«إن شقة نظمي حلبي فارغة، وقد عُثر على القليل من آثار الدماء هناك، كما عُثر على آثار غبار مشع في إحدى الغرف. سنقوم بتفتيش المكان، ولكن على الأرجح سيكون من الصعب العثور على خريطة عليها علامة X».

قال ألدريتش: «هذا الإجراء لا طائل منه عملياً إن لم نعثر على أي أدلة. لقد أطلقت خطة التأهب التي مررنا عليها أثناء التدريب».

فكر ستون: لنأمل أنه كان تدريباً لطيفاً وطويلاً. مباشرة بعد وقوع الهجمات التي استهدفت برجي التجارة، تلقت الاستخبارات الأميركية ما اعتُبر تقريراً ذا مصداقية من مصدر موثوق بشأن جهاز نووي موجود في مانهاتن، ولم يتم حتى إبلاغ عمدة نيويورك عن التهديد؛ وذلك تجنباً لإثارة الذعر. وقد تبيّن أن التقرير غير حقيقي. ولكن، لا أمل في حدوث ذلك الآن.

تحدث غريفين قائلاً: «إيريك ويليامز، وهو باحث في مجال الحمض النووي أشرت إليه سابقاً، والذي كان يحقق في وفاة والده...»

قال ستون: «أعرفه، وأعرف والديه بشكل أفضل أيضاً».

«أبلغني ويليامز قبل ساعات قليلة بأنه سيأتي إلى هنا مع شهادة من والده مسجلة على شريط كاسيت، والتي قال إنها تشمل حقائق تدعم مزاعمه السابقة».

سأل ستون: «لمَ لم يتم إبلاغي بذلك؟».

قاطعه غريفين: «ما كنت لأشتكي من إجراءات الإبلاغ الخاصة بنا لو كنت مكانك. كان ويليامز في طريقه إلى هنا عندما اتصل مجدداً وقال إنه يقود سيارته بجوار مسكن نظمي حلبي. يعتقد ويليامز- أو يعرف- أن حلبي لديه بعض المذكرات القديمة التي كان يبحث عنها. فطلبت منه أن يأتي إلى هنا من دون قيد أو شرط، وإلى هنا فقط...»

سأله ستون: «هل حاولت الاتصال به؟».

«بالطبع. لقد كانت زوجته تسأل عنه أيضاً. ولكن، يتم تحويل المكالمات الواردة إليه إلى البريد الصوتي».

«أعطني رقم هاتفه».

دوّن غريفين الرقم على دفتر سريعاً، فقام ستون بالاتصال به على الفور.

«إيريك ويليامز هنا. يرجى ترك رسالة بعد سماع الصافرة...»

انتظر ستون انتهاء الصافرة، ثم قال بهدوء: «سيد ويليامز، معك ديفيد ستون. أنا زميل للسيد غريفين. اتصل بي على الفور، فالأمر عاجل للغاية. لقد كنت محقاً، ونحن نصدقك. أكرّر، اتصل بي بأسرع وقت ممكن».

«المديرة في طريقها إلى هنا يا سيدي». قال ضابط شاب من عند مدخل الباب.

وسرعان ما دخلت امرأة ترتدي سترة حمراء داكنة الغرفة على الفور. كان قد تم استدعاء مديرة الاستخبارات العسكرية البريطانية أجنيتا ويلر داوسون إلى المكتب بينما كانت تتناول العشاء.

قالت: «يجدر بالأمر أن يكون شديد الأهمية».

شرح ألدريتش الموقف بإيجاز.

فظهرت خبرة ويلر داوسون ودهاؤها عندما لم تضيّع الوقت في لومهم أو توبيخهم، وإنما سألت ببساطة ومن دون تردد: «هل تمّ استدعاء فيلكس؟».

«أجل. تم رفع مستوى التأهب إلى الدرجة الخامسة».

كانت فيلكس مجموعة عمل مشكلة من مراتب رسمية للتعامل مع القنابل

القـذرة. وهـي تضـمّ ممثليـن عـن SO15؛ وهي وحدة مكافحـة الإرهاب لدى شرطة سكوتلاند يارد، فضلاً عن الخدمات الأمنية ووكالات مكافحة الحرائق وخدمات الطوارئ والاسـتجابة للكوارث. وقد اجتمعت في مقر قيادة شـرطة لندن الأكبر الذي اسـتقبل صوراً من آلاف كاميرات المراقبة المثبتة في أرجاء المدينـة بأسـرها. كان المقصـود بالمسـتوى الخامـس- وهـو أعلى مسـتويات التحذير- أن رجال الشرطة الذين لم يكونوا في الخدمة قد صدرت لهم أوامر بالعودة إلى العمل، بالإضافة إلى زيادة أعداد الكاميرات وأجهزة مراقبة الطرق. وكان قد تم اعتماد مسـتوى التحذير هذا بالفعل بسـبب حلول ذكرى هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

قال ألدريتش: «رفع مسـتوى التحذير سـيصل خبره إلى وسـائل الإعلام، ولكن لا يجب إذاعة أي شيء آخر قطعاً».

«ظننـت أننـي سـمعتك للتو تقول إن المجموعـة التي تمتلك القنبلة تنوي إخبار العالم بأسره عن محاولتنا تلفيق التهمة لها».

قـال سـتون: «بطبيعـة الحـال، سـوف ننكـر كل شـيء، ولن يصـدق أحد قصتهـم. وبالإضافـة إلـى ذلـك، ليس بحوزتهـم دليل عليها. وعلى المسـتوى الرسـمي، إن السـبب في تشـديد الإجراءات الأمنية سـيكون ذكرى الهجمات. لقـد تـمّ تعاملنـا مع مالك بهرامي بأقل قـدر من التوثيق، ولكن يمكننا التعامل مع ذلك عندما يحين الوقت. المهم الآن هو منع عملية التفجير، أو على الأقل الاستعداد لوقوعها».

قـال ألدريتـش: «سـنرفع حالـة التأهـب إلـى الدرجة القصوى. وسـنلتقي مجموعة SO15 سريعاً، فهم الذين سيتحملون مسؤولية هذه العملية».

أومـأ سـتون علـى الرغـم من أن الفكرة قد أفزعتـه؛ فقد كان من الممكن مناقشة مسائل سرية ذات طبيعة سياسية مع الاستخبارات العسكرية البريطانية، لكـن وحـدة مكافحـة الإرهاب التابعة لشـرطة متروبوليتان كانت منظمة تتسـم بالصرامة.

قال ألدريتش: «سنحتاج عما قريب إلى اتخاذ قرارات على مستوى أعلى».

وعدته ويلر داوسون: «ستحصل عليها. سأطلب منهم استدعاء مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء».

كان يتم استدعاء لجنة مكتب غرفة الإحاطة التابعة لمجلس الوزراء، والمعروفة أيضاً باسم كوبرا، والتي تتشكل من ممثلين من الوزارات الرئيسة ووكالات تتعامل مع الحالة الأمنية في أوقات الأزمات الحادة. كان اسم اللجنة مشتقاً، حيث كانت تجتمع في مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء، والواقع في قبو المبنى الذي يضم مكاتب الحكومة في داوننغ ستريت.

كان من الصعب تخيل مشكلة أكثر أهمية من هذه.

(50)

كان إيريك ممدداً في صندوق السيارة المتحركة في ظلام دامس.

كان ممـدداً علـى جانبـه، وركبتـاه مثنيتان في المسـاحة الضيقـة، وذراعاه محشـورتان بشـدة في جانب صندوق السـيارة؛ لدرجة أن الدماء في يديه بدت وكأنهـا قـد توقفـت عـن التدفـق. ضغط شـريط الكاسـيت الموجـود في جيبه على صدره، وكانت أذنه مسـتندة إلى أرض صندوق السيارة، لذا كان يشـعر بـأن صـوت المحـرك يتغيـر أكثر من أن يسـمعه. وكان ضجيج الإطارات على الأسـفلت ينقطـع بيـن فينة وأخرى بسـبب الجلجلة الحـادة الناجمة عن الحفر فـي الطريـق. وقـد جعلته الانعطافات والتوقفات وزيادات السـرعة يعرف أنهم يسيرون في منطقة حضرية.

إلا أن عدم شـعوره بالراحة الجسـدية، وشـعوره بالإعياء كانا لا يقارنان بمـا يتملكـه مـن أفـكار. فهذه المعادلة المظلمة بأسـرها يمكنها أن تُضاف إلى استنتاجاته الأكثر إخافة؛ لقد سقط اليورانيوم المخصب المذكور في مذكرات بلوغر في أيدي الإرهابيين الذين يعتزمون استخدامه في إنتاج قنبلة قذرة على الأرجح. إن السـم الذي قام والده بتصنيعه خدمة للنازيين سينتشـر ليصل إلى مئـات الآلاف مـن البشـر، وسـيتغلغل فـي جلودهم ورئاتهم؛ بمـن فيهم كيت والطفلان.

حـاول إيريـك كبـح هلعه والتفكير في حل ما لمأزقه؛ على الرغم من أنه قـد بـدا أنـه لا حـل لـه. وكان يزداد عجزاً نتيجة اليأس بمـرور كل ثانية. عاود التفكير بشـكل تلقائي في التسـجيل، وفي كلمات والده، وفي نفسـه حين كان صبيـاً صغيـراً، وفـي عائلتهـم الصغيرة؛ تلـك العائلة التي كان قـد افتقدها بألم شديد بعد طلاق والديه.

لـم يكـن باسـتطاعته التفكير في الماضي أكثر من قدرته على التفكير في

الحاضر، لذا غرق في فقدان الحس، واستسلم للموقف.

مشت إنغريد بخطوات سريعة نحو مكتبها. كانت قد اتخذت قراراً.

كلما فكرت في زيارة أحد رجال الاستخبارات الأميركية.لها قبل شهرين شعرت بالقلق أكثر. كان ديفيد ستون قد سألها عن مخزون اليورانيوم الخاص برولف، وقد أخبرته تماماً بما أخبرت به ويل موس قبل حوالى ثلاثة عقود في العام 1968.

وكانت قد أخبرت ستون أيضاً أنها لا تود أن تكون لها أي علاقة أكثر بهذه المسألة. وزيادة في التأكيد، أخبرته أن رولف– الذي عاش في السويد– لم يكن راغباً بالتحدث عن الأمر أكثر منها أيضاً؛ وخاصة إلى الأميركيين حسبما أضافت. ولحسن الحظ، تجاهل العميل التعليق الطائش. كانت إنغريد لا تزال ترغب بألا يعرف رولف أنها أخبرت الاستخبارات الأميركية بشأن ذلك. فقد أرادت أن يصدق حتى النهاية أنها لم تكن لتخنه، وأنها تمسكت بوعدها دوماً.

كان ستون قد عامل إنغريد باحترام مثير للاهتمام. فلا بدّ أنه قد قرأ الملف الخاص بها لدى الاستخبارات الأميركية قبل أن يتواصل معها. لم تستطع معرفة أي شيء منه عن السبب وراء اهتمام الاستخبارات الأميركية باليورانيوم.

وبعد أسبوع من زيارة ستون، غادر رولف إلى برلين. لماذا؟ كي يبحث عن اليورانيوم لسبب ما؛ خمنت إنغريد.

ولكن، هل كان إيريك محقاً بالاشتباه بأن ثمة ما يثير الريبة في ما يتعلق بوفاة رولف؟ هل كانت للأمر علاقة بزيارة ستون؟

كانت الاستخبارات الأميركية مسؤولة ذات يوم عن عمليات اغتيال وأنشطة غير قانونية أخرى، ولم تشك إنغريد للحظة في أن النوع نفسه من الأنشطة لا يزال محتملاً؛ ليس بالضرورة كجزء من المهام الرسمية للاستخبارات الأميركية، وإنما تحت غطاء آلية عمل الاستخبارات الأوسع والأكثر تنوعاً. هل هذا يعني أن قيام إنغريد بالإبلاغ عن مخزون اليورانيوم في العام 1968 ربما كان السبب في وفاة رولف؟ سيلومها إيريك بلا شك على هذا الأمر أيضاً.

كان أكثر ما يزعجها هو أنها أخبرت إيريك بشأن اليورانيوم. لن يحاول

تقفي أثره، أليس كذلك؟ أو التدخل في أمور كهذه؟ أهذا ما كانت كيت تلمح إليه؟ هل إيريك في خطر؟

فتحت إنغريد أحد أدراج مكتبها وأخرجت محتوياته. كان عليها أن تقوم بشيء ما قبل فوات الأوان.

بيد مرتعدة، رفعت الورقة التي دُوِّن عليها رقم ديفيد ستون.

خرجت سيارة جاغوار سوداء مسرعة من الطرق المخصصة لمقر الاستخبارات العسكرية البريطانية، وانعطفت شمالاً نحو داونِنغ ستريت.

«إذا كان ما يزعمه الإرهابيون حول امتلاكهم قنبلة قذرة حقيقياً، فنحن متأخرون للغاية». قالت أجنيتا ويلر داوسون لستون الذي كان يجلس بجانبها على المقعد الخلفي. كان صوتها ثابتاً، ولكنْ كان بوسعه ملاحظة توترها.

«أجنيتا، أخشى بشدة أن مزاعمهم حقيقية...»

رن أحد هواتف ستون. كان الاتصال من قبل عامل الهاتف في مقر الاستخبارات الأميركية في الولايات المتحدة.

قال ستون: «أجل؟».

«لديك اتصال من إنجلترا، من امرأة تدعى إنغريد ستورمار».

«ليس لدي وقت لذلك». قال ستون، ولكنه بعد ذلك تذكر الاسم فتابع: «انتظر، مرِّر لي المكالمة».

«هذه إنغريد ستورمار. مساء الخير». قال صوت امرأة مسنة.

«سيدة ستورمار، كيف حالكِ؟». قال ستون وهو يحاول أن يبدو ودوداً قدر الإمكان. ونظر إلى ويلر داوسون التي طرفت عيناها غير مصدقة ما تراه؛ فكيف يمتلك وقتاً للدردشة مع امرأة مجهولة؟ واصل ستون حديثه.

«لقد جئت لرؤيتي قبل شهرين».

«أتذكر ذلك جيداً. هل هناك أي شيء جديد تذكرته؟».

«لقد أخبرتك بأنني لم أطلع أحداً بشأن مخزون اليورانيوم، لكنّ ابني إيريك يعرف عن الأمر إلى حد ما، وهو مهتم للغاية...»

«أين ابنك؟».

«لا أدري، وأنا قلقة حيال ذلك. أريد أن أعرف ما يجري. هل يمكنني أن ألتقيك مجدداً؟».

«سأعاود الاتصال بك خلال لحظة». قال ستون وأنهى الاتصال.

قالت ويلر داوسون بجفاء: «أفترض أن ذلك كان اتصالاً هاماً».

لم يجب ستون.

«لقد أصررت على أن نظلّ خارج هذه العملية، وانظر إلى ما فعلته». واصلت ويلر داوسون كلامها بنبردة باردة. «أود أن أسمع ما تعتزم القيام به؛ بشكل كامل وعلى الفور».

«أنت تدركين أن هذه المسائل معقدة جداً...»

«أحذرك يا ديفيد. لا يمكنك الاحتفاظ بالأسرار في موقف كهذا».

نظر ستون إلى عيني المديرة، ثم حوّل نظره المضطرب إلى المقعد الذي أمامه، وتحوّلت تعابير وجهه إلى الشحوب، ثم أجاب: «يتعين عليّ مناقشة الأمر مع رؤسائي».

«ألديك رؤساء؟ ظننتك تعمل لحساب نفسك، وأن لا أحد في لانغلي يمكنه أن يلمسك بعصا طولها سبع أقدام».

تنهد ستون مستسلماً وقد تجاوزت السيارة مجلسي البرلمان. «ستبدأ الأمم المتحدة عمليات التفتيش على الأسلحة في غضون شهر، ولا يمكننا الانتظار والاعتماد على اكتشافها أي شيء. فلا بدّ لنا من مهاجمة العراق، ولكننا نحتاج إلى سبب للقيام بذلك؛ نحتاج إلى دليل حقيقي دامغ على أن العراق يشكل خطراً، كي يتقبل العالم هجوماً ضدهم. في الواقع، إننا نحتاج إلى نوع الدليل الذي سيسبب مطالبة الرأي العام بشن الهجوم».

«لذا، قررتم اصطناع دليل دامغ هنا في لندن. وتأكدتم من أنه سيكون هناك تفجير حقيقي هنا».

«لا بدّ أن تكون القصة ذات مصداقية. وهذا يعني أنه لا بدّ أن تكون القنبلة حقيقية. والأحداث التي يتعين على الاستخبارات العسكرية والشرطة

منعها في آخر لحظة لا بدّ أن تكون حقيقية. ستتلقين قدراً عظيماً من الثناء، ودعماً في مفاوضات الميزانية القادمة. وإذا كنتِ على علم بشأن العمليات قبل ذلك، ما كنتِ لتوافقي على المشروع، لذا كان من الأفضل ألا تعرفي».

بدا له أن المديرة العامة تكافح لاحتواء غضبها: «كيف أوصلتم نظائر U-235 إلى الإرهابيين؟».

«أبلغنا مالك بهرامي- وهو جاسوس جاء إلينا عبر شرطة حماية الدستور الألماني-، أن أحد الأشخاص الذين يتواصل معهم، وهو تاجر سلع مستخدمة، أخبره بشأن اليورانيوم، وأن ممتلكات أحد العلماء النازيين السابقين قد احتوت على وثائق تخص بحوثاً نووية ذكرت أن كمية ضئيلة من اليورانيوم المخصب قد تم إخفاؤها في نهاية الحرب. وقد قمنا بتحقيق روتيني، وتلقينا تأكيداً من امرأة تدعى إنغريد ستورمار، وقد كانت خبيرة في مادة السيزيوم لدى الاستخبارات الأميركية في الستينيات، وأجرت بحوثاً حساسة على آثار الإشعاع. فبعثنا مجموعة مالك في أثر المخزون، لأنه سيتيح لها إنتاج قنبلة قذرة. لم يكن بمقدورنا شراء اليورانيوم لهم، ولكن تعيّن علينا تركهم ليعثروا عليه بأنفسهم، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً على الإطلاق. كانت هناك تعقيدات طوال الوقت، لكن كل شيء كان ناجحاً... حتى اليوم، عندما علمنا أن «مالك» قد كُشف أمره من قبل المجموعة».

«بكلمات أخرى، اتخذتم قراراً بتنفيذ عملية بالغة الخطورة على تراب أقرب حلفائكم».

«لم تكن ثمة طريقة آمنة لنقل اليورانيوم من ألمانيا إلى الولايات المتحدة».

«أهذا عذركم؟!».

توقفت سيارة الجاغوار أمام بوابة داوننغ ستريت، حيث أفسح رجال شرطة يرتدون زياً رسمياً الطريق لهم. وانخفض حاجز التفتيش بشكل أوتوماتيكي.

نظر ستون إلى ويلر داوسون وقال: «هذه ليست سوى حادثة إرهابية. أما دورنا فلن يكون له أثر تماماً. ربما سيحاول الإرهابيون إظهار الأميركيين على أنهم الملامون، ولكن ذلك سيجري تفنيده وتصنيفه على أنه دعاية من قِبل

الإرهابيين. هناك فقط القليل من الأشخاص في الاستخبارات الأميركية الذين كانـوا علـى علـم بالعمليـة، ولا أحـد غيرهم. وهناك إيريـك ويليامز هذا الذي يعرف شيئاً عن الأمر الآن، وأمه».

«أهما شخصان غريبان تماماً؟».

أومأ ستون وقد بدا عليه الاستياء.

(51)

جاهد إيريك كي يدخل الهواء إلى رئتيه. كان قد شعر بتزايد سرعة السيارة، إذ كانوا يسيرون بسرعة عالية منذ بعض الوقت؛ مما يعني على الأرجح أنهم على طريق سريع. وقد كان إحساسه بالوقت مضطرباً.

ثم بدأت السيارة تعرج وكأن الطريق ضيق ومتعرج. والآن، باتوا يتحركون ببطء شديد.

لم يكترث إيريك بذلك، فقد كان في عالم الطفولة. رأى نفسه وهو يلهو في المياه الضحلة، فيما أمه وأبوه مغطيان بالرمال تحت أشعة الشمس على شاطئ كانافيرال. كان يركل كرة مخططة باللونين الأحمر والأبيض نحو أبيه، بينما كانت أمه تجلس تحت مظلة على الشاطئ وهي تضع نظارة شمسية كبيرة وتخرج وجبة الغداء من صندوق ما. هرع إيريك وأبوه نحو أمه، وعانقهما إيريك معاً، فالتصق خداه بخديهما وقد ضحكوا جميعاً. أمسك إيريك بنظارة الشمس الخاصة بأمه وسحبها ببطء. وخلفها، كانت عينا أمه مليئتين بالدموع.

توقفت السيارة فجأة، وكانت الأجواء هادئة تماماً. لم يكن هناك أي صوت. على ما يبدو، إنهم في مكان ما معزول.

هنا حيث سيقومون بإعدامه، وقد انتظر أن ينفتح صندوق السيارة في أية لحظة.

تابع ديفيد ستون النشاط المحموم لطاقم مركز مكافحة الإرهاب التابع لشرطة لندن. لم يتوقفوا عن التحقق من عشرات شاشات المراقبة، فيما كانوا يجلسون في مجموعات وأمامهم مايكروفونات، وكانوا يضعون سماعات آذان على رؤوسهم، أو يتحدثون عبر الهواتف.

قبل زمن طويل، كان ستون عضواً فاعلاً في ميادين العمل الخطرة

للاستخبارات الأميركية في جنوب أفريقيا ووست إند. ولكن، بالرغم من أنه كان قد مرّ بالعديد من المواقف الحرجة من قبل، إلا أنّ هذه اللحظة تسبب له هلعاً شديداً.

لم يكن ذلك بسبب خطورة الموقف، فقد كان معتاداً على ذلك؛ وقد تعلّم كيفية السيطرة على خوفه وذعره. ولكن هذا الأمر أسوأ مما مرّ به سابقاً. فهذا خطؤهم المأساوي؛ خطؤهم الذي قد يتسبب في معاناة إنسانية واقتصادية عظيمة. سيطر عليه شعور غامر بالذنب، وصار عاجزاً عن التركيز. لقد كان هذا الذنب جديداً عليه، وهو شيء لم يكن يقوى على تحمله.

والآن، بات عليهم إصلاح خطئهم بأي وسيلة ممكنة، وإلا فسينصبّ جام غضب العالم على كاهل لانغلي والبيت الأبيض والولايات المتحدة بأسرها.

اتصل ستون بإنغريد ستورمار.

«طاب مساؤكِ يا سيدة ستورمار. المعذرة على اتصالي في وقت متأخر. هل هناك مشكلة إذا أرسلت رجلاً ليلتقيكِ الآن؟».

«لهذا السبب اتصلت بك. لا بدّ لي أن أعرف الحقيقة. هل لموت زوجي السابق أي علاقة بالقضية التي جئت للتحدث معي بشأنها قبل أسابيع قليلة مضت؟».

فكّر ستون بعمق في كيفية الردّ على سؤالها. لم تكن المرأة العجوز حمقاء، لذا كان عليه أن يفكر في رد جيد.

«وفقاً للألمان، لم يبدُ أن لوفاة رولف ويليامز أي صلات جنائية، لكننا نحقق في المسألة؛ فكل شيء محتمل بالطبع».

«كل ما في الأمر أنه بعد زيارتك حصل العديد من الأحداث التي لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة. فقد عاد زوجي إلى ألمانيا للمرة الأولى منذ سنوات عديدة، وقد توفي هناك، والآن بات ابني يعرف كل شيء، وأخشى أنه في خطر. هل عثرتم على مخزون اليورانيوم؟».

أصاب سؤالها لُب الموضوع، ففكّر ستون في الطريقة المناسبة للرد، غير أن صمته كان إجابة في حد ذاته.

«سوف يأتي زميلي كريغ لامبرت ليلتقيكِ عما قريب. يمكنه أن يعطيكِ المزيد من المعلومات».

«ممتاز».

أنهى ستون المكالمة، وشعر بالأدرينالين يسري في عروقه. لقد عاد إلى طبيعته مجدداً.

«كريغ». صاح وهو يشير إلى لامبرت، ودوّن شيئاً ما على قصاصة ورق.

ثم قال وهو يهمس: «لقد اتصلت المرأة ستورمار. إنها تعرف الكثير عن الأمر، وذلك بالنظر إلى الوضع. وربما هي تعرف أكثر من اللازم؛ وخاصة مع قلقها الكبير».

ومرّر ستون قصاصة الورق إلى لامبرت وتابع: «إليك عنوانها. زُرها».

تناول لامبرت الورقة وسأله: «هل أنت واثق بشأن هذا؟».

«ما من بديل آخر. إنها شاهد رئيس».

أومأ لامبرت ببطء واستدار للمغادرة.

فقال ستون: «ثمة شيء آخر. سوف تشعر بالارتياح حين تعرف أن تلك السيدة العجوز اللطيفة كانت ذات يوم عالمة نازية. لقد أجرت تجارب على البشر تحت إشراف منغيل».

ظهرت على وجه لامبرت علامات الدهشة، ثم استدار واختفى بين حشود رجال الشرطة البريطانيين المدججين بالسلاح.

(52)

تحركت سيارة مرسيدس فيتو فضية اللون مع حركة المرور على طول جادة شافتسبيري في ويست إند.

كان نظمي حلبي يركز على القيادة بشدة، فقد كان التركيز على القيادة طريقة جيدة لتخفيف التوتر. اشتد ازدحام المرور عند سيرك كامبريدج، وكان من الصعب الانعطاف يساراً.

فجأة، صاح كريم: «انتبه».

ظهرت فتاتان مراهقتان شعرهما أحمر أمامهما، فضغط نظمي على المكابح بسرعة، وبالكاد تجنب صدمهما، فضغط على بوق السيارة بغضب، واستقبل سيلاً من اللعنات في المقابل.

كانت حركة المرور متوقفة عند تقاطع طريق تشارنغ. وكانت ثمة حشود من الناس عند تقاطعات الطريق. وعندما اقتربا من مكان وقوف السيارة لدى محكمة نيوبورت، كانت بانتظارهما مفاجأة.

كان الشارع الذي كانوا قد خططوا لوضع الكرسي المتحرك فيه مسدوداً بالحواجز ومغلقاً. وكان هناك حفار آلي صغير، وخيمة عُلقت عليها لافتة كُتب عليها «الشركة البريطانية للاتصالات».

«إلى أين الآن؟». قال كريم بتوتر، على الرغم من أنه كان يحاول أن يبدوَ مسترخياً. فما زال أمامهم متسع من الوقت، لكن كل دقيقة كانت لها قيمتها. «إلى الموقع البديل؟».

أومأ نظمي بشكل مقتضب، وشغل اشارة الالتفاف، وانعطف عند شارع غريت نيوبورت نحو متنزه كوفنت. كان الموقع المستهدف – ميدان ليستر – منطقة للمشاة، ولم يكن ثمة معنى لمحاولتهم الوصول إلى هناك بواسطة السيارة، أو الاتجاه جنوب تقاطع تشارنغ إلى ميدان ترافلغار، فقد رأوا ذلك

عندما أتوا لتفحص المكان. لقد كانت المنطقة خاضعة لكاميرات المراقبة بشكل محكم، ولم يكن بوسعهم إثارة الشكوك بالتوقف هناك.

كان خيارهم الثاني الواقع أمام بناية للمكاتب في شارع غاريك مشغولاً بشاحنتين لنقل البضائع.

«ماذا الآن؟». سأل كريم وهو يزداد قلقاً.

«سأنعطف يميناً عند نيو رو وسأتوقف. يمكنني أخذ الكرسي من هناك».

ملأت رائحة زيت المحركات ومنظف الزجاج المكان المظلم والضيق والهادئ. غدت يدا إيريك المقيدتان بإحكام باردتين بسبب عدم دوران الدم في جسده، وفقدَ كامل الإحساس بهما.

حاول أن يصغي إلى ما كان يجري حوله، ولكنّ كل ما أمكنه سماعه هو تدفق الدم في عروقه. حبس أنفاسه، لكن ذلك جعل نبضات قلبه أسرع وأعلى صوتاً فقط. لقد كان عاجزاً بشكل كامل.

سيكون من السهل جداً على أولئك الرجال حمله من السيارة وإلقاؤه في حفرة في مكان ما. وكل ما كان بوسع إيريك أن يأمله هو أن يتركوا جسده ملقى في قعر حفرة ما كي تتمكن عائلته من العثور عليه. فليس هناك ما هو أسوأ من ألا تعرف كيت وولداه بمكانه، وأمه أيضاً...

سمع إيريك صوت ارتطام؛ إنه باب السيارة. كما سمع صوتَي الرجلين المكتومين. فجأة، امتلأ بالطاقة، فلم يكن يعتزم الاستسلام. بل سوف يقاتل إلى آخر رمق؛ من أجل كيت وولديه. لا بدّ أن ثمة مخرجاً. حاول بكل ما أوتي من قوة أن يخلص يديه، لكن الشريط القوي ثبتهما بإحكام.

«فكّر». قال لنفسه. فكّر. تلمس برأسه ويديه أي جسم يمكنه العثور عليه. وقد غدا صوت الرجلين أقرب الآن. كانا يقفان خلف صندوق السيارة مباشرة.

بعد أن استجمع كل قوته، تمكّن إيريك من التملص إلى الخلف بشكل أعمق داخل صندوق السيارة، ثم شعر بشيء لين أمام ذراعه. حاول البحث عن الشيء بيديه اللتين أوشكتا على الموت. بدا وكأنه قماش؛ إنها ملابس. كان لا يزال بوسعه سماع الرجلين وهما يتكلمان في الخارج. دفع بنفسه بشكل

أقرب إلى الكتلة الموجودة خلفه وشعر بوجود الملابس.

فجأة، وصل إلى نهاية القماش. كانت ثمة فتحة من نوع ما. أدخل يده داخل القماش فشعر بشيء ما أملس. قام بلمسه، ثم عرف ما هو. إنه جلد. لقد كان يمسك بيد شخص آخر.

كانت اليد باردة. أخمد الشريط اللاصق الموجود على فمه صرخة الهلع التي صدرت عنه.

بعد ذلك، انفتح صندوق السيارة. وتفاجأ إيريك لأن الخاطفين لم يلحظا وجوده، ولكنهما بدلاً من ذلك أخرجا الجثة التي كانت خلفه وأقفلا صندوق السيارة مجدداً.

لم تكن لدى إيريك أي فكرة عما يجري. على الأقل، ما زال حياً. ولكن، إلى متى؟

كانت كيت متوترة بشأن ابتعادها عن طفليها بعد حادثة اقتحام منزلهم. ولم تكن قادرة على طرد شعورها بأن شيئاً ما سيئاً سيحدث لهما.

قادت سيارتها بسرعة غير ضرورية مسافة المئات القليلة من الأمتار المتبقية إلى حيث تسكن صديقتها القديمة، ثم أغلقت باب السيارة بعنف، وخطت بخطوات كبيرة نحو المنزل المبني من العصر الفكتوري.

«أين أبي؟». سألتها أوليفيا عندما كانوا في غرفة المعيشة الملونة والباذخة. وقد راقبتهم فيفيان بتوتر من مدخل الباب.

فأجابتها كيت: «لديه عمل ليقوم به، وسيعود إلى هنا عمّا قريب. لا تقلقي». كان ذلك كل ما أمكنها قوله، وقد بذلت جهداً كي يبدو صوتها طبيعياً ولو قليلاً. كان بوسعها تخمين أن أوليفيا شعرت بأن شيئاً ما كان خاطئاً. ولكن، لحسن الحظ، لم تطرح المزيد من الأسئلة.

في طريقها إلى بيت صديقتها، حاولت كيت عدة مرات الاتصال بغريفين؛ الرجل الذي قابله إيريك في مقر الاستخبارات العسكرية البريطانية، لكنه لم يُجب.

سألتها فيفيان: «هل تودين كوباً من الشاي؟ ما الذي قالته الشرطة؟».

كانت كيت تهم بالرد عليها عندما رن هاتفها.

«كيت». بدا صوت إنغريد عاطفياً بشكل غريب. «لقد كنت أحاول الاتصال بإيريك، وتركت له رسائل على المجيب الصوتي، لكنه لم يرد. أود التحدث إليه. هل يمكنكِ حمله على التفكير بمنطق؟ أسلوب الصمت هذا...»

فقاطعتها كيت قائلة: «الأمر ليس كذلك، فأنا أيضاً لا يمكنني التواصل معه». ورغم كل شيء، شعرت بالارتياح لدى سماعها صوت إنغريد. فكرت في ما إذا كان عليها إخبارها حول السرقة. كلّا، لا فائدة من ذلك.

وبينما كانت تتحدث، دخلت استوديو الرسم الخاص بفيفيان الذي كانت تفوح منه رائحة الطلاء الزيتي. «لقد ذهب إيريك للقيام بشيء ما كما ذكرتُ سابقاً، وهو لا يجيب على هاتفه منذ ذلك الحين. لقد اختفى، وأنا قلقة بشأنه».

ساد صمت في الجانب الآخر من الخط: «ما الذي فعلتُه...»

«أجل، ما الذي فعلتِه؟».

«هل ذهب للتحدث إلى الشرطة؟».

«أجل، وقد ذهبت برفقته، لكنهم لم يستقبلونا بشكل جدي».

«ما الذي أخبرتماهم به؟».

شعرت كيت بالغضب وقالت بجفاء: «لا تقلقي، فلم نتحدث عنك. هذا لا يصدّق! ابنكِ مفقود وكل ما يقلقكِ هو سمعتك».

«كيت، لم أقصد ذلك...»

«لا أود التحدث الآن، فأنا متعبة». وأنهت الاتصال.

جلست مجموعة من الرجال والنساء ووجوههم حمراء بسبب الضوء الساطع لقاعة المؤتمرات الواقعة تحت الأرض في مكتب رئيس الوزراء ومقر الحكومة البريطانية الواقع في داونغ ستريت. كان مظهرهم شاحباً، بينما كانوا ينتظرون سماع ما لدى سكرتير حكومة رئيس الوزراء، السير ألبرت كوك، ليخبرهم به.

«طاب مساؤكم، سيداتي وسادتي». قال كوك بصوت متوتر ومتعجل، وتابع:

«لقد دعوتكم إلى هنا لأنه وفقاً لمعلومات تلقيناها من جهاز الاستخبارات البريطانية، هناك مجموعة إرهابية تعمل على إنتاج قنبلة قذرة هنا في لندن».

أشعلت كلمات كوك تبادلاً محموماً للنظرات. لقد كانت اللجنة مسؤولة عن أمن الجزيرة بأكملها.

واصل كوك كلامه: «ربما تكون القنبلة قد وُضعت في مكانها وجاهزة للتفجير». استمرت الحركة المضطربة حول طاولة الاجتماع.

«سأطلب أن تواصل أجنيتا ويلر داوسون الحديث من هنا».

«شكراً لك». قالت المديرة العامة للخدمات الأمنية وهي تنظر بشكل غير إرادي إلى ديفيد الذي يمثل الاستخبارات الأميركية. «وفقاً لتقارير استخبارية، تتألف الخلية محل التحقيق بشكل رئيس من ألمان ذوي خلفيات تونسية وعراقية وجزائرية. وكان كل من جهازي الاستخبارات الأميركية وشرطة حماية الدستور الألمانية يراقب أنشطة المجموعة في ألمانيا منذ مدة. لكن الموقف اتخذ منعطفاً مفاجئاً وحرجاً اليوم. لدينا معلومات تفيد بأن المجموعة قد ظهرت في لندن، وأن بحوزتها قنبلة تحتوي على يورانيوم مخصب».

«علامَ تستند تلك المعلومات؟». سأل هانت، وهو رئيس وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لشرطة لندن الكبرى.

تحوّل نظر ويلر داوسون إلى ستون وقالت: «يمكن لديفيد ستون، ممثل الاستخبارات الأميركية، الإجابة عن هذا السؤال».

تلقف ستون الكرة التي قذفتها إليه بهدوء وأجاب: «لدينا عميل على صلة بالمجموعة. ولكن، يبدو لنا الآن أن عميلنا قد انكشف، وأن المجموعة تتصرف بشكل مستقل. إلا أننا نعلم علم اليقين أن بحوزتهم جهاز تفجير يحتوي على حوالى مئة إلى مئتي غرام من مسحوق U-235 الصالح لصنع أسلحة».

«من أين حصلوا على المسحوق؟».

نظر ستون إلى ويلر داوسون التي كان وجهها خالياً من التعابير وأجاب: «عثروا على مخزون من اليورانيوم يرجع إلى حقبة الحرب العالمية الثانية في

ألمانيا».

كانت هناك جلبة خافتة في القاعة.

قال هانت بدهشة: «لم أكن أعرف أن الألمان امتلكوا اليورانيوم المخصب خلال الحرب!».

«لمَ لم تهاجموا المجموعة ما إن علمتم أن بحوزتها مثل هذه القنبلة؟». سأل سكرتير الحكومة متهماً.

«كيف يكون من الممكن أن تفشل استخباراتكم إلى هذا الحد؛ لدرجة أنكم لم تعرفوا بشأن القنبلة إلى أن غدت جاهزة للتفجير في لندن؛ على الرغم من وجود جاسوس لكم معهم؟ لمَ لم تكن الاستخبارات العسكرية على علم بشكل أفضل بشأن هذا التهديد المحدق؟».

تحوّلت كل الأنظار إلى مديرة الاستخبارات العسكرية، وقد بدا ستون على وجه التحديد منتبهاً.

«كما قال السيد ستون، لقد كانت المجموعة نشطة في ألمانيا التي هي أيضاً مصدر مسحوق U-235. لم يكن هناك ما يشير إلى أنهم يخططون لاستهداف لندن. لسوء الحظ، الآن ليس الوقت الأمثل للجدال حول ما كان يتعين فعله. وبدلاً من ذلك، يتعيّن علينا التركيز على ما يجب فعله الآن. الوقت أمامنا ضيق للغاية. لقد أطلقنا البروتوكول فيلكس، والآن نحتاج إلى موافقة رسمية لتفعيله».

سأل كوك: «ما القدرات التدميرية المقدرة للقنبلة؟».

أومأت ويلر داوسون إلى ستون.

«حسبما عرفنا، الجهاز صغير الحجم. وهو جهاز تشتت إشعاعي قياسي، ويتكون من متفجرات تي أن تي أو إن جي أو ما يشبههما، لذا فالتدمير سيعتمد بشكل كامل على موقع التفجير. قد يتراوح عدد الضحايا المباشرين بين صفر وبضعة عشرات، أو ربما يكون هناك المئات من الضحايا. لكن غبار اليورانيوم يمكن أن ينتشر على نطاق واسع من موقع التفجير، وذلك بناءً على حالة الجو. إنه سام جداً إذا تمّ استنشاقه أو ابتلاعه، ولكنه ليس بمثل خطر السيزيوم أو

البلوتونيوم أو الراديوم أو النظائر المشعة المشابهة. إلا أنه يمكنه إصابة خلايا الحمض النووي والتسبب بالسرطان. لذا، علينا أن نتأهب لعزل منطقة واسعة وتطهيرها. وهذه مهمة ضخمة ومستهلكة للوقت. وبالطبع، ستكون للانفجار آثار نفسية واقتصادية هائلة؛ كانهيار قيمة العقارات في لندن وهلمّ جراً».

«هل لديكم أي تخمينات عن موقع القنبلة؟».

«بالطبع. فقد يكون الهدف هو المدينة؛ لإحداث فوضى طويلة الأمد في الأسواق المالية، أو في منطقة السياحة في وست إند، أو ربما حتى هنا في وايت هول، وذلك إذا كانوا يستهدفون قلب الحكومة».

فنظر أعضاء اللجنة إلى بعضهم بعضاً بقلق.

(53)

إيريك مفقود.

تـردد صــدى كلمـات كيت فـي عقل إنغريد. وقد بدا أن صداها يتردد في الغرفة الخالية، ويرتد ذهاباً وعودة بين المزهريات الكبيرة وأسطح الزجاج.

من الواضح أن كيت تعرف أكثر مما قالته. ولكن، بعد كل ما حدث، كان من المتوقع أنها لا تثق فيها.

حدّقـت الوجـوه الظاهـرة فـي اللوحات الفنيـة المعلقة علـى الحائط إلى إنغريد بصمت. كانت ثمة لوحات مرسومة لأبيها وأمها وعمّيها. وكانوا جميعاً من ذوي الشعر الأشقر، وقد بدا مظهرهم اسكندنافياً للغاية.

دفع مزيج من مشاعر القلق والذنب والخوف بإنغريد إلى الشعور بالإعياء. وقد واصلت المشي من غرفة إلى أخرى، ومن نافذة إلى أخرى. فأفكارها لم ترغب بأن تهدأ. ماذا يمكنها أن تفعل؟!

لحســن الحــظ، كان مبعـوث الاسـتخبارات الأميركيـة فـي طريقـه إليهـا. ولحســن الحظ أيضاً، كانت قد اتصلت بستون. فسـوف يسـاعدانها، ولم يكن بيدها القيام بأي شيء سوى الانتظار.

فكـرت إنغريـد: «فـي لحظة كهذه، لا يرغب الإنســان بـأن يكون بمفرده. مـا الـذي كان سـيحصل لـو أن حياتي مـع رولف كانت مختلفة؟ ما الذي كان سيحصل لو لم تأتِ كاثرينا إلى الولايات المتحدة؟ كيف كانت حياتهم ستبدو؟

ذهبت إنغريد إلى غرفة النوم، وفتحت الخزانة، وأنزلت صندوقاً قديماً من الورق المقوى عن الرف العلويّ. عثرت يدها على بطاقة تقرير المدرسة لمادة النحـو الخاصـة بإيريـك. كم كان إيريك الصغير فخوراً عندما هرع إلى المنزل ليريهمـا العلامـات الكاملـة التي حصل عليها في مادتـي الرياضيات والأحياء؛ الأمر الذي كان متيقناً من أنه سيسعد والديه على وجه الخصوص.

كم تفتقد إلى تلك الأيام الآن، وكم تفتقد إلى رولف؛ ذاك الأحمق مرهف الحس، الرجل الذي قاتل بضمير يقظ طوال حياته، والذي ظنّ أنه شريف بشكل استثنائي، ولكنه في حقيقة الأمر كان مجرد خائن جبان وطفولي.

ورغم ذلك، ندمت إنغريد على القرار الذي اتخذته بالطلاق منه. لقد لعبت كاثرينا دور الإغواء المحسوب؛ كعميلة لموسكو، وقد وقع رولف مباشرة في الفخ التي نصبته له. هكذا كانت إنغريد تحب النظر إلى ما جرى.

التقطت صورة لرجل شاب وسيم.

«آهٍ يا رولف». تنهدت وهي تضغط بالصورة على صدرها وتغمض عينيها.

انفتحت عيناها، فانفجرت اللحظة الراهنة بكل ما يحيط بها من رعب. ما الرابط بين الماضي والوضع الراهن؟ ما القاسم المشترك بينهما؟

حاولت التفكير بذهنٍ صافٍ. فكرت في التسلسل الزمني للأحداث: قبل شهرين، أتاها رجل من الاستخبارات الأميركية ليسأل عن اليورانيوم، ثم توجه رولف إلى ألمانيا وتوفي هناك، ومن المرجح للغاية أن للرحلة علاقة باليورانيوم. وبعد وفاة رولف، غادر إيريك إلى برلين، فقد ذهب للبحث عن اليورانيوم، والآن لا يمكن العثور عليه.

باغتتها خاطرة مزعجة وجعلتها تشعر بعدم الارتياح. لمَ بحق الله أتت الاستخبارات الأميركية لتسأل عن مكان إخفاء اليورانيوم بعد كل تلك السنين؟ فهي من بين جميع الناس تدرك المدى الذي قد تصل إليه قوة عظمى- سواء أكانت ألمانيا النازية أو الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة- في سبيل حماية مصالحها الخاصة.

اتضح لها تدريجياً السيناريو الأسوأ للأحداث. حاولت كبح شعور الهلع الذي يتملكها، لكن ترابط الأحداث بدأ يبدو أكثر وضوحاً. كان هناك رابط ما بين الاستخبارات الأميركية ومخزون اليورانيوم، وكان الأمر شديد الحساسية لدرجة أنه قد توجّب التخلص من رولف، وربما إيريك أيضاً.

والآن، الاستخبارات الأميركية في طريقها إلى منزلها.

ارتـدى الضابـط كاري مـن شـرطة متروبوليتان في لندن البـزة الواقية من الأسـلحة الكيماويـة والبيولوجيـة والإشـعاعية والنووية في المسـتودع الخاص الواقع في إيوستن. كما فعل عشرات الضباط الآخرون من حوله- أولئك الذين تم استدعاؤهم من بيوتهم- الشيء ذاته؛ حيث قاموا بصمت بأخذ البزات الثقيلة المصنعة كي تصمد أمام التلوث المنبعث من الأسـلحة الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية، والمجهزة بأغطية للرأس وأقنعة زجاجية واقية.

حاله كحال الآخرين، كان كاري يقلّب سؤالاً واحداً في رأسه: هذا مجرد تدريب، أليس كذلك؟ كما فعلوا مرات عديدة من قبل. وقد تدفّق المزيد من الرجـال والنسـاء إلـى المخـزن لالتقاط معداتهم. كانت محطة إيوسـتن إحدى نقـاط الدعـم العديـدة فـي منطقة لندن التي كان تخزين مثل تلك المعدات يتم داخلها. وإذا كان الأمر نفسه يحدث في كل تلك الأماكن، فعما قريب سيكون هناك آلاف المخلوقات التي تسير في شوارع لندن وتبدو وكأنها كائنات فضائية غازية.

تتمثل مهمتهم في الدخول مشياً على الأقدام حسبما تقتضي الحاجة إلى منطقة حصل فيها تسرب كيماوي أو بيولوجي أو إشعاعي.

كان بوسـع كاري تصـور الهلـع الـذي سيسـببه مظهرهـم فـي الشـوارع. وستنتشر صور لمناطق طوّقها رجال يرتدون بزات مضادة للأسلحة الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية كالنار في الهشيم حول العالم.

حمل كريم بحذر نظمي إلى خارج الكرسـي الأمامي لسيارة المرسـيدس فيتـو، وأجلسـه علـى الكرسـي المتحـرك عنابـي اللون الذي كان قـد أنزله عن المنحدر ووضعه إلى جانب الشـاحنة. كان شـارع نيو رو شـارعاً جانبياً هادئاً وبعيداً عن الازدحام المروري. وقد تدفقت مناقشات الأشخاص المارين بهم عبر هواء المساء الدافئ.

كانا يظنان أنهما ليسا ضمن نطاق الرؤية لأي من كاميرات المراقبة. ولكن، ربمـا كانـت هنـاك كاميـرات مخبأة في مكان ما ومزودة بعدسـات مكبرة. لذا،

ليس عليهما المجازفة قطّ. إذ لا يجب أن يثير أي شيء يقومان به الشبهات، أو يلفت انتباه المارين بجوارهما.

قال نظمي: «البطانية». عندها، ناوله كريم البطانية الزرقاء الموجودة على مقعد الركاب، فطواها نظمي ووضعها فوق ساقيه.

قال كريم: «ليس لديك الكثير من الوقود. سيكون من الأفضل لو دفعتك قليلاً».

همس نظمي: «لا تكن أحمق. لا يمكننا ترك السيارة هنا. سأكون بخير».

كان كريم يعرف أنه محق؛ فقد خاف الناس من القنابل المثبتة في السيارات المتوقفة إلى حد الهلع. لهذا السبب، قرروا استخدام كرسي متحرك لوضع القنبلة؛ رغم أن ذلك كان يعني أنها يجب أن تكون صغيرة الحجم، وأضعف من السيارة المفخخة.

ومن دون أن ينطق بكلمة أخرى، ضغط نظمي الزر المثبت على ذراع الكرسي المتحرك، فبدأ بالتحرك إلى الأمام، متجهاً نحو ميدان ليستر، فيما محرّكه يصدر صوتاً خافتاً.

راقبه كريم للحظة، ثم صعد إلى كرسي السائق وتحرك بعيداً. كان يود الاتصال بسعيد، ولكن الاتصال سيكون مخاطرة لا طائل منها.

(54)

بدا الملاح الخاص بنظام تحديد المواقع العالمي بقعة ملونة على لوحة عدادات السيارة؛ مما يعني أنه قد وصل إلى وجهته. أوقف كريغ لامبرت سيارة الشيفروليه أمام المنزل ببطء، فأصدرت السيارة صوت أزيز خافتاً قرب البوابة الأمامية لمنزل إنغريد ستورمار.

في طريقه إلى هنا، كان يصغي إلى تقرير يبثه المذياع حول إحياء الذكرى الأولى للهجمات الإرهابية التي استهدفت مركز التجارة العالمي في نيويورك.

قال الرئيس بوش: «لا يمكن السماح بتكرار وقوع مأساة كهذه. سوف تكون الحرب العالمية على الإرهاب طويلة ومنهكة. ولكن، لن يهنأ لنا بال حتى نجلب المذنبين إلى العدالة...»

أطفأ لامبرت محرك السيارة وتنهد، ونظر عبر السياج إلى الفناء الرحب والمعتنى به. هل كان هذا ضرورياً حقاً؟ كان رئيسه المباشر هو جون ميريك. فهل حصل ديفيد ستون الذي يقود مجموعة العمل هذه على إذن من ميريك للقيام بذلك؟

لا يمكنه إزعاج ستون الآن، ففي هذه اللحظة، كان ستون يحاول أن يبقي الاستخبارات العسكرية وبقية الأجهزة الأمنية البريطانية على اطلاع بآخر المستجدات. وفي ظل هذه الظروف، سيكون إنهاء العملية التي أعطت ستون المصداقية مهمة شديدة الصعوبة، بل ومستحيلة واقعياً.

لذا، لم يكن أمامهم بديل سوى التغطية على آثارهم. لقد كانوا مجموعة صغيرة، وكانوا بحاجة إلى الاعتماد على بعضهم بعضاً بشكل كامل. وقد تعيّن على الجميع اتباع الأوامر، وذلك من أجل المنظمة، ومن أجل البلاد بأسرها. كانت مهمتهم تتمثل في تأمين مصالح الولايات المتحدة حول العالم؛ مهما كان الوضع ومهما كانت الظروف. وكان ذلك يعني أنه يجب عليه القيام بنصيبه

من المهمة. لذا، أجل، كان ذلك ضرورياً.

ترجّل لامبرت من السيارة، ومشى بخطوات واسعة نحو البوابة، وقد أبهجه منظر المنزل. إذ لم يكن منزلاً مشيداً من الطوب مثل المنازل الأخرى الموجودة في الحي، بل كان منزلاً على الطراز الأمريكي الأكثر عصرية. كان ذوق السيدة العجوز جيداً. لم يكن الطراز المعماري الإنجليزي يروق للامبرت، لذا جعلته رؤيته للمنزل يشعر بالحنين إلى وطنه؛ حيث الغابات كثيفة الأشجار في فيرمونت. لقد كان بحاجة إلى الحصول على إجازة.

«أجل؟». قال صوت سيدة صادر من جهاز الاتصال الداخلي عندما ضغط على الزر قرب البوابة.

«السيدة ستورمار؟». قال لامبرت محاولاً أن يبدو ودوداً قدر استطاعته. «أنا كريغ لامبرت».

«بالطبع، بالطبع». تمتمت ستورمار، وانفتح القفل المثبت على البوابة. «ادخل رجاءً».

مشى لامبرت على الدرب الخاص الذي يمر عبر الحديقة الأمامية وصولاً إلى الباب، حيث كانت امرأة مسنة ولكنها تبدو قوية في انتظاره. تصافحا، ثم قادت لامبرت إلى الردهة.

«أنا منبهر. لديك منزل رائع ومزين بشكل دقيق للغاية».

«شكراً لك».

«هل تعيشين بمفردك في هذا المكان الكبير؟».

«يأتي البستاني مرة كل أسبوع، وأحصل على المساعدة في المنزل في بعض أيام الأسبوع، ولكن في النهار فقط».

«جيد». فكر لامبرت.

قالت ستورمار: «لمَ لا نذهب إلى المكتبة؟ من هذا الاتجاه، رجاءً».

تبعها لامبرت إلى المكتبة التي كانت تتوهج بالضوء وسط بقية المنزل المظلم. حدقت إليه قطة بيضاء لا ذيل لها بعينين واسعتين لامعتين غير طبيعيتين، ثم اندفعت بعيداً. بدت رجلا القطة الأماميتان أقصر من الخلفيتين.

ارتجف لامبرت، فقد كان يكره القططة.

«لقد كنت أحاول تذكر اسم الضابط الذي تحدثت إليه بشأن اليورانيوم». قالت ستورمار بينما كانا يدخلان المكتبة.

هل المرأة مصابة بالخرف؟! هل نسيت اسم ستون رغم أنها تحدثت إليه قبل وقت قصير مضى؟ ربما كان التخلص من هذه المرأة غير ضروري في نهاية المطاف.

«اجلس من فضلك». قالت وهي تشير إلى الأريكة التي وُضعت أمامها طاولة مصنوعة من الخشب.

فأومأ لامبرت بشكل مهذب وجلس.

جلس ستورمار على كرسي بذراعين. «ثم تذكرت، لقد كان اسمه موس، ويل موس. كان ذلك أيام شعار قوة الورد. اصنع الحب وليس الحرب». ضحكت ستورمار.

«ناقشت أمر اليورانيوم مع السيد موس في العام 1968. هل كنت قد ولدت وقتها؟».

«لقد كنت أبلغ عدداً قليلاً من السنوات». قال لامبرت بعدم ارتياح.

«ماذا عن فترة اغتيال كنيدي؟ من المؤكد أنك لم تكن قد ولدت حينها». قالت وهي تبتسم بشكل شيطاني.

«كلّا. أظن أنني لم أكن كذلك».

كانت تلك دردشة كافية، وإلا فسيستمر الأمر على هذا الوضع طوال الليل. كان أسوأ شيء أنه بدأ يظن بالفعل أنه ربما يكون معجباً بهذه المرأة العجوز.

«أتساءل عمّا يفعله ويل موس هذه الأيام؟».

«لا يمكنني القول».

«أرى ذلك. على الأرجح، إنه يستمتع بمقابل تقاعد مجزٍ؛ هذا إن كان لا يزال على قيد الحياة. لكنني كنت أتساءل: لماذا تحتاج الاستخبارات الأميركية فجأة إلى تلك الكمية الضئيلة من اليورانيوم الآن، وذلك بعد أن دُفنت القضية

في الملفات طوال تلك السنوات؟ ألا تملكون أطناناً من اليورانيوم المخصب في أميركا؟».

«إن كل غرام من اليورانيوم المخصب الذي لا تعود ملكيته إلى دولة ما في العالم يعتبر كثيراً جداً. فمخزون كهذا من الممكن أن يقع في الأيدي الخاطئة».

«لا بدّ لي أن أعترف بأنني لا أوافق حالياً على التجارب التي أجريناها باستخدام البلوتونيوم. ولكن، ثمة احتمال ضئيل جداً بأن تكون هناك قوة عظمى ما لم تقم بتلك التجارب كي تدافع عن نفسها. بالمناسبة، هل كنت تعرف أن زوجي السابق قام فجأة برحلة إلى ألمانيا، وذلك بعد عقود من الابتعاد عنها؟ وقد توفي هناك بعد فترة قصيرة من تواصلكم معي. يزعم ابني أن الأمر لم يكن بالضرورة حادثاً عرضياً. يا لها من مصادفة! ألا تعتقد ذلك؟».

فكر لامبرت في سره: «حسناً، لم آتِ إلى هنا من أجل لا شيء. جيد». اعتدل في جلسته، وأعد نفسه لما يتعين عليه فعله. كانت الأداة اللازمة لإنجاز المهمة في جيب صدره.

«أشعر بالندم بشكل ما لأنني لم أخبر ويل موس بكل شيء حينها. فأنا لم أخبره عن مخزون اليورانيوم الآخر؛ المخزون الأكبر حجماً».

توتر لامبرت، وحامت يده فوق جيب صدره، وسألها: «أهذا صحيح؟».

«سأحضر لكلينا بعض الشاي». قالت ستورمار ونهضت.

«شكراً، ولكن...»

«لا أعذار. فلدي بعض الكعك الطازج».

واختفت خارج الباب.

هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أن يكون ثمة مخزون آخر من اليورانيوم في مكان ما؟ سيكون من الحكمة أكثر الاستماع إلى ما لديها لتقوله.

عادت ستورمار وهي تحمل صينية ووضعتها على الطاولة، وسألته: «هل تود بعض الحليب؟».

«لا أرغب بالحليب، شكراً». أجاب لامبرت وهو يأخذ كوب الشاي الذي

قدمته له.

«لم تتعلم شرب الشاي على الطريقة الإنجليزية، أليس كذلك».

«أنا على الأرجح لن أتعلم أبداً طرائق العيش الإنجليزية». قال لامبرت وهو يرشف رشفة.

«ما رأيك به؟ أعتقد أنه شاي رائع، مع القليل جداً من نكهة الرمان».

«إنه جيد للغاية». وافقها لامبرت؛ على الرغم من أن طعمه بدا مراً جداً بالنسبة إليه. لكنه رشف رشفةً أخرى بدافع الأدب، على أمل أن يدفعها ذلك إلى التحدث. «ما الذي كنتِ تقولينه حول مخزون اليورانيوم الآخر؟».

«ما الذي تعنيه بالمخزون الآخر!؟».

«مخزون اليورانيوم الآخر الذي أشرتِ إليه للتوّ».

«أنت تتخيل أشياء يا سيد لامبرت». قالت ستورمار وقد أصبح صوتها غليظاً فجأة.

لم تبدُ مضطربة على الإطلاق الآن، بل على العكس تماماً.

«بدلاً من ذلك، لمَ لا تخبرني إن كنتم قد فعلتم أي شيء لابني، إيريك ويليامز. ولكنك لن تخبرني بشأن ذلك، أليس كذلك؟».

في تلك اللحظة، شعر لامبرت بألم شديد في صدره وفي المريء، فقام بفرك بطنه بعنف، لكن ذلك جعل الألم يزداد فحسب. رفع يده إلى حنجرته، وقفز على قدميه، ونظر إلى ستورمار بهلع وعدم تصديق. مشى عدة خطوات نحو الباب، ثم انهار على أرضية الباركيه.

تسرّبت الدماء من فم لامبرت، فحوّلت إنغريد نظرها بعيداً، فيما كان قلبها يحفق بقوة وكأنه على وشك الانفجار.

خفت صوت حشرجته خلال لحظة، فالتقطت إنغريد كوب لامبرت بيد مرتعشة وأعادته إلى الصينية، ثم حملت الصينية إلى المطبخ وهي تنظر بشكل غير إرادي إلى الجثة الأميركية الهامدة.

«اذهب بعيداً يا تشارلي». قالت وصوتها يرتجف، لكن القط بقي واقفاً بعناد عند عتبة الباب، وهو يحدق إلى داخل الغرفة.

غسلت إنغريد كوب الشاي ووضعته على الحمالة كي يجف، ثم التقطت القطع المكسورة من الكبسولة الزجاجية ووضعتها داخل زجاجة بنية اللون وصغيرة الحجم مع نص كُتب باللغة الألمانية على ملصقها الأصفر، وكانت يداها لا تزالان ترتعشان. نظرت إلى داخل الزجاجة، ورأت أن كبسولة الإستركنين لا تزال في مكانها.

كانت قد جلبتهما معها في اليوم الذي غادرت فيه مختبر علوم تحسين النسل في دالم. وقد أخذتهما من أجلها ومن أجل رولف، تحسباً لأي طارئ؛ على الرغم من أنها في ذلك الوقت لم تكن تعرف أي شيء عن مكان رولف. ولاحقاً في الولايات المتحدة، احتفظت بهما، ولم تخبر أحداً بشأنهما. كانت قد احتفظت بهما لمدة ستين عاماً؛ إلى اليوم الذي قد تحتاج إليهما فيه. وها قد أتى ذلك اليوم.

التقطت إنغريد الزجاجة الموجودة على الطاولة وأعادتها إلى الخزانة. مشت عبر المنزل المظلم عائدة إلى المكتبة، حيث كانت جثة لامبرت ممددة في وضع منحنٍ، وعيناه الميتتان تحدقان إلى السقف، وقد سال الدم من فمه على أذنه وعلى الأرض.

شعرت إنغريد بالإعياء، كما شعرت بضعف كاد يسقطها أرضاً، وشعرت بقيء يندفع إلى أعلى فمها. ووبّخت نفسها على ضعفها وكبر سنها، فعندما كانت أصغر سناً كانت تتحمل صدمات أشد قسوة؛ أشد قسوة من نواحٍ عدة.

كانت تود الآن الخروج من الغرفة، وإغلاق الباب خلفها بعنف، لكنها أرغمت نفسها على الاقتراب من الجثة. جثت بحذر، وأدخلت يدها في جيب الرجل. شعرت بشيء صلب داخله، ثم أخرجت صندوقاً بلاستيكياً. وبحركة سريعة، قامت بفتحه، وتنفست الصعداء حرفياً. فقد احتوى الصندوق على محقن ممتلئ بالفعل.

لقد كانت محقة، فقد أتى للتخلص منها.

ستبدأ الاستخبارات الأميركية بافتقاد أحد رجالها عما قريب. أمسكت إنغريد الرجل من تحت ذراعيه ورفعته، لكن الجثة لم تتزحزح سوى مليمترات

قليلة. سرى إحساس بألم شديد عبر ظهرها وذراعيها.

«يمكنني القيام بهذا». فكرت وهي تقاوم الهلع الذي بدأ يتملكها. «يتعين عليّ ذلك».

بعد أن استجمعت كل قوتها، وتجاهلت ألم ظهرها، تمكّنت من سحب الجثة لمسافة أمتار قليلة نحو باب المكتبة، ثم رمت بنفسها على كرسي هناك وهي تشعر بالتعب. تخيلت مجيء لينا في الصباح للتنظيف، وعثورها على جثتين؛ جثة الرجل الغريب وجثتها، بعد أن ماتت بأزمة قلبية.

فكرت إنغريد في المهمة التي تنتظرها. يتعين عليها تحريك سيارة الرجل إلى الباب الأمامي للمنزل، وإدخال الجثة فيها بشكل ما. فبهذه الطريقة، ستتمكن من التخلص من الجثة والسيارة في آن واحد. إذ يمكنها قيادة السيارة إلى الساحل، ودفع السيارة إلى داخل المحيط. في كل الأحوال، كان أهم ما في الأمر هو كسب بعض الوقت. فمن الضروري ألا يعثروا على أي دليل واضح في منزلها.

نهضت إنغريد، وسحبت الجثة ببطء ومشقة إلى البهو المجاور للباب الأمامي. ثم ارتاحت بضع لحظات وهي تسند ظهرها في مواجهة الباب. وبعد ذلك، بحثت في جيب الرجل إلى أن عثرت على مفاتيح سيارته.

ارتدت معطفها بسرعة وفتحت الباب، وكادت تصرخ من هول المفاجأة. كانت كيت تقف عند عتبة الباب ويدها مرفوعة باتجاه قارع الباب.

«ماذا تفعلين هنا؟!». سألتها إنغريد بهلع، إذ إن هذا آخر ما تحتاج إليه الآن.

«آسفة، لم أقصد إخافتكِ». قالت كيت وهي تنظر إليها بتمعّن. «لقد كانت البوابة مفتوحة، وأنا قلقة على إيريك فحسب، وقد بدوتِ في حالة صدمة شديدة عندما أخبرتكِ أنه يتعين علينا أن نتحدث. إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

«ماذا تقصدين؟».

«إنّكِ ترتدين معطفكِ».

خطت إنغريد إلى الأمام، وسحبت الباب خلفها بقوة.

«فكرت فحسب في أن أخرج للتنزه، فلدي الكثير للتفكير بشأنه... لقد شعرت بقلق شديد لدرجة أنني... ظننت أن جولة قصيرة سوف تساعد».

ربما يساعد التحدث عن ذلك أكثر. دعينا ندخل إلى المنزل ونتحدث».

أمسكت كيت بالباب وفتحته.

«ليس الآن، فأنا متعبة بشدة. عودي إلى بيتك. يمكننا التحدث لاحقاً».

نظرت كيت إلى إنغريد في حيرة: «ابنكِ مختفٍ يا إنغريد! ألا تودين معرفة كل شيء حدث؟».

«بالطبع أود ذلك، ولكن لاحقاً. سأتصل بكِ...»

«إذا كنتِ ستذهبين للمشي، فبإمكاني المجيء معكِ. فلدي شيء آخر أود التحدث إليكِ بشأنه».

تنهدت إنغريد بغضب وقالت: «صدقيني، سيكون من الأفضل إن عدتِ إلى بيتك».

«ماذا تقصدين بعبارة من الأفضل؟». نظرت كيت إلى إنغريد بانزعاج وفضول: «هل لديكِ أحد في منزلك؟».

«بالطبع لا». كان بوسع إنغريد سماع رعشة خيبة الأمل في صوتها.

«لقد تعرضنا لعملية اقتحام».

«هذا مريع!».

«لقد تم نهب كل شيء... هل أنتِ بخير يا إنغريد؟».

«أجل، سنتحدث لاحقاً. هل يمكنكِ رجاءً الانصراف وحسب؟!».

لم تنطق كيت بكلمة، وإنما نظرت إلى إنغريد بثبات.

سحبت إنغريد الباب لإغلاقه، لكن كيت وضعت قدمها في الطريق.

«ماذا تفعلين؟!». قالت إنغريد بدهشة، لكن كيت دفعت الباب بكل قوتها وعزمت على إفساح الطريق لنفسها.

انفتح الباب ليكشف عن جثة ممددة على أرض البهو، فجمدت كيت في مكانها وحدقت إليها.

«حباً بالله!». قالت إنغريد، وأغمضت عينيها للحظة في محاولة منها

للحفاظ على هدوئها. «هل يتعين عليكِ التدخل في كل شيء؟». ثم رمت بنفسها على الكرسي المجاور للباب وتابعت: «أعرف ما تفكرين فيه؛ بأن هذا نوع من بيوت ارتكاب الجرائم. إنه مكان أقوم فيه بتسميم الناس في المساء وأدفنهم في الحديقة. وتنكشف الأسرار في كل مرة تأتين فيها لزيارتي. ولكن، انظري...» جثت إنغريد إلى جانب الجثة، وأخرجت الصندوق من جيب الرجل وأظهرت لكيت الحقنة. «جاء هذا الأميركي لقتلي، لكنني عرفت أن هذا سبب مجيئه فتخلصت منه أولاً. ما الذي كان بوسعي فعله غير ذلك؟ لقد كان دفاعاً عن النفس».

قالت كيت بنبرة هامسة: «من يكون؟ ولماذا؟».

دفنت إنغريد وجهها في يديها، فقد شعرت أن سيطرتها على نفسها تنهار، وبدأت الدموع تنهمر على خديها.

«هؤلاء الحثالة... هم الذين قتلوا رولف، وربما يكونون السبب وراء اختفاء إيريك أيضاً... هذا كله خطئي!».

«من هم؟ عمّن تتحدثين؟». وعلا صوت كيت المرتعد بشكل مصطنع.

«الاستخبارات الأميركية. ليس هناك تفسير آخر للأمر».

«الاستخبارات الأميركية؟! هل تقصدين أن هذا الرجل تابع للاستخبارات الأميركية؟».

أومأت إنغريد وهي تمسح أنفها بمنديل.

حدقت كيت إلى حماتها وقالت: «هل حاولت الاستخبارات الأميركية أن تقتلكِ؟ هل تقولين إن الاستخبارات الأميركية قتلت رولف؟ وإن إيريك بحوزتهم؟ هل تدركين كم يبدو حديثكِ جنونياً؟!».

«هذا ما أقوله، وأدركُ كم يبدو جنونياً».

جثت كيت بجوارها. لقد كان الموقف برمته جنونياً؛ مما يعني أن كل شيء بات محتملاً، كل شيء على الإطلاق. هل كان للاقتحام علاقة بهذا الأمر؟ بالطبع كانت له علاقة.

«لا أفهم على الإطلاق. لماذا بحق الله ستفعل الاستخبارات الأميركية شيئاً

كهذا؟ لقد كان إيريك يظن أن للأمر علاقة بإرهابيين».

تسبّبت كلمات كيت في تيبس إنغريد التي سألتها فوراً: «هل كان الإرهابيون يخططون لاستخدام اليورانيوم الخاص برولف؟».

«لا أدري. لكن ذلك ما كان إيريك يشتبه به».

تسارعت أنفاس إنغريد، واحمرّ وجهها، فجذبتها كيت من ذراعيها قائلة: «إنغريد، ثمة شيء معقد للغاية يحدث ولا نفهمه، ولكن يتعين علينا البدء بالعمل معاً».

«أول ما يتعين علينا فعله هو أن نخرج هذه الجثة من هنا، وذلك تحسباً لمجيء أحد ما».

أمسكت كل منهما بإحدى ذراعي الرجل وبدأتا بسحب الجثة. كان رأسه يتدلى إلى الخلف بينما كانتا تسحبانه من ذراعيه، فازداد هلع كيت بسبب الدم الذي تدفق من فمه. نظرت كيت بعيداً وهي تتساءل عمّا إذا كانت قادرة على فعل هذا النوع من الأشياء، لكن الناس يقدرون على فعل أي شيء عندما لا يكون أمامهم بديل.

سألتها: «كيف مات؟».

«يمكننا التحدث عن ذلك لاحقاً».

حينها فقط طن جهاز الاتصال الداخلي.

جمدت كلتا المرأتين، وحدّقتا إلى بعضهما بهلع في الرواق المظلم.

«كيف وصلوا إلى هنا بهذه السرعة؟». همست إنغريد.

«لقد تعرّض منزلنا للسرقة. وإذا كان للحادث علاقة بكل هذا، فربما يكون اللصوص أنفسهم هنا. لا بدّ أن نتصل بالشرطة».

«ليس قبل أن نخرج الجثة من المنزل».

طن جهاز الاتصال الداخلي مجدداً.

قالت كيت: «ربما كانت الشرطة، ربما كانت لديهم معلومات بشأن إيريك».

ومشت بصعوبة نحو مستقبل جهاز الاتصال الداخلي، فرأت رجلاً شاباً

يرتدي سترة واقية يظهر على الشاشة، وكان جانب السيارة مرئياً خلفه. غير أن الصورة لم تكن واضحة بشكل كافٍ لاستبيان هيئته.

تنحنحت إنغريد ثم قالت: «أجل؟».

«إنغريد ستورمار؟». قال الرجل، ولم تكن هناك نبرة مميزة في صوته، لكنه بكل تأكيد بدا بريطانياً.

همست كيت: «من يكون؟ هل هو من الاستخبارات الأميركية؟».

«ربما هو شريك للامبرت...»

«لدي بعض المعلومات الهامة بشأن زوجكِ السابق وابنكِ إيريك». قال الصوت القادم من البوابة.

نظرت إنغريد إلى كيت التي هزت رأسها ببطء بعد لحظة من التردد.

سألته إنغريد: «أي معلومات؟ ومن تكون؟».

«أنا من الشرطة الفدرالية الألمانية».

تبادلت كل من كيت وإنغريد النظرات، ثم سألته إنغريد: «هل إيريك على قيد الحياة؟».

«أجل، لا يزال حياً».

انتظر راشد عند جهاز الاتصال الداخلي للحظة، ثم بدأت البوابة تنفتح ببطء. مشى نحو السيارة، إلى حيث كان بشير جالساً.

شعر راشد بالفخر بنفسه. كان قد تمكن من إقناع الآخرين في المجموعة بالالتزام بالخطة، والقيام بتغطية آثارهم بالتخلص من جثة زوجة رولف ويليامز السابقة التي كانت على علم بشأن اليورانيوم؛ على الرغم من أن مالك، ولأسباب باتت واضحة الآن، كان يعارض الفكرة. كان مالك هو الذي سأل رولف عما إذا كان ثمة أي شخص آخر على معرفة بوجود اليورانيوم، وقد اعترف الرجل العجوز بأنه قد أخبر زوجته عن مخزون اليورانيوم قبل عقود مضت.

والآن، لدى إعادة التفكير في ما حصل، شعر راشد بالدهشة لأن «مالك» ظن أنهم حمقى.

(55)

سـحبت كل مـن إنغريـد وكيـت جثة لامبرت إلى داخـل المكتبة، وأقفلتا الباب، وراقبتا على الشاشة سيارة الفولكسفاغن وهي تسير في الطريق الخاص وتتوقـف أمـام البـاب. ترجل الرجل الذي تحدث عبر جهاز الاتصال الداخلي من السيارة. وقد باتت هيئته أوضح الآن.

همسـت كيت: «لا يعجبني هذا، فهو لا يبدو كرجال الشـرطة. ثمة شـيء مريب في هذا الأمر. لا تفتحي الباب».

«قد تبدو المظاهر خادعة. إذا كانوا في أثر الإرهابيين فربما يتعين عليهم أن يظهـروا بمظهـر الإرهابييـن. اختبئي في الغرفة، واتصلي بالشـرطة في حال حدوث أي شيء».

ترددت كيت، ثم تسللت إلى الغرفة المجاورة.

أخذت إنغريد نفسـاً عميقاً وفتحت الباب. وعند عتبة الباب، وقف رجل ذو حاجبين داكنين ويرتدي سترة رياضية، ونظر إليها بوجه خالٍ من التعابير.

«لقد جلبنا لكِ شيئاً». قال وهو يومئ نحو السيارة.

ومن فوق كتفه، رأت إنغريد رجلاً آخر يفتح صندوق السـيارة، ويختفي من المشهد للحظة، ثم يرفع شيئاً إلى خارجه بصعوبة. أغمضت إنغريد عينيها نصف إغماضة. وأخيراً، فهمت ما كانت تراه؛ لقد كان يخرج شـخصاً ما من صندوق السيارة. أخرج رجلاً يداه مقيدتان بإحكام خلف ظهره.

نظرت بهلع بينما كان يتم دفع الرجل نحوها ويداه خلف ظهره. بدا لها أن ساقي الرجل لا تقويان على حمله، فقد تعثر مع كل خطوة.

ما إن اقتربوا من الباب حتى رأت أن الرجل المقيد قد وُضع شريط لاصق لامـع علـى فمـه. كان وجهه مغطى بالكدمات والدم المتخثر، وكانت ملابسـه ممزقة وملطخة بشيء داكن، وكانت تفوح منه رائحة البنزين والغازولين.

«إيريك!». قالت إنغريد بصوت لاهث بعد أن تعرفت أخيراً على ابنها.

دفع الرجل الذي وصل أولاً إنغريد إلى داخل البهو، فيما سحب زميله إيريك إلى الداخل، وقام بنزع الشريط اللاصق عن فمه.

«ماذا فعلوا بك؟». قالت وقلبها يعتصر ألماً بعدما رأت ابنها يترنح أمامها.

«لا شيء...» عانى إيريك كي تخرج الكلمات من فمه. «أنا بخير يا أمي».

ومن الغرفة المجاورة، ظنت كيت أن ساقيها ستذوبان تحتها عندما سمعت صوت إيريك. لقد شعرت بارتياح كبير جعل عينيها تغرورقان بالدموع.

«تحقق مما إذا كان المنزل خالياً». قال صوت بنبرة آمرة.

دفعت الكلمات كيت إلى التصرف. كان يتعين عليها العثور على مكان للاختباء وطلب النجدة. ثم أدركت شيئاً آخر، لقد خلعت معطفها عندما كانتا تنقلان الجثة، وكان معلقاً على المشجب في البهو، وهاتفها في جيبه. ولم تخلع نعليها، ووقعهما على الباركيه سيكشف أمرها.

خلعت نعليها، وهرعت عبر الغرفة وهي تحملهما في يدها. كانت ساقاها متيبستين من شدة الخوف، وقد بدت الأمتار القليلة التي قطعتها عبر الغرفة أميالاً طويلة. واصلت المشي عبر الرواق المؤدي إلى غرف النوم، ثم أدركت بيأس أنها في الجانب الخاطئ من المنزل. لم يكن هناك باب يؤدي إلى الخارج من هذا الجانب، وقيامها بتحطيم إحدى النوافذ سيكشف أمرها على الفور.

ذهبت إلى إحدى غرف النوم وسارت عبرها، وتسللت إلى داخل الخزانة المتحركة، ثم أغلقت باب الخزانة بهدوء خلفها. نظرت حولها في الظلام بحَيْرة؛ إذ ثمة صناديق من الورق المقوى وكتب وملفات في الخزانة، وفوجئت حين رأت أنها تحمل أسماء مشروعات غندو.

استدارت ورأت ستارة تغطي الجدار الخلفي للخزانة. استمعت إلى أصوات خارج الباب خلفها، وفتحت الستارة قليلاً. كان هناك قضيب تتدلى منه بزات بنظام دقيق، وكانت مغطاة ببلاستيك شفاف. كانت البزات تعود إلى سنوات مضت؛ على الأرجح إلى زمن الحرب.

تساءلت كيت عن الوقت الذي سيستغرقه الرجل كي يأتي ويفتش هذه

الغرفة. يتوجّب عليها الحصول على المساعدة بأي وسيلة ممكنة.

وبينما كانت تفكر في ما يتعين عليها فعله، لاحظت معطفاً أبيض معلقاً بين البزات، فأنزلته عن الحمالة وأدركت ما يكون. إنه معطف مختبرات، معطف قديم جداً. لمَ بحق الله تحتفظ إنغريد بشيء كهذا؟

وبينما كانت تعيد المعطف إلى مكانه مجدداً، أصدر المشجب صوت نقر على الجدار الخلفي.

جمدت كيت في مكانها، إذ بدا لها أن النقر الضعيف يصدر صدى صوت بشكل لا نهائي وسط السكون. وقفت من دون حراك لثوانٍ قليلة، ولم يكن ثمة صوت قادم من خارج الباب.

اختبأت كيت بين البزات وهي تفكر في أن هناك شيئاً غريباً يتعلق بصوت النقر؛ وكأن هناك لوحاً رفيعاً خلف الملابس بدلاً من جدار. بحثت حولها، وعثرت على لولب صغير يتحرك، أو بالأحرى، تحرك اللوح الخشبي الرفيع المتصل باللولب.

حينها فقط سمعت صوت خطوات في الخارج، فحبست أنفاسها ودفعت نفسها صوب الجدار. كان بوسعها سماع صوت تدفق الدماء في أذنيها. هل كان أحدهم على وشك الاقتراب من الخزانة؟ أمسكت باللولب وسحبته وكأنه مقبض، فتحرك اللوح مظهراً ما خلفه، لكن المسافة كانت ضيقة، ولم تكن كبيرة بما يكفي لتتمكن من الاختباء فيها.

لحسن حظها، انخفض صوت الخطوات، فتمكنت من التقاط أنفاسها. لكن، كان لا يزال عليها الانتظار قبل أن تتمكن من مغادرة الغرفة. أدخلت يدها في المسافة الضيقة خلف اللوح الخشبي، وأخرجت منها جسماً صغيراً وثقيلاً. نظرت إليه تحت الضوء المتسلل من بين سترات البزات. إنها كاميرا قديمة من طراز لايكا، مع نوع من الملحقات على العدسات. أعادت الكاميرا إلى مكانها مجدداً، وبحثت حولها داخل الحجيرة الصغيرة، ثم أخرجت جرة زجاجية صغيرة.

كان ثمة صوت خطوات سريعة، وانسحب باب الخزانة مفتوحاً، وسمعت

صوت نقر على زر فأنيرت الغرفة.

نظرت إلى الخارج نحو الباب من خلف الملابس، لكن المشاجب كانت مربوطة معاً بإحكام. ليس من الضروري أن يكون قد رآها، لكنها أغمضت عينيها بشدة، ووقفت من دون أن تأتي بأقل حركة. كان بوسعها سماع الرجل وهو يفتش بين الملابس على طول قضيب المشاجب، ثم توقف، وذلك على الأرجح كي يميل إلى الأسفل وينظر تحت الملابس. نظرت إلى الأسفل، ورأت نعالاً وأحذية على الأرض. ربما لن يلاحظ قدميها بينها. وخلال لحظة، كان قريباً منها بشدة. ساد الصمت للحظة، وكأنه كان يقرر أين يبحث بين الملابس المغطاة.

فجأة، أدركت أنها لا تزال ممسكة بالجرة في يدها. وتحت الضوء الساطع، رأت أنها تحتوي على مقل عيون محفوظة في الفورمالدهايد.

نظر سعيد من جانب إلى آخر بينما كان يقود السيارة في شارع وايت هول. ومن بين فيض من اللوحات التي تحمل عبارة «لا للركن»، ظهرت حواجز أمنية ترتفع عدة أمتار، وخلفها كان يقع مقر إقامة رئيس الوزراء في داوننغ ستريت. وإلى جوار السيارة السوداء التي كانت تقف عند البوابة، كانت ثمة بوابة حديدية متحركة خاصة بالمشاة. وعلى جانبيها وقف شرطيان مع أسلحة رشاشة ظاهرة للعيان ومثبتة أمامهما. وعلى مسافة عشرات الأمتار خلف الحاجز، لمح حاجزاً للتصدي للعمليات الإرهابية باللونين الأسود والأصفر.

حوّل سعيد نظره إلى الطريق مجدداً. إذ إن هذا القطاع من الشارع قد تم استبعاده بشكل تلقائي في المراحل المبكرة من خططهم. فالوقوف هنا، حتى ولو لمدة قصيرة، سيكون مستحيلاً.

كانت ساعة بيغ بن تشير إلى السادسة وخمس وثلاثين دقيقة. كان بالكاد قد وصل في الوقت المحدد، ربما قبل بضع دقائق فقط. واصل تقدمه بهدوء، وقام بجولة أخرى في طريقهم الجديد كي يقتل الوقت.

تجنّب نظمي نظرات المارة، وكان ذلك سهلاً من حيث يجلس على

المقعد المنخفض للكرسي المتحرك. انتظر على الرصيف الموجود قرب محكمة سانت مارتن كي يمضي الوقت ويوفر طاقة البطارية، فلا تزال أمامه نصف ساعة قبل الانطلاق.

سألته امرأة شابة: «المعذرة، هل يمكنني مساعدتك بأي شيء؟».

ردّ نظمي: «شكراً، كلّا. أنا أنتظر صديقاً».

كان شخصان آخران قد شعرا بالقلق بشأنه في المكان الذي كان قد توقف فيه سابقاً. ماذا لو أتى رجال الشرطة للتحدث إليه؟ على الأرجح سيرضيهم رده أيضاً.

تقدم إلى الأمام قليلاً، وتوقف لينظر عبر صناديق من الكتب التي وُضعت على طاولة أمام مكتبة عتيقة. شعر بعدم الارتياح لجلوسه على كرسي متحرك؛ على الرغم من علمه بأن مسحوق اليورانيوم لا يمثل خطراً عليه في اللحظة الراهنة. ولكن، ماذا لو كان ثمة خطب ما في المؤقت أو جهاز التفجير وتسبّب في انفجار القنبلة قبل الموعد الذي حددوه مسبقاً؟

كان يود النهوض والسير بعيداً، لكنه لم يكن في المكان المناسب. كان الامتداد الأوسع لميدان ليستر على بعد مسافة قصيرة، وكان مكتظاً بالناس. كانت المغادرة الآن تعني تفويتاً لفرصتهم في اللحظة الأخيرة. فوجود كرسي متحرك شاغر كان بلا شك سيثير الشبهات، لذا عليه الانتظار بقدر ما يتحمل.

اقترب الدخيل من إنغريد حاملاً مسدساً في يده، وعيناه مسلطتان على معطف كيت.

«سوف أسألكِ مجدداً». قال الرجل وهو يضغط بالمسدس على صدغ إنغريد. «هذا المعطف لا يخصّكِ، فهل ثمة شخص آخر في المنزل؟».

«دعها وشأنها!». صاح إيريك بصوت عالٍ. غير أنّ صوته انقطع بشكل يدعو إلى التعاطف، لكنّ سلوكه جعل دموع الفخر تظهر في عينَي أمه.

نظر الرجل إلى إيريك وابتسم.

«ربما كانت المرأة العجوز على استعداد للموت». قال وهو يسحب

السـلاح ويصوّبـه نحـو رأس إيريـك، ثـم تابع: «ولكن، هل هي مسـتعدة لترك ابنها يموت؟».

سألت إنغريد: «من يكون هذان الرجلان؟».

أجابهـا إيريـك: «إنهمـا مـن الإرهابييـن الذين يبدو من الواضـح أنهم قد صنعوا قنبلة قذرة باستخدام اليورانيوم».

«اصمـت». زمجـر الرجـل وهو يضغط فوهة المسـدس بصورة أشـد على رأس إيريك.

فجأة، قفزت إنغريد لدى سماعها صوت طلق ناري تردد صداه في مكان ما في المنزل.

لقد عثروا على كيت.

«من الذي يطلق النيران؟». سـأل إيريك، فيما جالت إنغريد بنظرها على وجهه الفزع، والرعب واضح في عينيها.

كانت ثمة ضجة صادرة عن سحب شيء ما.

إنـه يجـر جثـة كيـت. فكرت إنغريد في هلع. إن إيريك على وشـك رؤية جثة زوجته.

كان بوسـعها رؤية الرجل وهو يقترب من البهو. كان يمسـك بسـلاح في إحدى يديه، ويجر شيئاً ما خلفه باليد الأخرى. أغمضت إنغريد عينيها، إذ لم يكن بوسعها النظر...

«من هذا؟». سألها الخاطف.

وقفت إنغريد وعيناها مغمضتان بإحكام والرعب يتملكها.

«أجيبيني. من يكون هذا الرجل؟».

فجأة، فتحت عينيها، ورأت جثة لامبرت على الأرض، فأدركت ما حدث. لقد أطلق الخاطف النار على القفل المثبت على باب المكتبة وعثر على جثة لامبرت.

نظـرت إنغريـد خلسـة إلـى إيريـك الـذي كان يحـدق إلـى الجثـة بعينين واسعتين، ثم نظر إلى إنغريد مصدوماً.

قال الرجل: «المنزل فارغ إلا من هذه الجثة. لقد عثرت عليه في المكتبة. أي نوع من النساء هذه على أي حال؟».

قامت إنغريد بمحاولة محمومة لوضع قطع الأحجية معاً في عقلها. وفقاً لما قاله إيريك، ربما تكون بحوزة الإرهابيين قنبلة قذرة. ولكن، لماذا حاولت الاستخبارات الأميركية إلزامها بالصمت؟ أمن أجل تغطية آثارهم كما فعلوا في العديد من المرات السابقة؟ ولكن، أي آثار؟

قالت إنغريد: «هذا الرجل عميل للاستخبارات الأميركية، وقد أتى إلى هنا ليقتلني».

في ظل أي ظروف أخرى، كانت تعابير الذهول التي بدت على وجه إيريك ستبدو طريفة.

وبدا أن كلمات إنغريد كان لها وقع مثير على الدخيلين اللذين تبادلا سيلاً من الكلمات بلغتهما الأصلية، والتي بدت مثل اللغة العربية.

«أتريان؟ لدينا عدو مشترك». قالت إنغريد مقاطعة حديثهما. إذ كان عليها أن تجرب أي شيء يمكنها فعله، فيما بدا إيريك في حالة ذهول تام.

بدا لإيريك أنه عاجز عن تشغيل عقله. كان قد استخدم ذكاءه للتقدم في مجال العلوم؛ فقد مكّنه ذكاؤه من تحقيق أعظم الإنجازات في حياته. ولكنه الآن عندما احتاج إليه أكثر من أي وقت مضى، وجده يتداعى. باستخدام كل قواه، تمسّك بفكرة أمه عن العدو، وسعل كي يزيل الحشرجة من صوته، ثم قال:

«يمكننا العمل معاً ضد الأميركيين...» وتلعثم في حديثه. بدا ما يقوله مثيراً للسخرية، ولكنه ربما لا يبدو كذلك بالنسبة إلى الإرهابيين. فأي شيء يمكنه قوله أو فعله ربما يكسبهما بعض الوقت، أي شيء يكسبه الوقت لاستجماع أفكاره وقواه.

وقف أحد الرجلين أمامه وقال بازدراء: «حقاً؟!». وفي اللحظة نفسها، هاجم إنغريد بعنف وضربها على منطقة الصدغ، فصرخ إيريك قائلاً: «أتهاجم امرأة عجوزاً لا حول لها ولا قوة!». ثم تذكر جثة رجل الاستخبارات الأميركية

الممدة قربه، ففكّر: ليست بلا حول ولا قوة تماماً...

وسقطت أمه على الأرض.

ومن زاوية عينه، رأى إيريك عقب مسدس رجل آخر يتّجه نحوه. باغتته الضربة القوية على رقبته، فشعر بألم فظيع، وأظلم العالم من حوله.

(56)

نظر نظمي إلى ساعته. بقيت ثماني عشرة دقيقة على موعد التفجير.

خفت صوت المحرك الكهربائي أكثر فأكثر؛ على الرغم من أنه ضبط مقبض السرعة على أقل مستوى.

أفسح المارة من حوله الطريق للكرسي المتحرك بدافع اللباقة، لكنه كان لا يزال يشعر بأنه محاصر. كان ثمة حشد أمام الهيبودروم، وكانت أصوات المحتشدين تتشتت بفعل قرع حاد للموسيقى صادر عن جهاز آيبود خاص بأحد الأشخاص. وخلفهم هدر صوت حركة المرور في شارع تشارنغ كروس.

واصل نظمي تحركه على الرصيف الواسع بإصرار متجهاً نحو الميدان. كان الناس في طريقهم إلى دور السينما وحفلات الموسيقى والمطاعم والمتاجر. وكان بعضهم يقفون في الأنحاء فحسب، ويتناولون البوظة وهم يراقبون المارة الآخرين. كانت دار أوديون تروج لأحدث أفلام جيمس بوند «داي أناذر داي»، من بطولة بييرس برونسون.

كان نظمي يخشى أن يتوقف المؤقت بعد دقائق قليلة، وألا يكون قادراً على الوصول في الوقت المحدد. نظر حوله للتحقق من وجود كاميرات على أعمدة الإنارة والبنايات، ولكن كان من الصعب عليه الرؤية من هذه الزاوية المنخفضة من بين الحشود، ولم يكن يرغب بليّ عنقه والتحديق في الأنحاء بتمعن كي لا يثير الانتباه.

سيمثل النهوض عن الكرسي المتحرك لحظة مفعمة بالخطر. وكانوا قد بحثوا بعناية للعثور على منطقة محمية في ميدان ليستر لهذا الغرض؛ مكان مخفي عن أعين كاميرات المراقبة. ولكن، من المستحيل أن تتمكن البطارية من جعل الكرسي يعبر كل المسافة للوصول إلى هناك، أو حتى إلى موقع التفجير البديل الذي يقع على بعد مئات الأمتار من مكانه.

في قلب الميدان، كانت هناك حديقة دائرية قريبة مع مقاعد شاغرة. تجاوز نظمي عرضاً مسرحياً يتجمع جمهور حوله، وتوقف خلف كابينة هاتف حمراء تقع أسفل شجرة. لم تكن ثمة كاميرات مراقبة مرئية، لكنه ظن أنه ربما لا يزال ضمن نطاق التغطية لإحدى الكاميرات، غير أن هذا المكان سيفي بالغرض. كان المارة يتدفقون بجواره على بعد عشرات الأمتار، ولكن أحداً منهم لم يلقِ نظرة سريعة نحوه.

بهدوء وثبات، رفع نظمي البطانية عن ساقيه، ووضع إحدى قدميه على الأرض بعدم مبالاة، وأخرج من جيبه قصاصة ورق كُتب عليها: «الكرسي معطل، وسيتم أخذه قريباً»، ووضعها على الكرسي.

كان من الصعب عليه الابتعاد بطريقة تقنع من حوله أنه يعاني وتكون سريعة في الوقت نفسه.

كانت كيت لا تزال ترتعد من صوت الطلق الناري، وبالقدر نفسه من أثر الصدمة التي تلقتها بسبب محتويات الجرة التي كانت تمسكها بيدها، والتي تحتوي على مقل عيون.

غادر الرجل الغرفة من دون أن يراها، وبعد ذلك بلحظة سمعت صوت الطلق الناري. هل قتلوا إنغريد؟ أم إيريك؟

تسللت كيت نحو باب الخزانة وفتحته بحذر، وخرجت منه إلى غرفة النوم.

شمّت رائحة غريبة، ولكنّها كانت تشعر بالشلل بسبب الخوف؛ لدرجة أن عقلها لم يقوَ على تبيّن ماهية تلك الرائحة في البداية. ولكنها أدركت ماهيتها بشكل تدريجي.

إنها رائحة دخان.

سارت بسرعة نحو الباب وفتحته، فأصدر صوت طقطقة، وباغتتها الرائحة بقوة. لقد كان المنزل يحترق.

نظرت إلى الرواق، ورأت ومضات ألسنة لهب من بعيد.

إنهم يحرقون المنزل.

اندفعت نحو غرفة المعيشة، وتوقفت عند مدخل الباب.

كانت النيران قد اشتعلت بالستائر وبعض المفروشات، كما أتت على الجدران والسقف، وكانت تتنقل وسط سحابة كثيفة من الدخان. وفي منتصف الغرفة، تمددت جثة رجل الاستخبارات الأميركية، وكذلك إنغريد وإيريك. هل قتلا أيضاً؟

هرعت نحو إيريك وهي تقاوم حرارة اللهب، وأمسكت به من أسفل ذراعيه، وسحبته إلى البهو بكل قوتها وهي تتضرع كي يكون على قيد الحياة، ثم عادت إلى الغرفة مسرعة وسحبت إنغريد. مقارنة بإيريك، بدت إنغريد خفيفة كطفل صغير. وبينما كانت كيت في طريقها إلى البهو وهي تجر إنغريد، رأت غرفة المعيشة بأكملها ممتلئة بدوامة متنقلة من اللهب. قامت بسحب مقبض الباب الأمامي، لكنه أبى أن يتزحزح.

لقد أغلق الرجال الباب بقفل مزدوج.

انحنت كيت إلى الأسفل، وبحثت في جيوب إنغريد. كان بداخلها حشو من قطع القماش، ولكن لا وجود للمفاتيح.

كانت النيران تتقدم بسرعة، والحرارة تحرق جلدها بالفعل، ودفعها الدخان إلى السعال.

من المستحيل أن تتمكن من المرور عبر النيران للوصول إلى المطبخ، وبالتالي للوصول إلى الباب الخلفي، ناهيك عن سحب كل من إيريك وإنغريد إلى هناك. وكانت النافذة المجاورة للباب الأمامي ضيقة جداً ولا يمكنها المرور عبرها.

كان الدخان يخنقها، ولكنها سحبت كلاً من إيريك وإنغريد ممسكة كلاً منهما بإحدى يديها، ومستنزفة آخر حدود لقوتها. تمكّنت من سحبهما مسافة الأمتار العشرة المؤدية إلى غرفة الطعام وهي تسعل بشدة، ثم التقطت مزهرية مصرية كبيرة، ورفعتها فوق رأسها، ورمتها على النافذة. وبينما تناثرت شظايا الزجاج على الأرض، قفزت ألسنة اللهب المشبعة بالأوكسيجين إلى الأعلى وانفجرت النيران.

سمعت كيت صرخة غير آدمية خلفها، وهرع تشارلي عبر الغرفة وقفز إلى خارج النافذة. أخذت كيت شمعة عن طاولة الطعام، وحرّكتها بسرعة للتخلص بقايا الزجاج الحادة التي لا تزال عالقة على إطار النافذة، ثم حملت إيريك من مؤخر عنقه وساقيه ونهضت. في الظروف العادية، ما كانت لتصدق أنها قادرة على حمله بهذا الشكل.

وعندما أخرجته من النافذة ودحرجته على العشب، استدارت وعادت إلى الداخل. باغتتها حرارة اللهب القوية بشكل لا يحتمل. جلست القرفصاء، وأمسكت بإنغريد، ثم حملتها واتجهت نحو النافذة وهي غافلة عن الزجاج المحطم. وعندما رفعتها أخيراً وأخرجتها عبر النافذة، قفزت خلفها.

انهارت كيت على مسكبة الورود وهي تكافح لاستنشاق الأوكسيجين، ثم أرغمت نفسها على النهوض، وجذبت إيريك إلى مسافة أبعد في الفناء، ثم فعلت الشيء نفسه مع إنغريد. مجهدة، رمت نفسها إلى جانب إيريك، ثم تحسست عنقه بأصابع مرتعدة بحثاً عن نبض. سرت رعشة في أطرافها، فقد كان هناك نبض. وكانت ألسنة اللهب تقفز إلى خارج النافذة الآن.

«ماذا حدث؟ هل لا يزال هناك أحد في الداخل؟».

في البداية، لم تعرف كيت إن كانت قد سمعت شيئاً ما حقاً أم تتخيل ذلك فقط. وحين استدارت، رأت رجلاً خلفها.

كان منحنياً إلى الأسفل، وينظر إلى إيريك وإنغريد بقلق.

سألها مجدداً: «هل لا يزال هناك أحد في الداخل؟».

«علينا أن نبعدهما عن المنزل أكثر». قالت كيت وهي تحمل إنغريد التي كانت أخف وزناً.

فأمسك الرجل بإيريك وحمله وهو يسألها مجدداً: «أجيبيني. هل هناك أحد آخر في المنزل؟».

«كلّا». أجابته كيت، ووضعت إنغريد على العشب المجاور للممر الخاص. لم تستطع أن تخبره أن ثمة جثة في الداخل. كان الدخان لا يزال يجعل التنفس أمراً صعباً بالنسبة إليها، وكانت تسعل بشكل غير إرادي. وعندما هدأ سعالها

للحظات، شعرت بنبض إنغريد. لقد كانت على قيد الحياة، وإنما فاقدة وعيها فحسب.

صاحت في الرجل: «اتصل بالإسعاف!».

بعد ذلك صمتت. تحرّك إيريك، فهرعت إلى جانبه.

قال إيريك بضعف: «كيت، هل أنتِ بخير؟».

أومأت كيت والدموع تنهمر من عينيها.

«وأمي؟».

«فاقدة وعيها».

قاطع الرجل الذي كان يقف على مسافة قصيرة محادثتهما.

«سآخذك إلى المستشفى. سيكون هذا أسرع من انتظار الإسعاف. لقد اتصلت بإدارة المطافئ، ولكن لسوء الحظ ليس هناك ما يمكن فعله لإنقاذ المنزل الآن».

أومأت كيت ونهضت. ساعدهما الرجل على الصعود إلى المقعد الخلفي لشاحنة صغيرة، ثم حمل إنغريد إلى مؤخر السيارة، وفتح الكرسي الخلفي كي يتيح لها التمدد مع ثني ساقيها.

تحركت السيارة بعيداً، متجاوزة مجموعة من الأشخاص المصدومين الذين تجمعوا ليشاهدوا ألسنة اللهب الطويلة وهي تلتهم المنزل.

مال إيريك برأسه على مسند المقعد وهو منهك القوى وقال: «أريد ماءً».

أخذ الرجل الذي يتولى القيادة قارورة مياه معدنية عن حاملة الأكواب الأمامية وأعطاه إياها، فرفعتها كيت إلى شفتيه.

«ماذا جرى؟». سأل إيريك وهو يتحدث بصعوبة.

«سنتحدث في المستشفى. من الأفضل أن ترتاح الآن فقط».

فجأة، أمسك إيريك بمسند الذراع واعتدل جالساً وهو يقول: «أرتاح! بحوزتهم قنبلة... قنبلة قذرة».

فنظر إليه السائق عبر مرآة الرؤية الخلفية وسأله: «ماذا قلت؟».

في تلك اللحظة، لاحظت كيت شيئاً لم تلاحظه من قبل، كانت لكنة

الرجل أميركية.

شعر إيريك بألم في رأسه غير أنه تابع كلامه: «يتعين علينا الاتصال بالشرطة». قال ذلك بتأكيد أكبر. «إن بحوزة الإرهابيين كرسياً كهربائياً متحركاً، وأعتقد أن القنبلة مزروعة بداخله... أو في السيارة، في شاحنة لونها أخضر داكن».

«ما طرازها؟». سأل الرجل وهو ينظر إلى إيريك عبر المرآة بحذر.

«لا أدري. ربما هي من طراز فوكسهول».

رفع الرجل إحدى يديه عن عجلة القيادة، وأخرج هاتفاً، وضغط زراً واحداً.

«وفقاً للسيد ويليامز، القنبلة مزروعة داخل كرسي كهربائي متحرك، أو في مركبة لونها أخضر داكن تشبه الشاحنة».

نظر كل من إيريك وكيت إلى بعضهما بدهشة. من يكون هذا الرجل؟ وكيف عرف اسم إيريك؟

«أين أنت؟». واصل الرجل حديثه عبر الهاتف.

«في المركز التابع لشرطة سكوتلاند يارد». قال الصوت القادم من الناحية الأخرى، والذي كان مسموعاً وسط الهدوء الذي يسود السيارة. «أي نوع من الكراسي المتحركة؟».

استدار السائق نحو إيريك وكرر السؤال.

«عنابي اللون». قال إيريك وهو لا يقوى على التحقق منه أو مجادلته. فالأهم من كل شيء آخر الآن هو أن يسرعوا ليتمكنوا من العثور على القنبلة في الوقت المناسب؛ بصرف النظر عمن يكون هذا الرجل.

نظرت إليه كيت والخوف بادٍ في عينيها، وبدأ إيريك يشعر بالهلع أيضاً. فأياً كان هذا الرجل، فمن المؤكد أنه لم يكن ماراً أمام منزل إنغريد صدفة؛ فقد عرف على الفور ما يتحدث عنه إيريك. وقد حاول عميل للاستخبارات الأميركية أن يقتل إنغريد.

«هل تظن أنه قد أتى إلى المنزل للبحث عن زميله؟». همست كيت في

أذن إيريك، وتابعت: «ولهذا السبب لم يكف عن السؤال عما إذا كان ثمة شخص آخر في المنزل».

«هل لدى الشخص الجالس على الكرسي المتحرك أي صفات مميزة؟». سأل الصوت القادم من الهاتف.

«إنه ذو شعر أسود ومجعّد». قال إيريك في شك وهو يفكّر في سؤال كيت.

«هل ثمة أي شيء غير عادي غير ذلك؟».

«لا أدري. لقد رأيته للحظة فقط».

«والشاحنة، هل كُتب أي شيء على جانبيها؟».

«لقد كانت متوقفة في مرأب، ولم أرَ جانبيها. كان ثمة نص مكتوب باللون الأبيض على ممتص الصدمات الخلفي».

«أحضر السيد ويليامز إلى هنا بسرعة».

بعد أن أعطى برانسون هذا الأمر، أنهى ديفيد ستون الاتصال. ربما يكون ويليامز الآن الشخص الوحيد من الناحية النظرية الذي لديه علم بأمر الإرهابيين. كان ذلك بمثابة البحث في كومة من القش، لكنه أفضل من لا شيء.

«التقطت إحدى كاميرات المراقبة كرسياً كهربائياً متحركاً في الجانب الشرقي من ميدان ليستر. وإحدى الدوريات في طريقها إلى هناك للتحقق من الأمر».

مشى ستون إلى حائط شاشات المراقبة في مركز الإعداد، حيث تجمّع خبراء في مكافحة الإرهاب من وحدة SO15.

«رقم 47». قال أحدهم مشيراً إلى إحدى الشاشات على الجهة اليمنى.

نظر ستون إلى الفيديو الملتقط من الأعلى. في النصف الأيمن من الصورة، كان هناك كشك هاتف أحمر اللون وُضع لإبهار السياح، ويبرز من خلف أحد أركان الكشك كرسي كهربائي متحرك شاغر لونه أحمر داكن.

«هل يمكنك عرض صورة سابقة؟».

«لحظة واحدة».

حدق ستون إلى الشاشة، فيما بدأ الشريط الزمني الظاهر أسفلها بالعد بشكل عكسي. وسرعان ما ظهر رجل جالس على الكرسي في الإرجاع السريع للصورة.

«تقدّم إلى الأمام ببطء، إلى اللحظة التي غادر فيها».

تسارعت دقات قلب ستون حين رأى الرجل ذا الشعر الداكن الذي يجلس على الكرسي المتحرك وهو يرفع البطانية عن حجره وينهض واقفاً، ثم يضع قصاصة ورق على كرسي المقعد ويسير مبتعداً. كانت مشيته غريبة، لكنه لم يبدُ وكأنه بحاجة إلى كرسي متحرك.

قال أحد الخبراء: «ستصل أقرب دورية إلى هناك على الفور».

فقال ستون من دون تردد: «قوموا بإخلاء المنطقة، واستدعوا وحدة تفكيك المتفجرات».

(57)

تشبثت كيت بحافة مقعدها بمفاصل شاحبة. كانت السيارة تسير بسرعة في شارع ميل باتجاه مركز كوبام وشارع بورتسموث حيث يقع المستشفى.

قالت لإيريك: «لقد قرروا أخيراً أنك ذو فائدة لهم».

«لا أعتقد أنني سأكون بهذه الفائدة».

استدار إيريك كي ينظر إلى إنغريد الممددة في الخلف. كانت تصدر ضجيجاً، فانتقلت كيت إلى الخلف وعدّلت من وضعية إنغريد. لم تستطع طرد ما رأته في الخزانة من تفكيرها. هل تخيلت الأمر؟ في خضم كل هذا الارتباك والفوضى، هل كانت ترى أشياء لا وجود لها؟

ربما كان من الأفضل الاعتقاد بذلك. فأياً كان ذلك الذي رأته، فقد تم تدميره الآن بفعل الحريق. ولن تطلع إيريك على الأمر تحت أي ظرف؛ مطلقاً.

قاد برانسون آل ويليامز والسيدة العجوز التي لم تكن قد استردت وعيها بشكل كامل بسرعة جنونية، وهو يتحدث عبر الهاتف طوال الوقت.

«يا إلهي!». قال ستون بذهول من الجانب الآخر من الخط. «لقد فعلوها... لقد فعلها أولئك الحمقى، وفي قلب لندن. ثمة قنبلة إشعاعية مخبأة في كرسي متحرك في قلب ميدان ليستر، وقد نزعوا فتيلها للتو. يبدو أنها كانت معدة من المواد نفسها المأخوذة من كيس لونسديل، لكنهم أعادوا بناءها. بكلمات أخرى، ربما يكون بحوزتهم شيء ما في حقائب الظهر الخاصة بهم».

أدرك برانسون ما يعنيه ستون؛ فقد علمته الخبرة أن الإرهابيين– بدون استثناء تقريباً– يخططون لتفجيرين على الأقل.

وصل إلى تقاطع الطرق في شارع بورتسموث بأقصى سرعة. تحرّك آل ويليامز على مقعديهما، ومالا نحو السيدة العجوز الممددة على المقعد الخلفي. أسرع برانسون في عبور الشارع A3، وتوجّه إلى لندن، ولم يسلك

المنعطف الأيمن الذي يقود إلى المستشفى.

«ماذا يجري؟ لمَ لم تنعطف؟». صاح ويليامز وقد أصبح صوته أكثر ثباتاً الآن. «أمي تحتاج إلى طبيب!».

«لدينا مسائل أكثر إلحاحاً يتعيّن علينا الاهتمام بها». قال برانسون، ثم نظر إلى المرآة، ورأى الزوجين وهما يتبادلان النظرات باستياء.

لقد كان لديهما المزيد من الأسباب كي يشعروا بالاستياء؛ أكثر بكثير مما كانا يظنان.

قاد سعيد الشاحنة عبر شارع هورس غاردز الذي يتّجه جنوباً بموازاة الحافة الشرقية لمتنزه سانت جيمس، ونظر إلى ساعته بترقب. كان من المقرر أن تنفجر القنبلة المزروعة في ميدان ليستر في أية لحظة.

وكان الجهاز الموجود في مؤخر الشاحنة قد تمّ ضبط توقيت انفجاره بعد ست عشرة دقيقة.

لم يرغب بأن يجعل نفسه مثيراً للشبهات بالنظر إلى الأنحاء بشكل غير ضروري. لكنه رأى البوابات السوداء المتينة والمثبتة على الجانب الغربي من داوننغ ستريت وهي تغلق، والحراس الذين يحملون أسلحة رشاشة ويقفون أمامها. وعلى يمينه، كان ثمة عدد كبير من الناس المتجمعين حول بركة في المتنزه، وكان العديدون منهم يدفعون عربات أطفال. لم تكن هذه المنطقة تمثّل فقط مركز حكومة الدولة، بل كانت تبعد أيضاً حوالى ثمانمئة متر عن قصر باكنغهام الذي كان يقع بالضبط في الجانب الآخر من المتنزه.

حدّق سعيد إلى الشارع المواجه لوزارة المالية، والذي يقع على بعد مئتي متر؛ حيث كان يفترض به ترك السيارة. وبينما كان يتقدم إلى الأمام بسرعة طبيعية، أدرك أنه من الممكن أن يُشاهد من قبل العديد من كاميرات المراقبة.

كما جرت العادة في الماضي، كانت ثمة سيارة أجرة متوقفة هناك، وليس بعيداً عنها كانت هناك سيارة شرطة. شعر سعيد بالارتياح؛ إذ كان السيناريو الأسوأ هو أن يرى مركبة خضراء داكنة تابعة لقسم المتنزهات، أي نسخة عن

تلك التي كان يقودها. فلو كانت هناك واحدة كان سيضطر إلى المضي إلى الموقع البديل الواقع في الجانب الجنوبي من بريدكيج واك، لكن ذلك سيكون بعيداً جداً عن وايتهول.

شغّل إشارة الانعطاف وأبطأ من سرعته. كان ثمة سائحان يابانيان يصعدان إلى سيارة الأجرة. وقف سعيد خلفهما وترك المحرك يعمل، ومال إلى الأسفل لإخراج بعض الأوراق من صندوق التابلوه والتظاهر بتصفحها. كان قد اختلس نظرة إلى الأغراض المشابهة الموجودة في شاحنات خدمات الصيانة البيئية الحقيقية، وبعثر أغراضاً في شاحنته كتلك التي رآها في الشاحنات الأخرى؛ زجاجة مياه وأكياس رقائق بطاطا فارغة على مقعد الركاب، وخريطة بالية على رف السيارة.

كان من الأفضل الانتظار وضبط المؤقت في هذه اللحظة، لكن محاولة القيام بذلك في الشارع ستكون مخاطرة. كما كانت هناك ثلاث كاميرات للمراقبة مثبتة على داعمة إلى جانبه بالضبط.

أغلقت أبواب سيارة الأجرة التي تقف أمامه، وأسرع السائق مبتعداً. كان بإمكانه أن يرى من دون أي عائق سيارة الشرطة الفارغة والمتوقفة على بعد ثلاثين قدماً من حيث يقف، وقد بدا الشريط ذو اللونين الأحمر والأصفر لامعاً في ظلام المساء الغائم.

بعد أن جلس للحظات قليلة وهو يتصفح الأوراق، التقط سعيد حقيبة الأدوات من المساحة الفارغة أمام مقعد الركاب، وترجّل من السيارة، وترك المحرك يعمل.

جالساً على المقعد الخلفي في السيارة المسرعة، شعر إيريك بكيت وهي تمسك بيده. كان السائق يتجاوز السيارات الأخرى فيما المصابيح الأمامية العالية تومض؛ متجاهلاً كل قواعد الطريق، ومارّاً بسرعة رغم الضوء الأحمر، ومطلقاً بوق سيارته. تحركت إنغريد على المقعد الخلفي، فقد بدأت تستفيق أخيراً.

طلب إيريك من السائق أن يأخذهم إلى المستشفى، لكنه تجاوز شارع كوبام مسرعاً، ومرّ عبر واندسوورث وهامرسميث وكنسنغتون متجهاً إلى قلب لندن، وذلك من دون أن ينطق بكلمة.

«لا بدّ أنه تابع للمنظمة الأميركية نفسها التي كان الرجل الذي حاول أن يقتل والدتك تابعاً لها». همست كيت بهدوء غير متوقع، لكن عينيها أظهرتا خوفها. لقد كان فخوراً بزوجته بشكل لا يصدق، فالعديد من الناس كانوا سيصابون بحالة هيستيريا منذ فترة طويلة لو كانوا مكانها.

نظر السائق إليهما عبر المرآة، ولكنه لم يأتِ بأي رد فعل عدا الرد على هاتفه؛ وذلك على الرغم من السرعة الكبيرة التي كان يقود بها، واستمع للحظة. كان الأمر مثيراً للقلق بشدة، فقد بدا وكأنه ما عاد يكترث لما يقولانه أو يفعلانه. وعندما أنهى المكالمة، ضغط على المكابح بشدة، وانعطف بعنف شديد إلى اليسار، لدرجة أن رأس إيريك ارتطم بالنافذة بعنف.

«أصغِ إليّ بتركيز». صاح السائق مخاطباً إيريك وهو يزيد من سرعته وتابع: «ثمة شاحنة خضراء بجوار متنزه سانت جيمس؛ مباشرة بالقرب من داوننغ ستريت. وهي تابعة لشركة صيانة المتنزهات، التابعة بدورها لخدمات الصيانة البيئية. أهذا ما رأيته مكتوباً على شاحنة الإرهابيين؟».

«ربما تكون هي».

وضع الأميركي يده على بوق السيارة مجدداً وانعطف يساراً؛ فبعد مئات قليلة من الأمتار على الجهة اليمنى، يقع جسر ويستمنستر. وعندما شاهد حركة المرور متوقفة، انحرف فجأة وصعد على الرصيف. «يفترض بنا أن نتمكن من رؤيتها عند تقاطع الطرق التالي، الواقع على الجهة اليمنى. إن وحدة تفكيك المتفجرات في طريقها...»

وضغط على المكابح بعنف؛ إذ كانت هناك سيارة شرطة لا تحمل أي علامات تقف في الشارع أمامهم، وقد ومض ضوء أزرق على سطحها. فتح الأميركي نافذته، وأظهر بطاقة رقائقية لضابط مسلح يرتدي ملابس مدنية ويضع شارة تبيّن أنه من الشرطة على ذراعه.

«لدينا أوامر من الحكومة المركزية بتحديد المركبة المشتبه بها».

«أوقف سيارتك في أول مكان شاغر تمر به في المتنزه، وستجد الشاحنة هناك. وبعد قيامك بمهمتك، اخرج من هناك بأقصى سرعة ممكنة. فلدينا أوامر بإخلاء محيط من الفئة الخامسة قبل وصول فرقة تفكيك المتفجرات».

«لا تقلق. لن نبقى عشر ثوانٍ أكثر مما نحتاج». قال الأميركي بنبرة تأكيد وهو يضغط على دواسة البنزين.

امتزج صوت محرك السيارة مع الضجة التي يحدثها تردد صدى مروحية قادمة من جهة بنايات جميلة ومزخرفة ومشيدة من الطوب الأبيض. وارتطم كل من إيريك وكيت ببعضهما بينما كانت السيارة تميل للنزول من فوق الرصيف وللعودة إلى الشارع.

«توقف! لا تقترب أكثر!». صاح شخص ما عبر مكبر الصوت، لكن الأميركي واصل السير بسرعة.

كانت المنطقة المطوقة مهجورة بشكل مخيف. فلم تكن هناك سيارة واحدة تتحرك على السطح الأحمر الواسع لشارع هورس غاردز، وكانت الأرصفة والطرق المؤدية إلى المنطقة الخاصة بالمتنزه خالية تماماً من الأشخاص. وقد أتت الحركة الوحيدة من النفايات المتبعثرة بسبب المروحية التي حطت خلفهم.

بالكاد لاحظ إيريك هدير المروحية الذي يصم الآذان، فقد كان اهتمامه كله منصباً على الشاحنة الخضراء الداكنة المتوقفة أمام وزارة المالية.

توقف الأميركي وأشار نحو الشاحنة. «أهي الشاحنة التي رأيتها؟ تلك الشاحنة الخضراء الداكنة».

«يمكنني رؤيتها، ولكن ليس بشكل واضح تماماً».

وفتح إيريك باب السيارة. كان هدير المروحية الذي يصل إلى أرض الشارع يهزّ جسده بأكمله.

ترجّل من السيارة وعيناه مثبتتان على الشاحنة الخضراء التي كان محركها لا يزال يعمل. وكان بوسعه رؤية مؤخرها فقط.

«توقف عندك!». صاح الأميركي وهو يترجل من السيارة أيضاً.

تطايرت الرمال، ودخلت عيني إيريك إثر الريح العنيفة التي هبت بسبب المروحية. خطا بحذر بضع خطوات وشعره يتطاير وعيناه ملتهبتان. «إنها الشاحنة نفسها! أو النوع نفسه على أي حال».

شق ديفيد ستون طريقه مع بقية المجموعة إلى خارج غرفة المؤتمرات التابعة لمبنى رئاسة الوزراء. كان بوسعه سماع صافرات الإنذار وهدير المروحيات في الخارج. وفي شارع هورس غاردز المجاور لمتنزه سانت جيمس، المجاور مباشرة لدوانغ ستريت، تمّ تحديد شاحنة مشتبه بها، وكانت وحدة تفكيك المتفجرات في طريقها إلى المكان برفقة الروبوتات الخاصة بها. ولأنها كانت قريبة جداً، تعيّن إخلاء الحي على الفور.

«أسرعوا، رجاءً!». صاح محقق من شرطة سكوتلاند يارد يرتدي ملابس مدنية من عند الباب وهو يلوّح لهم، فهرع ستون برفقة الحشد نحو الطوق الأمني الضيق.

«لقد سار الأمر على نحو سيئ للغاية». قالت ويلر وهي تلهث.

لم يعرف ستون كيف يرد.

نظر إيريك إلى الرجل الذي كان يرتدي بذلة من قطعة واحدة، والذي خرج من باب المروحية المنزلق، وشعره يتطاير بقوة بسبب الرياح. بدأ دوران مروحية الهليكوبتر يتباطأ أخيراً وخفت صوتها. وقد حمل الطيار خوذة ثقيلة وقناع وجه في يده.

اندفع الأميركي نحو الطيار وصاح: «يؤكّد شاهدنا أن هذه هي الشاحنة نفسها التي رآها في المكان الذي يسكن فيه الإرهابيون، أو على الأقل، إنها من النوع نفسه».

«حسناً. الآن، ارحلوا من هنا».

استدار إيريك، ثم توقف عندما رأى أمه تترجل من السيارة، وكانت هناك

دماء على خدها، وجسدها النحيل يرتعش. مالت على باب السيارة وهي تلهث.

«هل تم استخدام اليورانيوم المخبأ في ألمانيا في تصنيع قنبلة؟». سألت بصوت كان واضحاً وقوياً بشكل مدهش.

فأجابها إيريك: «يبدو الأمر كذلك بالتأكيد».

وأراد أن يضيف: هذا هو إرث أبي. لكنه امتنع عن ذلك؛ غير أن إنغريد كانت تعرف ذلك بشكل جيد للغاية.

«اصعدا إلى السيارة الآن!». صاح الأميركي.

أنـزل رجال مجهزون بالأسـلحة من وحـدة تفكيك المتفجرات روبوتاً ذا عجلات مخصصاً لتفكيك المتفجرات على منحدر من المروحية. كان قائدهم الـذي نـزل أولاً قـد ارتـدى خوذتـه، ووضع قنـاع الأوكسـجين، وحمل الدرع الشبكي أمام وجهه.

«أخلوا المكان!». أصدر أمراً عبر الميكروفون المثبت على خوذته، والذي كان ملحقاً بمكبر صوت مثبت على صدره، وتابع: «قد ينفجر هذا الشيء في أية لحظة».

«أعتقد أنكم جميعاً تدركون ما سيحدث إذا انفجرت قنبلة إشعاعية؟». سـألت إنغريد وهي تقف منتصبة وتتحدث بسـرعة وبشـكل رسـمي إلى قائد الوحـدة. «أفتـرض أنكم تدركون التسـمم الذي سـيحصل، وبالأخص التسـمم الجيني الذي سيحدثه استنشاق نظائر U-235، وتأثير ذلك على خلايا الحمض النووي...»

«اصمتـي واصعـدي إلى السـيارة!». صاح الأميركـي بغضب وبوجه أحمر اللون.

هل فقدت عقلها؟! هل تدرك خطورة الموقف؟ جذبها إيريك من ذراعها. «أمي، اصعدي إلى السيارة الآن».

غير أنها واصلت حديثها وهي تبعد قبضة إيريك عن ذراعها بعنف: «يجب وضع القنبلة في مكان مغطى. ويتعين نقلها إلى داخل بناية أو مرأب سيارات أو أي مـكان مغلـق؛ علـى الأقـل للحد جزئياً من انتشـار غبار اليورانيوم الذي

سينتج عن الانفجار».

«إلى السيارة!». صاح الأميركي، وصدم إيريك حين رآه يصوّب سلاحه نحوها. «الآن!».

«اذهب أنت. أما أنا فسأقود الشاحنة التي تحتوي على القنبلة إلى الداخل». قالت إنغريد بهدوء، واستدارت للسير نحو الشاحنة الخضراء، فحدق إليها إيريك وهو عاجز عن الكلام؛ تماماً كما فعل الباقون.

ثم اقترب الأميركي منها وقال: «عودي إلى هنا أيتها الخرقاء اللعينة، وإلا أرديتكِ!».

وقف قائد وحدة تفكيك المتفجرات بلا حراك، ورأى إيريك كيف كان وجهه جاداً من خلف القناع الشبكي، ثم قال: «إنها محقة». وتابع وهو يستدير للنظر إلى إيريك: «أهذه أمك؟».

«أجل».

«كيف لها أن تعرف عن هذه الأشياء؟».

«إنها عالمة. وهي خبيرة في البيولوجيا الإشعاعية». أجاب إيريك وهو يكاد يختنق، وقد غلبته عاصفة من المشاعر بينما كان يراقبها وهي تسير مبتعدة عنه.

نظر خبير المتفجرات إلى الأميركي وقال: «ألم تسمع ما قلته؟ كفّ عن التلويح بالسلاح. إنها محقة، ولكنْ لا يمكنني أن أطلب من أي من رجالي الجلوس خلف المقود. دعها تذهب، أو اذهب أنت بنفسك».

فأخفض عميل الاستخبارات الأميركية سلاحه مندهشاً.

استدار قائد وحدة تفكيك المتفجرات نحو إنغريد وصاح: «سيّدتي، سوف أفسح لكِ طريقاً إلى مرأب السيارات الخاص بطاقم مركز كوين إليزابيث للمؤتمرات! انعطفي يساراً، ثم اسلكي المنعطف الأيمن التالي. إذا كان الحاجز ينحدر إلى أسفل، اعبريه وواصلي السير إلى أبعد مكان يمكنكِ بلوغه! سنجلب الروبوت إلى هناك».

استدارت كي تنظر إلى إيريك، ورفعت يدها وقد ارتسمت ابتسامة صادقة

على وجهها.

ابتسامة.

حاول إيريك أن يغالب دموعه لكنه فشل.

«سنبقي أمك بأمان، أعدك». قال قائد وحدة تفكيك المتفجرات وهو بالكاد يصدق ذلك. «الآن، يجب إخلاء المنطقة تماماً. غادروا رجاءً».

أمسكت كيت بذراع إيريك وأدخلته إلى السيارة، فقاد الأميركي السيارة فوراً وانعطف بعنف. عندها، استدار إيريك كي ينظر من النافذة الخلفية.

مشت أمه برأس مرفوع متجهة إلى الشاحنة الخضراء، وفتحت الباب من دون تردد وصعدت إليها. ولم يعد بإمكانه أن يراها بعد أن انعطف الأميركي بالسيارة.

«إنغريد تخوض مخاطرة مريعة». همست كيت برعب.

فصمت إيريك للحظة ثم قال: «إنها لا تشعر بأنها تخوض مخاطرة، فقد اتخذت قرارها».

مشى ستون برفقة بقية أعضاء لجنة مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء إلى المنطقة المطوقة من داوننغ ستريت. ومن خلف المبنى، تردد صدى صوت صفارات الإنذار غير المتناغم وهدير صوت المروحيات المزعج.

أمام الباب، كانت ثمة حافلة صغيرة مثبت عليها درع رمادي باهت تنتظر، وتحيط بها سيارات الشرطة والدراجات النارية من الأمام والخلف، وأضواؤها الزرقاء تومض. تمّ إخلاء كل المباني الحكومية الواقعة بين نهر التايمز ومتنزه سانت جيمس. ومن كانت لهم الأولوية في الإخلاء، كانوا بعيدين عن مقر الأزمة إلى خارج لندن؛ وهم رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة.

صعد ستون إلى الحافلة حيث كان اجتماع كوبرا متواصلاً من دون انقطاع. كان ثمة خط تواصل مباشر من الحافلة إلى مقر قيادة شرطة متروبوليتان وشرطة نيو سكوتلاند يارد، حيث يتمّ تنسيق العمليات الخاصة بأكبر الأزمات في وقت السلم في لندن.

مـال كل مـن إيريـك وكيت نحو بعضهما على المقعد الخلفي، بينما كان رجل الاستخبارات الأميركية يشق طريقه إلى المسار المطوّق من قِبَل سيارات الشرطة المحيطة باتجاه جسر وستمنستر.

سـترات واقيـة، ومدافـع رشاشـة، ودروع واقية لمعت أمـام عيني إيريك. كانت الشرطة توسـع من نطاق طوقها الأمني.

جلس إيريك يعدّ الثواني في عقله، وتساءل عن الوقت المتبقي لدى أمه لقيادة الشاحنة إلى داخل المرأب والابتعاد...

نظر إلى الخلف. كانت المباني الحكومية تبتعد عن ناظريه سريعاً.

فجأة، سُـمع صوت انفجار هائل؛ لدرجة أنه شـعر به في جسـده أكثر من سماعه إياه، وتصاعد عمود رمادي من الدخان إلى السماء الملبدة بالغيوم.

فانفلت تأوّه مكتوم من بين شفتي إيريك.

امتـزج صـوت سـيارات الإسـعاف مـع دوي صافرات شـاحنات مكافحة الحرائق. وعبر الحاجب الزجاجي الكبير، كان من الممكن رؤية متنزه سـانت جيمس على الجهة اليسرى، ومبنى وزارة الداخلية على الجهة اليمنى.

أعلـن المذيـاع: «يرجـى من كل الوحـدات الانتباه. لقد تلقينا تحذيراً يفيد بأنـه ربمـا تكـون هناك قنبلة قـذرة مزروعة. الدخول مقتصر على الأفراد الذين يرتدون بزات واقية من الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية. يرجى قياس نسبة الإشعاع في المنطقة المحيطة بالانفجار، والإبلاغ عنها على الفور».

تبادل رجال الإطفاء النظرات.

(58)

عندما اقتربوا من شارع ستوريز غيت، رأوا سحابة من الدخان والغبار تحيط بمركز كوين إليزابيث الثانية للمؤتمرات. تصاعدت أعمدة الدخان السوداء من عند المنحدر المنهار والمؤدي إلى منطقة الركن الأدنى، وكان الحاجز الأحمر والأبيض الخاص بها بعيداً عن مكانه.

احتاج ديفيد ستون إلى استجماع كامل عزيمته كي يبقى هادئاً. كان قد تمّ إخلاء مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء من كل الأعضاء. وضع على فمه وأنفه قناعاً مفلتراً امتدّ منه الحزام المطاطي حول مؤخر رأسه، ونظر عبر نافذة الحافلة نحو العرض المرعب الماثل أمامه، حيث كان ثمة دخان أسود ينتشر نحو مجلسي النواب ونهر التيمز.

انكسر الهدوء الشديد الذي ساد الحافلة بفعل دويّ صافرات إنذار الدراجات النارية التي تقود عملية الإخلاء. وبدأ الناس تدريجياً بالتحدث عبر هواتفهم، وإصدار الأوامر، والاستماع إلى التقارير الإخبارية.

أخرج ستون هاتفه واتصل ببرانسون الذي كان قد توجّه إلى منزل ستورمار عندما توقف لامبرت عن الرد على المكالمات الواردة إليه. كان برانسون قد تواصل معه من أمام المنزل المحترق، ثم من السيارة. وكانت ستورمار برفقته، فضلاً عن إيريك ويليامز وزوجته؛ وهم المدنيون الثلاثة الوحيدون الذين كانوا يعرفون الكثير عن القضية، أكثر مما يلزم.

«ميلور هنا». قال مستخدماً اسمه المزيف؛ على الرغم من أن الاتصال كان مشفراً بأعلى مستوى من الحماية. «كيف هو الوضع؟».

«أنا في السيارة برفقة آل ويليامز. لقد قادت السيدة العجوز السيارة المفخخة إلى داخل مرأب السيارات. وعلى الأرجح، لقد لقيت حتفها في الانفجار».

«أخرج الطريدة من العش، واتركه فارغاً من دون ترك أثر».
لم يصدر ستون الأمر بنبرة ليّنة.
وضع برانسون الهاتف جانباً. كانوا على الجانب الشرقي من نهر التايمز؛ في أعلى شارع جسر وستمنستر. نظر إلى مرآة الرؤية الخلفية، ورأى الزوجين يجلسان على المقعد الخلفي وهما شاحبان ويميلان على بعضهما.
«إلى أين ستأخذنا؟». سألته المرأة عندما لاحظت أنه ينظر إليهما. «يتعين علينا العودة إلى طفلينا...»
«اصمتي». قال برانسون وشغّل المذياع.
«...مضطرب وفوضوي، وفقاً لتقارير الشرطة الأولية، فقد وقع الانفجار في مرأب للسيارات. وبناءً على القراءات المأخوذة من موقع الانفجار، كانت هذه قنبلة إشعاعية، أو ما يعرف بالقنبلة القذرة...»
تظاهر برانسون بأنه يستمع إلى الأخبار، ولكنه في الواقع كان يفكّر في الأمر الواضح الذي أصدره له قائده، وقد طغت عليه مشاعر غير مريحة. لم يكن هناك أي مجال لتفسير الأمر بشكل مختلف. لقد كان من السهل إصدار أوامر كهذه، لكن تنفيذها مسألة أخرى. وبالأخص بشكل منفرد، عندما لا يكون هناك دعم.
ولكنه يفضّل أن يكون مسؤولاً عن تنفيذ هذه المهمة أكثر من أن يكون مكان ستون.

ارتدى راشد زوجاً من قفازات اللاتكس. وكان قد وضع قبعة سباحة فوق رأسه لا تسمح حتى بمرور قشرة الرأس، ناهيك عن شعر الرأس.
كان المذياع يعمل.
«...يجري إخلاء محيط كيلومتر واحد من الموقع، وهذا يشمل قصر باكنغهام، ومحطة فكتوريا، وميدان ترافالغار. إنها أكبر عملية إخلاء في زمن السلم في تاريخ لندن. كما يقومون بنصب خيام في الموقع، حيث يمكن لأولئك الذين تواجدوا على مسافة ثلاثمئة متر خلع ملابسهم ليتم رشهم بمواد

مطهرة...»

أخرجت الطابعة الصغيرة صورة لمالك مع شرح: «مالك بهرامي، خائن عمل لصالح الولايات المتحدة، وقد شارك في بناء قنبلة قذرة، وخان أبناء بلده».

كانت الرسالة مطبوعة بالفعل.

وضع راشد الصورة والرسالة في ظرف مع عنوان مكتب رويترز الواقع في كناري وارف. وكان سعيد هو من سيقوم بتسليم الرسالة.

نظر إيريك بحذر إلى السائق الذي أبطأ من سرعة السيارة وشغّل إشارة الانعطاف، وما لبثت السيارة أن انعطفت إلى داخل طريق ضيق مائل في والوورث.

«طبقاً للمعلومات التي تلقيناها للتو، ستعقد الحكومة اجتماعاً خلال ساعة في مكان سري مؤقت يقع خارج لندن...»

توقفت السيارة في فناء مستودع مهجور وقديم. كان ضجيج ضاحية وايتهول قد تحوّل إلى سكون تام.

«أي نوع من الأماكن هذا؟». سأل إيريك بنبرة شك.

«ترجّلا». أمرهما الأميركي بهدوء.

نظر إيريك إلى كيت بهلع، وشعر أن الفزع يطغى على أفكاره. ليس مجدداً، ليس وكيت هنا.

ترجّل من السيارة، ووقف إلى جانب جدار الطوب المغطى بالطحالب. كان الفناء محاطاً بأرض فارغة تنمو عليها الشجيرات، ومكدسة عليها قطع سيارات قديمة. ترجّلت كيت ووقفت إلى جانبه، وأمسكت بيده مجدداً.

وقف الأميركي إلى جانب السيارة على مسافة مترين خلفهما، وهو يبدو عصبياً، ويمسك بمسدس في يده.

تقدم إيريك خطوة وهو لا يزال يمسك بيد كيت بقوة، ودفعها أمامه لحمايتها.

«أين شريط الكاسيت؟». صوب الأميركي المسدس نحو إيريك.

لم يكن السؤال مفاجئاً له؛ لدرجة أنه استغرق لحظة واحدة فقط قبل أن يدرك أنه يشير إلى شريط الكاسيت الذي سجله والده.

«أجبني، أين شريط الكاسيت الذي سجّله والدك؟».

سعل إيريك وقد باغتته الأفكار بعنف. هل هذا الرجل من الاستخبارات الأميركية حقاً؟ ولمَ يتوق للحصول على ذاك التسجيل؟ ألأن المعلومات التي يحتويها تتعلق باليورانيوم؟

«لا أدري. إنه... في مكان ما...»

فجأة، صوّب الرجل المسدس نحو كيت وقال: «سوف تموت زوجتك خلال ثلاث ثوانٍ إذا لم تخبرني بمكانه».

أخذ إيريك نفساً عميقاً وأجاب: «أخفض سلاحك. التسجيل بحوزتي. إنه في جيبي».

بدا الرجل متشككاً.

فسأله إيريك: «هل أقوم بإخراجه؟».

«افعل ذلك برويّة، وبلا حركات سريعة».

ثبّت إيريك نظره على الرجل، وأدخل يده المرتعشة في جيب صدره.

«أعطني إياه». قال الأميركي.

أخرج إيريك التسجيل، وقدّمه للرجل الذي اقترب منه وأخذه ودسّه في جيبه بسرعة. جمدت عينا إيريك على الإصبع الضاغط على الزناد والذي بدأ بسحبه.

كان ينوي أن يقتلهما معاً.

في تلك اللحظة، ألقت كيت بنفسها على الأمريكي. وبينما كان مذهولاً بتصرفها، أطلق رصاصة من مسدسه. كانت ثمة جلبة مكتومة، لكنه لم يهاجم أياً منهما. اندفع إيريك أيضاً إلى الأمام متأرجحاً بعنف، وأمسك بالمسدس، فانطلقت منه طلقة أخرى من دون أن تصيب أحداً. جذبت كيت ذراع الرجل من الجانب، وفي اللحظة نفسها أطلق المسدس طلقة ثالثة، فأخطأت الطلقة

رأس إيريك بسنتيمترات قليلة.

لوت كيت ذراع الرجل الممسكة بالمسدس نحو السماء بكلتا يديها، لكنه هاجمها بيده الأخرى، وضربها على معدتها بعنف شديد لدرجة أنها فقدت سيطرتها. عندها، أمسك إيريك بالمسدس، وضرب الرجل على فخذه بقوة بواسطة ركبته، فيما قامت كيت بخدش وجه الرجل، وأدخلت أصابعها في مقلتي عينيه.

لكنه ظلّ متشبثاً بالمسدس، وسحب يده بعيداً بقوة. أما إيريك الذي كان لا يزال متشبثاً بالمسدس أيضاً، فقد باغتته مفاجأة أخرى؛ إذ انطلقت رصاصة أخرى.

صرخت كيت، فتيقّن إيريك من أنها أصيبت، ولكن الحقيقة اتضحت له فجأة عندما سقط الأميركي على الأرض جثة هامدة، وتحوّل جانب معطفه بسرعة إلى اللون الأحمر القاني.

ساد الصمت المطبق حولهما للحظة، ثم مال إيريك نحو المسدس الواقع على الأرض. وحينها فقط، قام الأميركي بحركة ماهرة وسريعة كالبرق؛ إذ جذب سلاحه، وقفز على قدميه، وصوّب مسدسه نحوهما مجدداً، وجانبه مغطى بالدماء، وبحث على الأرض عن تسجيل الكاسيت الذي سقط من جيبه، مبقياً السلاح مصوباً نحوهما.

حدق إيريك إليه بذهول، واقترب منه أكثر؛ على الرغم من أن السلاح مصوب نحوهما.

فلهث الرجل قائلاً: «ابقَ حيث أنت».

توقّف إيريك.

رفع الرجل السلاح نحوه، فرفع إيريك كلتا يديه إلى الأعلى، ونظر إلى إصبع الرجل التي تضغط على الزناد محاولاً أن يتقبل أن هذه آخر...

وتردد صدى صوت طلق ناري.

صرخت كيت.

كان إيريك مستعداً للإحساس بالطلقة وهي تخترق جسده، لكن الرصاصة

لم تأتِ. وعوضاً عن ذلك، تمدد الأميركي على الأرض مع ثقب في رأسه.

حدق إيريك إليه، غير قادر على تصديق عينيه. ثم استدار ببطء كي يواجه المرأب الفارغ؛ حيث أتت الطلقة. ومن بين أغصان الشجيرات المتشابكة، خرج رجل يبلغ حوالى الخمسين من العمر وهو يحمل سلاحاً في يده. تعرّف إليه إيريك فوراً، فقد كان الرجل نفسه الذي اقتحم منزل أبيه في ستوكهولم.

وقبل أن يتمكن إيريك من استيعاب الموقف، اندفعت كيت لمعانقته. نظرا معاً إلى الرجل الغريب الذي مال فوق جثة الأميركي، والتقط التسجيل الذي سقط بجانبه، ونهض واقفاً مجدداً.

ومن دون أن ينبس ببنت شفة، غادر بالطريقة نفسها التي جاء بها، مصطحباً الشريط معه. تبادل كل من إيريك وكيت النظرات لمدة طويلة.

وعندما اختفى الرجل من أمامهما، سمعا محرّك سيارة تدور. كان إيريك يهم باللحاق به، لكن كيت تشبثت بيده.

«أود رؤية نوع السيارة فحسب». قال إيريك.

«كلّا، انسَ أمرها». قالت وهي تتوسل إليه تقريباً، وتابعت: «لا نريد أن نعرف أي شيء أكثر بشأن هذا».

عانقها إيريك لفترة طويلة وعيناه مغمضتان، متجاهلاً شعوره بالدوار. وقفا في صمت وهما يصغيان إلى أنفاسهما ودقات قلبيهما. وشاهد إيريك في عقله وجه أمه وهي تسير نحو الشاحنة التي من الممكن أن تنفجر في أية لحظة، واسترجع ابتسامتها؛ ابتسامة أمه...

«هل الطفلان في خطر؟». سألت كيت فجأة، وشعر إيريك بانقباض عضلاتها. «كم يبعدان عن الانفجار؟».

«لا أعتقد أنهما في خطر. لقد سمعتِ ما قيل عبر المذياع، ولكننا سنأخذهما إلى خارج المدينة زيادة في الحيطة فقط، وللمحافظة على سلامتهما. وربما سنذهب إلى بيت هيلين في لويس».

أخرجت كيت هاتفها من جيبها وقالت: «سأتصل بهما».

أبعد إيريك شعره عن جبينه المتسخ، وسار نحو الشاحنة الصغيرة الخاصة

بالأميركي. تفقدها للتأكد من أن المفاتيح موجودة في فتحة التشغيل. وقد أثارت السيارة اهتمامه. هل هذه مركبة خاصة بعميل استخبارات أميركي؟!

قالت كيت: «لدي رسالة صوتية. لا بدّ أنها من الطفلين».

فتح إيريك صندوق التابلوه فوجده فارغاً. عندها، توجّه إلى صندوق السيارة وفتحه. فكّر للحظة، ثم فتح الغطاء الموجود أسفل صندوق السيارة. كانت ثمة حقيبة سوداء كبيرة هناك ملفوفة ببطانية. وبداخلها، كان هناك جهاز بحجم قبضة اليد لم يتمكن من تحديد استعماله، بالإضافة إلى مشغل شرائط كاسيت عادي. هل جلبه الأميركي معه فقط كي يستمع إلى التسجيل الذي بحوزة إيريك؟

فحص الجهاز الآخر، وبعد ذلك أدرك ما يكون.

إنه جهاز إزالة مغنطة؛ وهو جهاز يمكنه أن يجعل شريط التسجيل الممغنط غير قابل للتشغيل على الفور.

«هناك رسالة من محامٍ في ستوكهولم يدعى بيرغمان». قالت كيت وهي تضع الهاتف على أذنها. «كان يحاول الاتصال بك، وفي نهاية المطاف اتصل بي... إنه يريد أن يتأكد من استلامك التسجيل، وأراد أن يخبرك أنه عندما كان في الخارج بالأمس، تعرض بيته ومكتبه للسرقة، ولكن لا يبدو أن ثمة أي شيء مفقود».

أعاد إيريك الحقيبة إلى صندوق السيارة، وتساءل عن سبب ترك بيرغمان رسالة كهذه له. فما علاقة السرقة به؟

واصلت كيت كلامها: «لكنه لاحظ اليوم أن ثمة ورقة واحدة على الأقل مفقودة. فقد وصل البريد السريع، مع المعلومات بشأن الطرد الذي أرسل تسجيل رولف داخله».

أصبح إيريك مهتماً بالرسالة الآن. هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص ما بحاجة ماسة للحصول على التسجيل؟

ما كان ليصدق ذلك من قبل، ولكن الرجل كان قد ظهر للتو للحصول على التسجيل، وكان على استعداد لقتل الأميركي ليحصل عليه. كانت هذه

حقيقة لم يكن قادراً على تجاهلها. منذ متى يتبعهم ذلك الرجل؟

هل اشتمل إرث أبيه على شيء ما أكثر من ذلك...

كانت شبكة الهاتف النقال ضعيفة جداً، لكن إيريك تمكن أخيراً من الاتصال ببيرغمان في ستوكهولم.

«لقد كنت أنتظرك كي تؤكد لي استلامك الطرد الذي أرسلته». قال بيرغمان.

«آسف، فقد نسيت إخبارك بذلك. ولكن، أتيح لي الوقت لأستمع إلى جزء منه وبعد ذلك... بعد ذلك أضعته».

«أضعته! كيف؟».

«ليس لدي الوقت الكافي لأوضّح لك ذلك الآن. أود...»

«من المهم أن أعلم أنك قد استعدته».

«لماذا؟».

«لأنني قمت بحيلة صغيرة، وقد فعلتها فقط كي أنفذ آخر أمنيات موكلي. فقد كانت أوامر والدك أن أسلمك التسجيل شخصياً، وكنت كارهاً بشدة اقتراحك أن أستخدم وسيطاً؛ لأن ذلك ينطوي دوماً على قدر من المخاطرة. لذا، أعددت نسخة من التسجيل. لم أستمع إليه بكل تأكيد، وسأدمره تماماً إذا...»

«كلا! لا تدمّر ذلك الشريط تحت أي ظرف! خذه إلى صندوق خزانة آمن، وتعامل معه بحذر شديد». قال إيريك وهو يشعر بالارتياح وتابع: «أنا ممتن جداً لاتخاذك جانب الحيطة والحذر».

«هذا كله جزء من عملي».

كان طاقم العاملين في رويترز يعمل بأقصى طاقته؛ إذ كان الوضع في المدينة فوضوياً، لكن النشاط في غرفة الأخبار كان منظماً ومنضبطاً، فكانوا يجمعون المعلومات من مختلف المصادر، ويحولونها إلى تقارير إخبارية لإرسالها حول العالم.

«لقد وصل هذا للتو». قالت المحررة هيلين ماك كورماك لمساعد مدير التحرير بيتر دويل، وسلمته ورقة طُبع عليها نص وصورة.

لقد كان أمراً عادياً بعد أي محاولة اغتيال أن تصل رسائل تزعم المسؤولية عن ذلك. لكن دويل كان يعرف أن هيلين ما كانت لتزعجه بأي تفاهات. نظر إلى الصورة التي كانت تظهر وجه رجل يملأه الرعب، ويغمره وميض «الفلاش» وهو ينظر إلى الكاميرا مباشرة.

«مالك بهرامي، خائن عمل لصالح الولايات المتحدة، وقد شارك في بناء قنبلة قذرة، وخان أبناء بلده».

قرأ دويل بسرعة الرسالة التي زعمت أن الولايات المتحدة كانت قد أشرفت على بناء القنبلة. كانت نبرة الرسالة عملية وجافة تقريباً، ومن دون أي أثر لتهديدات المتعصبين المعتادة. وقد احتوت على تفاصيل دقيقة عن الانفجار.

«واضعو نظريات المؤامرة لا يضيعون أي وقت حقاً». قال دويل وهو يعيد إليها الورقة.

فقالت هيلين: «قد يكون هذا شيئاً مختلفاً».

قال دويل: «أجل، هذا ممكن. ولكن، ما الذي يمكننا فعله حيال ذلك؟ يتعين علينا الحصول على تأكيد من مصدر آخر. هل يتعين علينا الاتصال بالبيت الأبيض لنطلب منهم تأكيداً؟».

تنهدت هيلين وقالت: «سأرسلها إلى الاستخبارات العسكرية البريطانية على أي حال. إن وصف القنبلة يظهر أنه لم يُكتب من قبل أي شخص وحسب».

سار ديفيد ستون عبر بهو منزل هاوارد، حيث تم إخلاء لجنة مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء من لندن.

كان مقر الاستخبارات الأميركية في لانغلي قد ترك له طلباً من مستوى أمني عالٍ للاتصال به. فقد أرادت ليزلي كامنغز– كبيرة ضباط الاستخبارات

التكنولوجية والعلمية- التحدث إليه. كانت كامنغز قد أزعجته مرة من قبل؛ وذلك عندما علمت أنه ربما يكون هناك رجل يدعى رولف ويليامز متورط في عملية اليورانيوم.

إلا أن ستون كان قد عمل بجدية للحصول على إذن باستخدام ويليامز؛ لأن ذلك منحه فرصة فريدة لاستخدام مادة U-235 من خارج الجيش والاستخبارات.

وقد تمّ منحه الإذن أخيراً. وترك ستون انطباعاً بأنه ما من مشكلة في أن العجوز ويليامز قد يفقد حياته في نهاية العملية.

«إنك متورط حتى قمة رأسك». قالت كامنغز ما إن اتصل بها.

«شكراً على هذه المعلومة. هل ثمة سبب لهذا الاتصال؟».

«سمعت من ميريك أن لامبرت وبرانسون قد قُتلا وفقدا التسجيل». قالت وهي تبدو قلقة قليلاً؛ على الرغم من أنها تعتبر من أكثر الأشخاص برودة في القسم.

«استلمت التقرير نفسه».

«هل حصل ابن ويليامز على فرصة للاستماع إلى الشريط؟».

قال ستون: «كيف لي أن أعرف؟! حتى إنني لا أعرف موضوع هذا التسجيل بأسره».

«يتعين عليك استعادة ذلك التسجيل. وضع مراقبة إضافية على السفارة الروسية».

سألها ستون: «هل جننتم يا قوم؟ ألا تفهمون؟ لندن في فوضى عارمة. وأياً كان ما يسعى إليه الروس في كنسنغتون، فبإمكاني أن أؤكد لكِ أنه ليس لدينا رجل واحد متاح للبحث عن ذلك التسجيل، بصرف النظر عن البلد الذي ينتمي إليه».

«سنجري ترتيبات لإرسال المزيد من الناس. كما يتعين عليك معرفة ما إذا كان إيريك ويليامز قد استمع إلى التسجيل أم لا».

حاول ستون أن يسيطر على نفسه: «سيكون من الأفضل لو أنكِ استلمتِ

لحقيقة أن الروس قد استمعوا إلى الشريط بالفعل، وأنه لا طائل من تدميره الآن. لذا، ليس من المهم معرفة ما إذا كان ويليامز قد استمع إليه أم لا».

تنهدت كامنغز وردت في سخط: «هذه ليست نهاية الأمر».

صب ستون لعناته في صمت، ثم توجّه إلى غرفة الاجتماعات الكبيرة المحجوزة للجنة مكتب غرفة الإحاطة التابع لمجلس الوزراء. كان قسم التكنولوجيا والعلوم الذي تترأسه كامنغز قد قدم طلباته له في الوقت نفسه الذي تواصل فيه جاك معه من منزل ستورمار المحترق.

كانت أوامر كامنغز قد أربكته. لقد استلم إيريك ويليامز شريطاً من تسجيل والده، ولا بدّ من تدمير ذلك الشريط.

وبينما كان يسير متجهاً إلى طاولة الاجتماعات، أحس ستون بتوتر في الأجواء.

وسمع وزيراً في حكومة داوننغ ستريت يقول: «إن البيت الأبيض يحشد حلفاء لمهاجمة العراق».

(59)

جلسـت كاثرينا بلوغر على الكرسـي ذي الذراعين الخاص بها، ونظرت من دون أن تطرف بعينيها إلى شاشة التلفاز المحمول في ركن حجرتها.

كان انفجـار لنـدن لا يزال يطغـى على بث التلفزيون الحكومي الألماني، مثلما كان الحال بالنسبة إلى معظم القنوات الإخبارية الأخرى. ووقف مراسل يمسـك ميكروفونـاً فـي يـده علـى سـطح إحـدى البنايـات، ونظر مباشـرة إلى الكاميرا.

«خلفـي، علـى الجانـب الآخـر مـن نهـر التايمـز، يمكنكم رؤية مجلسـي البرلمـان اللذيـن يقعـان ضمـن المنطقـة المطوقـة. يمثـل غيـاب الأشـخاص والسيارات عن الحي بأكمله العلامة الوحيدة على الدمار الذي تسبب به انفجار القنبلة الإشعاعية قبل يومين. وفي مؤتمر صحفي عقدته الحكومة خارج لندن قبـل لحظـات، علمنـا أن القراءات تشـير إلـى أن التلوث حدث فقط في موقع التفجيـر نفسـه؛ وذلـك في مرأب السـيارات الواقع تحـت الأرض، وفي البناية التي تعلوه...»

تنهدت كاثرينا بعمق، ومررت أصابعها المتيبسة عبر شعرها الذي لا يكاد يظهر له أثر.

«لو كان قد سُمح للقنبلة بالانفجار خارج المرأب، فإن منطقة وايتهول– ببناياتها التي تستضيف رئيس الوزراء والحكومة والوزارات بل وحتى مجلسي النواب– كان سـيتعين إخلاؤها لتطهيرها في عملية قد تسـتغرق سـنوات. وقد أكد المسؤولون أن السيارة كان يقودها إلى داخل المرأب مواطن تطوّع للقيام بذلك، وقد لقي حتفه بينما كان يحاول الخروج من المبنى. ولم يجرِ الكشف بعد عن هوية ذلك الشخص...»

سـمعت نقـراً حـاداً على الباب، ثم فتحت الممرضـة الباب قائلة: «لديكِ

زائر يا سيدة بلوغر».
ودخل رجل يبلغ حوالى الخمسين من عمره الغرفة، وتعابيره جدية.
إنه إيريك؛ نجل رولف.
تنهدت كاثرينا: «ها أنت ذا مجدداً».
«أتتذكرينني؟». قال الرجل وقد شعر بالارتياح، وصافحها.
«اجلس رجاءً». قالت كاثرينا وهي تومئ نحو الكرسي الموجود بجانبها.
نظر إيريك إلى التلفاز، واختفت الابتسامة عن وجهه، فأطفأته كاثرينا، ثم ساد الغرفة صمت مطبق، ما لبث إيريك أن كسره بالقول:
«لا أدري إن كنتِ قد عرفت بما حصل أم لا، لكن رولف قد مات في غوتو؛ في المكان نفسه الذي ساعد فيه على تطوير قنبلة ذرية في شبابه».
نظر إليها بحذر وهو يتحدث.
فسألته كاثرينا: «هل كان حادثاً؟ لم يعطِ البروفيسور دينر الاهتمام الكافي لوسائل السلامة. ليس طبقاً لما يقوله هانز على أي حال».
بدت خيبة الأمل على محيا إيريك.
«وماذا بشأن... إنغريد؟». سألته كاثرينا وهي تلتقط الملاحظة التي كانت قد كتبتها سابقاً.
شعر إيريك بالإحباط عندما أدرك أن بلوغر لا تزال مرتبكة كما كانت سابقاً. وكان قد أمل أن يتمكن على الأقل من التحدث إلى حبيبة والده والجاسوسة السابقة لدى الاتحاد السوفيتي.
«لقيت إنغريد حتفها في لندن قبل يومين».
فجأة، وضعت بلوغر ورقة أمامه، وقد كتبت عليها بحروف متعرجة: «إنهم يستمعون إلينا. أنا على وشك أن أسألك عن التسجيل، ولتجب بأنك لم تستمع إليه، وانسَ الأمر برمته؛ من أجلك ومن أجلي. آسفة بشأن رولف. ابتعد من هنا».
حدّق إيريك إلى قصاصة الورق بذهول.
«لطالما خاض رولف المخاطر». قالت بلوغر وهي تأخذ الورقة بعيداً.

«وكان من غير الممكن الاعتماد عليه بشكل فظيع. أنا لست بالضرورة أعاني من الخرف كما قد أبدو للآخرين. فأنا على سبيل المثال أتذكر بشكل جيد للغاية أن رولف قد أتى إلى هنا الأسبوع الماضي... وقد أخبرني أنه أعد تسجيلاً، وصية من نوع ما. فهل حصلت عليه؟».

فكر إيريك: ما الذي يجري بحق الله؟ ما الذي ما زال يجري؟

«أجل، لقد استلمته، لكنني تمكنت فقط من الاستماع إلى أوله... ثم ضاع مني».

«جيد». قالت بلوغر وقد ظهرت ابتسامة على وجهها، ولمعت عيناها بدفء نضر، وظهرت الدمامل على خديها الذابلين. «إن رولف ثرثار، وقد دفع ثمن ذلك».

ساد الصمت بينهما مجدداً. أمسكت بلوغر يد إيريك وضغطت عليها بحنان، ثم قالت: «فيك الكثير من صفات رولف. في مظهرك أقصد، لكن الابن ليس مثل أبيه... فأنت بالكاد تتحدث».

قال إيريك: «كانت رؤيتكِ أمراً لطيفاً. يتعيّن عليّ الذهاب الآن. سأتوجه إلى ستوكهولم للترتيب للجنازة. الوداع يا سيدة بلوغر».

«الوداع يا إيريك».

توقف عند الباب وقال: «آمل أن تكتبي مذكراتك، فأنا أود قراءتها أكثر مما تتصورين...»

«اذهب رجاءً». قالت بلوغر بجفاء.

أغلق إيريك الباب خلفه، وسار عبر الرواق المؤدي إلى البهو. إذاً، بلوغر لم تكن مصابة بالخرف. لم تكن مصابة بالخرف مطلقاً. إذاً، من الذي يتنصت عليها؟

انفتح باب أمامه، فتوقف إيريك فزعاً، وحدق إلى الرجل الذي ظهر أمامه.

لقد كان الرجل الذي اقتحم منزل أبيه في ستوكهولم، وهو الرجل نفسه الذي أردى الأميركي الذي كان يهدده هو وكيت في لندن.

وقفا في مواجهة بعضهما. لم يكن إيريك يشعر بالخوف منه الآن، بل

على العكس تماماً.

قال إيريك بهدوء: «لقد أنقذت حياتي، لكنك أخذت النسخة الوحيدة من وصية أبٍ إلى ابنه».

«أعرف أنه موجّه إليك». قال الرجل بلغة إنجليزية ولكنة روسية. «ولكنه بشكل ما أصبح ملكي الآن أيضاً».

أمسك الرجل بيده التي كان إيريك قد قبضها وهو يشعر بالارتباك.

كانت قبضته محكمة ودافئة، ثم استدار وعاد إلى الغرفة التي كان قد خرج منها، وانغلق الباب خلفه.

وقف إيريك هناك، وصدى كلمات الرجل لا يزال يتردد في أذنيه.

لكنه بشكل ما أصبح ملكي الآن أيضاً.

شعر إيريك بالارتباك من مظهر الرجل أكثر من شعوره بالارتباك مما قاله. فمن مسافة قريبة، بدا له أن ثمة شيئاً مألوفاً بشأنه...

كان ثمة شيء بشأنه يشبه أباه، ويشبه إيريك نفسه.

شعر إيريك بالدوار، ونقر على الباب، لكنه ظل مغلقاً. حاول تحريك المقبض، لكنه كان مقفلاً.

نقر بشكل أقوى، ولكن لم يحدث شيء.

استدار إيريك واندفع نحو غرفة بلوغر وهو يطأ الأرض بقدميه بقوة غير آبه بالضجة.

«توقف». أتاه صوت من خلفه.

وظهر الرجل الروسي في الرواق مجدداً.

سارا ببطء نحو بعضهما، وتوقفا على بعد متر من بعضهما.

قال الرجل بنبرة جادة: «اذهب إلى سيارتك، وسآتي إلى هناك».

واصل إيريك سيره عبر البهو وهو يشعر بالخدر. كان قد جلس للتو خلف مقود سيارته التي استأجرها عندما صعد الروسي إلى السيارة من جانب الركاب.

قال الرجل: «أنا أندري».

حدق إليه إيريك وهو لا يقوى على تصديق أذنيه.

«غادرت أمي الولايات المتحدة متجهة إلى موسكو في مايو من العام 1956. وقد وُلدت في شهر ديسمبر. وقد عرفت دائماً حقيقة أبي».

ساد الصمت في السيارة.

«أي حقيقة؟». سأله إيريك برفق وشفتاه جافتان للغاية.

«والدتي هي كاثرينا بلوغر، ووالدي هو رولف ويليامز».

أخذ إيريك نفساً عميقاً.

فتح أندري الباب وهم بالترجل من السيارة. وبقلب يخفق بشدة، وضع إيريك يده على كتف الرجل؛ على كتف أخيه.

كانت الفكرة غامضة، ومع ذلك كانت منطقية نوعاً ما... ومريحة. وشعر بأنه أصبح هادئاً.

قال أندري: «لقد أخذت صورة أبي من منزله في ستوكهولم. ولدي واحدة أخرى، نسخة من صورة موجودة في أرشيف مديرية المخابرات الروسية. يمكنك أخذها في المقابل».

وناول إيريك صورة صغيرة بالأبيض والأسود ملتقطة بعدسات مكبرة. كانت لرجل يتراوح عمره بين الثلاثين والأربعين، ويسير في الشارع في إحدى المدن الأميركية. وقد تم التقاطها في الخمسينيات؛ بالنظر إلى طراز السيارات والملابس. وكان عليها ملصق روسي في أحد أركانها.

قال أندري: «لسوء الحظ، لن نرى بعضنا مجدداً بعد هذا اللقاء. تابع حياتك، وانسَ كل شيء رأيته وسمعته. وسيكون هذا لمصلحة الجميع يا إيريك».

ثم ترجل من السيارة وأغلق الباب. كان إيريك على وشك أن يتبعه، لكنه غيّر رأيه، وجلس يراقبه أثناء عودته إلى داخل دار المسنين.

أندري.

جلست كاثرينا على الكرسي ذي الذراعين وهي تفكر بعمق.

كانت قد قررت في لحظة ما أنها ستكره رولف بقية حياتها، لكنها لم تستطع أن تكره إيريك، بل على العكس. حتى إنها لم تتمنَّ أن يلحق أي أذى برولف، ولكن تعين عليها الاتصال بباريشنيكوف لأن البقاء في دار المسنين يكلف أموالاً، ولم تكن بحوزتها أي أموال.

التقطت ورقة التحذير التي كانت قد كتبتها من أجل إيريك. وببعض الصعوبة، سارت وألقت بها في سلة المهملات، ثم ضغطت على زر استدعاء الممرضة وذهبت للتمدد، فأتت السيدة شيلر إلى الباب.

قالت كاثرينا: «اطلبي من باريشنيكوف المجيء إلى هنا».

بعد ذلك بدقائق قليلة، أتى رجل منحني الظهر في مثل سن كاثرينا، ودخل الغرفة.

قالت كاثرينا: «خذ جهاز التنصت بعيداً».

«ليس هناك جهاز تنصت».

«لا تعبث معي يا باريشنيكوف. خذه بعيداً، فقد انتهى كل شيء الآن».

أطلق الرجل صوتاً يدل على الاحتجاج، ثم مشى نحو الطاولة المصنوعة من خشب البلوط والموجودة في ركن الغرفة، والتقط ساعة مصنوعة من البورسلين فيها فتحة على الزخارف الأمامية وخرج من الغرفة، وأغلق الباب خلفه بعنف.

ثم أرسلت كاثرينا في طلب أندري وسألته: «هل أخبرته؟».

«أجل».

«جيد. صلة الرحم أمر هام».

«أمي، لا بدّ أن أذهب؛ فأنا في انتظاري».

«اذهب في سلام». قالت كاثرينا ذلك وأغمضت عينيها بهدوء.

(60)

أشـرقت شـمس الصباح على الطابق العلوي من مقر قيادة الاسـتخبارات الروسية الذي يقع بالقرب من مطار خودنكا القديم في موسكو.

كان ثمة مشـغل شـرائط كاسـيت قد وُضع على المكتب اللامع المصنوع من خشب الماهوغاني أمام الرائد، وقد أدخل الشريط داخله بحركة متمرسة.

«هـل يتعيـن عليّ تشـغيله منذ البداية؟». سـأل العقيـد فورونين الذي كان يجلس إلى الجانب الآخر من المكتب.

«كلّا. دعنا نفترض أن إيريك ويليامز قد استمع إلى تلك النقطة».

مال العقيد إلى الخلف، وركز على الاستماع باهتمام شديد إلى التسجيل الذي تمّ جلبه من لندن بواسطة أحد الجواسيس.

كان قـد سـمع بوجـود الشـريط قبـل أسـبوع فقـط؛ وذلـك عندمـا أبلـغ باريشـنيكوف- وهـو خبيـر متقاعد في تكنولوجيا الصواريـخ- نظراءه الحاليـن عـن هـذه الحقيقة. عمل باريشـنيكوف كجاسـوس في الولايـات المتحدة إبان الحـرب البـاردة، وقـد تلقى قبل بضعة أسـابيع اتصالاً من عميلة سـابقة تعيش في دار للمسـنين في برلين تدعى كاثرينا بلوغر. كانت قد انتقلت من موسـكو عائـدة إلـى برلين الشـرقية عندما تقاعدت. وبسـبب إتقانـه اللغة الألمانية، كان نجلها يعمل في مكتب برلين الخاص بالاستخبارات الروسية.

كانت قد أخبرته أنها اسـتقبلت زائراً مفاجئاً، وهو رجل أميركي اسـتفسـر منها عن زوجها السابق هانز بلوغر ورولف ويليامز، وعن تورطهما في إخفاء كمية من اليورانيوم عند نهاية الحرب.

كانت بلوغر قد تركته يعتقد أنها مصابة بالخرف، وأنها امرأة عجوز تعيش على ذكرياتها، وذلك لأنها لم ترغب بكشف أي شيء؛ وبالأخص ليس لرجل أميركي.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، استقبلت زائراً آخر مفاجئاً؛ كان رولف ويليامز الذي كانت قد جنّدته كجاسوس في الولايات المتحدة في الخمسينيات، فقررت أن تتصرف وكأنها مصابة بالخرف أيضاً؛ ظناً منها أن ثمة صلة بين الزائرين.

ضغط الرائد على زر التشغيل ورفع مستوى الصوت، وسمع صوتاً يتحدث بلغة إنجليزية.

«آمل فحسب أن تتمكن يا إيريك من فعل شيء جيد للإنسانية بما تقوم به من عمل؛ على عكس ما فعله والداك، وأن تشعر بمسؤوليتك كعالم، حتى عندما لا يكون ذلك السبيل هو الأسهل لخوضه. لا يستطيع العالم أن يغمض عينيه عن المجتمع الذي يعيش ويعمل فيه، حتى لو كان يصل إلى حقائق علمية. أعلم أنك ستشعر بالصدمة وخيبة الأمل عند سماعك كل هذا، لكنني آمل بحق أن تتمكن يوماً من مسامحتي».

تمنى العقيد أن يكف الرجل العجوز عن الثرثرة، وأن يدخل في صلب الموضوع.

«وأخيراً، أود العودة إلى ما قصدته عندما تحدثت عن فساد القوتين العظميين. عندما قطعت علاقتي بكاثرينا والروس في صيف العام 1956، ظننت أنني وهي لن نرى بعضنا مجدداً أبداً. لقد شعرت كاثرينا بالمرارة وخيبة الأمل، وقد كنت أخشى أن يُفتضح أمري، لكن كل شيء سار كما كان من قبل فحسب.

بعد ولادتك على وجه الخصوص، ركزت على عملي بطاقة جديدة. كانت أولى الخطوات التي اتخذها الروس في غزوهم للفضاء مدهشة، وكادوا يسببون الذعر للبيت الأبيض. ثم في الخامس والعشرين من مايو من العام 1961، أعلن كنيدي عن هدفنا؛ وهو أن نهبط برجل على القمر. وهكذا، ستتاح الفرصة لفون براون وبقيتنا أخيراً لفعل شيء بخلاف تصميم الأسلحة؛ أن نفعل أخيراً ما حلمنا به طوال حياتنا».

ابتسم العقيد وهو يلامس أصابعه.

«بالإضافة إليّ، كان هناك ما يقارب أربعمئة ألف شخص يعملون بشكل مباشر أو غير مباشر على مشروعي أبولو وساترن. استقطع مشروع أبولو حوالي واحد في المئة من الناتج المحلي الإجمالي كل عام. لقد كنا تحت ضغط هائل. وما زلت أشعر بالأسف لأنني كنت بعيداً عن المنزل كثيراً عندما كنتَ طفلاً».

«مهما عملنا بجدٌّ، بدا هدفنا بعيداً جداً عن إمكانية تحقيقه. ولكنْ تدريجياً، سارت الأمور بشكل جيد بما يكفي، لدرجة أننا حقّقنا مرادنا في يوليو من العام 1969. وذلك بعد إنفاق مئة وخمسين مليار دولار، وبعد الملايين من ساعات العمل، وعشر سنوات من الجهد بذلها مجتمع بأسره. لقد مثّل ذلك أكبر دافع للنصر إبان الحرب الباردة. ولكنْ، ماذا كانت نتيجة ذلك الجهد بمصطلحات محددة؟ كانت النتيجة ثلاثمئة واثنين وثمانين كيلوغراماً من صخور القمر».

نهض العقيد عن كرسيه وهو يشعر بالانتصار. وأخيراً!

جلس إيريك خلف مكتب والده في فيلا سولسيدان، ونظر عبر النافذة إلى البلطيق والجزر المحيطة بستوكهولم.

كان محامي والدته قد اتصل به من إنجلترا. فقبل ليلة من موتها، أخبرت إنغريد المحامي بأنها تريد أن تُدفن بجوار رولف. إذ لم تكن ترغب بأن تُدفن بمفردها. لم تقل أي شيء آخر، وإنما صرّحت بهذا الطلب وحسب. عزم إيريك على احترام قرار والدته، وبدأ بإعداد الترتيبات لإعادة جثة أمه إلى ستوكهولم.

كما خطط أيضاً للانتقال إلى السويد برفقة كيت والطفلين، وذلك لقضاء إجازة لمدة عام في الجزر المحيطة بستوكهولم. كان كل من أوليفيا وإميل يشعران ببهجة كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كيت. الآن، يمكنهم البدء بالتحدث عن عيش حياة طبيعية أكثر. وسيكسبون قوتهم عبر الكتابة عن إمكانيات التكنولوجيا الوراثية ومخاطرها لعدد من الصحف؛ إلى أن يتمكنا من الالتحاق بمنظمة دوائية أو بحثية ما، والعمل على التساؤلات التي سببت

الشهرة للبحوث الوراثية، وذلك بالبحث عن طرائق لعلاج المرضى والتخفيف من معاناة البشرية.

كان إيريك قد وافق على بيع أسهمه في شركة غندو إلى أعضاء مؤسسين آخرين. وكان قد فكر في إغلاق الشركة بأسرها، ولكنْ لم يكن من الصائب أن يقوم بهذا التصرف الذي سيؤذي زملاءه في العمل وموظفيه. وبدلاً من ذلك، قرر أن يتبرع بالمال الذي سيحصل عليه من بيع أسهمه إلى جين واتش، وهي منظمة تراقب أنشطة التكنولوجيا الوراثية وأخلاقيات العمل فيها؛ بما في ذلك أنشطة غندو.

ما إن وصل إلى ستوكهولم، توجّه إيريك إلى منزل المحامي بيرغمان لأخذ النسخة المعدة من شريط والده. لكنه بشكل عام خطّط للأخذ بنصيحة أخيه غير الشقيق على محمل الجد. فقد اعتزم المضي في حياته ونسيان الأمر.

أندري.

بدا له أن والده لم يعرف مطلقاً بشأن ابنه الآخر. أم ثمة شيء في التسجيل يخص أندري؟

وبينما كان يستمع إلى التسجيل منذ البداية مجدداً، عمل إيريك على إزالة الفوضى التي لا تزال تضرب أنحاء منزل والده. فأعاد الأغراض إلى الرفوف وإلى داخل العلب والصناديق التي كانت تحتوي على متعلقات أبيه الشخصية، وهي أغراض امتلكها لسنوات. وقد أدّى لمسه تلك الأغراض ونظره إلى الصور أثناء استماعه إلى الصوت الصادر من التسجيل إلى دخوله في حالة نفسية حساسة.

وعندما وصل إلى الجزء من التسجيل الذي لم يكن قد سمعه من قبل، جلس وركز على ما كان يسمعه وشعر بالدهشة. كان والده قد ذكر سابقاً في التسجيل أن لديه شيئاً ليخبره به عن الفساد الذي يضرب صلب سياسات القوتين العظميين. أهذا ما كان يتحدث بشأنه؟ برنامج أبولو؟

واصل إيريك الاستماع وهو يجلس بلا حراك.

«هل صدّق أحد بشكل جدي أنه بعد كل هذا الجهد والمخاطرة والتضحية

التي اشتمل عليها برنامج أبولو أننا سنلقي بعينات معدنية تقدر قيمتها بأكثر من مئة وخمسين مليار دولار في أي مكان قديم، بل حتى خارج الولايات المتحدة؟! بالطبع، تظاهرنا بذلك فحسب لأسباب دعائية...»

مال إيريك ببطء مقترباً من مكبر الصوت.

«في فبراير من العام 1965، كان سلاح الجو الأميركي قد عثر بالفعل على نيزك سقط حديثاً في القطب المتجمد الجنوبي، ويبلغ وزنه أربعمئة كيلوغرام، وقد نُقل سراً إلى هانتسفيل. في الواقع، لم يعرف أحد بشأنه باستثناء الدائرة الألمانية الداخلية للعاملين في برنامج أبولو؛ لأنه كان من الممكن الوثوق بالتزامهم الصمت. فلم يكن أي من الألمان ليجرؤ على الكشف عما عرفوه، لأنهم إذا فعلوا ذلك فسيتسرب ماضيهم إلى وسائل الإعلام. لقد كانت ناسا تبتزنا بالأساس كي نلتزم الصمت».

انتقل نظر إيريك إلى مجموعة من الصور المعلقة على الجدران والتي تخص مشروع أبولو، وقد رآها بمنظور جديد.

«بعد ذلك، عندما عادت بعثة أبولو إلى الأرض، فحص علماء جيولوجيا موثوق بهم صخور القمر سراً، وقاموا بكشف مثير جداً. كان ذلك الكشف وحده سبباً كافياً لاتخاذ قرار نهائي بالاحتفاظ بالصخور للاستخدام الخاص بناسا، والجيش الأميركي، والقليل من الكيانات الأميركية الأخرى محل الثقة. حتى إن رواد الفضاء لم يعلموا أن صخور القمر الحقيقية قد تم حفظها بحذر في أقبيتنا. وقد تمّ الكشف عن بقايا النيزك التي عُثر عليها في القطب المتجمد الجنوبي للعالم؛ وذلك بعد إخضاعها لعدة حيل في خضم عملية تكسيرها. ولكنْ مما سمعته، بدا جديراً بالملاحظة أن المعادن المستخرجة من صخور القمر تشبه المعادن المستخرجة من النيزك. وفي كل الأحوال، اشتبه الروس في وجود شيء ما؛ لأنه كان بحوزتهم على الأقل مئتي غرام من العينات الأصلية المأخوذة من المسبار الذي قاموا بإرساله إلى القمر. كانت المشكلة الكبرى أن عينات الصخور ممغنطة للغاية، على الرغم من أن القمر ليس لديه حقل مغناطيسي».

تذكر إيريك أنه كان قد قرأ عن مغناطيسية صخور القمر التي ظلت لغزاً حيّر الباحثين.

«إن حقيقة أن صخور القمر كان قد تمّ استبدالها كانت ولا تزال معروفة فقط للقليل جداً من الباحثين في الدوائر الاستراتيجية في الولايات المتحدة. ولكنْ كما ذكرت، اشتبه الروس في وجود شيء ما، وأرسلوا كاثرينا في خريف العام 1971 للتحدث إلي مرة أخرى. حينها، كنا أنا وإنغريد قد انفصلنا عن بعضنا. لذا، في أعين الروس، كان جلياً أنني مؤهل للتجنيد. ولكنْ، كلما حاولوا إقناعي والضغط عليّ في نهاية المطاف، ازددت رفضاً وتشبثاً بقراري. لم أسامح كاثرينا مطلقاً على ذلك. فقد انكسرت صداقتنا، وقد بقي مصير صخور القمر طي الكتمان، ولا بدّ أن يبقى كذلك».

صدر صوت نقرتين من المسجل. نظر إيريك إلى الآلة، لكن الشريط كان يعمل بشكل طبيعي.

ثم تواصل الحديث، وقد بدا الصوت مختلفاً الآن.

«إذاً يا إيريك، سأقوم بتحديث هذا الشريط قليلاً. التاريخ الآن هو الحادي والعشرون من يوليو من العام 2002. كنت أتحدث في السابق عن صخور القمر التي جُمعت عبر مهمة أبولو، تلك الصخور التي تمّ فحصها سراً. والآن، في الوقت الذي تشعل فيه كل من الولايات المتحدة والصين وروسيا سباق الفضاء، أصبحت تلك الصخور مهمة مجدداً بسبب عمليات الفحص تلك، وذلك بطريقة جديدة...»

(61)

دوّى صوت رولف ويليامز من المسجل. كان يجلس في قاعة المؤتمرات في مقر قيادة مديرية الاستخبارات الروسية في موسكو ثلاثة ضباط وثلاثة مدنيين؛ رئيس قسم جيولوجيا خارج الأرض التابع لبرنامج الفضاء الاتحادي الروسي روكوزموس، ومدير البحوث في مؤسسة أن بي أو للطاقة، الشركة المطورة لصواريخ سويوز، ورئيس أحد أقسام شركة النفط والغاز غازبروم.

كان قائد الاجتماع العقيد فورونين سعيداً بما أنجزه. إذ كان قد اتخذ القرار الصائب عندما تمسك بالرسالة القادمة من باريشنيكوف؛ على الرغم من أن المعلومات السرية التي تلقوها من كاثرينا بلوغر كانت مبهمة. وكانت بلوغر قد أخبرتهم أن رولف ويليامز زارها في دار المسنين وكشف لها أنه قد سجّل وصية لابنه كشف فيها عن كل شيء.

كان باريشنيكوف وبلوغر قد علما أن ويليامز كان ولا يزال أحد أبرز مصادر المعلومات لدى الاستخبارات الروسية؛ وذلك لأنه كان يشتبه به في أنه أخفى– ولا يزال– معلومات هامة عن سنوات مشروع أبولو.

لذا، رتب العقيد فورونين لإرسال عملاء لتفتيش شقة ويليامز بحثاً عن التسجيل؛ تحسباً لوجوده هناك. غير أنهم لم يعثروا عليه، بل عثروا على بيانات حجز في أحد الفنادق في برلين، فضلاً عن بيانات اتصال تخص المحامي الخاص بويليامز. تمّ تفتيش غرفة ويليامز في الفندق من دون الحصول على أي نتائج، كما تمّ تفتيش غرفة إيريك ويليامز في الفندق نفسه، ولاحقاً تمّ تفتيش مكتب المحامي بيرغمان، حيث عثروا على وصل للبريد السريع يخص طرداً مرسلاً إلى إيريك ويليامز في إنجلترا.

كان من الواضح أنه بينما كان رولف ويليامز في برلين، تمّ الإيقاع به في نوع من المشاكل مجهول بالنسبة إلى فورونين، ولم يتضح قطّ للاستخبارات

الروسية التي لم تكن مهتمة إلّا بالحصول على شريط التسجيل. وتحوّل التركيز في بحثهم إلى منزل إيريك ويليامز الواقع في لندن، ولاحقاً تمّ توسيع نطاق البحث ليشمل منزل والدة إيريك ويليامز أيضاً.

ولكن، عندما وصل عميل الاستخبارات الروسية إلى منزل إنغريد، كان المنزل يحترق. غير أنه رأى إيريك ويليامز وهو يغادر المنزل برفقة زوجته وأمه، فيما أقلّهم رجل مجهول. تبعهم العميل، وذلك بما أنه لم يعد قادراً على دخول المنزل، وشهد الأحداث التي انتهت بنجاحه في الاستحواذ على التسجيل من موقف فوضوي تقريباً.

«إيريك، لن أخوض في تفاصيل هذه المسألة، لأنك لست ضليعاً في هذا المجال. ولكن النقاط الرئيسة هي كالتالي: بدأ الجيش الأميركي بحثاً سرياً عن إنشاء مفاعل انصهار في العام 1951. وقد تمّ الكشف عن جزء من البحث علناً بعد ست سنوات لاحقة. ثم بدأوا يحاولون الحصول على الوقود المناسب لتشغيل مفاعل الانصهار. وكانت المادة المرشحة الفضلى نظيراً خفيفاً لمادة الهيليوم وتسمى هيليوم-3، لكن الكمية المعدنية للنظير الموجودة على كوكب الأرض ضئيلة جداً. لذا، تعيّن عليهم تركيز جهودهم على مادتي الديوتيريوم والتريتيوم اللتين تنتجان تفاعلاً أضعف إلى حد كبير».

نظر الروس المتحلقون حول الطاولة إلى بعضهم بعضاً وأومأوا برفق، وقد بدا عليهم الترقب.

«ثم في العام 1965، لاحظوا أن بقايا النيزك المستخدم كعينات لصخور القمر قد احتوت على نظير الهيليوم-3. وقد منحهم هذا سبباً لإيلاء اهتمام خاص جداً بعينات القمر التي حملها المسبار أبولو 11، وقد كوفئوا على توقعاتهم، فقد بدا أن ثمة قدراً معتبراً من مادة الهيليوم-3 على سطح القمر، أكثر من تلك التي عُثر عليها في النيزك...»

ابتسم الرجال المجتمعون وقد بدت عليهم علامات الرضى. فتلك الجملة وحدها، وتلك الكلمات القليلة، كانت مكافأة مجزية على كل الجهد والمال اللذين أنفقا في البحث عن شريط ويليامز.

«أجرينا أبحاثاً سرية بالتعاون مع ناسا والجيش، لأنه من حيث المبدأ يمكن لمادة الهيليوم-3 أن تجعل من رحلات الفضاء الطويلة أمراً ممكناً. ولم يجرِ الكشف عن علاقة الهيليوم-3 بأبحاث تفاعل الانصهار إلى مجتمع البحوث الأوسع حتى العام 1985. وعما قريب، عندما تصبح احتياطيات النفط والغاز في العالم محل نزاع حقيقي، ستتجه كل الأنظار إلى القمر بشكل جدي. إن مصادر الهيليوم-3 الموجودة هناك توفر في الواقع مصدراً غير محدود للطاقة الآمنة والنظيفة. ولسوء الحظ، إن هذا يعني أن السباق على القمر سيبدأ باتخاذ الوتيرة نفسها التي سارت بها الحرب الباردة؛ لأن القوة العظمى الوحيدة ستكون تلك الدولة التي تسيطر على مصادر الطاقة بخلاف النفط والغاز».

لاحظ العقيد فورونين أن الصوت على التسجيل أصبح أقوى بعد أن تحدث رولف ويليامز عن هذه المسألة، كما صب المستمعون حول الطاولة تركيزهم على صوته باهتمام كبير.

«كان الرئيس بوش قد عين خبراء في مادة الهيليوم-3 في اللجنة الاستشارية التابعة لناسا. وقد تحدثت ناسا التوقعات باستبعاد روسيا من برنامج استكشاف القمر الجديد الذي يهدف إلى إنشاء قاعدة دائمة على القمر بحلول العام 2024. وقد تحدثت في الأسبوع الماضي مع زميل قديم، وعلمت أنه قد تأكد وجود شركة لوكهيد مارتن ضمن مشروع U.S He-3. وقد فسر الروس ذلك على أنه محاولة من الولايات المتحدة لاستباق الأمم الأخرى واحتكار مادة الهيليوم-3 الموجودة على سطح القمر. وهكذا، وفقاً لبرنامج الفضاء الروسي روكوزموس وشركة NPO Energy لصناعة الصواريخ، تخطط روسيا لبناء قاعدة دائمة على سطح القمر...»

نظر الأشخاص محل النقاش إلى بعضهم بعضاً وهم يدونون الملاحظات.

«وعلى عكس الأميركيين، يتحدث الروس صراحة عن أن الغرض الرئيس من مهمتهم على سطح القمر هو التنقيب عن المعادن، وخاصة معدن الهيليوم-3. وهم يتوقعون تحويله إلى نطاق الاستخدام الصناعي على الأرض بحلول العام 2025. وتدعم شركة غازبروم المشروع، تحت رعاية الكرملين.

إن أكثر نقص حاد في الطاقة ستعاني منه الصين. لذا، تخطط الصين للصعود إلى القمر بحلول العام 2020، وقد أعلن الصينيون أيضاً أن السبب الرئيس للمشروع هو الحصول على المواد الخام، وخاصة الهيليوم-3».

علم إيريك أن الشريط سينتهي في أية لحظة. لم يكن السر الذي كشف عنه والده يتعلق بالتاريخ فقط، ولكن بالوقت الحاضر أيضاً. وقد اتخذت جهود الرجال المجهولين الرامية إلى تدمير الشريط أو الحصول عليه منطقاً مخيفاً.

«إنه شيء شديد الأهمية وواعد للغاية يا إيريك. كما سترسل الهند وألمانيا أيضاً مسباراً إلى القمر للبحث عن الأماكن التي يمكن التنقيب فيها عن الهيليوم-3. إن ستة أطنان من مادة الهيليوم-3 يمكنها إنتاج كمية طاقة تكفي لإمداد الأمة البريطانية بها لمدة عام كامل. لكنّ السؤال المحوري هو كيف يتوزع الهيليوم-3 على سطح القمر. إن صخور القمر أكثر قيمة بكثير مما كنا نتصور على الإطلاق. وسيتم الثناء على حكومة الولايات المتحدة بفضل قرارها الذي اتسم ببعد النظر؛ وذلك بإبقائها صخور القمر الحقيقية تحت سيطرة الولايات المتحدة. كما أن حقيقة أن الصخور التي كان يعتقد أنها صخور القمر لم تأتِ من القمر كانت قيمة جداً في التخطيط لبرنامج روسي للصعود إلى القمر، على سبيل المثال فقط».

بينما كان إيريك يستمع إلى الشريط، سار نحو الرف الذي وضع عليه الكتب التي عثر عليها على الأرض. وبين الكتب، كان هناك كتاب يحتوي على مطبوعات.

العودة إلى القمر: استكشاف ومشروع وطاقة في استيطان الإنسان للفضاء.

قرأ إيريك الملخص بتأنٍ أكثر ممّا فعل في المرة الأخيرة. كان هاريسون اتش. (جاك) شميت آخر رائد فضاء ذهب إلى القمر، ورائد الفضاء الوحيد الذي كان عالماً، حيث كان خبيراً جيولوجياً. وكان الكتاب يتحدث عن أعماله الحالية، وعن الحصول على الهيليوم-3 من القمر. قرأ إيريك الإهداء مجدداً:

إلى رولف، لن تعود الأيام الخوالي مجدداً، لكن الأيام الجميلة الجديدة لا تزال أمامنا. جاك.

لن يتمكن والده من أن يشهد الأيام الجميلة الجديدة. أعاد إيريك الكتاب.

«ماذا أيضاً؟ سلكت طريقاً مخالفاً لناسا، وأنا أخشى رد فعل عنيفاً من كاثرينا والروس. وفي سن الرابعة والخمسين، انتهى بي المطاف في لوكهيد التي كنت قد أنجزت الكثير من العمل معها في ناسا. وبحلول نهاية السبعينيات، بدأ الأميركيون بالاهتمام أكثر فأكثر بخلفيات الباحثين الذين تمّ تجنيدهم من ألمانيا. وقد شعرت أنا وإنغريد بقلق شديد لأننا لم نرغب بأن يُفتضح أمرنا تحت أي ظرف؛ لسبب وحيد، وهو أن ذلك يعني أنك قد تقرأ عن ماضينا في نيويورك تايمز. وكنت قد تقاعدت حينها بالفعل، لذا انتقلت إلى ستوكهولم وانتقلت أمك إلى إنجلترا لتكون بالقرب منك».

«إذاً، هذه هي أهم الأمور التي أردت إخبارك بها. وبتسجيلي هذا الشريط، أكون قد خالفت وعوداً بالصمت قطعتها لطرفين؛ وكالة الفضاء الأميركية وكاثرينا. فقد وعدتها بأنني لن أخبر أحداً مطلقاً بأنها كانت جاسوسة، وقد وعدتني هي في المقابل بأنها لن تفضح أمري. كان بيننا توازن رعب متبادل، ولكنني بهذا الشريط أكون قد خالفت وعدي... ولا أعتزم فعل ذلك سراً. لقد تلقيت رسالة منها بالأمس، وأعتزم الذهاب للقائها، واسترجاع ذكرياتي عن حياتي في برلين مرة أخرى. سأخبر كاثرينا أن هذا التسجيل موجود، ولا أعتقد أنها ستشعر بالانزعاج.

وكما قلت في البداية، أطلب منك بعد انتهائك من الاستماع إلى هذا الشريط أن ترسله في ظرف مغلق إلى المحامي الخاص بك. إن الحقيقة الخاصة بحياتي يمكن تمريرها كإرث، وباستطاعة إميل وأوليفيا استلامه منك عند موتك».

اضطرب الصوت قليلاً.

«حسناً، حان وقت الوداع...» واصل حديثه بنبرة حاول عبرها أن يبدو نشيطاً.

صرّ إيريك على أسنانه، ونظر إلى خارج النافذة وعبر الشارع، حيث علت الأمواج سطح البحر.

«لقد تنعمت بحياة متنوعة، وأنت وعائلتك أثريتموها كثيراً. أعرف أن العديد من الأشياء التي وردت في هذا الشريط قد أصابتك بالصدمة... وليس أقلها ما ارتكبته أمك، ولكنّ لدي إيماناً بأنك ستفهم أفعالنا وتبعاتها. هذا كل شيء... الوداع يا إيريك». وضحك.

ابتلع إيريك لعابه، واستمع إلى حفيف الصمت الصادر من التسجيل، ثم جلس وترك أفكاره تغرق في الصوت كالبحر.

الوداع يا أبي.

الوداع يا أمي.

رحل كلاهما، وعما قريب سيتمددان في مقبرة ساندسبيرغ. لكن جيناتهما عاشت داخله، وداخل أوليفيا وإميل...

الخير والشر، وطيف حياتيهما بأكمله.

نظر إيريك إلى صورة أبيه الملتقطة سراً عن طريق الروس في أحد الشوارع الأميركية، ثم وضع الصورة جانباً، وسار نحو النافذة. اقتربت سيارة فولفو قديمة من الممر الخاص.

هرع إيريك إلى الفناء. ترجّلت كيت من السيارة وشعرها مربوط إلى الخلف بوشاح. وكان الولدان يجلسان على المقعد الخلفي، وهما يضربان بعضهما مفعمين بالطاقة والتوقعات بعد رحلتهما. كان صندوق السيارة ممتلئاً بالحقائب وصناديق الورق المقوى المربوطة بالحبال.

قاموا بنقل الصناديق.

عانقهم إيريك جميعاً بجانب السيارة لوقت أطول من المعتاد. وصدر صوت رجل من مذياع السيارة.

«سنواصل العمل على التقرير الخاص بتوابع تفجير لندن خلال لحظة. ولكن، دعونا أولاً ننتقل إلى المؤتمر الصحفي للرئيس بوش في البيت الأبيض...»

كان من الصعب الاستماع إلى الأخبار بسبب الضجة التي يحدثها الولدان، لذا صعد كل من إيريك وكيت إلى السيارة ليستمعا إلى النشرة.

«إن التفجير الذي وقع في لندن في ذكرى هجمات سبتمبر تذكير مؤلم بأن العراق هو منبع الإرهاب؛ وذلك بإرساله إرهابيين إلى جميع أنحاء العالم لارتكاب أعمال إرهابية لا توصف. وهذا دليل إضافي على دعم العراق لمنظمة القاعدة الإرهابية. إن العراق دولة فاسدة على استعداد لمهاجمة المدنيين في أوروبا والولايات المتحدة بأسلحة الدمار الشامل...»

أطفأ إيريك المذياع، فانطفأ معه سائر العالم، وانطفأ كل شيء بخلاف عائلته؛ وذلك لمدة وجيزة. نظر هو وكيت إلى بعضهما، ثم إلى الولدين، وهما يشعران بالارتياح الآن لتواجدهم مع بعضهم. كانت الجزر والبحر بانتظارهم، فضلاً عن التحديات التي ستواجههم في حياتهم الجديدة.

النهاية...

بعد تلقيه رسالة غريبة وغامضة من صديقته القديمة كاثرينا، سافر رولف العالم السابق والمشارك في تجارب التخصيب النازية على وجه السرعة وبسرية تامة إلى ألمانيا لمقابلة صديقته. وهناك، تم خطفه من قبل جهة غامضة تمكنت من إماطة اللثام عن تاريخه السري الحافل الذي سعى إلى إخفائه عن الجميع؛ ولاسيما أقرب الناس إليه، ابنه إيريك.

وإثر اختفاء رولف المفاجئ والغامض، بدأ إيريك رحلة البحث عن أبيه، واكتشف خلال ذلك حقائق سرية وصادمة غيّرت نظرته إلى والديه؛ وخاصة أمه العالمة التي اعتبرها دائماً مثاله الأعلى في الحياة، وسعى إلى الاقتداء بها، والتخصص مثلها. غير أن صدمته الكبرى كانت عندما عرف الخطة المحكمة التي نسجتها المخابرات الأميركية، والتي سعت من خلالها إلى تبرير هجوم تريد شنّه على العراق بذريعة امتلاكه أسلحة دمار شامل؛ مورّطةً بعض الأفراد ذوي الأصول العربية في مؤامرتها.

غير أن السحر ينقلب على الساحر عندما يدرك أولئك الشبان ذوو الأصول العربية أنه يتم استغلالهم، فيخططون لاستعمال اليورانيوم المخصب الذي حصلوا عليه في عمليتي تفجير مختلفتين تحصلان على الأراضي البريطانية. عندها، يصبح من الضروري تعاون الشرطة البريطانية والألمانية لإحباط مخططهم، ولا ينجحون في ذلك إلّا بمساعدة إيريك الذي اضطرته الظروف إلى خوض مغامرة خطيرة.



إيلكا ريميس (المولود في 13 ديسمبر 1962) كاتب فنلندي للروايات البوليسية والأدبية الخاصة بالشباب. ولد ريميس في لوماكي باسم بيتري بيكالا. يقول إنه يستخدم اسماً مستعاراً؛ إذ لا يريد اعتباره مؤلفاً للروايات البوليسية حصراً، وإنما يريد أن يتمكن من تأليف أنواع أخرى من الكتب في المستقبل.

يعيش ريميس في بلجيكا مع زوجته ولديه. وقد نال جائزة آداب كاليفي جانتي عام 1997، وجائزة العام من جمعية الروايات البوليسية الفنلندية عام 1999، وجائزة الآداب من مؤسسة أولفي عام 1999.

صدر للكاتب:









الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015


ISBN 978-614-01-1679-5
9 786140 116795





